ألكسندر دوماس

الفرسان الثلاثة



الترجمة الكاملة

دار الآفاق الجديدة

الكسندر دوماس

الفرسان الثلاثة

نقلها الى العربية

حبيب نحولي

الترجمة الكاملة

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت



لمحة عن المؤلف

- ولد الكسندر دوماس في بـلدة فياركوتريه Villers-Cotterets في عام ١٨٠٣ ومات في عـام ١٨٧٠ .
- انتـج عدداً كبيراً من قصص المغامرات والفروسية التي تميزت بهـا القرون الوسطى في فرنسا واوروبا .
- اشتهر بين مؤلفي القصص بسرعة انتاجـه وضخامته ، حتى ان مؤلفاته بلغت المئـة خلال خمسة عشر عاماً .

- عندما مثل امام الامبراطور نابليون الثالث راح يتباهى بان انتاجه من القصص قد زاد عن الف ومئتي قصة .
- من اروع قصصه روايات « الفرسان الثـلاثة » « وبعد مرور عشرين سنة » « والفيكونت ده براجيلون » « والكونت ده مونت كريستو » .
- نالت قصة الفرســـان الثلاثة وتتمتها « بعـــد مرور عشرين سنة » اعجاب الادباء والقصصين والقراء على اختلاف اهوائهم ونزعاتهم ...
- كتب الاديب الانكليزي ديكسون عنها يقول : « إن دوماس عندما كتب هـــذه القصة ، قد نقلها عن الحياة الواقعية التي عاشها الفارس دارتنيان في القرن السابع عشر ولقـــد عرف كيف يسبغ عليهـــا من مخيلته الخصبه سلسلة من المغامرات وحوادث الفروسية ، التي خلقت من بطل القصة شخصية فـــذة خالدة في التاريخ .
- وذات يوم وجده ابنه يذرف الدموع السخينة وهو يكتب الفصل الاخير من قصة « الفيكونت ده براجيلون » وعندما سأله عن سبب بكائه اجابه بصوت متهدج : « ان الاسى يحـــز قلبي ، لانني أكتب نهاية القصة ؛ وبنهايتها تنتهي حياة البطل بورتوس .. ولهذا تراني لا استطيع ان امسك دمعي ... »

١

في العام الذي تبدأ فيه وقائع قصتنا هـــذه ... ربيـع عام ١٦٢٥ ، كان الذعر والفوضى يعمان معظم المقاطعـات الفرنسية ، نتيجة الصراع الدامي المستمر بين حكام فرنسا ونبلائها ... حتى ان الملك نفسه كان في صراع خفي مــــع الكردينال لاستعادة سلطته المتقلصة ، وبالاضافه الى ذلك الصراع الرهيب بين سادة فرنسا ، راح السوقة وقطاع الطرق والشحاذون والهوكنوت يعتدون على المواطنين الآمنين ، فيساهمون بقسط وافر في زيادة الفوضى والاضطرابات في طول البلاد وعرضها !

وفي غمرة هذه الفوضى والاحداث الجسام المتتابعة ، ظهر في احدى قرى غاسقونية ، شاب في مقتبل العمر ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، مفتول الساعدين ، أسمر البشرة ، قوي البنية ، تظهر على محيـاه الصبوح دلائـل العزم والذكاء ، حذق صناعة السيف وركوب الجياد منذ نعومة اظفاره ، على يد امهر الفرسان واشدهم بأساً ودهاءً ، ممن رفعوا اسم مقاطعة غاسقونية عاليـاً ، وسجلوا لها صفحة مجيدة في سجلات البطولة والفروسية . ولم يكن

هذا الشاب سوى دارتنيان الابن الوحيد للفارس المغوار دارتنيان الكبير !

وفي ذات يوم من ايام الربيع الجميلة من العام نفسه ، حزم هذا الشاب أمره على مغادرة منزل والديه في غاسقونية ، قاصداً باريس مدينة المجد والمغامرات ومطمح آمال الشباب المغاوير ... آملا بالحصول على شرف الانخراط في فرقة الفرسان الشهيرة الخاصة بالملك لويس الثالث عشر . ومع ان الشاب كان وحيد والديه ، وحبهما له يقرب من العبادة ، الا ان الأب لم يعارض رغبة ابنه ، بل شجعه على تحقيقها . وربت الاب الحنون على كتف وحيده وخاطبه بلهجة حازمة قائلا :

- ارجو يا بني ان يحالفك الحظ والتوفيق هناك ، لتتمكن من الاحتفاظ بشرف اسرتك الرفيع وامجادها المتوارثة ، كما فعل ابوك في الماضي ... وبهذه المناسبة اقدم لك جوادي الاصيل فهو ما زال قوياً ونشيطاً رغم بلوغه الثالثة عشرة ، فاوصيك بان لا تبيعه ، واذا عجز وهرم ، فدعه وشأنه ليموت بسلام وكرامة تتفقان مع شيخوخته وخدماته الجيدة واذا خضت غمار المعارك على ظهره فاعتنِ به بعد كل معركة كما تعنى بخادم مخلص امين لك ، فهو بنظري افضل بكثير من بعض البشر !

وتابع السيد دارتنيان الاب عظته لابنه قائلا :

- واذا حالفك الحظ ، وتمكنت من الدخول الى البلاط الملكي والانخراط في سلك فرقة الفرسان ، فتذكر ان عليك واجباً مقدساً ، الا وهو الاحتفاظ بشرف اسرتك لكونك تحمل لقب

« فارس » ناله ابوك ، ومن قبله اجداده ، عن جدارة واستحقاق منــــذ خمسمئة عام تقريباً . واحرص على ان تكرس حسامك وساعدك للدفاع عن الكردينال والملك فقط ...

ثم تحامل الاب على نفسه ونهض من كرسيه ليقلد ابنه سيفه الطويل ، وقال له وهو يحدق فيه بشكل جمع بين الحنو والخيلاء:

واذكر يا بني ان الفتى النبيـل مثلك ، يتمكن ببسالته ، وبسالته ، فقط من ان يشق طريقه نحو الشهرة والمستقبل الزاهر . فانت الآن في مقتبل العمر ، ومن واجبـك ان تكون شجاعاً لسببين . اولاً : لانك تنتمي الى مقاطعة غاسقونية، التي اشتهرت بانجاب الفرسان الاشاوس . وثانياً : لانك ابني ! ولهذا فلا تخشَ المخاطر ، واندفع وراء المغامرات غير هياب ، واهجم على الردى يهرب منك . لقد احسنت تدريبك على حمـــل السيف واصول المبارزة وفنونها ، فاحسن انت بدورك استخـدام سيفك وفنك واحتفظ برباطة جأشك في اشد اللحظات حراجة ، تخرج من جميع المبارزات الـتي تخوضها ظافراً . فانت تملك والحمد لله ساعدين من حديد ، وقبضة من فولاذ ، وقلباً ُقدّ من صخر ، وعزيمة متقدة اتقـــاد شمس غاسقونية في شهر تموز ، فقاتل ولا تخف ، وبارز ما استطعت الى المبارزة سبيلا ... ولست اجهـــل ان المبارزة اصبحت محظورة في هذه الايام ، غير ان هـذا الحظر له بنظري قيمة مضاعفة ، اذ هو دليل واضح على شجاعة مزدوجة ، لان المبارز يتحدى خصمين معاً هما : مبارزه والقانون !

واخيراً ليس في جيبي يا بني سوى خمسة عشر جنيهاً ، اقدمها

لك لتستعين بها على شق طريقك في خضم الحياة بباريس . . بالاضافة الى جوادي الاصيل ، وسيفي الصقيل ، ونصائحي القيمة التي قدمتها لك ، ولا تنسَ يابني ان تطرق باب صديق قديم لي ، هو السيد دي تريفيل ، الذي تمكن ببضع سنين ان يصبح قائداً لفرقة الحرس الملكي ، لتسلمه هذه الرسالة . . . فلعله يأخذ بيدك ويساعدك على شق طريقك نحو المجد ، ويلحقك بفرقته ، فهو مقرّب من الملك ، كما ان الكردينال يخشى جانبه .

ثم عانق الاب دارتنيان فتاه بحنو وضمه الى صدره وباركه وطبع على وجنتيه قبلة ابوية حارة قائلاً : سر يا بني الى هدفك بحراسة الله ورعايته !

وخرج الفارس الشاب من حجرة ابيه ، لتتلقاه امه بالعناق وتضمه الى صدرها الحنون ، وهي تردد على مسمعه بين الدموع السخينة نصائحها الغالية ، وقبل ان تدعه يبدأ سفرته الى باريس ، سلمته قارورة صغيرة بداخلها بلسم اخذت تركيبه عن احدى الغجريات ، وارشدته الى كيفية استعمال هذا المركب العجيب الذي يشفي الجراح بسرعة مدهشة . وكان التأثر قد بلغ من الشاب حده الاقصى ، فلم يقو على مغالبة عواطفه المتأججة ، وعندما أكب على والدته يطبع على يدها قبلة ، كانت الدموع الغزيرة تنحدر على يد امه فتبللها .

ثم تملص دارتنيان من احضان امه واسرع يمتطي صهوة جواد والده الاصيل ، ليبدأ سفرته الطويلة الى باريس ، وكان يلتفت بين لحظة واخرى ليشير بقبعته الى والديه الحزينين اللذين وقفا على باب المنزل يلقيان نظرة الوداع على وحيدهما .

كان دارتنيان في مستهل الثامنة عشرة من عمره عندما غادر منزل والديه ، الا ان الناظر اليه ، كان يعجب بقوامه، فقد كان يبدو وهو على صهوة جواده كأنه أحد فرسان القرون الوسطى الاشداء ، فقد تدلى سيفه الصقيل الى جانبه ، وغطى رأسه بقبعة جميلة تزينها ريشة طائر على طريقة النبلاء في ذلك العصر . اما جواده فكان من الغرابة والشذوذ بحيث يستلفت نظر اقل الناس فضولاً ، اذ كان متنافر التقاطيع ،طويل العنق ، ومع ذلك لم يكن ليعوقه عن ان يقطع بفارسه ثمانيه فراسخ في اليوم.

وكان الفارس الشاب وجواده مدعاة اهتمام وفضول المارة في كل مكان مرا به ، اذ كانت ترتسم على شفاه المارة لدى رؤية الفرس الاشعث ، ابتسامة سخرية ، سرعان ما تتلاشى عند سماعهم قعقعة الحسام الصقيل المتدلي على جنب الفارس ، وتحت قوة النظرات النارية التي كان يرسلها الشاب .

ولم يكن دارتنيان يجهل انه مهما بالغ في عنايته بمظهره وتأنق في ملبسه ، فان مشهده على صهوة هذا الجواد الغريب الشكل ، على ما بينهما من تناقض ظاهر ، من شأنه ان يبعث على الضحك والسخرية ، ومع ذلك فلم يكن هذا ليمنعه من ان يظهر بمظهر العظمة وعدم المبالاة ، متغاضياً عن كل ما يراه ماساً بكرامته او مثاراً لغضبه ، اذ كان جل اهتمامه منحصراً في الوصول الى باريس باسرع ما يمكن .

كانت الشمس تميل الى المغيب ، عندما وصل فارسنا الشاب الى بلدة صغيرة تدعى « مينغ » فلوى عنان جواده الى اول نزل

صادفه في البلدة وكان اسمه : « فران مونييه » ، وبينما كان يترجل عن صهوة جواده ، حانت منه التفاتة فابصر من خلال نافذة مفتوحة في الطابق الارضي من النزل ، رجلاً تدل سيماؤه على النبل ، مديد القامة ، حسن الهندام ، يرتدي سروالا قصيراً وجوارب طويلة تصل حتى الركبتين ، وهو الزي السائد في ذلك الحين ، راح يرمقه بنظرات فضولية وهو يتحدث الى رجلين يصغيان اليه باهتمام كلي ، مما يدل على انهما من اتباعه .

وبينما كان دارتنيان يقترب من باب النزل الخارجي ، طرقت اذناه قهقهة صادرة عن الرجال الثلاثة ، فانتفض غضباً ، لانه ادرك بالبداهة انه هو المقصود ، او جواده لغرابة شكله .

وتذكر فارسنا اولى وصايا ابيه ، الا وهي الاحتكام الى السيف في مثل هذه الحالات وعدم السكوت على اية اهانة اوسخرية توجه اليه .

وحدج دارتنيان غريمه بنظرات حادة ، فألفاه في العقد الرابع من عمره ، اسود العينين ، حاد النظرات ، يتمنطق بسيف طويل تدلى الى جنبه ... فاحس بشعور غريزي ، ان هذا الرجل الذي رماه القدر في طريقه ، سيكون له اكبر الاثر في تقرير مصيره ومستقبله !..

والظاهر ان الرجل النبيل قد احس بنظرات الشاب تصوّب اليه ، فظهر الاستياء عليه ، وسرعان ما التفت الى الاثنين الواقفين بجواره ، وتلفظ بعبارة ضج لها الاثنان بقهقهة عالية ، مما زاد في حنق دارتنيان ، وتأكد من انه هو المقصود بها .. فخطا نحو

النافذة ويده على مقبض حسامه الطويل المتدلي الى جنبه وخاطب الرجل النبيل بلهجة التحدي قائلا :

– هل لك أيها السيد ان تخبرني عما يحملك على الضحك ورفيقيك ، فلعلي اشارككم هذه الغبطة ؟!

فالتفت الرجل النبيل اليه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صفراء وأجابه بشيء من الفحة وعدم الاكتراث قائلا :

– انا لا أوجه الحديث اليك ايها السيد !...

فأجابه دارتنيان بغيظ مكبوت :

– ولكن انا اوجه الكلام اليك فأجبني !..

فصعّده الرجل الغريب بنظرات فاحصة يشوبها الأستخفاف والسخرية ، وبعد لحظات انسحب من امام النافذة ، واستدار ليواجه دارتنيان وجهاً لوجه امام الباب الخارجي وبادره بقوله :

– من عادتي ان لا اضحك ايها السيد الا فيما ندر ، غير اني احرص على الاحتفاظ بحقي في الضحك عندما يطيب لي ذلك !..

فصاح دارتنيان بصوت حانق وقد انتفخت اوداجه من شدة الغضب :

– اذا جاز لك ان تسخر من جوادي فلن يمكنك ان تسخر من صاحبه ايها السيد !..

ثم ما لبث ان جرد سيفه من غمده لمواجهة خصمه الذي راح يمعن النظر باهتمام زائد في جواد دارتنيان ، غير عابيء بتصرفات الفارس وغضبه المتزايد ، ثم التفت الى تابعيه اللذين ما زالا يقفان امام نافذة المنزل وقال موجهاً كلامه اليهما :

– اجزم ان هذا الجواد كان من اكرم الجياد في الماضي البعيد .

والى هنا كان غضب دارتنيان الشاب قد بلغ اقصاه ، فخطا خطوتين نحو غريمه وسيفه مشهر بيده مهدداً ، يدعوه الى تحكيم السيف بينهما . .

ولم يكن الرجل الغريب ينتظر هـــذه المفاجأة والاصرار العنيد من قبل شاب مغرور ، فبانَ عليه التردد لحظات معدودات عندما رأى الامر ينقلب من المزاح الى الجد . . . ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه ، فاستل سيفه من غمده وحيا خصمه التحية المألوفة في المبارزة ، واستعد للنضال غير هياب وهو يتمتم بصوت خافت قائلاً :

– اراني قد وقعت على هدية حسنة ترضي ولا شك نيافته ، وهو الذي يبحث في كل مكان عن الشبان البواسل ليضمهم الى فرقة الفرسان التابعة لنيافته .

ولم يكد يفرغ من حديثه الى تابعيه حتى كان دارتنيان يسدد الى صدره طعنة صائبة من تلـــك الطعنات التي دربه والده عليها منذ نشأته ، ولو لم يقفز خصمه الى الوراء بسرعة خاطفة ليتفـادى السيف المسدد الى صدره ، لكان النصل اخترق فؤاده وقضى عليه بلحظات معدودة !

وفجأة انقض الرجلان بمساعدة صاحب النزل على دارتنيان ليحولوا دون متابعة هذه المبارزة ، وانهـالوا على الفارس الشـاب بعصيهم ومجارفهم . . وكان هذا الهجوم مفــاجأة للشاب جعلته ينصرف عن خصمه لتحاشي الضربات المنهالة عليه من الخلف بشدة

وعنف .

وتنفس الرجل النبيل الصعداء ارتياحاً ، واعاد سيفه الى غمده وراح يتتبع باهتمام زائد شجاعة الشاب وقوة احتماله ومتانة اعصابه. واخيراً كان لا بد للكثرة ان تتغلب على الشجـاعة ، فاستنفدت هذه المعركة غير المتكافئة قوى دارتنيان فوقع السيف من يده اثر ضربة عنيفة أصابت رأسه من الوراء ، طرحته ارضاً مضرجاً بدمائه فاقـــد الرشد .

وفي هذه اللحظة بالذات ، كان الجيران الفضوليون قد تراكضوا من كل جهة الى مكان الحادث ، ليشبعوا فضولهم ويشاهدوا عما تسفر عنه هذه المعركة الفريدة وخاف صاحب النزل الامين ، الفضيحة ، فاوعز الى اربعة من خدمه ان ينقلوا الشاب الجريـح الى مطبـخ الفندق لتضميد جراحه والاعتناء به . بينما عاد الرجل النبيل مع تابعيه الى داخل النزل وهو يرمق الجمـــع الذي احتشد امام بابه بنظرات حانقة وصبر نافد ، وسرعان ما استدعى صاحب النزل وسأله :

— كيف حال ذلك الشاب الأرعن ؟

فأجابه صاحب النزل بقوله :

— انه احسن حالاً ، فهو لم يصب الا باغماء بسيط اثر الضربة التي اصابت رأسه من الخلف . . .

وابدى الرجل النبيل اهتماماً ظاهراً بامر الشاب الجريح والتفت الى صاحب النزل يسأله باهتمام :

أو لم يذكر عندما استعاد صوابه شخصاً معيناً يستدل منه

على مكانته وهويته ؟

اجاب صاحب النزل :

ـ اجل يا سيدي ... لقد هددنا بالويل والثبور عندما يصل الى باريس ، وراح يردد في سورة غضبه قائلاً : « سنرى غداً ما سيكون موقف السيد تريفيل من هذه الاهانة التي لحقت باحد اتباعه المقربين » والطريف اننا عثرنا في جيبه على رسالة موجهة الى السيد دي تريفيل قائد فرسان الملك ، كما وجدنا خمسة عشر جنيهاً كان يحتفظ بها في جيبه الداخلي وهي كل ما يملك من مال .

ولم يلاحظ صاحب النزل ، لغباوته ، بريق عيني الرجل الغريب النبيل ، عندما اتى على ذكر دي تريفيل قائد فرسان الملك ، الذي راح يردد اسم دي تريفيل ، وهو يتمتم بصوت غير مسموع ببعض العبارات ... واطرق مفكراً بضع دقائق ، ثم التفت الى صاحب النزل وخاطبه بقوله :

ـ ان هذا الشاب يسبب لي بعض الازعاج ... ولكن ضميري لا يطاوعني على قتله ... أين هو الان ؟

ـ لقد تركته في حجرة امرأتي اتعنى به وتضمد جراحه .

ـ وهل ثيابه وامتعته معه ؟

ـ كلا .. لقد تركها جميعها في الطابق الارضي ، حيث نقله خدمي ، عندما كان مغشياً عليه .. وهي ماتزال هناك . ولكن اود ان اعرف يا سيدي اذا كان هذا الاحمق يسبب لك ازعاجاً فانا مستعد لـ ...

فقاطعه الرجل النبيل قائلاً :

ـ انه يزعجني حقاً . . كما انه قد يسبب متاعب لنزلاء فندقك اما انا فقد قررت الرحيل حالا . .

- هل يعني سيدي انه سيرحل عن فندقي بسبب ذلك الشاب اللعين ؟!

فحدجه النبيـــل بنظرات نارية قاسية جعلت صاحب النزل ينسحب من امامه وهو ينحني له بخضوع .

ولما اصبح الرجل الغريب وحده راح يحدث نفسه قائلا :

من الافضل ان لا تشهد « ميلادي » هذه المهزلة ، وهي لن تلبث ان تحضر الى هنا ، حسب الاتفاق ، ومن الانسب ان أمتطي صهوة جوادي واذهب الى ملاقاتها خـــارج الفنـدق .

ثم اطرق مفكراً بضع لحظات واستطرد يحدث نفسه : «بودي لو استطيع معرفة ما تحويه الرسالة التي يحملها الشاب الى السيد دي تريفيل ! »

واتجه بحركة لا شعورية الى الطابق الارضي حيث ترك الشاب امتعته .

وفي هذه الاثناء كان صاحب النزل قد أبلغ دارتنيـــان بان رجال الشرطة سيلقون القبض عليه لانه تحرش بأحـــد النبلاء ، واقنعه بالفرار حالا رغم ضعفه فاسرع دارتنيان يهبط الدرج بتثاقل وقد لف رأسه بالاربطة ، وما ان وصل الى باب النزل الخارجي حتى وقع نظره على غريمه النبيل واقفاً امام عربة فخمة ، يتحدث باهتمام كلي الى فتاة رائعة الجمال شقراء في العشرين من عمرهـــا ، كانت تطل عليه من نافذة العربة . ولما اصبح دارتنيان قريبا منهما دون ان يشعرا به ترامى الى سمعه صوت الفتاة الشقراء تخاطب الرجل

الغريب قائلة :

— اذن فصاحب النيافة الكردينال يأمرني بالعودة فوراً الى انكلترا ، لأتأكد اذا كان الدوق قد غادر لندن ام انه لا يزال فيها ؟ ولكن هل هناك تعليمات اخرى ؟

واجابها الرجل الغريب بصوت حازم :

— اجل ، انها موضوعه في هذه العلبة ، وعليك ان لا تفتحيها الا بعد ان تعبري بحر المانش .

— حسناً ، وانت ماذا تنوي ان تفعل ؟

— سأعود حالاً الى باريس .

وفجأة حانت من الفتاة الشقراء التفاتـــة فوقع نظرها على دارتنيان الذي كان يقترب بتؤدة من العربـــة فبانت الدهشة والاستغراب على محياها الجميل والتفتت الى النبيل تخاطبه بقولها :

— ولكن الا تنوي ان تعاقب هذا الشاب الوقح قبل رحيلك؟

وقبل ان يفتح النبيل فمه ليجيب على عبارة الفتاة ، كان دارتنيان قد اندفع نحوه ليمسك بتلابيبه قائلاً بصوت جهوري :

— والآن لن تفلت من يدي هذه المرة ، وتستعين بخدمك كالجبناء كما فعلت في المرة الاولى !

فاجابه النبيل الغريب وهو يتميز غيظاً :

— خسئت . . فمثلي لن يخشى مبارزة غلام تافه مثلك .

— انني على يقين تام ، بانك لن تجرؤ على الفرار امام سيدة حسناء!

وهنا صاحت « ميلادي » بالرجل النبيل ، عندما رأته يضع يده على قبضة سيفه قائلة :

.. تذكر انه لأقل تأخير يحدث الآن ، نفقد كل شيء !

اجابها النبيل :

انت على حق فيما ذهبت اليه .. هيا اسرعي بالرحيل الى حيث تقصدين ، وسأسير بطريقي عائداً الى باريس .

ثم حياها بانحناءة من رأسه ، وقفز الى ظهر جواده وانطلق يعدو به غير عابىء بالشتائم التي شيعه بها الشاب دارتنيان ، ولما حاول اللحاق به ، تذكر ان حسامه قد تحطم اثناء المبارزة الاولى فاستند الى جوار النزل وهو يحرق الارم .

وراح ينظر الى العربة الفخمة تبتعد بسرعة عن انظاره . بينما اسرع تابعا الرجل النبيل الى جواديهما ليلحقا بسيدهما .. وحاول دارتنيان المرة الثانية ان يهجم على التابعين ليثأر لنفسه ، ولكنه ما ان سار بضع خطوات حتى خارت قواه وسقط على الارض والدم ينزف من جرحه ، وهو يكيل الشتائم لغريمه :

ـ يا له من جبان !..

وهنا اقترب منه صاحب النزل محاولا استرضاءه خشية ان يصب جام غضبه عليه ... فقال له :

ـ حقاً انه جبان وحقير يا سيدي ... تصور انه لم يسدد حسابه لي قبل ان يفر هاربا من وجهك . فتمتم دارتنيان قائلًا :

انه جبان حقاً ... ولكن المرأة التي تحدث اليها كانت آية في الجمال والانوثة آه !. لقد تذكرت لقد دعاها « ميلادي » انه اسم غريب وجذاب !

وعاد دارتنيان بمساعدة صاحب النزل ، الى الفندق ليقضي

ليلته هناك ، وفي الصباح البـــاكر نهض من فراشه وقد استعاد قواه ، فتنـــاول من جيب معطفه قارورة البلسم العجيب الذي اعطته اياها امه ، وصب بعض النقط منها على جراحه ، ثم تناول وجبة دسمة ، مع زجاجة من النبيذ المعتق .

ولما نزل الى الطابق الارضي ليتفقد امتعته هناك ، وجـــد كيس نقوده سالما ، اما رسالة السيد دي تريفيل فقـد اختفت ، فراح يبحث عنها بين امتعته ، ويقلب جيوبه بدون جدوى ! فراح يملأ النزل صراخاً كمن اصيب بالجنون ، مهدداً متوعـــداً صاحب النزل وخدمه الذين وقفوا يراقبونه عن كثب ، ثم التفت اليهم يقول .

- اريد أن تأتوني بالرسالة حالاً ، والا جعلت سيفي يخـترق صدوركم الهزيلة ايها الجبناء ... اريد رسالة السيد دي تريفيل ، لان مستقبلي معلق عليها .. أين هي ؟!

ويبدو ان صاحب النزل ارتأى ان يتجنب فضيحة جديدة في فندقه ، وتذكر حديثه مع الرجل الغريب واهتمامـــه بشخصية الشاب ،فالتفت اليه يقول :

- ان الرسالة لم تفقد ضمن فندقي ، ايها السيد ، واغلب ظني ان الرجل الغريب الذي بارزته ، هو الذي استولى عليها لاسباب اجهلها ... فقد شاهدته بأم عيني يبحث بامتعتك وكأنه يبحث عن شيء معين ... وكنت قد ذكرت له انك تحمل رســـالة خاصه بالسيد دي تريفيل قائد فرسان الملك .

فسأله دارتنيان بنفاد صبر :

ـ اذن انت تعتقد ان ذلك السافل هو الذي سرق رسالتي ؟

ـ بل اجزم بذلك ، خاصة بعد ان ابلغته انك من اخصاء السيد دي تريفيل ، ولما علم أنك تحمل رســـالة اليه ، سألني عن مكانها .

ـ اذن فهو سارق الرسالة ، وسأشكوه الى السيد دي تريفيل الذي يتولى بدوره ايصال شكواي الى الملك ..

ثم تناول من كيس نقوده جنيهين اعطاهما لصاحب النزل ، وغادر الفندق ، ليمتطي صهوة جواده ويستأنف رحلتـــه الى باريس .

ودخل دارتنيان باريس من بوابة ســـان انطوان ، وهناك باع جواده الامين بمبلغ ثلاثة جنيهات ، وتابـع سيره مشياً على اقدامه ، في شوارع العاصمة الفرنسية وازقتها الى ان وفق الى استئجار حجرة بسيطة باجر زهيد يتناسب مع نقوده القليلة ، وهي عبارة عن مخدع ضيق خالي الرياش ، يقوم في الطابق الاعلى من احد المنازل الواقعة في شارع « فو سوايير » المجاور لحديقـــة لوكسمبورغ ، وما ان استقر به المقام في حجرته ، حتى رتب ثيابه وامتعته ، ثم قصد الى سوق الاسلحـــة والحدادة ، حيث اصلح سيفه المحطم ، وتوجه بعد ذلك الى قصر اللوفر واستدل من اول فارس صادفه في باحة القصر عن منزل السيد دي تريفيل ، وعلم ان منزله قريب من الحجرة التي يقيم بها ، فسر كثيراً لهذه

المصادفة واعتبرها فألاً حسناً .

وآوى الى فراشه مبكراً ، وما لبث ان استغرق في نوم عميق ، وهو يحلم بمقابلته غداً للسيد دي تريفيل قائد فرسان الملك والرجل العظيم الثالث في فرنسا بعد الملك والكردينال ، حسب زعم والد دارتنيان .

٢

من هو دي تريفيل ؟ !

•

السيد دي ترفافيل ، كما كانت تدعوه اسرته في غاسقونيه ، او دي تريفيل كما دعا نفسه فيما بعد ، عندما لمع نجمه بباريس ، كان شاباً مغموراً كمواطنه دارتنيان ، لا يملك من حطام الدنيا ، عندما قدم لأول مرة الى باريس ، سوى شجاعة نادرة وعزيمة قوية ، رشحته لأن يحتل مركزاً مرموقاً في بلاط الملك لويس الثالث عشر خلال سنين معدودة ، بعد ان حارب الى جانب الملك الشاب وتفانى في الدفاع عن عرشه وسطوته ، وظل يرتقي في وظائف الحرس الملكي حتى اصبح قائداً له وصاحب الكلمة المسموعة لدى الملك لويس الثالث عشر ، الذي كان يعلق عليه وعلى فرقة الفرسان اهمية كبرى لتنفيذ خططه واوامره ، واحباط المؤامرات التي تدبر في الخفاء ضده ، من اقرب المقربين اليه ، وفي مقدمتهم الكردينال ريشليو ! ..

وكان من الطبيعي ان لا ينظر الكردينال بارتياح الى تصرفات دي تريفيل وتفانيه في خدمة الملك ، فراح هو بدوره يعمل على حشد الانصار من الفرسان ليؤلف منهم حرساً خاصاً ، يناوىء به فرقة الحرس الملكي وقائدها ، محاولاً الاحتفـاظ بسيطرته ونفوذه على الدولة .

ونتيجة طبيعية لهذا التنافر الخفي بين الملك والكردينـال كانت تقع من وقت لآخر ، وفي طول البلاد الفرنسية وعرضها مناوشات واصطدامات داميـة بين فرسان الملك وفرسان الكردينال ريشليو تسفر في اغلب الاحيان عن فوز فرسان الملك ! ...

وكان فرسان الملك فخورين بقوتهم وتفوقهم على خصومهم ، يذرعون طرقات باريس باعتزاز وخيلاء ، لا يجرؤ احد من المارة على التعرض لهم .

وكان القصر الذي يسكنه قائد فرسان الملك السيد دي تريفيل يقع في شارع « فيو كولومبيه » يرابط في باحته الواسعة خمسون فارساً شاكي السلاح ، يقومون على حراسة القصر طيلة النهار ..

وفي ذلك الصباح الذي وصل فيه الشاب دارتنيان الى قصر دي تريفيل ، كانت باحة القصر وغرفة الانتظـار تعج بعدد كبير من النبلاء والفرسان واصحاب الحاجات والرسل الذين قـدموا خصيصاً من كافة مقاطعات فرنسا لمقابلة السيد المطاع دي تريفيل . وكان فريق منهم قد تجمع حلقات متفرقة في الباحة وعلى جوانب الدرج العريض المؤدي الى مكتب القـائد الكبـير ، كما راح

بعضهم يتسلى بالمبارزة وألعاب السيف بانتظار دوره في مقـــابلة قائد فرسان الملك .

وتقدم دارتنيان وسط هذا الخليط العجيب من البشر ، وهو بادي التردد ، الى حاجب يقف امام باب ردهة الانتظار ورجاه بلطف زائد ان يأذن له بمقابلة السيد دي تريفيل ، ولم ينس ان يذكر امام الحاجب انه مواطن للقائد العظيم ، ثم انتحى زاوية في الردهة الواسعة والغاصة بالفرسان والرسل ، بانتظـــار جدول موعد المقابلة .

وما ان استقر بدارتنيان المقام ، حتى حانت منه التفاتة الى يساره ، فشاهد حلقة مؤلفة من ثلاثة فرسان ، تدل ملامحهم على البأس والصلابة ، واسترعى انتباهه احدهم ، اذ كان طويل القامة حاد النظرات ، يرتدي معطفاً ثميناً من المخمل النفيس ، ويتدلى الى جانبه سيف طويل ، احاطت به حمالة جميلة مطرزة بخيوط من الذهب ، وقد علم من مجرى الحديث الذي يدور بينه وبـــين رفيقه انه يدعى الفارس (بورتوس) اما رفيقاه ، فاحدهما شاب مشوق القد في الثالثة والعشرين من عمره ويـدعى « اراميس » والفارس الثالث وكان في العقد الثالث من عمره ويـــدعى « آتوس » .

وقد سمع دارتنيان المحاورة التي جرت بين الفرسان الثلاثة ، وكانوا قد انتهوا من نوبتهم في الحراسة .

فالتفت الفارس آتوس الى رفيقه بورتوس مداعباً وخاطبـه قـائلاً :

لا تحاول ان تخدعنا بان هذه الحمالة الرائعة والمتقنة الصنع ، هي هدية من والدك او احد اقاربك ... لقد علمت انها هدية من تلك السيدة الحسناء المحجبة ، التي التقينا بها ، عندما كنا سوية يوم الاحد الفائت في شارع سانت اونوريه !.

فبان الارتباك على بورتوس بعض الشيء واجاب رفيقه بشيء من الحدة والجد :

- اقسم لك بشرفي ، انني اشتريتها من مالي الخاص !..

فاجابه آتوس بدعابة :

- كما اشتريت انا هذا الكيس المخملي بالمال الذي وضعته عشيقتي الحسناء بالكيس القديم !..

وهنا التفت الفارس آتوس الى رفيقه الآخر اراميس يستشهد به على صحة قوله ، وما لبث ان اغرقا بالضحك والسخرية من رفيقهما الذي راح يقسم باغلظ الايمان مؤكداً انه ابتاعها بماله الخاص .

ثم تحول الحديث بين الفرسان الثلاثة الى ناحية اخرى ، تناولوا فيها سيرة الكردينال ريشليو وتصرفاته الخاصة ، بشيء من التهكم والسخرية ، اثارت حفيظة الفارس دارتنيان ، الذي تذكر وصية والده ، بان يكون مخلصا ووفيا للملك لويس الثالث عشر وللكردينال .

وكاد يتدخل بين الفرسان ليمنعهم من السخرية بالكردينال الا انه فضل ، في اللحظة الاخيرة ، ان يخلد الى السكينة ويتذرع . واستمر الفرسان الثلاثة في مزاحهم يتناولون بالحديث

والسخرية الشخصيات الكبـــيرة .. حتى أتوا على ذكر الملكة وعلاقتها باللورد بوكنهام ... الانكليزي ..

وهنا بان الغضب الشديد على وجه الفارس بورتوس ووجه حديثه الى رفيقه اراميس الذي اثار حديث الملكة وراح يتناول سيرتها الخاصه بشيء من النقد اللاذع وطلب اليه ان يكف عن هذه السخرية ويحترم سيرة الملكة .. ولكن اراميس لم تعجبـــه ملاحظة رفيقه فأجابه بشيء من الحدة :

دعني انتقد من اشاء ، فلي ملء الحرية بذلك ، وانني كما ترى فارس ، ويمكنني ان اصرح بما يجول بخاطري دون خوف او وجـــل ..

وقبل ان تبلغ المشادة بين الفرسان الثلاثة حدهـــا ، دوى فجأة صوت الحاجب ينادي قائلًا :

السيد دي تريفيل في انتظار الفارس دارتنيان .

وخيم السكون على الردهة الواسعة الغاصة بالفرسان والرسل وفي غمرة هذا السكون تقدم الشاب دارتنيان نحو المكتب الفخم الذي يجلس فيه قائد فرسان الملك !

٣

دارتنيان يقابل دي تريفيل

عندما دخل دارتنيان مكتب السيد دي تريفيل ، كان هذا الاخير في حالة عصبية ظاهرة ، ومع ذلك فقد استقبل مواطنه الشاب دارتنيان بشيء من الترحاب والايناس ، وقابله بالابتسام عندما راح الشاب يتحدث عن وطنه غاسقونية وابيه الفارس دارتنيان في لهجة غسقونية ، أعادت الى ذهنه ذكريات شبابه .

واقترب دي تريفيل من الباب المطل على الردهة الغاصة بالفرسان ، بعد ان أشار بيده الى دارتنيان كمن يستأذنه للقيام بامر خاص .. ونادى بصوت تجلى فيه الحنق الشديد :

- اين الفرسان الثلاثة .. اتوس وبورتوس وارامیس ! ؟

وفي لمح البصر ، كان بورتوس وارامیس يقفان امام قائدهما دي تريفيل في كثير من الأنفة والتأهب .

وما ان وقع نظر القائد عليهما ، حتى راح يحدق بهما بعينين

تفيضان غيظاً ووعيداً .

وتوقع دارتنيان قرب انقضاض الصاعقة على رأس الفارسين .

ثم راح القائد دي تريفيل يذرع حجرة مكتبه ذهاباً واياباً عدة مرات ودلائل الغضب بادية بوضوح على قسمات وجهه ...

وفجأة توقف عن السير والتفت الى الفارسين وصاح بهما قائلاً :

أتعلمان ماذا قال لي جلالة الملك امس ايها الفارسان ؟!

فأجابه الفارس اراميس بشيء من التهذيب :

.. كلا ياسيدي القائد ، ويهمنا جداً ان نعلم مـــاذا تحدث جلالته عنا ؟ !

فأجابه القائد بلهجة حانقة :

ـ لقد قال لي جلالته انه قرر من الآن وصاعداً ، ان يلحق بعض فرسانه ، وانتم في الطليعة ، بحرس نيافة الكردينال ...

فتدخل الفارس بورتوس بالحديث وقال له بلهجة ساذجـــة وجافــة :

ـ ولماذا يريد جلالته ان يضمنا الى حرس نيافة الكردينال؟!

اجابه القائد دي تريفيل :

ـ لان جلالته قد تأكد بصورة قاطعة ، انه بحاجة ماسة الى فرسان جدد من اصحـــاب السيوف الماضية والجرأة الكافية .

فامتقع وجها الفارسين احمراراً من شدة الخزي والخجـل ، لهذه التهم التي توجه اليهما من قائدهما لاول مرة ..

وتابع القائد دي تريفيل حديثه بلهجته القاسية وقال :

اجل .. لقد كان جلالته على حق فيما ذهب اليه ... واقسم

لكما بشرفي بان جميع فرسان الملك قد اصابهم الخزي والعار ، اذ تعمد الكردينال ان يتندر امس في البلاط الملكي ، وعلى مسامع جلالة الملك ، باحاديث انهزامكم امام فرسانه البواسل ، كما تعمد بصورة خاصة ان يردد عبارته الاخيره بكثير من الشدة ، وكأنه قصد ان يصيبني في الصميم ، بوصفي قائداً لفرسان الملك .

لقد تحدث نيافته واطال الحديث عن تلك المعركة التي نشبت بين رجال حرسه ، وعدد من فرسان الملك ، وكنتم انتم الثلاثة في الطليعة : بورتوس ، آتوس ، واراميس . وكان ذلك ليلة اول امس وفي شارع « فارو » باحدى الحانات . اذ بينما كانت دورية من فرسان الكردينال مكلفة بالقاء القبض على المخلين بالامن والنظام أوقفت بعض زملائكم من فرسان الملك بحجة انهم يخلون بالامن ا وكنتم انتم معهم . . . ولا يمكنكم النكران لانهم تعرفوا عليكم ونقلوا الى سيدهم الكردينال ، اوصافكم وتفاصيل المعركة وكيف اسفرت عن فوزهم . . . وانهزامكم ، وقد ذكر الكردينال بنفسه اسماءكم واحداً واحداً ، زيادة في النكاية والتحدي .

وتوقف دي تريفيل بضع لحظـــات ليسترد انفاسه ثم تابع حديثه بحدة :

.. انها غلطتي ، لقد اسأت الاختيار ، لانني اخترتـــكم واعتمدت عليكم .

ثم التفت الى الفارس اراميس مخاطباً اياه بلهجة ساخرة :

.. لا اعلم يا اراميس ما الذي دعاك الى ارتداء زي الفارس ، وانت جدير بك ان تكون كاهناً في احـد الاديرة . اما انت يا

بورتوس فلعلك لم تلبس هـذا المعطف الجميل الا لتعلق الى جانبه سيفاً من الخشب لا يصلح لشيء . اما آتوس ... فانني لا اراه ، فاين هو الآن ؟

فبادره اراميس بقوله :

.. انه مريض يا سيدي القائد ، بسبب الدماء الـتي نزفت من جرحه في تلك الليلة المشؤومة !

فقاطعه القائد قائلا :

- يا للمساكين ! ستة من فرسان الملك يتعرضون لهجوم من ستة من فرسان الكردنيال .. فيستكينون كالجبناء الصعاليك ويفرون من امامهم هاربين ! ان تصرفكم هذا يحملني على الاستقالة من قيادة فرقة فرسان الملك ، واستعيض عنها بوظيفة ضابط بسيط في حرس الكردينال .. واذا رفض نيافته قبولي ، فسأدخل الدير لاصبح راهبا بسيطاً !

فاجابه الفارس بورتوس بحزم :

- مهلًا يا سيدي القائد ، لنوضح لك موقفنا . لقد كنا ستة فرسان ، وكانوا ستة .. الا اننا اخذنا على حين غرة ، وقبل ان يفسح المجال امامنا ، لاستخدام سيوفنا سقط اثنان منا صريعين بضربات غادرة من فرسان الكردنيال ، كما اصيب آتوس بجرح بالغ واضطررنا لتركه مضرجاً بدمائه بين الموت والحياة ، وتمكنا من النجاة بانفسنا ، ولا تنس يا مولاي ان الحرب سجال ، يوم لك ويوم عليك . فانتظر وسترى ما يسرك ويعيد ثقتك بفرسانك وبسالتهم .

وفي هذه الاثناء كان فارسنا الشاب دارتنيان يستمع الى هذا الحوار بشيء من الدهشة ، وكأنه يشارك الفارسين هزيمتهما !

وفجأة بان القلق والاضطراب على محيا القائد دي تريفيل وسألهما :

-- لم اكن اعلم ذلك .. ويبدو ان نيافة الكردينال قد بالغ في رواية الحادثة محاولاً اظهار رجاله بمظهر الابطال ، وهل اصيب آتوس بجرح خطر ؟

فأجابه اراميس بلهجة يشوبها الحزن :

-- اجل يا سيدي القائد ، لقد اخترق السيف كتفه ونفذ الى جنبه من ناحية اليمين ، وقد بادرت الى نجدته ، وتمكنت من ان اغمد نصل سيفي في صدر ذلك الفارس الجبان الذي غدر بآتوس فسقط لتوه صريعاً . وارجو يا سيدي ان لا تصل الى مسامع جلالة الملك هذه الانباء المزعجة ..

وما ان اتم عبارته الاخيرة ، حتى فتح الباب وبدا وجه جميل بادي النبل ، قد علته صفرة ظاهرة .. فهتف الفارسان بصوت واحد :

-- آتوس !!

وردد القائد دي تريفيل قولهما بشيء من الارتياح والغبطة :

-- آتوس ! لماذا جئت وانت على هذه الحالة ؟!

واجابه آتوس بصوت حازم خافت :

-- قيل لي يا سيدي القائد انك دعوتني ، فبادرت الى المثول بين يديك ! وها انا رهن اشارتك ! فبان التأثر والانفعال على

وجه القائد دي تريفيل ، وخاطب آتوس بصوت متهدج :

– لقد كنت اتحدث الى رفيقك، باني حريص كل الحرص على الدفاع عن كرامة فرسان فرقتي ،خاصة وان البواسل منهم قلائل، ولأن جلالة الملك يعلم حق العلم ان فرسانه من اشجع الفرسان ..

وما ان انتهى من حديثه حتى اقترب من الفارس آتوس ليصافحه بحرارة وعطف زائدين .

والظاهر ان المجهود الذي بذله آتوس في المجيء الى قصر قائده ، قد اثر عليه ، فحاول جهده ان يتحامل على نفسه ، فلم يستطع ، واخيراً تهاوى الى الارض ، بينما كان قائده دي تريفيل يشد على يده بعطف امام انظار عدد من فرسان الملك الذين شاهدوا هذا المنظر المؤثر .

وعلى الاثر صاح القائد دي تريفيل باعلى صوته :

– اسرعوا باستدعاء الطبيب .

وفي لحظات معدودة حضر الطبيب الذي امر بنقل الفارس الجريح على جناح السرعة الى غرفة مجاورة ، فاسرع الفارسان بورتوس واراميس الى نقل رفيقهما الجريح ، وتبعهما الطبيب الى حجرة القائد دي تريفيل ليعلن امام الجمع الذي احتشد في الردهة ان حالة الجريح لا تدعو الى القلق ، وانه استرد وعيه .

فبان الارتياح على وجه دي تريفيل ، بعد ان اطمأن على فارس من اشجع فرسان فرقته واشدهم بأساً . وباشارة من يده انسحب الجميع ، ولم يبق في حجرته سوى الفارس دارتنيان، الذي ظل محتفظاً بهدوئه يراقب مايجري حوله من احداث .

فالتفت اليه دي تريفيل وقال له ببشاشة :

ـ عذراً يا مواطني العزيز ، لقد كدت انساك ، ولكن ما حيلتي ، فالقائد كالوالد الحنون ، يرعى فرسانه ويدفع عنهم الاذى ، كما يرعى الاب ابناءه . والجنود اطفال كبار ، بحاجة دائماً لمن يرعاهم ويوجه اليهم النصح .

وأردف يقول :

ـ لقد ذكرني وجودك ، بوطني غاسقونية وخاصة والدك ، فقد احببته كثيراً ، ولا ازال اكن له في قلبي اجمل الذكريات . ويهمني ان اقدم لوالدك اية خدمة يطلبها مني .. فقل ماذا تطلب؟

فأبدى دارتنيان رغبته في الانخراط بسلك فرقة فرسان الملك ، وانه قدم الى باريس سعياً وراء هذه الامنية الغالية .

فأجابه دي تريفيل :

ـ ان تحقيق امنيتك ايها الشاب صعب ، لان ذلك مرتبط بجلالة الملك وحده ، فهو الذي يختار فرسان فرقته ، من بين الشبان الاكفاء البواسل ، ويجب ان يتوفر في راغب الانخراط بفرقة الملك احد امرين : اما ان يكون قد برهن عن بسالة وكفاءة في مبارزات ومعارك خاضها ، او ان يكون قد خدم في احدى فرق الجيش العامل مدة سنتين على الاقل . وسكت برهة ليتفرس بوجه دارتنيان ليستجلي بواطنه ، ثم استطرد يقول :

ـ ولكن بما ان والدك هو صديق عزيز على نفسي ، فانني سأبذل جهدي لمساعدتك ، خاصة وقد تكون ظروفك المالية لا تساعدك على الاقامة طويلاً في باريس بلا عمل .

فرفع دارتنيان رأسه بشيء من الكبرياء ، وكأنه يريد ان يقول للقائد دي تريفيل ، انه لم يسعَ اليه طمعاً بالحصول على هبة مالية او احساناً . الا ان دي تريفيل لم يفسح له المجال ليعبر عما يجول برأسه ، بل تابع حديثه قائلاً :

— حسناً ايها الشاب ، انني اقدر عزة نفسك واباءك ، ولا تنس انني عندما حضرت الى باريس لاول مرة ، كنت لا املك في جيبي سوى اربعة جنيهات ، تمكنت بواسطتها من شق طريقي نحو المجد .

وقد قررت ان اعطيك كتاب توصية الى مدير الاكاديمية الملكية للفروسية ، وهناك ستتدرب على ركوب الخيل واتقان فنون المبارزة واستخدام السيف ، وبذلك تصبح اهلاً للانخراط في سلك فرسان الملك .

فأجابه دارتنيان بشيء من الامتعاض :

— مع الاسف يا سيدي القائد ، لقد اخطأت التقدير بالنسبة لقدرتي ، فانا لست بحاجة الى الانتساب الى معهد للتدريب ، لاني تدربت على يد امهر الفرسان في حمل السيف منذ نعومة اظفاري .

ثم اشار عرضاً الى ما تعرض له من حوادث في بلدة «مينغ» وكيف سرقت منه رسالة ابيه الموجهة الى دي تريفيل ، ووصف بدقة الرجل الغريب الذي استولى على الرسالة .

فقاطعه دي تريفيل باهتمام زائد وسأله :

الم تلاحظ وجود اثر جرح خفيف على خد ذلك الرجل ؟

اجابه :

ـ اجل ، وكأنه اثر شظية رصاصة .

ـ او لم يقابل احداً هناك ؟

ـ نعم لقد قابل سيدة شقراء في عربتها قرب باب النزل .

ـ وهل علمت ما دار بينهما من حديث ؟

ـ لقد سلمها صندوقاً صغيراً مقفلاً ، وقال لها انــه يحتوي على تعلماته ، وطلب اليها ان لا تفتحه الا عند وصولها الى لندره

وهل السيدة انكليزية ؟

ـ لا ادري ، لقد دعاها باسم « ميلادي » . .

وبدا الاهتمام الشديد على محيـا القائـد دي تريفيل ، واطرق مفكراً بضع لحظات ، وراح يحدث نفسه بصوت خافت قائلاً :

انها ميلادي ! . . لقد كنت اظنها ما تزال في بروكسل !

وهنا التفت دارتنيان الى دي تريفيل وخاطبه بقوله :

ـ ارجو يا سيدي ان تذكر لي اسم ذلك الرجل الغريب ، واين يمكنني ان اجده . لان لي معه حساباً عسيراً يجب ان اصفيه حالا

فقاطعه دي تريفيل قائلاً :

ـ انني احذرك ايها الشاب من هذا الرجل ، وانصحك بان لا تتعرض له ، فهو جبار مخيف !

فاجابه دارتنيان بحزم :

ـ ان ذلك يزيدني رغبة وحماسة في السعي وراءه مهما كان مخيفـــاً . .

وعاد دي تريفيل الى التفكير بامر هذا الشاب ، وذهبت بــه الشكوك الى اساءة الظن به ، خشية ان يكون مرسلا من قبـل

الكردينال لنصب مكيدة جديدة للايقاع به .

ويبدو ان دارتنيان ادرك بثاقب بصره ما يجول في مخيلة القائد ، فقال :

. لقد اوصاني ابي عندما غادرت المنزل بان اكون مخلصاً لجلالة الملك ولنيافة الكردينال ، واخشى ان لا تسيء الظن بي لهذه الصراحة المتناهية ، لانني بعيد عن المناورات والمؤامرات السياسية التي تجري في باريس .

فتأثر دي تريفيل بهذه الصراحة ، وتقدم من الشاب يشد على يده بتأثر بالغ وقال :

ـ تأكد انني اثق بك ، وسأعمل على الحاقك بفرقة فرسان الملك في القريب العاجل ، وان ابواب قصري مفتوحة امامك تدخلها ساعة تشاء .

فأجابه دارتنيان :

... شكراً لك يا سيدي على هذا العطف ، ولن يطول الوقت لأقناعك بقدرتي وجدارتي بحمل لقب فارس فرقة الملك.

ثم حيّا القائد دي تريفيل ، وهم بالانصراف ، فاستوقفه دي تريفيل قائلاً :

ـ مهلاً ايها الشاب ، لاحرر لك الكتاب الى مدير الاكاديمية الملكية .

فتردد دارتنيان لحظة ، ثم وقف ينتظر الرسالة ، بينما جلس القائد الى مكتبه وبدأ يحرر الرسالة .

وراح يتسلى دارتنيان بالتطلع من النافذة التي تطل على الشارع

وفجأة استدار على عقبيه واندفع راكضاً من حجرة القائد وهو يصيح :

. قسماً بالله انه ان يفلت من يدي هذه المرة !

فرفع القائد رأسه مندهشاً وصاح به متسائلاً :

ــ ومن هو هذا الشخص ؟!

فرد عليه دارتنيان وكان قد اصبح خارج الحجرة :

ــ انه هو .. سارق رسالة ابي ...

٤

مشاكل الفرسان الثلاثة !

•

بينما كان دارتنيان خارجاً بسرعة خاطفة من حجرة القائد دي تريفيل ، اصطدم عن غير قصد بفارس كان خارجاً من غرفة مجاورة ، فبادر الى الاعتذار اليه ،وتابع طريقه قائلاً للفارس :

ـ معذرة يا سيدي الفارس ، فهناك ما يحملني على الاسراع في الخروج . . .

ولمّا همّ بمتابعة سيره ،شعر بيد من حديد تمسك به من الخلف وصوتاً حازماً يقول :

ـ اذا كنت على عجل ، فهذا لا يسمح لك ان تصدم الناس برعونة ، وتكتفي بالاعتذار ! وتظن ان ذلك يكفي . . . او تعتقد لانك شاهدت كيف يعاملنا القائد تريفيل ، انه بات من حقك ان تكلمني بنفس اللهجة التي يخاطبنا بها القائد . . . انك واهم، فانت لست السيد دي تريفيل !

واجابه دارتنيان بعد ان عرف فيه آتوس الفارس الجريح .

ــ لم اتعمد الاصطدام بك ، واكرر اعتذاري لك ، واقسم بشرفي باني مضطر للاسراع في الخروج ، فارجوك ان تـدعني وشأني الآن .

اجابه اتوس بلهجة حازمة :

ــ مهلا ايها السيد ، اظنك قادم حديثاً من الارياف .. ولهذا فانني اعلمك بانني بانتظارك عند الظهر تماماً قرب دير « كارمديشو » وآمل ان لا تتخلف .

اجابه دارتنيان :

ــ حسناً سأوافيك الى ذلك المكان في الموعد المحدد ...

قال عبارته هذه ، واسرع راكضاً الى الخارج ، آملا ان يلحق بغريمه .

وبينما كان يجتاز باب القصر الكبير مسرعاً ، تعـثر بمعطف بورتوس الذي كان واقفاً يتحدث الى اثنين من رفاقه من رجال الحرس الملكي ، وكاد ينطرح ارضاً من شدة الصدمة . فزجر بورتوس وراح يقذف دارتنيان بسيل من اللعنـات ، فرد عليه دارتنيان بمثـل لهجته القاسية ، وانتهت المشادة الكلامية الى دعوة ثانية للمبارزة في الساعة الواحـد من بعد الظهر في حدائق اللكسمبورغ .

وتابـع دارتنيان جريه نحو الشارع ، دون ان يعبأ للنتائج التي تترتب على هذه المبارزة ، اذ كان جل همه ان يظفر بخصمه المجهول ولكن مساعيه ذهبت ادراج الرياح ، اذ عندما اصبح في الشارع كان خصمه قد توارى في احدى المنعطفات المجاورة ، واحس بخيبة

امل مريرة ، ونقم على نفسه ، لان تهوره قد جره للتورط بمبارزتين قد لا يخرج من احداهما سليما .

وراح يسير الهوينا في الشارع القريب من قصر دي تريفيل ، وهو يحدث نفسه ويضرب اخماساً باسداس ، وكان قد وصل في سيره امام قصر « او كيون » حيث يقطن الكردينال « ريشليو » وعلى مقربة من القصر شاهد الفارس اراميس بادي الغبطة يتحدث الى بعض رفاقه من فرسان الملك ، ومع ان اراميس لمحه ، الا انه تظاهر بعدم الاكتراث به ، وتعمد ان يتجاهله ، ذاكراً التعنيف القاسي الذي ناله ورفاقه من قائدهم دي تريفيل ، بحضوره . اما دارتنيان فقد انحنى بكل احترام الى اراميس ورفاقه الفرسان ، عندما حاذاهم فرد عليه اراميس بانحناءة بسيطة ، دون ان يبتسم ، وحاول دارتنيان ان يكون مهذباً أكثر من اللزوم ليتحاشى الوقوع في ورطة جديدة ، فلمح منديل الفارس اراميس ، يسقط منـــه الى الأرض ، فبادر الى التقاطه بكل لباقة واحترام وقدمه اليه امام انظار رفاقه . . . وتشاء الصدف ان المنديل الحريري الذي سقط من جيب معطف اراميس ، كان منديلا نسائياً ، ممــــا احرج اراميس وجعله سخرية أمام رفاقه ومصدر دعاباتهم ، فما كان منه الا ان انتزع المنديل الحريري من يد دارتنيان بحدة وحنق . . .

وبادر احد رفاق اراميس يعلق على ذلك بقوله :

ـ ومع ذلك تحاول ان توهمنا بأنك على خلاف مع السيدة « بوادي تراسي » ورغم هذا الخلاف المزعوم ، لا تمانع السيدة في اعارتك مناديلها الحريرية الخاصة لتستعملها !..

ولم يطق ارامیس هذه الدعابة من احد رفاقه ، فحدج دارتنيان بنظرة حادة وخاطبه بقوله :

– انك واهم يا سيدي فليس المنديل الحريري يخصني ، اذ انني احمل منديلي الخاص في جيبي ثم تناول منديله من جيبه ، وكان منديلاً عادياً نسج على احد اطرافه الحرف الاول من اسمه ، وهنا شعر دارتنيان ، انه ارتكب هفوة فظيعة بحق آراميس عن غير قصد ، وقبل ان يحاول اصلاح خطأه ، تدخل احد رفاق ارامیس بالموضوع وقال مخاطباً ارامیس :

– اذا كنت تدعى ان هذا المنديل لم يسقط من جيبك ، فانني مضطر يا عزيزي ارامیس ، ان احتفظ به ، لان السيدة « بوادي تراسي » من معارفي ، ولا اريد ان يساء استعمال حاجياتها الجميلة !

وشعر الفارس ارامیس ان موقفه يزداد حراجة ، فاسرع الى اخفاء المنديل الحريري في جيبه والتفت الى دارتنيان بقوله :

– لقد حاولت توجيه الاساءة اليّ ، وقبل ان نفترق ، عليك ان تحدد موعداً للقائنا لتصفية الحساب

فأجابه دارتنيان :

– موعدنا الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم في قصر القائد دي تريفيل ، ومن هناك نحدد المكان الصالح للمبارزة !

٥

فرسان الملك وحرس الكردينال

•

لما كان دارتنيان لا يعرف احداً بباريس ، فقـــد ذهب الى موعد المبارزة الاولى مـــع الفارس آتوس ، دون ان يصطحب معه شاهديه ، حسب العادة . . وقد صمم في قرارة نفسه ان يتملص من مبارزة آتوس ، لان ذلك الفارس كان مصابا بجرح لم يمض عليه سوى ايام معدودة . ولهذا قرر ان يعتذر له ، بلباقة وشهامة ، ويحاول تسوية الخلاف بينهما بالتي هي احسن ، ليكسب صداقة الفارس آتوس ، وعن طريقه يمكن لدارتنيان ان يصفي حسابه مع الفارسين بورتوس واراميس .

ولما وصل الى الساحة المجاورة للدير ، كان الفارس آتوس قد سبقه الى هناك منذ خمس دقائق ، وبعد ان تبادلا التحية بأدب كما تقضي ذلك اصول المبارزة الشريفة ، اعلن الفارس آتوس ان شاهديه سيحضران عما قريب ، وسأل عن شاهدي دارتنيان ،

فاعتذر هذا ، بانه لم يتمكن من احضار شاهديه ، لانه غريب عن باريس ، ولم يمض على وجوده فيها الا بضعة ايام ، وقال ان الشخص الوحيد الذي يعرفه في بار هو القائد دي تريفيـــل .
واطرق اتوس يفكر بضع لحظات ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :
ـ اذا تورطت معه بمبارزة وقتلته فـــكاني اقدمت على قتل فتى ناشىء ...
فاجاب دارتنيان بجدة واباء ...
ـ لا تسترسل بغرورك ايهـا السيد ، فانت تستحق العطف اكثر مني ، لكونك جريحاً ، وجرحك لم يندمل بعد .
اجابه اتوس :
ـ انت على حق ايها الشاب ، فلن استطيع استخدام يميني ، وسأعتمد على اليد اليسرى في مبارزتك ، وتـــأكد انني اتقنت استخدام كلتا اليدين في المبارزات .
قال دارتنيان بشيء من الاحترام والتأثر :
ـ ارى انك ما تزال يا سيدي بحاجـــة ماسة الى مزيد من الراحة والعناية بجرحك .
وهنا حاول اتوس مغالبة ألمه ، وتحامل على نفسه ليجلس على مقعد حجري ليستريح بعض الوقت ..
واقترب منه دارتنيان وخاطبه بلهجة تشوبها البساطة قائلاً :
ـ اتسمح يا سيدي ، ان ادهن جرحك ببلسم عجيب يشفي الجراح بسرعة عجيبة ، وهذا البلسم اعطتني اياه امي وقد جربته بنفسي .. كما يمكننا ان نرجىء المبارزة الى موعد آخر تحـدده

أنت بنفسك .

فشكره الفارس آتوس بتأثر وقال :

ـ الواقـع انني احب الرجال النبلاء امثالك ، وعلينا قبل ان نبت بالامر ، ان ننتظر وصـــول شاهدي لنبحث المسألة بوجودهما . .

وما ان أتم عبارته الاخيره ، حتى حانت منه التفاتة ، فلمـح احد شاهديه وهو الفارس بورتوس قادمـــا من بعيد .. فهتف دارتنيان قائلا :

ـ عجباً وهل احد شاهديك هو الفارس بورتوس ؟!

اجابه اتوس متسائلا :

ـ وهل لك اعتراض على ذلك ؟

ـ كلا ، ليس هناك اي اعتراض .

وهنا حضر الفارس الثـاني ولم يكن سوى اراميس ، فاشار اليهما اتوس وقال :

ـ ها هما شاهديّ : بورتوس واراميس !

فهتف دارتنيان بدهشة :

ـ يا لها من مصادفة غريبة !

اجاب اتوس :

ـ ولم العجب ، فنحن لا نفترق عن بعضنا البعض ، وقـــد اطلقوا علينا لقب الفرسان الثلاثة الذين لا يفترقون .

وفي هذه الاثناء كان بورتوس قد اقترب منهما ، وتبـــين ملامح دارتنيان فصاح :

ـ ماذا ارى ، فهذا هو السيد نفسه الذي دعوته الى المبارزة

اليوم ايضاً !

فبادره دارتنيان بانفة :

– نعم يا سيدي ، ولكن موعدنا عند الساعة الواحدة .

وصاح اراميس ، وكان قد اقترب وسمع مجرى الحديث قائلاً :

– وانا ايضا لي معك حساب يجب تصفيته .

فقال دارتنيان :

– انني على تمام الاستعداد، لتصفية هذا الحساب وموعدنا عند الساعة الثانية من بعد الظهر ، والان اسمحوا لي ايها السادة وقد جمعتكم الصدفة في مكان واحد ، ان اعتذر اليكم ...

وعند سماع عبارة دارتنيان الاخيرة ، تبادل الفرسان الثلاثة النظرات فيما بينهم ، وادرك دارتنيان معنى هـــذه النظرات فاستطرد يقول بأباء :

– لقد اسأتم فهمي ايها السادة ، لانني قصدت باعتذاري هذا، انني لن اتمكن من تنفيذ وعدي اليكم جميعكم .

وما لبث ان استل حسامه من غمده بحركة تجلت فيها معاني الفروسية والبسالة ، وحذا الفارس اتوس حذوه ، وقبـــل ان يلتحم السيفان بالتحية التقليدية ، برز من الطرف الآخر للساحة بعض حرس الكردينال بقيادة القائد دي جوساك .

فصاح بورتوس واراميس بصوت واحد ، يحذران المتبارزين :

– اوقفا المبارزة .. لقد حضر حرس الكردنيال !.

ويبدو ان تحذيرهما جاء متأخراً ، فقد فاجأ رجال الكردنيال المتبارزين بالجرم المشهود ، ولم يعد من سبيل للانكار او التهرب، وتقدم قائد الحرس دي جوساك ، يخاطب الفرسان قائلاً :

ـ عجباً ! ارى ان فرسان الملك يتبارزون في رابعة النهار دون ان يقيموا وزنا لقوانين الملك التي تحظر المبارزة .. هيا سيروا امامنا ايها السادة والا اضطررنا الى استخدام القوة لالقاء القبض عليكم !

فأجابه اراميس بلهجة ساخرة :

ـ لقد حظر علينا قائدنا دي تريفيل ان لا ننفذ سوى اوامره ولهذا ترانا مضطرين لعدم تلبية رغبتك ايها السيد ، واري ان تتابع طريقك مع رجالك وتدعنا وشأننا .

فصاح دي جوساك بحدة :

ـ انني احملكم عواقب هذا العصيان !

فقال آتوس بصوت خافت مخاطبا رفيقيه :

ـ ارى ان القوى غير متكافئة ، وعلى الرغم من انني غير واثق بالفوز ، فأرى ان نخوض هذه المعركة ضدهم لنغسل العار الذي لحقنا في معركة ليلة اول امس ، وهي فرصة لا يجب ان ندعها تفلت من ايدينا .

وفي لمح البصر ، اقترب الفرسان الثلاثة من بعضهم البعض وشكلوا صفاً واحداً في وجه دي جوساك ورجاله الخمسة .

وهنا تقدم دارتنيان من الفرسان الثلاثة وخاطبهم بقوله :

ـ لقد سمعتكم تقولون انكم ثلاثة ، مع اننا اربعة ، لانني اعتبر نفسي واحداً منكم ، وها حسامي رهن اشارتكم !.

فهتف اتوس جذلاً :

ـ يا لك من فارس شهم ايها السيد !

وفي هذه الاثناء جرد الطرفان سيوفهم واستعدوا للمعركة الفاصلة ، وسرعان ما اشتبكت السيوف في معركة دامية .

فاشتبك بورتوس مع بيكارات واراميس مع اثنين من الحرس بينما اشتبك دارتنيان مع القائد دي جوساك نفسه ، اما اتوس فعلى الرغم من جرحه الذي لم يندمل ، فقد وجد نفسه يبارز الفارس كاهوساك احد المقربين من الكردينال . وكان القائد دي جوساك من اشهر رجال السيف في ذاك العهد واشدهم بأساً ، ومع ذلك فقد لاقى صعوبة كبيرة في الدفاع عن نفسه ضد ذلك الشاب الغاسقوني دارتنيان ، الذي راح يكيل له الطعنات تلو الطعنات برشاقة ومهارة ، مما اثار غضبه وراح يضرب بسيفه على غير هدى وروية ويرتكب اخطاء فادحة في المبارزة ، جعلت دارتنيان ينتقده ويعدد له اخطاءه .

واستجمع دي جوساك قواه وسدد طعنة صائبة الى صدر خصمه دارتنيان محاولاً تصفية الحساب معه بسرعة ، الا ان الشاب زاغ منها برشاقة ورد عليها بطعنة بارعة من حسامه اخترقت كتف دي جوساك وجعلته يسقط ارضاً مضرجاً بدمه والتفت دارتنيان بسرعة لينجد رفاقه فوجد اتوس يعاني بعض المشقه بسبب جرحه ، فقفز الى جانبه وصاح بكاهوساك الذي كان يبارز اتوس قائلاً :

ـ حذار ايها الرجل ، فانني قاتلك !

فصاح به اتوس :

ـ لا تقتله ايها العزيز ، فلي معه حساب قديم ، يجب ان

اصفيه بنفسي في فرصة اخرى ، واكتف الان بان تجرده من سلاحه .

وما ان تلفظ اتوس بعبـــارته الاخيرة ، حتى كان سيف كاهوساك يطير من يمينه ليستقر بعيداً عنـــه ، الا انه جرد من جنبه سيفاً اخر كان يحتفظ به ، وهجم عـلى اتوس الذي كان قد استجمع قواه وسدد له ضربة عنيفـــة اخترقت جانب صدره وطرحته ارضاً .

وفي هذه الاثناء كان اراميس قد تغلب على خصميه الاثنين ، اما بورتوس فكان ما يزال مشتبكا مع خصمه بيكارات في معركة حامية ، على الرغم من اصابة الاثنين بجراح .

ولما كان الامر يستدعي العجلة ، خشية ان تمر بالمكان فرقة العسس ، فتسوق الجميع الى السجن ، فقد أحاط آتوس واراميس ودارتنيان بيكارات الذي كان غسقونيـــاً صعب المراس قوي الشكيمة ، وانذروه بان يستسلم حالاً ، فلم يفعل ، الا بعـد ان امره قائده دي جوساك الجريح .

وقبل ان يغادر الفرسان الاربعة الساحة جمـــع اراميس السيوف في حزمة واحدة ، وتقدم من جرس الدير يقرعه بشدة ، لينبه انظار الرهبان ، فيسرعوا الى نجدة الجرحى وتضميـــد جراحهم ، ثم اسرعوا يغادرون الساحة ، عائدين الى قصر القائد دي تريفيل ، يحملون اليه بشرى الثأر من فرسان الكردينال .

٦

الملك لويس الثالث عشر

•

وانتشرت انباء هذه المعركة التي جرت بين فرسان الملك وفرسان الكردينال ، حتى وصلت انباؤها الى مسامع القائد دي تريفيل ، قبل وصول الفرسان الاربعة ، اتوس ، بورتوس اراميس ودارتنيان ، الى القصر .

وعندما وصل الفرسان الاربعة الى قصر دي تريفيل ، صاح دارتنيان جذلاً :

ـ اذا لم اصبح حتى الان ، فارساً في حرس الملك ، فأنا على الاقل استطيع القول انني قبلت كفارس متدرج في هذه الفرقة

ولما وقع نظر القائد دي تريفيل على الفرسان الاربعة ، تظاهر بالغضب الشديد وراح يعنفهم بصوت مسموع امام رجاله ، الا انه ما لبث ان هنأهم على فوزهم الباهر ، بصوت منخفض لم يسمعه سوى الفرسان الاربعة .

واسرع الى قصر اللوفر ينقل الى الملك هذه البشرى ، فوجده مختلياً بنيافة الكردينال ، فارجأ ذلك الى المساء وعندما حضر في المساء ، كان جلالته قد جلس الى مائدة اللعب ، ولما كان بخيلاً بطبعه ، فقد فرح بما كسب ، وتعمد مقابلة قائده دي تريفيل بوجه عبوس امام الحضور متظاهراً بان الربح لم يهز مشاعره ... وخاطبه بقوله :

ـ تعال ايها القائد .. الا تعلم ان نيافة الكردينال قد حضر خصيصاً الى هنا ، ليشكو تصرفات بعض فرسانك ، وابلغ دليل على ذلك ان نيافته قد توعكت صحته بسبب هذه الحادثة المؤسفة .

فاجابه دي تريفيل :

ـ لم يكن فرساني هم البادئون بالاعتداء ، بل ان فرسان نيافته هم الذين يتحرشون باستمرار برجالي ويحاولون الاشتباك معهم بمعارك ، وكان رجالي ، حرصا منهم على كرامة الفرقة التي ينتمون اليها يضطرون الى الدفاع عن انفسهم وعن كرامة فرقتهم .

وفي تلك اللحظة بالذات ، بدأ الحظ يتخلى عن جلالته ، فخسر بعض المال الذي ربحه ، فازداد غيظة وتظاهر انه استاء من اجوبة قائده ، وتعمد الانسحاب من اللعب معتذراً الى الاشراف الذين يلاعبونه ، بانه مضطر الى التحدث مع قائده بامور خطيرة .

وانتحى بقائده في احدى الشرفات البعيدة وخاطبه بلهجة لطيفة :

اذن أنت تؤكد ان حرس نيافته هم الذين يتحرشون

بفرسانك !

– اجل يا مولاي !

– وكيف وقعت الحادثة ايها القائد العزيز ، اذ لا بد من قاضٍ عادل يسمع دفاع الطرفين ليفصل بينهما .

– لقد جرت المعركة بطريقة طبيعية ، فكان عدد الرجال ثلاثة من خيرة فرسان فرقتي ، وجلالتك تعرفهم بالاسم ، وقد ادوا لجلالتك خدمات جلى في الماضي وبرهنوا على اخلاص وتفان. وهم آتوس ، بورتوس ، واراميس وكانوا قد اجتمعوا في منطقة سان جرمان لتصفية حساب بينهم وبين شاب غاسقوني ، كان والده قد ارسله اليّ لالحقه بفرقة فرسان الملك . وقد فوجئوا بحضور دي جوساك وكاهوساك وبيكارات واثنين من حرس الكردينال ويبدو انهم لحقوا برجالي الثلاثة عمداً للتحرش بهم ، وازاء هذا التحدي تناسوا مشاكلهم الخاصة ، واندفعوا بحماسة يدافعون عن شرف فرقتهم ، ولا شك ان جلالتك تعلم ان فرسان الملك هم في خدمة الملك دون سواه ، وهم بطبيعة الحال اعداء لحرس الكردينال !

فهز الملك لويس الثالث عشر رأسه أسفاً وعلق على عبارة قائده الاخيرة بقوله :

– اعلم ذلك يا تريفيل ، ويؤسفني جداً ، ان ارى في فرنسا فريقين او بالاحرى نفوذين يتصارعان في المملكة ، ولكن تأكد ان لكل شيء نهاية ...

وتابع القائد دي تريفيل حديثه واسهب في وصف المعركة ،

وكيف تمكن رجاله بمعونه ذلك الشاب الغاسقوني من اصابة اربعة من حرس الكردينال بجراح بليغة واستسلام الخامس .
ولما انتهى دي تريفيل من حديثه هتف الملك مغتبطاً :
— حقا انه لنصر مبين لرجالك يا عزيزي دي تريفيل ، ولكن من هو ذلك الشاب الغاسقوني ؟!
اجابه دي تريفيل :
— انه شاب ناشيء يا مولاي، ولكنه يتمتع بجرأة وبسالة تدعو للاعجاب والتقدير ، واسمح لي يا مولاي ان ازكيه لجلالتك ، بعد ان ابدى شجاعة ونبلاً نادرين في تلك المعركة، فقد تناسى حقده وانضم عن طيب خاطر الى فرسان الملك واشتبك مع قائد حرس الكردينال دي جوساك بمبارزة حامية الوطيس، خرج منها منتصراً ، بعد ان اصاب دي جوساك بجرح بليغ في كتفه جعله ينطرح ارضا ، فبادره الملك بقوله :
— وما اسم الشاب الذي جرح دي جوساك ؟!
دارتنيان يا مولاي ، وهو ابن لاحد اصدقائي القدماء ، وقد كان فارساً مغواراً خدم جلالة والدك باخلاص وامانة في حرب الانصار .
— اود رؤية هذا الشاب يا دي تريفيل !
— متى يرغب مولاي ان يتشرف الشاب بمقابلة جلالتكم .
— غداً عند الظهر في قصر اللوفر ، ولا تنس ان تصطحب معك الفرسان الثلاثة الذين اشتركوا في المعركة لاشكرهم ، لان الرجال المخلصين الامناء قلائل في هذه الايام !

واري ان تأتي بهم الى جناحي الخاص من باب القصر الخلفي، لكي لا يثير قدومهم ريبة الكردينال .

ـ سمعاً وطاعة يا مولاي !

وحوّل الملك نظره الى ناحية اخرى ، علامــة على انتهاء الحديث مع دي تريفيل ، الذي انسحب بعد ان حيا الملك بانحناءة واسرع الى قصره يزف الى الفرسان الاربعــة آتوس وبورتوس واراميس ودارتنيان ، بشرى تعطف الملك بمقابلتهم غداً ، ليشكرهم على اخلاصهم واندفاعهم في المحافظة على كرامة الفرقة التي ينتمون اليها ..

فقابلوا هذه اللفتة الملكية بالغبطة والارتياح ، وكان اكثرهم سروراً وحماسة لهذه الزيارة ، الشاب دارتنيان الذي علق آمالاً كبيرة عليها .

وبكر الفرسان في الذهاب الى فراشهم ليكونوا على استعداد تام في صباح اليوم التالي لمقابلة جلالة الملك ، على احسن حال .

وفي الصباح قصد دارتنيان لمقابلة اصدقائه الجدد ، فوجدهم قد ارتدوا احسن ملابسهم استعداداً للمقابلة الملكية ، ولما كان لديهم متسعاً من الوقت فقد اقترح بورتوس بان يقصدوا نادياً للفروسية قريب من حدائق اللوكسمبورغ ، فقرر الفرسان الاربعة الذهاب الى ذلك النادي لتمضية الوقت ريثما يحين موعد المقابلة .

وتشاء الصدف السيئة ان يتورط دارتنيان بمشكلة جديدة مع احد فرسان الكردينال ريشليو المدعو « برناجو » ، فما كان من

دارتنيان الا ان تحداه باباء وطلبه الى المبارزة حالاً ، مما جعل فارس الكردينال المعتد بنفسه يستاء من تجاهل ذلك الشاب لشهرته الواسعة في ميدان الفروسية .

وخرج الاثنان من النادي الى الشارع الذي كان خالياً من المارة ، وتبعهما اتوس وفارس آخر من اتباع الكردينال كشاهدين ، والتحم السيفان في مبارزة دامية بين شاب مغامر لا يعرف للخوف معنى ، وبين فارس مجرب شديد المراس يحسب له الف حساب .. هو « بوناجو ». ولاقى فارس الكردينال المجرب الأمرين في مناوشة دارتنيان ، وعجز رغم ما بذله من براعة وجهد عن النيل منه .. وانتهز دارتنيان وضع خصمه المحرج ، وتمكن بعد دقائق قليلة من ان يصوب نصل سيفه الى كتف « بوناجو » بضربة بارعة من ضرباته الفنية ، ويصيبه بجرح بليغ .. وما كان من « بوناجو » الا ان صاح باعلى صوته طالباً النجدة من رفاقه فرسان الكردينال ، ليجهزوا على الشاب الارعن الذي اصابه بجرح ، فبادر الى نجدته اثنان من حرس الكردينال ، وهجما على دارتنيان يحاولان الفتك به ، الا ان رفاقه اتوس وبورتوس واراميس ، بادروا في اللحظة الاخيرة لانقاذه ، واشتبكوا مع فرسان الكردينال بمعركة جديدة ، كانت الغلبة فيها لرفاق دارتنيان . ولما ادرك بوناجو وفارسا الكردينال حرج مركزهم ، هرولوا مسرعين يطرقون باب قصر الدوق دي ترمويل القريب من مكان الحادث ، والمعروف عن هذا الدوق انه من اعداء الملك ، ومن المقربين من الكردينال ريشليو ..

وخرج عدد من حرس الدوق لنجدة رجال الكردينال ، وجردوا سيوفهم محاولين الهجوم على فرسان الملك الاربعة ، الذين بدورهم راحوا يصيحون طالبين النجدة وتبرع احد المارة بالوصول الى قصر دي تريفيل ينقل تفاصيل الحادث ويعلن ان رفاقهم في خطر. وفي لحظات معدودة كانت حدائق اللوكسمبورغ قد تحولت الى ساحة حرب تعج بفرسان الملك الذين اسرعوا بالمئات لنجدة رفاقهم .

ودارت الدائرة عـــلى فرسان الكردينال وحلفائهم حرس دي ترمويل ، فارتكن الجميع الى الفرار ، ولجأوا الى قصر الدوق بعد ان احكموا اغلاق الباب الكبير خلفهم .

وتكاثر عدد فرسان الملك والجنود ، وراحوا يحتشدون امام باب القصر متحدين الفرسان الجبناء الذين فروا من المعركة ، واقترح احدهم تحطيم الباب او اشعال النار بالقصر لارغام المتحصنين بالداخل على الاستسلام وكادت تنفذ الخطة لولا حكمة اتوس الذي صاح برفاقه قائلاً :

ــ هلموا الى قصر اللوفر ، لنروي لجلالة الملك تفاصيل الحادثة كما جرت كيلا يشوه الكردينال الحقيقة كما فعل في السابق .

وعند باب قصر اللوفر الخلفي كان القائد دي تريفيل بانتظارهم على احر من الجمر ، بعد ان علم بالحادثة . . .

ولما دخل دي تريفيل مع فرسانه الاربعة الى اللوفر ، قيل له ان جـــلالة الملك قد ذهب ليصطاد في غابة سان جرمان ، ولم يعد بعد .

فبان الاستيـــاء والقلق على وجه دي تريفيل وسأل رئيس الحجاب :

-- وهل كان جلالته عازمـــاً على الصيد امس ؟

-- كلا يا سيدي .

-- وهل قابل جلالته نيافة الكردينال اليوم ؟

-- لا اعتقد ، ألا انني شاهدت عربة نيافته معدة ، وقيل لي انها قاصدة غابة سان جرمان .

واكتفى دي تريفيل بما سمعه من رئيس الحجاب ، والتفت الى رجاله يخاطبهم :

-- انني مضطر ان اقابل جلالة الملك هـــذا المساء ، اما انتم فانصحكم بألا تفعلوا ذلك ، لان نيافة الكردينال قد سبقنـا الى ابلاغ جلالته تفاصيل حادثة اليوم على طريقته الخاصة .

وعاد القائد دي تريفيل مع فرسانه الاربعة الى قصره ، يفكر في مخرج المأزق الحرج الذي وضعه فيه فرسانه ، وفتقت له الحيلة بان يكون البادىء في تقديم الشكوى والاحتجاج على الاعتداء الذي تعرض له رجاله ، فبادر الى ايفاد احد رسله مع كتـــاب خاص الى الدوق دي ترمويل ، يحتج فيه على اعتداء رجاله ، وقد رد دي ترمويل بانه يستغرب هذا الاحتجاج ، لانه يعتبر ان فرسان الملك هم البادئون في الاعتداء . لا سيما وان رجال دي تريفيل قد هاجموا قصره وحـاولوا تحطيم بابه واشعال النار فيه .

واستمرت المخابرات بين الدوق والقائد دي تريفيل ، واصر كل منهما على موقفه ، واخيراً اعتزم دي تريفيل ان يذهب بنفسه

لمقابلة الدوق في قصره ، ويحاول تسوية القضية معه ، قبل ان تصل الى مسامع الملك .

ونفذ قراره فوراً ، وقصد الى قصر دى ترمويل الذي قابله بادب ، وافتتح دي تريفيل الحديث قائلاً :

— لقد وجدت انه من الافضل ان احضر بنفسي الى قصرك لتسوية هذا الخلاف الذي شب بيننا بطريقة حبية .

اجابه الدوق :

— حباً وكرامة ... ومع ذلك فاني اسمح لنفسي بان ألفت نظرك الى ان رجالك هم المسؤولون عن المعركة .

اجابه دي تريفيل بهدوء :

— قبل ان تدخل في التفاصيل يا سيدي الدوق ، لديّ اقتراح يحسم الخلاف بيننا في هذه القضية هو ان نجعل الحكم بيننا في هذه القضيه ، الضابط « برناجو » الذي اصيب في تلك المعركة فاين هو الآن ؟!

— انه ما يزال في قصري ، وحالته سيئة جداً ، فهو مصاب بضربة سيف نفذت الى الرئه اليمنى .

— وهل مازال محتفظاً بوعيه الكامل ؟

— لقد استعاد وعيه منذ ساعات ، ولكنه يتكلم بصعوبة ..

— اذن فلنذهب اليه ونسأله من المسؤول عن هذا الاشتباك واؤكد لك سلفاً يا سيدي الدوق ، انني اقبل بقراره مهما كانت النتيجة .

واطرق الدوق دي ترمويل يفكر بهذا الاقتراح ، ثم مـــا

لبث ان وافق عليه ...

وتوجه الاثنان الى غرفة الجريح الذى كان يتأوه في سريره من فرط الالم وهو في حالة يرثى لها ، الا انه كان في كامل وعيه ، اذ ما ان شاهد الدوق يقف الى جنب سريره حتى حاول النهوض فمنعه الدوق من الاتيان باية حركة خشية ان يعاوده النزيف من جرحه .

واقترب دي تريفيل من الدوق وهمس باذنه ، بان يتولى بنفسه استجواب الجريح ومعرفة المسؤول الحقيقي عن الحادث ؛ وسمع دي ترمويل من فم الجريح الحقيقة المجردة ، والتي تدين حرس الكردينال بالتحرش عمداً بفرسان الملك .

فافتر ثغر القائد دي تريفيل عن ابتسامة ارتياح ورضى ، واستأذن الدوق بالانصراف بعد ان تمنى للجريح المسكين شفاء عاجلا ، واسرع الى قصره يدعو الفرسان الاربعة لمشاركته طعام الغداء .

وبعد الساعة السادسة مساء ، قصد القائد دي تريفيل مع فرسانه الاربعة الى قصر اللوفر لمقابلة الملك . وكان جلالته لم يرجع من رحلة الصيد ، فدخل دي تريفيل مع رجاله الى الردهة المجاورة لحجرة الملك ، ينتظرون عودته ، ولم تمض على وجودهم دقائق قليلة حتى فتح الباب الكبير واعلن عن قدوم جلالة الملك لويس الثالث عشر ، واجتاز جلالته الردهة متجها نحو غرفته وكان ما يزال في لباس الصيد ، يحمل بيمينه سوطاً يلوح به بعصبية ظاهرة ، وقبل ان يدخل الى حجرته القى نظرة عابرة على الحضور ، لم

ـ وهل جئت لتحتمي به ؟

فأجابته بشيء من السخرية :

ـ لا اقصد ذلك ، بل جئت لسبب آخر ..

فسألها دارتنيان :

ـ وما هو هذا السبب ؟

اجابته :

ـ لا يمكن التصريح به ، لانه سر خطير لا يخصني .

فتنبه دارتنيان لامر وقال :

ـ اعتقد ان هـذا المكان لا يصلح لتبادل الاسرار ، خاصة وان الرجال الذين اختطفوك لا بد ان يحضروا الى هـــذا المنزل ليتعقبوك .

اجابته :

ـ انك على حق ، دعنا نغادر هذا المنزل حالاً .

وما ان تفوهت بالعبارة الاخيرة ، حتى تقدمت من دارتنيان تتأبط ذراعه وتسرع بالخروج من المنزل ..

ولما ابتعدا عن المنزل مسافة طويلة التفت دارتنيان الى السيدة الجميلة يسألها :

ـ الى اين تريدين ان اوصلك يا سيدتي ؟

اجابته :

ـ انني لا اعرف ماذا افعل .. فقد كنت عازمة على الاتصال بالسيد دي لابورت عن طريق زوجي ، لاحصل على التعليمات الجديدة التي يجب ان اسلكها ، وأقف على التطورات الاخيرة التي جرت

تريفيـــل :

ـ وهل عينتك قائداً لفرقة حرسي ، لكي تتغاضى عن اخطاء بعضهم ، وتشجعهم على قتل رجل بريء ، ومهاجمة قصر احــد النبلاء لاحراقه دون ان تحرك ساكنا ، وتضع حداً لتصرفاتهم الشاذة ، وتطرح بالسجن المسؤولين عن هذا الحادث الفظيع ؟!

فبادره دي تريفيل :

ـ جئت يا مولاي اطلب مكافأة جديدة لفرسان جلالتك ، لانهم قاموا بواجب يستحقون الشكر والثناء عليه .

واجابه الملك ساخراً :

ـ وهل تريد ان تقول ان فرسانك اتوس وبورتوس واراميس مع رفيقهم الغاسقوني كانوا ضحية اعتداء جديد من قبل المسكين «برناجو» ؟ انك لن تحاول اقناعي بانهم لم يحاصروا قصر الدوق دي ترمويل ويحاولوا احراقه !.. رغم انه لم يتعرض لمثل هذه المحاولة ايام الحرب الاخيرة ... عندما كان قصره مركزاً رئيسيا لجماعة « الهوكنوت » .

فبان الاستياء على وجه دي تريفيل وقال :

ـ ومن الذي تبرع بابلاغك هذه المعلومات الخاطئة يامولاي؟

اجابه الملك بضيق :

ـ اولم تدرك من هو الذي بادر الى ابلاغي هذه المعلومات . انه هو الذي يلاحقني بطلباته واحتجاجاته التي لا نهاية لها ...

اجابه دي تريفيل :

ـ انا لا ارى يا مولاي ان فوق سلطتك ، الا سلطة الله عز

وجل .

- اريد ان اقول ان الذي نقل لي تفاصيل الحادث الاخير هو نيافة الكردينال بنفسه .

- ان نيافته يا مولاي لا يتمتع بالحصانة والعصمة التي يتمتع بها قداسة البابا .. ولا اريد ان اقول اكثر من ذلك .

- وماذا تعني بقولك هذا يا دي تريفيل ؟

- اعني ان قداسة البابا وحده وهو الذي يتمتع بالعصمة ، وان هذه العصمة لاتشمل الكرادلة امثال الكردينال ريشليو .

وهل تريد ان تقول ان نيافته يحاول خداعي ... وخيانتي ، اذن انت تتهمه ؟!

كلا يا مولاي ، فانا اعني ان نيافته يخدع نفسه ويضللها ، وازيد ان نيافته قد تسرع في توجيه الاتهام الى فرسان جلالتك ، قبل ان يطلع بنفسه على تفاصيل الحادث .

- ان الاتهام موجه من قبل الدوق دي ترمويل .. فماذا تقول فيه ؟

- اعتقد ان دي ترمويل رجل نبيل وصادق ، وان شرفه يمنعه من ان يشوه الحقائق ، ولهذا فانا اصر على دعوته شخصياً للوقوف منه على تفاصيل الحادث والمسؤول عنه .

فرحب الملك بهذا الاقتراح وامر رئيس حجابه باستدعاء الدوق دي ترمويل لمقابلة جلالته لامر هام .

ثم التفت الى دي تريفيل وخاطبه :

- والآن يمكنك الانصراف ، وموعدنا غداً صباحاً .

وعاد دي تريفيل مع رجاله الاربعـة الى قصره ، مضطرب البال ، وبات ليلته يتقلب في فراشه على احر من الجمر ، بإنتظار بزوغ فجر اليوم التالي ، لمعرفة ما سيسفر عنه الصراع العنيف بينه وبين الكردينال .

وما ان طلع فجر اليوم التالي ، حتى اسرع دي تريفيـل الى قصر اللوفر مع فرسانه الاربعـة . آتوس وبورتوس واراميس ودارتنيان ، وعندما دخل الى الردهـــة المجاورة لحجرة الملك ، صادف رئيس الحجاب الذي عهد اليه الملك باستدعاء الدوق دي ترمويل ، فابلغه ان الدوق قد سبقه منذ دقائق الى مقابلةجلالته.

فبدا الارتياح على وجه دي تريفيل ، وجلس ينتظر دوره .

وبعد فترة انتظار لم تدم سوى دقائق قليلة ، خرج الدوق من قاعة الملك ، وما ان لمح دي تريفيل حتى اقـترب منه وبادره بقـــوله :

ـ لقـــد استدعاني جلالة الملك يستوضحني عن الحادث الذي جرى بقرب قصري ، وقد رويت لجـلالته التفـاصيل كما جرت ، وصارحت جلالته بان رجال الكردينال كانوا البادئين بالتحرش .

فشاع السرور الارتياح على محيا القائد دي تريفيل وقال :

ـ لقد كنت واثقا من نبلك وشهامتك يا سيدي الدوق ، ولهذا رجوت من جلالته ان يستفسر منك عن الحادث ، فشكراً لك يا سيدي الدوق ، واحمـد الله انه مـا يزال في فرنسا رجال يتحلون بالنبل والكرامة ، واسمح لي ان اتشرف واعتبر نفسي صديقاً لك منذ الساعة ...

ويبدو ان الملك لويس الثالث عشر ، كان يصغي الى الحوار الذي يدور بين الدوق وقائد حرسه ، فاقترب من باب غرفته ووجه كلامه الى دي تريفيل قائلا :

ـ اهنئك واغبطك يا عزيزي دي تريفيل على هذه الصداقة الجديدة ، وارجو ان تبلغ الدوق انني انا ايضاً اعتبر نفسي من اصدقائه ، مع انه انقطع عن زيارتنا منذ ثلاثة سنين ، بلا مبرر. قل له هذا عن لساني ، لان مثل هذه الامور لا يمكن للملك ان يقولها بنفسه .

فبان التأثر على وجه الدوق وقال :

ـ شكراً والف شكر يا مولاي على هذا الشرف العظيم الذي اوليتني اياه ... وثق يا مولاي بانني سأظل من اخلص رعاياك واكثرهم اندفاعاً في الدفاع عن عرشك ...

ـ حسناً .. اذن فانت سمعت يا دوق ما قلت لقائدي دي تريفيل .. وتأكد انني اعني ما اقوله يا عزيزي دي ترمويل .

وكان الملك قد تقدم بضع خطوات ، حتى اصبح في وسط الردهة ، في اللحظة التي انحنى الدوق فيها حتى كادت جبهته تلامس الارض مكرراً شكره وولاءه لجلالته غادر الردهة .

وفرك الملك يديه دلالة الانشراح ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة . ثم التفت الى دي تريفيل يسأله :

ـ اين فرسانك الاربعة البواسل ؟

ـ انهم في ساحة القصر يا مولاي ، ينتظرون اوامر جلالتك .

ـ اسرع باحضارهم الى هنا .!

وفي لحظات معدودات كان الفرسان الاربعة يقفون في حضرة الملك لويس الثالث عشر ، وبعد ان تفقد جلالته فرسان فرقته الثلاثة اتوس وبورتوس واراميس ، التفت الى دي تريفيل وقال :

— اين الشاب الغسقوني ؟!

وكان دارتنيان في تلك اللحظه منزوياً في طرف الردهة ، يراقب عن كثب ما يجري ويصغي الى اقوال الملك وامارات الغبطة تعلو وجهه ، ولما سمع عبارة الملك الاخيرة ، خطا الى الامام ، وانحنى لجلالته باحترام كلي ، ثم راح يروي تفاصيل المبارزة مع رجال الكردينال بلهجة غسقونية ساحرة ، استهوت الملك ، واشاعت الانشراح في نفسه فهتف قائلاً :

— مرحى ايها الابطال ، اظنكم مرتاحين الى نتيجة مغامرتكم الاولى والثانية ، مسكين الكردينال اني ارثي لحاله ، فقد اصيب سبعة من خيرة رجاله خلال يومين .

ثم التفت جلالته الى دي تريفيل وخاطبه :

— ارى ان تلحق هذا البطل الغاسقوني بفرقة السيد دي ايسار ، زوج شقيقتك ، على ان تضمه في المستقبل الى فرقة الحرس . ووصيتي الاخيرة لكم ايها الفرسان بأن لا تفترقوا عن بعضكم ، وتظلوا متضامنين .

فاحنى الرجال الاربعة رؤوسهم وهتفوا بحياة جلالته في صوت واحد .

وقبل ان يستأذنوا بالانصراف منحهم الملك اربعين ديناراً ذهبياً مكافأة لهم على بسالتهم .

٧

عندما يلهو فرسان الملك

•

عندما اصبح الفرسان الاربعة خارج قصر اللوفر ، استشار دارتنيان رفاقه في الطريقة التي ينفق فيها نصيبه من منحة الملك وقدرها عشرة دنانير ذهبية ، فاشار عليه آتوس ان يستأجر بجزء من المنحة ، خادما نشيطا يدير شؤونه ويسهر على راحته ، اما اراميس فقد اشار عليه ان يتخذ عشيقة شقراء يستمتع بجمالها في لياليه ... واقترح بورتوس حلاً عمليا قابلاً للتنفيذ حالا ، وهو دعوتهم على حساب دارتنيان الى غداء فاخر في حانة « غابة الصنوبر » فرحب دارتنيان بهذا الاقتراح ، وبادر الى دعوة رفاقه الثلاثة الى الحانة وهناك طلب لهم غداء فاخراً وخمراً معتقة. وفي اثناء المأدبة قدم بورتوس لصديقه دارتنيان خادما يدعى «بلانشيه» ونصحه بان يتخذه تابعا له ، فهو قنوع ومخلص فقبله دارتنيان .

واحس هذا الخادم الساذج بالفرح الشديد ، عندما رأى

سيده الجديد دارتنيان يخرج من جيبه حفنة من الدنانير الذهبية ليدفع ثمن الغداء ، وبات على اليقين ان الحظ قــد حالفه وضمن لنفسه مستقبلا باهراً في خدمة دارتنيان . الا أنه اصيب بخيبة امل ، عندما وصل إلى شقة سيده ووجدها مؤلفة من حجرة نوم واحدة وسرير واحد والى جانبها غرفة صغيرة خالية من الاثاث اضطر ان يتخذها مكانا لنومه .

وكان لآتوس خادم يدعي « غريمو » اشتهر بانه شديد الكتمان لا يمكن ان تنتزع منه اي سر عن سيده .

وما دام الحديث عن اتوس ، فالمعروف عنه ، انه منذ خمس سنين ، وهو يعيش حياة مليئة بالغموض والاسرار ، حتى ان صديقيه المقربين بورتوس واراميس ، لم يستطيعا ازاحة الستار عن جزء من حياته الخاصة . فكان دائم العبوس ، لا يفتر ثغره عن ابتسامة مرحة ، يتحدث بعبارات كثيرة ومعبرة ، وكان معروفا بين زملائه فرسان الملك ، بانه يقول ما يريده بعبارات مختصرة بعيدة عن التحقيق والتزويق . وكان خادمه « غريمو » يحترمه ويطيعه طاعة عمياء وينفذ اوامره بحذافيرها .

اما خادم بورتوس فكان يدعى « بونيفاس » الا ان هــذا الاسم لم يعجب بورتوس فأسماه « موسكيتون » ، وكان من أصل نورماندي ولما التحق بخدمة سيده ، اشترط على بورتوس ان يؤمن له الطعام واللباس وقبل بورتوس بهذه الشروط . فكان يحول ثيابه القديمة الى خادمه الذي يسلمها بدوره الى خياط سيده فيصنع منها ملابس لائقة لموسكيتون الذي يرتديها ويفاخر بها

باقي الخدم من اقرانه .

وفي كل مرة كان يمر بورتوس تحت شرفة غرفته الواقعة في شارع الحطة القديمة ، كان يرى خادمه موسكيتون واقفاً في الشرفة يختال في ثوبه الجميل ، فيرفع بورتوس رأسه مباهياً ويشير بيده الى فوق قائلاً لرفاقه :

ـ هو ذا مسكني ... وهذا خادمي المطيع !

ولكنه لم يكن يدعو احداً من رفاقه الفرسان الى زيارة مسكنه ، باستثناء اتوس واراميس ، لذلك كان الجميع يجهلون وضع بورتوس وظروفه الخاصة ، ويعتقدون انه يملك ثروة ضخمة ويتمتع بحياة سعيدة !

اما خادم اراميس فكان يدعى « بازان » وهو في العقد الرابع من عمره ، هادىء الطبع كتوم للسر ، امين ومخلص اخلاصاً لا تنال منه المحن . ولما كان سيده قد انضم في الماضي ، الى سلك الكهنوت ، فقد غلبت عليه طبيعة رجال الدين الاتقياء فكان يرتدي دائماً ملابس سوداء ، ويحرص على مطالعة كتب اللاهوت في اوقات فراغه ، وفيما عدا ذلك كان لا يتدخل بشؤون سيده .

وعندما اصبح دارتنيان يؤلف جزءاً من مجموعة الفرسان ، فقد حاول ان يتعرف على اوضاع رفاقه الاجتماعية ومشاكلهم العاطفية ولكن لم يحصل على شيء ذي بال ، وكل ما علمه ان آتوس ينتمي الى طبقة الاشراف وانه اصيب بصدمة اليمة في حياته العاطفية ، فان هناك مأساة رهيبة حدثت له في الماضي ، سممت حياته . .

ولهذا لم يكن يتحدث عن النساء قطعياً . وكان يقطن مع خادمه غريمو في شارع « فيرو » القريب من حـــدائق اللوكسمبورغ ، في شقة مؤلفة من غرفتين مفروشتين باثاث بسيط ، في نزل تملكه سيدة في العقد الثالث من عمرها ، ما تزال تحتفظ بمسحة من الجمال والفتنة ، وطالما حاولت التحرش باتوس وجعله يميل اليها .. الا ان محاولاتها باءت بالفشل ، اذ كان اتوس كعــــادته ، يتجاهلها ويعاملها بشيء من الاحترام المقرون بالبرود .

وكان يحتفظ في حجرة نومه ببعض الادوات والاسلحة الاثرية الثمينة ومن بينها سيف ثمين يعود تاريخه الى عهد الملك فرنسوا الاول ، وقد قدر ثمنه بمئتي دينار ذهباً . ومع ان آتوس قد مر بضيق مالي ، الا انه لم يفكر ابداً ببيع هذا السيف الثمين . وذات مرة كان بورتوس على موعد مع عشيقته الحسناء « الدوقة » فتوسل الى آتوس ان يعيره السيف الاثري ليحمله في زيارته فابدى أتوس اسفه الشديد وبادر الى تقديم جميع ما يملك من تحف نادرة الى بورتوس قائلاً له :

ــ خذ جميع ما املك .. اما السيف فلن انزعه من مـــكانه المعلق فيه ، الا عندما افارق هذا المنزل !

وكان اتوس قد علق الى جـــانب السيف الاثري ، صورة زيتية من عهد هنري الثالث تمثل سيداً من نبلاء فرنسا في ذلك العهد ، والناظر الى ملامح هذا السيد يلاحظ دون عناء وجود شبه ظاهر بينه وبين آتوس .. مما يستدل انه احد احفـــاده البــــارزين .

وكانت شقة بورتوس تقع في شارع « فيوكولومبيه » ومؤلفة

من غرفتين واسعتين وشرفة .

اما اراميس فكان يقطن مع خادمه بازان في شقة متواضعة مؤلفة من حجرة نوم وغرفة صغيرة للطعام تقع في الطابق الارضي من احدى البنايات .

والشيء الراهن ان الفرسان الثلاثة رغم صداقتهم المتينة واخلاصهم لبعضهم البعض ، كان كل واحد منهم يخفي عن صديقه بعض الاسرار الخاصة به ، حتى ان اسماءهم الحقيقية لم يصارحوا بها بعضهم البعض ، فقد عرفوا باسمائهم المستعارة : آتوس . بورتوس واراميس كما اشتهروا بها بين فرقة فرسان الملك .

وتوطدت الصداقة المتينة واخوة السلاح بين الفرسان الثلاثة ودارتنيان ، وسارت الامور بينهم على ما يرام ردحاً من الزمن . فكان دارتنيان بوصفه فارساً في فرقة القائد «دي زيسار» يرافق اصدقاءه الثلاثة كل صباح ليحصل على كلمة السر من القائد دي تريفيل .

وكسب دارتنيان محبة وتقدير جميع رفاقه الحرس ، لدماثة اخلاقه وتواضعه ، كما ازداد اعجاب دي تريفيل بمواطنه الغاسقوني ، فكان لا يفتأ يذكره لدى الملك ويوصي به خيراً .

ومنذ الساعة التي انضم بها دارتنيان الى فرقة «دي زيسار» ابدى الفرسان الثلاثة رغبتهم في الالتحاق بذات الفرقة ليكونوا الى جانب صديقهم ورفيقهم .

٨

مؤامرات البلاط

•

ومرت الايام تلو الايام والفرسان الاربعة ينعمون بالعيش الرضي والبحبوحة، دون ان يفكروا بالعسر الذي ينتظرهم عندما تفرغ جيوبهم من الدنانير الذهبية التي نالوها مكافأة من الملك .

وجاء هـذا اليوم ، والفوا انفسهم خالي الوفاض لا يملكون درهماً ، وراحوا يتسكعون في الحانات باحثين عن صديق موسر يضيفهم على غداء او عشاء دسم وزجاجـــة من الخمر المعتقة . واستمرت ايام الضيق وطالت والرفاق الاربعة ينتظرون ساعة الفرج !

وذات يوم فوجىء دارتنيان بزيارة رجل يدعى « بوناسيو » وقدم نفسه بوصفه صاحب المنزل الذي يسكنه الشاب ، واخبره بان امرأته الحسناء والتي تعمل وصيفة الملكة ، وهي على جانب عظيم من الجمال والذكاء ، قد اختطفت ليـلة امس ، بينما كانت

عائدة الى المنزل ، وقال انه يشك بان خاطفي زوجته هم اشخاص يعملون لمصلحة رجل ذي نفوذ كبير ، وان هذا الرجل النافذ راح يتعقب خطواتها منذ اشهر .. وانه اوعز لرجاله باختطافها ليجبرها على افشاء اسرار خطيرة لها علاقة بالملكة .

وانهى بوناسيو حديثـــه الى دارتنيان : ان زوجته شديدة الاخلاص له ، وقد اسرت اليه قبل اختفائها بيومين ، بانها مضطرة للبقاء الى جانب الملكة معظم ايام الاسبوع ، لان مولاتها في حالة قلق نفساني انتابها منذ ايام .

ولما انتهى الرجل من حديثه سأله دارتنيان :

– وما سبب المخاوف التي تنتاب الملكة ؟

اجابه الرجل :.

– سببها ان الكردينال ورجاله قد زوروا عن لسان الملكة رسالة بعثوا بهـا الى الدوق دي بوكنغهام ، ليحضر الى باريس ، بقصد ايقاعه بمكيدة ينصبها له الكردينال للتشهير بالملكة واخضاعها لاوامره .

وسأله دارتنيان متعجباً :

– وما دخل زوجتك بهذه المكيدة ؟

– انهم يعرفون اخلاص زوجتي للملكة ، ولهذا فهم يحاولون ابعادها عن مولاتها ، واجبارها على افشاء سر الملكة ، واغرائها بالعمل لمصلحة الكردينال .

– وهل تعرف الرجل الذي تعقب زوجتك ؟

– لقد وقع نظري عليه مرة واحدة ، وكان ذلك قبل اختفاء

امرأتي بايام معدودة ، وكان يرتدي زي النبـــلاء . واسهب بوناسيو في وصف الرجل ، بما حمل دارتنيان على الجزم ، بان هذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على الرجل المجهول الذي تصدى له في نزل « مينغ » وسرق منه رسالة والده .

وقبل ان ينصرف بوناسيو ، اخرج من جيبـه رسالة قال انه استلمها صباح اليوم ، فتناولها دارتنيان وفضها وقرأ فيها العبارة التالية :

– لا تحاول البحث عن امرأتك ، لانها ستعود اليك قريباً .. واذا حاولت ان تقوم بأي مجهود للبحث عنها ، فتأكد انك تحكم عليها وعليك بالموت !..

فرفع دارتنيان رأسه وخاطب الرجل :

– انهم يهددونك بالموت انت وزوجتك !

– اجل وان هذا التهديد يرعبني ، فأنا كما ترى لست مـــن رجال السيف وسجن الباستيل يخيفني !

فربت دارتنيان على كتفـه محاولاً تهدئة روعه وادخـــال الطمأنينة الى نفسه ، بينما استطرد الرجل يقول :

– انني يا سيدي الفارس ، اعرف ان لك صداقات متينة مع عدد مـن فرسان الملك و قائدهم دي تريفيل ... وهم اعـــداء الكردينال . ولهذا جئت راجيـــاً منك ان تمد لي يد المساعدة لانقاذ زوجتي المسكينة .

فاجابه دارتنيان :

– ثق يا سيدي بوناسيو بانني سأبذل جهدي لمساعدتك ...

وبالمناسبة لقد استحق علي بدل ايجـــار الشقة ولم اتمكن مـن تسديدها لك ..

فقاطعه صاحب النزل بقوله :

ـ لاشك ان نفقاتك يا سيدي الفارس عديدة، فلا تزعج نفسك بهذا الامر ... واني اضع تحت تصرفك مبلغ ٥٠ ديناراً لـكي تنفق منها على نفسك .

فشكره دارتنيان من صميم قلبه ، واكـد له بانه سيعمل على انقاذ زوجته بمساعدة رفاقه الفرسان الثـــلاثة آتوس وبورتوس واراميس ، وهم من خيرة فرسان الملك .

وفي هذه الاثناء حانت من بوناسيو التفاتة الى الشارع القريب من خلال النافذة نصاح مذعوراً :

ـ يا الهي ماذا ارى ! انه هو !!

فسأله دارتنيان بلهفة :

ـ ومن هو هذا الذي تعنيه ؟!

فاشار الرجل باصبعه قائلًا :

ـ انظر انه يقف في زاوية من الشارع المقابل لهذه النافذة .. انه يرتدي معطفاً طويلًا ..

فاقترب دارتنيان من النافذة، ونظر من خلالها الى المكان الذي اشار اليه بوناسيو ، وفجأة انتفض في موقفه ، وفي لمح البصر التقط سيفه واسرع يغادر الحجرة بسرعة خاطفة وهو يردد بلهجة حانقة :

ـ أما هذه المرة فلن ينجو من سيفي !

وبينما كان يهبط الدرج بسرعة فائقة اصطدم برفاقه الفرسان

الثلاثة : آتوس وبورتوس واراميس ، فسألوه عن هدفه ، فبادرهم بقوله :

– انه الرجل المجهول الذي سرق رسالة ابي والذي التقيت به في بلدة « مينغ » .

وكان دارتنيان قـد قص على رفاقه مغامراته في تلك البلدة عشرات المرات واعلن في كل مرة رغبته بان يلتقي بذلك الرجل الذي غدر به .

نطق بعبارته هذه واندفـع مهرولاً نحو الشارع تاركاً رفاقه الثلاثة يقفون مذهولين من تصرفاته . . .

٩

دارتنيان يرسم الخطط !

●

وكما توقع رفاقه اتوس وبورتوس واراميس فقد عاد دارتنيان بعد مضي نصف ساعة الى حجرته وهو يلهث من شدة التعب ، والعرق يتصبب من جبينه ، بينما راح يكيل الشتائم والسباب لذلك الرجل المجهول ، الذي اختفى وكأن الارض انشقت وابتلعته !

وصاح به رفيقه اتوس قائلاً :

ـ اولم تتمكن من الظفر به ؟

فأجابه دارتنيان وهو يقذف بسيفه على سريره :

ـ بتُ اعتقد ان هذا الرجل اللعين ، هو الشيطان بعينه ، فلقد تبخر من امامي وكأنه شبح ، فما ان لمحته يستند الى باب منزل مجاور ، حتى اسرعت اليه ، الا انني لم اجد احداً !.. وظننت انه دخل ذلك المنزل ، فرحت اقرع بابه بشدة ، فقيل

لي ان المنزل غير مأهول بالسكان منذ ستة اشهر !

ونادى دارتنيان خادمه بلانشيه وامره بان يذهب الى صاحب المنزل السيد بوناسيو ، ويطلب منه احضار ست زجاجات من نبيذ « بوجانسي » .. ولما سمع حديثه بورتوس هتف به قائلاً :

اذن فانت لك حساب مفتوح مع صاحب المنزل ؟! انني اهنئك على هذه الثقة يا صاح !

فأجابه دارتنيان بخبث :

ـ ابتداء من اليوم فقط ..

ثم راح يروي لرفاقه الثلاثة ما سمعه من صاحب المنزل بوناسيو وكيف اختطفت امرأته ، لكونها وصيفة الملكة ، وقال ان الزوج يتهم اعداء الملكة ، اي الكردينال ريشليو واتباعه في تدبير اختطاف زوجته .

فأجابه آتوس ، وكان قد تذوق النبيذ الجيد الذي ارسله صاحب المنزل :

ان هذه القضية خطيرة وممتعة بالوقت نفسه ، وكل ما فيها انها ولا شك ، ستقودنا الى مغامرة جديدة مع رجال الكردينال « الاشاوس » دفاعاً عن الملكة .

فقاطعه بورتوس قائلاً :

ـ وعن شخص آخر له صلة وثيقة بالملكة ..

اجابه آتوس :

ـ تريد ان تقول الدوق دي بوكنغهام عشيق الملكة ، حقاً انه جدير بان يستولي على قلب الملكة ، فهو شاب جميل ، يتحلى

بجميع الصفات الطيبة ، الا تذكر يوم نثر علينا الذهب في زيارته الاخيرة ؟!

فعلق دارتنيان على ذلك بقوله :

— اصبحت مشوقاً الى رؤية هذا الدوق الانكليزي النبيل ، حتى ولو كان عشيقاً الملكة !.. خاصة وان الكردينال ورجاله يحاربونه ، كما ارجو من صميم فؤادي ان تسنح لنا الفرص لنرد كيد الكردينال ومؤامراته ضد الملكة الى نحره .

فقال آتوس :

— والذي اخشاه ان يكون الدوق بوكنغهام قد جازت عليه الحيلة ، واسرع بالقدوم الى باريس بناء لرسالة مزورة ارسلت اليه باسم الملكة .

فضرب دارتنيان على جبهته وصاح :

— يا آلهي ! بت اجزم ان لاختطاف زوجة بوناسيو وهي وصيفة الملكة ، علاقة مباشرة في قدوم الدوق بوكنغهام الى باريس .

فعلق بورتوس على ذلك بقوله :

— حقاً ان الغاسقونيين يمتازون بذكاء خارق بالاضافة الى بسالتهم !

وهنا هتف اراميس برفاقه قائلاً :

— اسمعوا لقد وقعت لي مصادفة غريبة ليلة امس ، قد يكون لها علاقة وثيقة بموضوعنا .. كنت ليلة امس في زيارة خاصة لاحد العلماء المشتغلين بالتنجيم وعلوم الفلك ، وهو يقطن ناحية مقفرة ..

وبينما كنت اغادر منزله ، التقيت بفتاة رائعة الجمال ، هي حفيدة ذلك الرجل ، وكانت تهم بمغادرة المنزل ، فحييتها وقدمت لها ذراعي لارافقها حتى عربتها الواقفة على مقربة من المنزل ، وفجأة برز لنا رجل طويل القامة تدل ملامحه على انه من النبلاء ، وشبيه بالرجل المجهول الذي يلاحقه دارتنيان ..

فقاطعه دارتنيان بقوله :

ـ لا شك انه هو بلحمه وشحمه !

وتابع اراميس حديثه :

ـ ... واقترب الرجل مني ، يتبعه خمسة رجال ، يسيرون على بعد خطوات منه ، وفي لهجة مهذبة خاطبني بقوله :

ـ هل تسمح يا سيـــدي الدوق ! ثم التفت الى الحسناء التي تتأبط ذراعي وخاطبها بقوله :

. وانت يا سيدتي ... تفضلي الى عربتي فهي بانتظارك !

وبدون ضجة او اية مقاومة ، اتجهت الفتـاة نحو العربة ...

فقاطعه دارتنيان بقوله :

ـ اعتقد انه حسبك الدوق بوكنغهام كما حسب الفتاة الملكة

اجابه اراميس :

ـ ان هذا محتمل جداً .

وعلق بورتوس على هذا الافتراض بقوله :

ـ الواقع ان هناك بعض الشبه بين الدوق واراميس ، ولكن كيف جازت الحيلة عليه ، مع ان اراميس كان يرتـــدي زي فرسان الملك ؟!

فاجابه اراميس :

- لقد كنت ارتدي معطفاً طويلاً يخفي زي الفرسان ، كما كنت اضع على رأسي قبعة عريضة الاطراف اخفت معالم وجهي .

وهنا هتف دارتنيان برفاقه :

- ايها الرفاق ، يجب ان لا نضيع وقتنا سدى ، فعلينا ان نحزم امرنا ونبادر الى البحث عن وصيفة الملكة - زوجة بوناسيو - فهي مفتاح المؤامرة ، لأنها المقربة من الملكة وموضع ثقتها وسرها واعتقد ان وراء هذه المؤامرة رؤوساً كبـــيرة وفي مقدمتها الكردينال ريشيليو !

وفي هذه اللحظة تراءى الى مسامع الفرسان الاربعة ضجة وصراخ صادرين من الطابق الاسفل ، حيث يسكن بوناسيو ، وبعد لحظات معدودة ، فتح الباب واندفع بوناسيو وهو في حالة ذعر ، يصيح :

- انقذوني .. النجدة ايها السادة، لقـــد حضر اربعة رجال مسلحين يحاولون القاء القبض عليّ ..

فانتصب الفرسان واقفين ، وقد وضعوا ايديهم بحركة آليـة على مقابض سيوفهم استعداداً ، بينما صاح بهم دارتنيان قائلاً :

- لا تنسوا ايها الرفاق ان هذا الموقف لا يتطلب شجاعة ، بقدر ما يتطلب دهاء وروية ..

فابدى آتوس اعتراضاً على قول دارتنيان ، الا انه اقتنـــع اخيراً بوجهة نظره .

وفي تلك اللحظة كان رجال الحرس الاربعـة قد وصلوا الى

الطابق العلوي ، ليلحقوا بصاحب ، بوناسيو ، فوقع نظرهم على اربعة فرسان على تمام الاهبة ، فبـــان عليهم التردد ، وحاولوا النكوص على اعقابهم ، الا ان دارتنيان بادرهم بلهجة رقيقة قائلاً :

ـ ادخلوا ايها السادة ، فنحن جميعنا في خدمة جـــلالة الملك ونيافة الكردينال .

وتشجع قائدهم وتقدم الى الامام يخاطب دارتنيان بقوله :

ـ اذن فانتم لا تعترضوا على تنفيذ الاوامر التي نحملها ؟!

فاجابه دارتنيان :

ـ بالعكس ، فنحن نضع سيوفنا لمساعدتك في تنفيذ الاوامر التي تحملونها .

وحاول صاحب المنزل بوناسيو ، ان يستدر عطف الفرسان وحماستهم لحمايته وعدم تسليمه الى حرس الكردينال ، فهمس باذنه بورتوس قائلاً :

ـ لا تقلق يا صاح ، فلا يمكن انقاذك وانقاذ زوجتك ، الا بانتهاج هذه الخطة ، ودع لنا الامر .

وهنا اشار دارتنيان الى الحرس ، بعد ان افسح لهم المجال قائلاً :

ـ هلموا ايها السادة ، ونفذوا الاوامر ، وشكراً لكم على انكم انقذتموني من هذا الرجل الذي جاء يطالبني بايجار الشقة التي اسكنها ويلح في المطالبة ..

وتقدم اثنان من الحرس واخرجا بوناسيو خارج الغرفة ، بينما تظاهر الفرسان الاربعة بعدم الاكتراث ، وبعد ان شكر رئيس

الحرس دارتنيان ورفاقه لحق برجاله وهو غير مصدق انه نجـــا بنفسه مع رجاله .

وما ان اصبح الفرسان الاربعة لوحدهم ، حتى انبرى اتوس يقول :

ـ تباً لنا من فرسان شرفاء ، لا ننجدو رجلاً مسكيناً ، اسرع الى الاحتماء بنا !

فقاطعه بورتوس بقوله :

ـ لا تكن غبياً يا صاح ، لقد احسن دارتنيان صنعاً ، اذ ليس من الحكمة ان نحول دون تنفيـــذ اوامر جاء ينفذها حرس الكردينال .

وبعد مناقشة حامية حول هذه القضية ، اعلن اتوس اقتناعه بما حدث ... بينما اقترح دارتنيان على رفاقه بان يعود كل منهم الى منزله حالاً ، وكأن شيئاً لم يحدث ، استعداداً لما سيقع في المستقبل من مفاجآت وحوادث ؟

١٠

لم يكتف رئيس حرس الكردينال باعتقال صاحب المنزل بوناسيو ، بل اتخذ احتياطات مشددة ،فترك بعض رجاله في الطابق الارضي الذي يقطنه بوناسيو ، واوعز اليهم بان يتحروا كل قادم للمنزل ، واستجوابه بدقة للوقوف على غرضه من الزيارة .

اما شقة دارتنيان الواقعة في الطابق العلوي فكان لها مدخل خاص يؤدي الى حجرته مباشرة ،وكان القادمون اليه لايتعرضون لاية مراقبة أو استجواب من قبل رجال الكردينال المرابطين في الطابق الارضي من المنزل . وعلى اثر الحادثة ، لزم دارتنيان حجرته ، بعد ان اتخذ منها مركزاً لمراقبة ما يجري في الطابق الارضي من حوادث وتطورات ، اذ كان يرى من النافذة الاشخاص الذين يقودهم سوء الطالع الى الوقوع في براثن حرس الكاردينال ، الذين كانوا لا يدعونهم الا بعد ان يمطرونهم بالاسئلة

المحرجة عن الغاية من الزيارة .

وكان دارتنيان ايضاً قد انتزع بعض المربعـــات من ارض حجرته ، وبات باستطاعته ان يسمع بسهولة ما يدور من احاديث بين رجال الكاردينال والقادمين .

وفي هذه الاثناء كان رفاقه الثلاثة يسعون كل من جهته للوقوف على تطورات القضية .

وفي مساء اليوم التالي من القاء القبض على بوناسيو ، ترامى الى سمع دارتنيان حركة غير طبيعية صادرة عن الطابق الارضي ، ثم أعقبها صوت خافت وكأنه صوت امرأة ، فاسرع الى الانبطاح على ارض الغرفة ، يرهف السمع ، فاذا به يسمع صراخ امرأة تستغيث وتقول بصوت مختنق :

ـ اؤكد لكم ايها السادة ، انني ربة هذا البيت ، زوجة السيد بوناسيو ، وانني وصيفة الملكة . . .

فازداد اهتمام دارتنيان بالحوار الذي يجري بين المرأة وحرس الكردينال . وخاطب نفسه قائلاً :

ـ انها زوجة بوناسيو التي نبحث عنها في كل مكان !.

وهنا سمع دارتنيان صوتاً خشناً يجيبها بقوله :

ـ اذن فانت السيدة التي ما برحنا ننتظر عودتها . . .

وبدأ صوت السيدة بوناسيو يخفت شيئاً فشيئاً ، ثم تلاشى ، مما يدل على ان الرجال الاربعة كموا فاها ليمنعوها من الصراخ .

وهنا انتصب الفارس دارتنيان على قدميه ، ونادى . . . مه بلانشيه وامره بان يسرع الى منازل رفاقه الثلاثـــة آتوس . . . رتوس ،

واراميس ، يطلب اليهم الحضور على جناح السرعة ، او يستدعي على الاقل من يجده منهم في منزله، اما هو فقد تمنطق بسيفه، ووثب فوراً من النافذة الى شرفة الطابق الارضي ، وراح يقرع البـاب بعنف ، وما ان فتح الباب حتى اقتحمه شاهراً سيفه .

وفي هذه اللحظة سمعت صرخات عالية وصليل السيوف وجلبة وبعد دقائق كان اربعـــة من ذوي الملابس السوداء من حرس الكردينال يفرون هاربين مذعورين ، بعـــد ان خلفوا وراءهم امتعتهم . . . وهكذا اصبح دارتنيان وحيداً مع السيدة بوناسيو فتقدم منها يحل وثاقها ، وكان قد اغمي عليها من فرط الرعب .

وراح يتأملها بدقة ، فألفاها رائعة الجمـــال ، في الخامسة والعشرين من عمرها ، لهـا بشرة سمراء وعينان زرقاوان وقوام بديع متناسق وتدل ملامحها على انها من سيدات المجتمع الراقي . . وبينا كان دارتنيان منصرفاً الى تأمل فتنتها ، استعادت وعيها ، وراحت تتطلع بشيء من الدهشه الى وجه الفارس الشاب الماثل امامها ، فقابلها بابتسامة مشجعة وأحنى رأسه محيياً ، فمدت له يدها تصافحه بحرارة وقد ارتسمت على ثغرها الشهي ابتسامـة مغرية جذابـة وخاطبته بقولهـــا :

ــ انت الذي انقذتني من اولئك الاوغاد فاسمح لي ان اشكرك من صميم قلبي .

فأجابها دارتنيان :

ــ لم افعل يا سيدتي الا ما يفعله كل شاب شهم ، تجـاه سيدة حسناء مثلك . .

فكرورت له شكرها واردفت تقول :

ـ ولكن ارى ان زوجي غير موجود في المنزل ، وأين هو يا ترى ؟!

اجابها دارتنيان :

ـ ان الذين اقتحموا منزلك هم رجال الكردينال ريشليو ، اما زوجك المسكين فقد ألقي القبض عليه امس وسيق الى سجن الباستيل !

فصاحت :

ـ يا الهي ! أتقول ان زوجي في سجن الباستيـــل ؟! وماذا اقترف حتى يستحق هذه العقوبة ؟

اجابها دارتنيان بخبث :

ـ اعتقد ان جريمته الوحيدة انه زوجك يا سيدتي .

ـ اذن فانت واقف على تفاصيل الحادث منذ بدايته وتعلم انني اختطفت .

ـ اعلم جميع هذه التفاصيل يا سيدتي .. والسؤال الذي لم اجد له جواباً بعـــد ، هو كيف تمكنت من الافلات والعودة الى منزلك ؟

ـ لقد انتهزت فرصة تركي وحيدة في المنزل الذي سجنت فيه فاسرعت الى النزول عن طريق نافذة الغرفة التي وضعت فيها ، مستعينة باغطية السرير كوسيلة للوصول الى ارض الحديقة سالمة ، ومنها اسرعت عائدة الى منزلي لأرى زوجي ..

فقاطعها دارتنيان :

يرتح لها الفارس آتوس ، فخاطب رفاقه مداعباً :

– اعتقد ان مزاج جلالته معكر هـذا المساء ، ولن نحظى بمقابلة سارة ، تتيح لنا الحصول على رتبة « شفاليه » . وكان القائد دي تريفيل قد تهيأ لمقابلة جلالته فالتفت الى رجاله وخاطبهـــم بقوله :

سادخل وحدي لمقابلة جلالته ، لامهد لـــكم الطريق ، فانتظروني ...

ودخل دي تريفيل الى حجرة الملك ، فالفاه في حالة غير طبيعية وكان غارقا في مقعده يلوح بسوطه بعصبية .

وساله دي تريفيل عما يقلقه ، فاجابه بامتعاض ظاهر :

– انني ملك تعس يا دي تريفيل !.. تصور انني قضيت ساعات متواصلة اركض وراء وعل لاصطاده ، فلم يخدمني الحظ .. لقد فر مني .. اختفى كأن الارض ابتلعته ! ان هذا لا يطاق ، والانكى من ذلك كلـه ، ان نيافته لا يدعـني اتمتع بصيدي ، فتراه يلاحقني بطلباتـه واحتجاجاته باستمرار ، فتارة يحدثـــني عن مشاكل فرنسا مع اسبانيا وتارة اخرى عن مشاكلنا مـع النمسا وانكلترا و ...

رصمت جلالته لحظة ، ثم رفع رأسه يخاطب دي تريفيل :

– وبالمناسبة ، اصارحك يا تريفيل بانني مستاء منك !

فاحس تريفيل بهبوب العاصفة واستعد لمجابهة الامر وقال :

– وهل يمكنني يا مولاي معرفة سبب استياء جلالتك ؟

واستطرد الملك يقول وكأنه لم يسمع سؤال قائـــده دي

في قصر اللوفر خلال الايام الثلاثة الماضية ، رفيما اذا كان من خطر ينتظرني اذا قصدت الى هناك ..

فأجابها دارتنيان :

ـ اني عـــلى تمام الاستعداد لان اتولى الاتصال بالسيد دي لابورت .

فراحت تتأمله بضع لحظات . ثم قالت :

ـ انك شاب شهم ، وسافضي اليك بكلمــــة السر التي تتيح لك الدخول من باب خاص الى قصر اللوفر ، وارجو ان تعدني بان تتناسى هذه الكلمة .

اجابها دارتنيان :

ـ اعدك بشرفي انني لن استعمل كلمة السر الا مرة واحدة .

ـ اني اثق بك ثقة عمياء لأن دلائلك تشير الى انك رجـل شهم .

ـ انني افعل ذلك حباً في خدمة الملك والملكة التعسة !

فافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة وقالت :

ـ أين سأنتظر دعوتك ؟

اجابها :

ـ انا على مقربة من منزل أحد رفاقي الفارس آتوس ، وأرى أن تنتظري عودتي في منزله .

فقبلت اقتراحه ودخلا منزل الفارس آتوس ، فوجداه غائباً ، فقادها توا الى حجرة زميله وخاطبها بقوله :

ـ انك هنا في مكان حريز ، وفي مأمن من كل شر واعتداء ،

فارجو أن تقفلي الباب على نفسك من الداخل ، ولا تفتحي الا اذا سمعت الباب يقرع ثلاث قرعات متواصلة .

فهزت رأسها موافقة على تعليماته ، والتفتت اليه تقول :-

— والآن جاء دوري لأسر اليك بكلمة السر لتتمكن من الدخول الى قصر اللوفر ، عليك اولاً ان تشخص الى باب القصر الكائن في شارع الشينيل ، وتسأل عن جرين ، وسيقال لك ماذا تريد منها ، فتجيب بهاتين الكلمتين : « تور و بروكسل » ... وحالاً تفسح أمامك الطريق وتدخل ويكون مَن في الداخل رهن اوامرك . فاطلب مقابلة السيد دي لابورت حالاً ... وهو وصيف الملكة وكاتم اسرارها ... وعندما تقابله ابلغه انني ارغب في مقابلته ههنا في المنزل ولا تنس أن تذكر له عنوان المنزل بالضبط .

فأحنى دارتنيان رأسه احتراماً ، بعد ان ان تزود بنظرة ملية من جمال تلك الغادة الفاتنة ، وغادر المنزل مسرعاً لينفذ أوامرها بعد ان شعر أنها استولت على شغاف قلبه بجمالها الرائع وفتنتها الطاغيـــــة .

وحالفه الحظ ، اذ تمكن من مقابلة السيد دي لابورت ونقل اليه رغبة السيدة بوناسيو الذي أسرع لمقابلتها في منزل اتوس .. بعد ان نصح دارتنيان بأن يعود حالاً الى قصر دي تريفيل ، ليبعد عنه اية شبهة بالتدخل في أمور خطيرة قد تعود عليه بالوبال .. فعمل دارتنيان بنصيحة السيد دي لابورت وبادر لتوه الى قصر دي تريفيل ، فدخله ، وكانت الساعة تعلن العاشرة ، فطلب مقابلة قائد الحرس لامر خطير جداً ، فـــــاسرع دي تريفيل الى

استدعائه الى حجرته الخاصة ، وسأله عن غايته ، فلفق له دارتنيان حوادث وهمية نسجها من خياله تدور حول المؤامرات التي يقوم بها الكردينال واتباعه ضد الملك والملكة والدوق دي بوكنغهام ، دون ان يشير ولو تلميحاً الى الدور الذي لعبه في انقاذ السيدة بوناسيو ، وتسهيل اجتماعها بالسيد دي لابورت .

ولما انتهى من حديثه اثنى القائد دي تريفيل على اهتمامه واخلاصه للملك والملكة وطلب اليه ان يتابع تحرياته وسهره لعرقلة مؤامرات الكردينال ورجاله .

وعاد دارتنيان الى منزله مغتبطاً بنجاح مهمته ...

١١

المكيدة تفشل

●

عندما آوى دارتنيان الى فراشه ، راح يستعرض الحوادث الخطيرة التي مرت به ، وتمثلت في خياله السيدة بوناسيو بجمالها وفتنتها الطاغية ، وبما تحويه من اسرار غامضة تتعلق بالبلاط الملكي !..

وكما كانت العادة المتبعة في ذاك الزمن ، ان يتقبل الفرسان من مليكهم الهدايا والهبات في كل مناسبة ، كذلك كانت العادة المتبعة ان تقدم العاشقات النبيلات الى عشاقهن من الفرسان الفتيان هدايا ثمينة لا تنسى ...

وتخيل دارتنيان الشاب في خاطره الهدايا الغالية التي ستنهال عليه من حبيبته الجديدة ، ونام وهو يحلم بها .

وفي مساء اليوم التالي غادر دارتنيان منزله ، بعد ان ارتدى ثيابه على عجل ، وقصد لتوه الى منزل صديقه الفارس اراميس .

وعندما اصبح على مسافة خطوات من المنزل ، في تقاطع شارعي كاسيت وسرفندوني ، وقع نظره على شبح امرأة ملتفة بمعطف طويل يخفي معظم معالم جسدها ، تقترب بحذر وقلق من احدى نوافذ المنزل الذي يقطنه صديقه ارامیس ،وتنقر عليها نقراً خفيفاً متفقاً عليه ، فتفتح فجأة النافذة ، ويضاء نور خافت ، ثم تمتد يد السيدة المجهولة بمنديل حريري ، يشبه المنديل الذي وجده دارتنيان يقع من جيب ارامیس عندما قابله اول مرة... كان دارتنيان يراقب بدقة وحذر ما يجري ويتوقع ان يرى صديقه ارامیس بنفسه يقف في النافذة ، ولكن لشدة دهشته وذهوله ، شاهد امرأة اخرى تظهر في النافذة ، وقد يدها بمنديل آخر تناوله للسيدة المجهولة ، وازدادت دهشة دارتنيان واستغرابه عندما مرت السيدة المجهولة من امامه وكانت لا تبعد عنه سوى خطوات معدودة ، وعرف فيها زوجة بوناسيو... أي « فتاة احلامه » فبادر الى اللحاق بها ، ولما شعرت بان شخصاً يتبعها ، التفتت مذعورة خلفها ، ولما تعرفت عليه اطلقت صيحة فرح قائلة :

— هذا انت يا عزيزي... لقد افزعتني !..

فاجابها دارتنيان :

— أجل هذا انا.. ان العناية الالهية ارسلتني لارعاك وارد عنك كل اعتداء...

فسألته بشيء من الدلال :

— وهل كنت تتعقب خطواتي ؟

اجابها :

ـ كلا .. ان الصدفة وحدها هي التي وضعتني في طريقك ، فقد وقع نظري على سيدة مجهولة تقرع نافذة احد اصدقائي ..

فسألته بدهشة :

ـ أتقول احد اصدقائك ؟

اجابها :

ـ بلا شك ، ان الفارس اراميس من خيرة اصدقائي !.

ثم قدم لها ذراعه واصطحبها الى المنزل الذي تقصده والذي لم يكن بعيداً عن المكان الذي التقيا به ، وقبل ان يدعها تدخل سألها :

ـ اتريدين ان انتظرك ؟

فأجابته :

ـ لا تجشم نفسك عناء الانتظار .

ـ وهل يعني ذلك انك ترغبين العودة بمفردك ؟

ـ قد اعود بمفردي ، وقد يرافقني شخص ..

ـ ومن هو هذا الشخص الذي سيرافقك ، هل هو رجل او امرأة ؟!

ـ لا يمكنني تحديد ذلك .

ـ اما انا فسأعرف ذلك .

ـ وكيف ؟!

ـ لانني سانتظرك حتى تخرجين من هذا المنزل .

ـ في هذه الحالة ، اقول لك وداعاً منذ الآن ، ولن نلتقي

بعـــد اليوم !
ـ ولماذا ؟
ـ لانني لست بحاجة اليك !!
ـ وعجباً ، فمنذ لحظات رحبت بعونتي !
فاجابته بشيء من الغيظ :
ـ كنت انظر اليك كرجل شهم ، وليس كرجل يتجسس على شؤون النساء .
فأجابها بلهجة عتب :
ـ انت قاسية في الحكم علي يا سيدتي !
ـ لقد احرجتني فاخرجتني !
ـ كانت غايتي من الانتظار ان ارد عنك الاخطار التي قـد تصادفك عند خروجك من هذا المنزل .
ـ ليس هناك من خطر يهددني .
فامسك دارتنيان بيدها وضغط عليها بشدة وهو يتأمـــل قاطيع وجهها ملياً وقال :
ـ ولكن ملامحك تنبيء بالعكس تمامـــاً ، اذ أرى دلائل الاضطراب بادية بوضوح عليك ، فلماذا لا تصارحيني بوضعـــك الحقيقي ، وغايتك من زيارة هـــذا المنزل في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟.. واعتقد انك تأكدت ممـــا اضمره من اخلاص نحوك ...
ـ انني اقدر ما تقوله،وانا مستعدة لأن اطلعك على اسراري . ولكنني أرى نفسي مضطرة ان احتفظ باسرار اؤتمنت عليها ..

فقاطعها دارتنيان بقوله :

ــ ولكن هذه الاسرار قد تؤثر على مجرى حياتك فيجب ان اطلع عليها ، لاشاطرك مصيرك ..

فبان الامتعاض على وجهها البديع وقالت :

ــ ارجو ان لا تتدخل باي امر اقوم به ، ولا تسع لمساعدتي ، كما انني لن انسى الخدمات الجلى التي قمت بها في الماضي ..

فأجابها :

ــ اعتقد ان اراميس اجدر مني بالحصول على ثقتك وتقديرك .

ــ لقد رددت على مسمعي هذا الاسم مراراً ، واؤكد لك انني لا اعرفه ابداً ..

ــ عجيبـــاً !.. اذن فانتِ لا تعرفين صاحب المنزل الذي طرقت بابه ؟!

ــ اصبحت اعتقد انك نسجت هذه الرواية لحملي على الافشاء بالاسرار التي احتفظ بها ..

ــ انني لا انسج شيئاً من الخيال ، وكل ما ذكرته هو الحقيقة بعينهـــا .

ــ وهل تصر على ان احد رفاقك يسكن ذلك المنزل ؟

ــ اصر على ذلك ، واكرر قولي للمرة الثالثة بان ذلك المنزل يسكنه صديقي الفارس اراميس .

ــ لا بد من توضيح هذه الالغاز في المستقبل ، والآن دعنـا من هذا الحديث .

فأجابها دارتنيان بلوعة :

ـ لو امكنك يا سيدتي ان تقرأي صفحات قلبي ، لوجدت اني احفظ لك الحب الخالص و..

فقاطعته بقولها :

ـ انك تتعجل الحديث عن الحب يا عزيزي !

ـ لان الحب جاءني فجأة ، ولاول مرة ، وانا لم ابلغ العشرين من عمري ..

فرمقته السيدة بوناسيو بنظرة حائرة بينما اردف يقول :

ـ اسمعي يا سيدتي ، ان الشكوك التي ساورتني اليوم ، يعود تاريخها الى ثلاثة اشهر خلت عندما اصطدمت بالفارس اراميس بسبب منديل من نوع المنديل الذي اخذته المرأة منك في منزل اراميس .

ـ ومن هو اراميس هذا ؟!

ـ دعينا من المغالطات ، اتريدين ان تقولي انك لا تعرفين اراميس ؟

ـ اؤكد لك ان هذه اول مرة اسمع بهذا الاسم .

ـ اذن فهذه اول مرة تترددين فيها على هذا المنزل .

ـ اجـــل ...

ـ وقد لاتعلمي ان هذا المنزل يسكنه فارس من حرس الملك .

ـ كلا ...

ـ اذن فانت لم تأتي الى هنا لمقابلة رجل معين ؟

ـ كلا ... انني جئت لمقابلة سيدة معينة .

ـ ولكن هذا المنزل يقطنه صديقي الفارس اراميس ، ولابد ان تكون السيدة التي قابلتك عشيقته .

ـ هذا لا يعنيني ..

ـ حقاً انك امرأة غامضة ، بالاضافة الى جمالك الرائع وفتنتك الطاغيـــة ...

فاجابته بلهجة رقيقة :

ـ دعنا من هذا الحديث الآن ، ففي هذا المنزل من يترقب قدومي بفارغ الصبر ، ولديّ فوق ذلك اشـــياء اخرى غاية في الاهمية يجب اتمامها .

فرد عليها دارتنيان بلهجة يائسة :

ـ كدت اتمنى ان لا ألتقي بك !

فأجابته بشيء من الدلال وهي تضغط على يده :

ـ اما انا فلا اشاطرك هـذا الرأي ، لان الشيء الذي تفتقده اليوم ، قد تناله في المستقبل ، ومن يدري عندما اصبح طليقةفقد اشبع فضولك .

فشد على يدها وقال :

ـ وهل تعدينني الوعد نفسه بالنسبة لحبي ؟

ـ اما من هذه الناحية ، فلا يمكنني ان اعدك بشيء مضمون ، ان ذلك يتوقف على الشعور الذي يولد في سويداء قلبي .

وهنا رفع دارتنيان يد السيدة بوناسيو الى فمـه وراح يشبعها لثماً وتقبيلا بلهفة وشغف ، ثم ودعها وابتعد مسرعاً ، ليفي بوعده لها بانه لن يراقب حركاتها ، وعاد الى منزله فوجد خادمه بلانشيه بانتظاره ليبلغه نبأ القاء القبض على رفيقه الفارس آتوس ...

فسأله دارتنيان بقلق :

– ولماذا القي القبض عليه ؟

فأجابه بلانشيه :

– لقد وجده رجال الكردينال في منزلك ، فظنوه انت ، ولم يحاول الاعتراض ، لكي يفسح لك المجال لتدبر امرك .

فهتف دارتنيان قائلاً :

– ياله من صديق شهم ونبيل ... واين ذهبوا به يا ترى ؟

فأجابه بلانشيه :

– لقد اقتاده اربعة من حرس الكردينال ، ولا ادري الى اين ذهبوا به ، واعتقد الى سجن الباستيل ، او الى قلعة « فورفيك » بينما ظل اثنان من الحرس في المنزل ، وقاما بتفتيشه بدقة ، ولكنهما لم يعثرا على شيء .

وهنا سأله دارتنيان :

– أولم يحضر بورتوس واراميس ؟

– كلا لم يحضرا .

– اذن فلا بد من حضورهما بين ساعة واخرى ، فعليك ألا تفارق المنزل ، واذا حضر احدهما ، فابلغه بما جرى بالتفصيل ، واطلب اليه ان يلحق بي الى حانة (غابة الصنوبر) ، لانه ليس من الحكمة البقاء في هذا المنزل ، فقد يكون مراقباً من قبل رجال الكردينال . . قل لهما اني ذاهب لمقابلة القائد دي تريفيل لاعلمه بما جرى ، وستبقى هنا في هذا المنزل ولن تخشى بأساً .

فاجابه بلانشيه :

– لا تقلق يا سيدي ، فلن ابرح هذا المكان مهما كلف الامر .

— شكراً لك ، واني اعتمد على شجاعتك واخـــلاصك .. انها مناسبة ، لابرهن للسيد دارتنيان بانني خادمه لأمين .

وغادر دارتنيان المنزل متجها نحو شارع كولومبيه ، حيث يقع قصر القائد دي تريفيل ، فلم يجده في قصره ، اذ كان على رأس فرقته التي كانت تقوم بدورها في حراسة قصر اللوفر .

فتابع سيره الحثيث باتجاه قصر اللوفر ، آمـــلاً ان يتسنى له الدخول الى القصر ، نظراً لكونه فارساً من فرقة القائـــد دي زيسار ..

وبينما كان يجتاز شارع « دوفين » لمح على مسافة قريبة منه شخصين ، تعرف عليهما حالاً ، اذ كان احدهما ، السيدة الحسناء زوجة بوناسيو ، اما الشخص الآخر الذي كان برفقتها ، فهو رجل يرتدي زي فرسان الملك ، وكان الاثنان يحاولان جهدهما اخفاء معالم وجهيهما عن المارة .

وراقبهما وهما يجتازان الجسر الذي سيسلكه ليصل الى قصر اللوفر ، وكان من الطبيعي ان يتبعهما دون ان يشعرا به ، وراح يحدق بصورة خاصة بالرجل الذي يرافق السيدة بوناسيو ليستطلع معالم وجهه ، وبعد ان تأكد من ان الفارس الذي يرافـق السيدة هو صديقه اراميس بالذات ، اندفع نحوهما ، وقد احسّ بنيران الغيرة تأكل صدره ، متناسياً انه لم يمضِ على علاقته بالسيدة بوناسيو سوى ساعات معدودة .

ويبدو ان الاثنين قد شعرا بأن شخصاً يتأثر خطواتهما ، فحثا الخطى محاولين الافلات من رقابته .. الا ان دارتنيان اسرع

في سيره وما لبث ان تخطاهما ، ثم دار على عقبيه بحيث قطـــع عليهما الطريق ، ووقف امامهما وجهاً لوجه وهتف قائلا :

ـ ألست الفارس اراميس ؟

فأجابه صوت خشن وبلهجة غريبة :

ـ كلا ، انك مخطىء ايها السيد ، ولهذا فانـــني اتغاضى عن وقاحتك وتطفلك ..

فأجابه دارتنيان :

ـ ولكني .. اريد التحدث الى السيدة بصورة خاصة .

فبانت الدهشة على وجه الفارس الغريب ، وسأل دارتنيان :

ـ أتعني السيدة ، وهل لك سابق معرفة بها ؟

اجابه دارتنيان بشيء من الزهو :

ـ اجل ..

فقاطعته السيدة بوناسيو بحدة :

ـ يا الهي ! لقد وثقت بوعدك كفارس شهم ، ويبدو لي انني كنت مخطئة .

فبان الارتباك والتردد على وجه دارتنيان وقال :

ـ وانت يا سيدتي وعدتني بأمر ولم ..

وقبل ان يتم عبارته ، سمـــع صوت الفارس الغريب يخاطب السيدة بوناسيو بقوله :

ـ اليك ذراعي يا سيدتي ، وهيا بنا نتابع سيرنا ..

فاستاء دارتنيان من لهجة الرجل .. واصر عـلى ان يعترض طريقهما مهما كلف الامر ، مما جعل الفارس الغريب يخطو خطوتين

الى الوراء ويمتشق حسامه استعداداً للمبارزة ، فحذا دارتنيان حذوه ، وفي تلك اللحظة بالذات ، صاحت السيدة بوناسيو بالفارس المجهول متوسلة ، بعد ان وقفت بين المتبارزين وقالت :

ـ بحق السماء يا سيدي اللورد ، لا تقدم على هذه المجازفة .

فردد دارتنيان كلمة اللورد بدهشة ، وقد طرأت على مخيلته فكرة مفاجئة ، جعلته يعيد حسامه الى غمده ويخاطب الفارس المجهول :

ـ عفوك يا مولاي ، ان الغيرة أعمتني ، فحملتني على ارتكاب هذه الحماقة بحقك .. اذن فانت ..

فقاطعته السيدة بوناسيو :

ـ انه اللورد بوكنغهام بالذات ..

فهتف دارتنيان :

ـ عفوك يا مولاي ، وعفوك يا سيدتي ، وصفحا عن هذه الجرأة ... وثق يا مولاي انني اسفك دمي في سبيل ارضائك .

فتأثر اللورد بعاطفة الفارس الصادق وخاطبه وهو يصافحه بحرارة :

ـ انك رجل شهم حقاً ، وانا اقبل مساعدتك بفخر واعتزاز ، فالحق بنا حتى قصر اللوفر ، واذا حاول احدهم تأثر خطواتنا فاقتله بلا تردد .

فهز دارتنيان رأسه موافقاً ، وتبعهما جاعلاً المسافة بينه وبينهما عشرين خطوة ، وسار وهو يضع يده على مقبض سيفه استعداداً للطوارىء .

ووصل اللورد بوكنغهام والسيدة بوناسيو الى قصر اللوفر ، ودخلاه من بابه الواقع في شارع آشيل ، دون ان يعترضهما احد، وقبل ان يلجا باب القصر ، شكرا دارتنيان على مساعدته بانحناءة خفيفة من رأسيهما ، بينما تابع دارتنيان سيره الى حافة «غابة الصنوبر» حيث التقى رفيقيه بورتوس وآراميس اللذين كانا بانتظاره على احر من الجمر ، وبعد ان تباحث الرفاق الثلاثـــة بامر رفيقهم آتوس المعتقل ، والوسيلة التي يجب اتباعها لانقاذه ، افترقوا ، وعاد كل منهم الى منزله ، بانتظار الغد وما يحمله من مفاجآت ؟

١٢

جورج فيلييه او الدوق دي بوكنغهام

●

تمكن الدوق دي بوكنغهام والسيدة بوناسيو من الدخول الى اللوفر ، فقد كانت السيدة بوناسيو وصيفة الملكة الخاصة ويمكنها الدخول الى القصر ساعة تشاء ، اما الدوق فكان يرتـــدي زي فرسان فرقة دي تريفيـل التي كان دورها بحراسة القصر في تلك الليلة نفسها .

وما ان اصبحت السيدة بوناسيو في باحة القصر الواسعة ، حتى فتحت بمفتاح خاص باباً سرياً ، وولجته وهي تمسك بيد الدوق لتقوده في دهليز مظلم ، انتهى بهما الى جنـــاح الملكة الخاص ، فأدخلته الى حجرة فاخرة الرياش ،مضاءة اضاءة خفيفة ، وخاطبته بقولهـــا :

ارجو ان تبقى هنا يا سيدي الدوق ريثما تحضر ...

وما لبثت السيدة بوناسيو ان غادرت الحجرة من الباب نفسه،

بعد ان اقفلت بابها بالمفتاح ، وكأن الدوق اصبح سجيناً في تلك الحجرة ... والحق يقال ان الخوف او القلق لم يعرفا طريقاً الى فؤاده ، فقد ظل محتفظاً بهدوئه وهو الرجل الجريء الذي تستهويه مغامرات الحب مهما اعترضها من مشقات واخطار ... ومع انه علم عند وصوله الى باريس ، ان الرسالة التي تلقاها من الملكة ، كانت مزورة ، ولم تكن سوى مكيدة للايقاع بالملكة وفضح علاقتها به ، الا انه لم يضطرب او يتردد ، بل قرر ان يقابل الملكة ، رغم معارضتها في هذا اللقاء الخطر . واخيراً قبلت الملكة ان تقابله سراً ، وارسلت وصيفتها جرمين (السيدة بوناسيو) لتمهد له الطريق وتمكنه من الدخول الى القصر خلسة ... وفي طريقها لتنفيذ اوامر سيدتها ، اختطفت ، وهكذا تأخر لقاء الملكة بحبيبها الدوق مدة يومين ، وهي المدة التي قضتها جرمين بوناسيو محجوزة عند اتباع الكردينال ...

وما ان استعادت حريتها بمساعدة دارتنيان ، حتى اتصلت بالسيد دي لابورت ، ونجحت بادخال الدوق الى جناح الملكة الخاص ، ليتم اللقاء بعيداً عن اعين الكردينال ورجاله .

ولنعد الى الدوق بوكنغهام ، الذي اغتنم مناسبة وجوده وحيداً في تلك الحجرة الفاخرة ، فراح يقطع الدقائق القليلة في التفرج على محتويات الحجرة واثاثها الفاخر ، وحانت منه التفاتة الى مرآة كبيرة وضعت في زاوية الحجرة ، فوجد ان زي فرسان الملك الذي يرتديه ينسجم مع قامته الفارعة وجماله واناقته ، فهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان يعدّ من اكثر فرسان

انكلترا وفرنسا اناقة ، ومن المقربين الى عاهلي المملكتين ، ومن كبار الاثرياء الذين يملكون المقاطعات الواسعة في انكلــترا ، وصاحب نفوذ واسع في وطنه ... وكان يعرف هنــاك باسم جورج فيلييه .

وبينما كان الدوق الشاب غارقاً في تأملاته فتح باب سري في جدار الحجرة ، وظهرت منه سيدة في السادسة والعشرين من عمرها رائعة الجمال ، ولم تكن هذه السيدة سوى الملكة نفسها آن دوتريش .

فاستدار الدوق ليواجهها ، فألفاها في اروع فتنتها وجمالهــا ، وظل بضع لحظات مأخوذاً بهذه الفتنة الطاغية ، وما ان رآها تخطو صوبه ، حتى اندفع نحوها ، وجثا على ركبتيه يلثم طرف ثوبهـــا الحريري الجميل ، قبل ان تمنعه من ذلك .

وبعد ان اخذت بيده واجلسته الى قربها قالت :

يا عزيزي الدوق ، لا شك انك تعلم بانني لم اكتب اليك ..

اجل ... يا مولاتي اعلم انني كنت مخطئاً اذا اعتقدت ان وجــودي في باريس يسرك !.. لان الذي يحب يؤمن بالحب في سهولة ، وانا لست نادماً على تجشمي الصعاب ، فقـــد اتاحت لي الظروف ان ألقاك ...

انت تعلم لماذا وكيف تم لقاؤنا ، ويؤسفني ان اصارحك بان وجودك في باريس يعرض حياتك للخطر ، كما يعرض سمعتي للاقاويل والشائعات ... ولهذا احببت ان اجتمع بك ، لأقول لك ان عوامل عديدة قد تضافرت لتفرق بيننا ... فهناك البحار تفصل بيننا والخلافات القائمة بين المملكتين ... والعوامل الروحية

وانه لمن الصعوبة بمكان محاربة جميع هذه العوامل ياسيدي الدوق ، ولهذا فأرى انه من المستحسن ان لانجتمع بعد الآن .

. تحدثني يا سيدتي . . تحدثني يا صاحبة الجلالة ، ان عذوبة الفاظك تغطي قساوة عباراتك المؤلمة

فأجابته وهي تحاول ان تحتفظ برصانتها :

. لا تنس يا سيدي الدوق ، انني لم اصرح مرة بانني احبك !

ولكن يا سيدتي لم تصرحي ولا مرة بانك لا تحبينني ! لان الحب الذي يربطنا لا تؤثر فيه عوامل الزمن او النسيان واليأس ، لقد انقضى على لقائنا الأول ثلاث سنين ، ومنذ ذلك اللقاء ، احببتك ولا ازال مقيماً على هذا الحب . . . ان ذكرى خلواتنا الاربع لا تفارق خاطري لحظة واحدة . . . وخاصـــة اللقاء الأخير في حدائق اميان !.

وهنا تضرج وجه الملكة البديع بحمرة الخجل وقاطعته قائلة :

ارجو ايها الدوق ان تتناسى ما جرى في تلك الليلة !

- ولماذا لا أتحدث عنها يا سيدتي ، فهي الليلة البهيجـــة الوحيدة التي سأذكرهـا طوال عمري ، لانها جعلتني أقتنع تمام الاقتناع بحبك لي .

ويبدو ان حديث الدوق قد اهاج في صدر الملكة لواعــج الوجد ، فبدا التأثر على قسمات وجهها وخاطبته بلهجة رقيقة :

– ولكن المصائب قد احاطت بنا من كل ناحية ، فأنت ولا شك عالم بمؤامرات الكردينال ، الذي ينقل الى الملك كل شيء عن تصرفاتي ، وكان من نتيجة ذلك ، ان غضب على السيدة فرينه

فطردها من القصر ، كما ابعد بوتناج ، اما السيدة شيفروز فقد اصبحت غير مرضي عنها لدى الملك . وهل تذكر عندما طلبت دولتك تعيينك سفيراً بباريس ، كيف تدخل الملك نفسه بالأمر ورفض هذا التعيين ؟!

فاجابها الدوق :

ـ اذكر جيداً وازيد عليه أن هذا التدبير قد أدى الى توتر العلاقات بين البلدين ، وقد يسفر عن قيام حالة حرب بين انكلترا وفرنسا .

ـ وماذا تقصد من وراء هذا القول ؟

اقصد أنني سأتدخل في الوقت المناسب لاحول دون وقوع حرب ... وادخل وسيطاً لتسوية الحالة ... ويقتضي هذا حضوري شخصياً الى باريس ، وبذلك يتسنى لي رؤيتك مراراً .

ـ يا سيدي انك ترتكب أخطاء جسيمة في سبيل هذا الحب .

ـ انت السبب ، فلو كان في قلبك ذرة من الحب نحوي ، لوجدت ما أقوم به أمراً طبيعياً .

ـ لقد أسأت فهمي يا عزيزي الدوق .

فقاطعها بقوله :

ـ كفى يا سيدتي ... لقد تأكدت من حبك لي ، وأنا مستعد الآن ان اضحي بحياتي في سبيلك ، لقد أخبرتني ان قدومي الى باريس كان نتيجة مكيدة مدبرة ، فانا مستعد لأن اواجه مصيري ، ففي قرارة نفسي شعور خفي ينذرني باني سأهلك قريباً .

فصاحت الملكة فزعة :

- يا الهي !..

فربت الدوق على كتفها وقال :

- لا أقول لك ذلك لأدخل الفزع على قلبك ، ولكني في الواقع كنت عرضة لاحلام مزعجة مدة من الزمن .

فأجابته الملكة بلهجة قلقة :

- يا للغرابة ، لقد ساورتني هذه الاحلام المزعجة في الآونة الأخيرة فرأيتك ملقى على الارض ينزف الدم من جرح ..

فقاطعها الدوق :

- من جرح في جهة القلب اليسرى من طعنة خنجر ، أليس كذلك ؟

- اجل هو كذلك لقد رأيتك مصابا في جنبك الايسر ، ولكن يا الهي كيف تمكنت من قراءة افكاري ؟!

فبانت دلائل الارتياح والغبطة على محيا الدوق وقال :

- لا اريد تأكيدات اخرى .. لقد بت واثقاً من حبك لي .

فأجابته :

- بربك ارحل حالاً أيها الدوق ، فانا لا ادري اذا كنت اضمر لك الحب ام لا ؟ اشفق عليّ وارحل ، لانه اذا اصابك اي شر في فرنسا ، فمعناه ان حبك لي هو السبب ، وان اجد تعزية او سلوى ... وقد اصاب بالجنون ! ولهذا ارجوك ان ترحل حالاً ، اني اتوسل اليك أن ترحل !

- يا الهي ما اجملك واروعك ، وانت في توسلك ! وما اكثر ما احبك !

وعادت تكرر توسلها قائلة:

- ارحل ... ارحل الآن عن باريس ، وعد اليّ فيما بعد ، كسفير لبلادك ، محاطاً بحرس قوي يدافع عنك ، وخـــدم يسهرون على حياتك ، وعندها ان اقلق عليك ، واكون سعيدة في لقائك .

- وهل تعنين ما تقولين ياسيدتي ؟

- اجل واؤكد لك ذلك .

- اريـــد عربوناً منك على صدق حبك ... اي شيء من حوائجك ، خاتم او سلسلة مثلاً ...

فبادرته بقولها :

- وهل ترحل اذا اجبت طلبك واعطيتك ما تريد ؟

- اجل .

- هل تغادر فرنسا حالا عائداً الى انـكلترا ؟

- اعدك واقسم على ذلك .

- اذن انتظرني قليلاً .

قالت ذلك واسرعت تدخـــل حجرتها الخاصة ، وما لبثت ان عادت تحمل بين يديها علبة ثمينة من خشب الابنوس ، مزخرفة بالذهب ، ومدت يدها بالعلبة قائلة :

- اليك هذه الهدية يا عزيزي الدوق ، فاحتفظ بها كذكرى لحبنا .

فتناول الدوق العلبة من يد الملكة ، جاثياً على ركبتيه وقال :

- انني ما زلت على وعدي ، فاسمحي لي ان اطبع على يدك قبلة الحب الخالص .

فمدت آن دوتريش يدها نحوه بشغف واغمضت عينيها ، بينما استندت بيدها الاخرى على احد المقاعد ، اذ شعرت ان مقاومتها بدأت تضعف وقد تخونها عواطفها .

وفي تلك اللحظة كان الدوق قد تناول يدها وراح يغمرها بالقبلات المحمومة بحرارة ونهم ، ثم رفع رأسه يخاطب الملكة :

ـ اذا كتبت لي الحياة فسأعود بعد مضي ستة اشهر لألقاك ، ولو اضطررت الى الطواف حول العالم .

وما لبث ان غادر جناح الملكة مسرعاً وفي الرواق التقطته السيدة بوناسيو ، التي كانت تنتظر عودته ، فقادته سالماً الى خارج قصر اللوفر .

١٣

مصير بوناسيو

•

ولنعد الى الوراء قليلاً ، لنتحدث عن مصير بوناسيو زوج جرمين وصيفة الملكة . . هذا الرجل الذي ذهب ضحية المؤامرات السياسية والصراع الخفي بين البلاط الملكي والكردينال ؛ فبعد ان القى القبض عليه حرس الكردينال ، اقتادوه الى سجن الباستيل ! حيث وضعوه في زنزانة ، بعد ان اوسعوه ضرباً وقذفوه بابشع النعوت واقذع السباب .

ولم يمض عليه ساعة من الزمن ، حتى فتح باب الزنزانة واقتيد مكبلاً بالحديد ، للمثول امام مأمور السجن ، الذي سأله عن اسمه وهويته . فاعلن المسكين وهو يرتعد خوفاً بانه يدعى : جاك ميشال بوناسيو ، وعمره خمسون عاما وانه كان يتعاطى تجارة الملبوسات في الماضي ، وجنى من ورائها ثروة محترمة ، واضاف بانه يسكن في شارع فوسوايار رقم ١١ .

وبعد ان انتهى مأمور السجن من استجوابه ،ألقى عليه درساً طويلاً عن الخطر الذي يتهدد اي فرد ،اذا تدخل في القضاياالعامة ، خاصة الشؤون التي لها علاقة مباشرة بنيافة الكردينال ، الحاكم الفعلي لفرنسا ، واسهب مأمور السجن في اظهار نفوذ الكردينال، واخيراً طلب الى بوناسيو ان يفكر ملياً بموقفه الحرج .

ولما كان بوناسيو رجلاً بخيلاً وانانياً وجباناً ، وحبه لزوجته الحسناء يعتبر بالنسبة لحياته وماله ، امراً ثانوياً ، فقد راح يلعن الساعة التي تزوج بها من تلك الفتـــاة التي ورطته بمأزق خطرة ، كادت تودي بحياته وامواله التي يحرص كل الحرص عليها .

وبعد ان فكر بعض الوقت ، رفـــع رأسه يخاطب مأمور السجن بقوله :

– ثق يا سيدي المأمور ، انني اقدر ،اكثر من اي فرد آخر نفوذ نيافة الكردينال ،واننا نشكر الظروف التي اتاحت لفرنسا رجلاً عظيماً كنيافته ،يدير شؤون البلاد ويرعاها باخلاص ونزاهة .

فانبسطت اسارير مأمور السجن وقال :

– احقاً ما تقول ؟! ... اذن فلماذا جيء بك الى الباستيل؟!

اجابه بوناسيو ببساطة :

– اما لماذا جيء بي الى الباستيل ، فهذا ما أجهله تمام الجهل ، ولكن ثق يا سيدي انه ليس لعدم اخلاصي لنيافة الكردينال .

فبادره المأمور بقوله :

– اذن فلا بد انك ارتكبت جريمة فظيعة ، لانـــك متهم بالخيانة العظمى .

فصاح بوناسيو فزعاً :

ـ يا الهي ... أتقول أنني متهم بالخيانة العظمى ؟ مع أنني لم ارتكب أي جرم استحق عليه هذا القصاص الفظيع .. فـــأنا أكره الهوكنوت والاسبان . وثق ياسيدي أن هذه التهمة باطلة .

فرمقه المأمور بنظرة فاحصة وقال :

ـ أيها السيد بوناسيو هل لك زوجة ؟

فتردد بوناسيو في الجواب ، لأنه تأكد ان الخطر كامن وراء هذا السؤال ، وأخيراً قال :

ـ أجل ، كان لي زوجة .

ـ عجباً ! اتعني أنها غير موجودة الآن ؟

ـ لقد اختطفت منذ يومين !

ـ ومن اختطفها ؟

وعاد بوناسيو الى التردد في التصريح خشية أن ينزلق لسانـه باقوال تورده موارد الهلاك .

ولاحظ مأمور السجن تردده ، فخاطبه بقوله :

ـ من مصلحتك أيها السيد ان تكون صريحاً في حديثك ، لان صراحتك قد تساعد على انقاذك من هذا السجن .

وهنا رفع بوناسيو رأسه وقال :

ـ لقد اشتبهت برجل أسمر اللون ، تدل ملامحه على الوسامة كان يتتبع خطواتنا في الأيام القليلة قبل اختطاف امرأتي .

وهنا سأله مأمور السجن :

ـ وهل تعرف اسمه ؟

ـ كلا ، ولكني أعرف ملامح وجهه ، إذا وقع نظري عليه .

فبان التبرم والقلق على وجه المأمور وسأله :

ـ أتعني أنك تعرف الرجل الذي اختطف زوجتك ؟

ـ أجل ويمكنني أن أتعرف عليه إذا لمحته .

وهنا نادى مأمور السجن الحراس وأمرهم أن يعيدوا بوناسيو الى زنزانته وخاطبه بقوله :

ـ لقد انتهى الحديث معك ولا لزوم للمزيد .

وأدرك بوناسيو ان لسانه انزلق بحديث زاد موقفه خطراً ، فراح يندب حظه العاثر ، ويوجه الشتائم واللوم الشديد لامرأته التي كانت السبب في نكبته هذه .

وبعد ان اصبح مأمور السجن وحده ، سطر رسالة مستعجلة وسلمها إلى رسول خاص كان ينتظرها .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، سمع بوناسيو صرير المفتاح يدور في زنزانته ، فنهض مذعوراً وقد توهم ان ساعته قد دنت ، وان الحراس حضروا لنقله الى ساحة المقصلة . . ولكنه اطمأن بعض الشيء حالما شاهد مأمور السجن وكاتبه يدخلان عليه ، ويبدأ المأمور حديثه قائلاً :

ـ ان مسألتك معقدة جداً ايها السيد ، وانصحك بان تقول الحقيقة ، وامامك فرصة وحيدة ، هي ان تطلب الصفح من الكردينال لتنجو بنفسك .

فأجابه بوناسيو مستعطفاً :

ـ انني مستعد لان اصرح بكل ما اعرفه يا سيدي . .

فسأله المأمور :
ــ اين زوجتك ؟
ــ لقد قلت لك انها اختطفت ولا اعرف عنها شيئاً .
ــ ولكنها تمكنت ، بعد ظهر امس ، من الفرار بمساعدتك .
ــ أتقول انها فرت ؟!. ولو فرضنا ذلك ، فليس الذنب ذنبي اقسم لك على ذلك .
ــ اذن ماذا كنت تفعل في حجرة جارك الفارس دارتنيان ، بعد ان علمت باختطاف امرأتك ؟
لقد رجوته ان يساعدني على العثور على امرأتي ، اذ كنت لا اعلم شيئاً عن نشاطها واعمالها الخاصة ..
ــ وبماذا اجابك دارتنيان ؟
ــ لقد وعد بمساعدتي ، ولكنه لم يفِ بوعده .
ــ ولكن دارتنيان قد اتفق معك سراً على امر معين ، وكان من نتيجته طرد الحرس الذين جاءوا يبحثون عن زوجتك .
ــ اقسم لك يا سيدي انني بعيد عن هذه الامور .
فأجابه المأمور بشيء من السخرية والتحدي :
ــ لحسن الحظ ان دارتنيان في قبضة ايدينـــا ، وسنواجهك به حالاً .
وهنا التفت المأمور الى احد الحراس وطلب اليـــه ادخال الفارس دارتنيان ، وما هي الا لحظات معدودة حتى دخل الفارس آتوس ، الذي اعتقل بدلاً من دارتنيان ، فخاطبه المأمور بقوله :
ــ ايها السيد دارتنيان ما جرى بينك وبين هذا الرجل ؟

وهنا صاح بوناسيو قائلاً :

ـ ولكن هذا السيد ليس الفارس دارتنيان !

فسأله المأمور بدهشة :

ـ ماذا تقول ، أليس هذا دارتنيان ؟!

ـ كلا .. واؤكد لك .

ـ اذن من هذا الرجل ؟!

ـ لا اعرفه يا سيدي ..

وهنا بانت الحيرة والدهشة على وجـه مأمور السجن والتفت الى آتوس يسأله :

ـ ما اسمك ؟

اجابه آتوس باقتضاب :

ـ آتوس !

وبدأ مأمور السجن يفقد اعصابه فصاح به :

ـ ولكن ليس هذا اسم رجل ، بل اسم جبل معروف ...!

فأجابه آتوس وهو يحتفظ بهدوئه :

ـ ومع ذلك فهذا هو اسمي !

وفي هذه الاثناء وقف امام باب سجن الباستيل رسول خاص يحمل رسالة مستعجلة الى مأمور السجن ، فاسرع بها اليـه ، وما ان انتهى من تلاوتها حتى بدت دلائل الاهتمام والتلق على قسمات وجهه ، وراح يتمتم ببعض العبارات غير المفهومة ، ثم غادر الغرفة بعد ان أمر باعادة الفارس آتوس الى زنزانته .

١٤

رجل « مينغ » المجهول

●

لم يغمض ابوناسيو جفن في تلك الليلة ، وراح يندب حظـــه العاثر ، بعد ان قطع آخر امل له في النجاة .

وقبل منتصف الليل بقليل ترامى الى سمعه وقع اقدام تقترب من باب زنزانته ، فأرهف السمع ، وسرعان ما تحقق ظنـه ، اذ فتح الباب ، وبرز منه اربعة من الحرس ، طلبوا اليه ان يستعد لمرافقتهم . فاستولى عليه الفزع الشديد ، وبذل جهـــداً كبيراً لـكي يحتفظ بتوازنه ... وبحركة آلية سار بين الحرس ، كمن اصيب بالذهول .

وفي ساحة السجن كانت عربة مقفلة تحرسها ثلة من الجنـد ، تنتظره ، فادخل اليها مع اثنين من الحرس ، ثم اقفل الباب بالمفتاح وبعد لحظات قليلة تحركت تسير متمهلة .

وبعد ان اجتازت العربة بعض شوارع باريس ، وصلت الى

شارع اونوريه ، وتوقفت فجأة امام باب منخفض ، وهناك تسلمه اثنان من الحرس ، وادخلاه حجرة ضيقة ، واقفل عليه الباب باحكام.

وبعد فترة قصيرة ، سمع حواراً يجري بين اثنين في الغرفة المجاورة ، وسرعان ما فتح باب غرفته ودخل منه ضابط حسن الهندام في العقد الثالث من عمره وسأله بشيء من الازدراء :

– هل انت بوناسيو ؟

فأجابه بوناسيو بصوت خافت :

– نعم يا سيدي الضابط .

فأشار اليه الضابط بان يتبعه الى حجرة مجاورة ، واسعة الاطراف ، مؤثثة برياش فاخر ، وفي طرف الغرفة وقع نظر بوناسيو على رجل معتدل القامة يميل الى النحافة حاد النظرات ، كان يقف الى جانب المدفأة ، ولم يكن هذا الرجل سوى ارمان جان دي بليسي ... او الكردينال ريشليو .

وبينما كان بوناسيو المسكين يقف على عتبة الغرفة ، راح الكردينال يرمقه بنظراته الحادة ، وكأنه يحاول ان يقرأ مكنونات صدره ، وبعد لحظات قليلة تحركت شفتاه بعبارة مقتضبة :

– هل هذا بوناسيو ؟

فأجابه الضابط بكل احترام : اجل يا سيدي .

– حسناً اعطني هذه الاوراق ، ودعنا لوحدنا .

فقدم الضابط الى الكردينال رزمة من الاوراق ، ثم تراجع الى الوراء بكل احترام وغادر الغرفة .

وراح بوناسيو يتأمل رزمة الاوراق التي بين يدي الكردينال فتأكد انها محضر الاستجواب الذي كتبه مأمور سجن الباستيل، وبعد دقائق قليلة ، رفع الكردينال رأسه من الاوراق وخاطب الرجـــل :

ــ انت متهم بالخيانة العظمى !

فأجابه بوناسيو بفزع :

ــ لقد أبلغت ذلك يا مولاي !

فعاد الكردينال الى الاوراق يلقي عليها نظرة اخرى ويقول:

ــ . . . ومتهم بالتآمر مع زوجتك والسيـــدة دي شيفروز والدوق دي بوكنغهام.

فأجابه بوناسيو ببساطة :

ــ ان هذه الاسماء قد ترددت على مسمعي . . .

فقاطعه الكردينال باهتمام :

ــ وباية مناسبة ؟

أجابه بوناسيو وكان حـــتى تلك اللحظة لم يعرف شخصية محدثه ــ بمناسبة اللغط الذي أثير مؤخراً ،ومفاده ان الكردينال ريشليو بعث برســـالة مزورة على لسان الملكة الى الدوق دي بوكنغهام يستدرجه للحضور الى باريس ، ليفضح علاقته بالملكة .

فتحرك الكردينال من مكانه وصاح بجدة :

ــ وهل تحدثوا عن ذلك ؟!

اجابه بوناسيو :

ــ هذا ما سمعته من زوجتي يا سيدي !

وكان بوناسيو قد اعتزم في قرارة نفسه ان لا يفوّت عليه هذه الفرصة لانقاذ نفسه ، فراح يجيب بصراحة واسهاب على جميـــع الاسئلة التي وجهها اليه الكردينال والتي تتعلق بامرأته وتصرفاتها وعلاقاتها ببعض رجال القصر وسيداته ، خاصة اتصالاتها في اليومين الاخـــيرين .

وبعد ان اشبع الكردينال فضوله، تناول جرساً فضياً وقرعه فحضر على الفور الضابط ، فأمره بان يبعث رسولاً خاصاً لاستدعاء الكونت روشفور على جناح السرعة ، فأجابه الضابط بقوله :

– ان الكونت روشفور ينتظر في الخارج للتشرف بالمثول بين يدي نيافتك ...

فقال الكردينال : « دعه يدخل حالاً .. »

وهنا أدرك بوناسيو ، الذي كان يستمع الى الحديث ، ان الشخص الذي يمثل امامه هو الكردينال ريشليو ، فأحس برجفة تجتاح كيانه خوفاً من بطش هذا الحاكم الفعلي لفرنسا، الذي سمع الشيء الكثير عن سطوته وجبروته .

وفي هذه اللحظة بالذات ، دخل الكونت روشفور ، وما ان انحنى يحيي الكردينال ، حتى صاح بوناسيو بقوله :

– يا الهي ... انه هو بعينه !

فسأله الكردينال باهتمام :

– ومن تعني ؟

اجابه بوناسيو :

– اعني أنه الشخص الذي اختطف امرأتي !

فتبادل الكردينال والكونت روشفور النظرات ، ثم ما لبث ان تناول الكردينال الجرس الفضي وقرعه بشدة ، وطلب الى الضابط الذي حضر ان يقود بوناسيو الى غرفة مجاورة .

وما ان خلا المكان للكردينال والكونت روشفور ، حتى اقترب الكونت من الكردينال واسر باذنه قائلا :

- لقد التقيا يا سيدي .. الملكة والدوق .

فسأله الكردينال بلهفة :

- واين تمّ لقاؤهما ؟؟

- في قصر اللوفر بالذات !

- وهل أنت متأكد من ذلك ؟

- كل التأكيد .

- ومن نقل اليك الخبر الخطير ؟

- السيدة دي لانوى ، وهي كما تعلم ، نيافتك ، من اشد المخلصين في خدمتنا !

- ولماذا لم تبلغنا الخبر في حينه ؟

- لانها لم تتمكن من مغادرة القصر في ذاك الحين ، ولان الملكة طلبت الى وصيفاتها ومن بينهن السيدة دي لانوى البقاء ، ريثما تأخذ بعض الراحة في غرفتها الخاصة وتعود اليهن .

- وكم من الوقت ظلت الملكة متغيبة ؟

- ثلاثة ارباع الساعة تقريباً ، ثم عادت مسرعة لتأخذ علبة من خشب الابنوس تحمل شعارها وتعود بها ..

- وهل اعادت العلبة الى مكانها بعد ذلك ؟

- كلا !..

- وهل تعلم السيدة دي لانوى ماذا تحوي العلبة ؟

- لقد اعلمتني أن العلبة تحوي أزراراً من الماس ، كان جلالته اهداها الى الملكة ، وتعتقد السيدة دي لانوى ان الملكة قد أهدت العلبة بما فيها الى السيد بوكنغهام .

فاطرق الكردينال برهة من الزمن يفكر ، ثم رفع رأسه يسأل روشفور :

- والآن ، هل تعرف المكان الذي يختبىء فيه الدوق والسيدة شيفروز في باريس ؟

اجابه روشفور :

- كلا يا سيدي ، ان رجالي لم يقعوا على أثر لهما ..

فابتسم الكردينال بخبث وقال :

- اما أنا فأعرف أين مقرهما ، فأحدهما يختبىء في شارع فوجيرار رقم ٢٥ ؛ والثاني أي الدوق فقد كان يقيم في شارع هارب رقم ٧٥ .

فسأله روشفور :

- وهل تريد نيافتك أن القي القبض عليهما حالاً ؟

أجابه بلهجة ساخرة :

- لقد فات الأوان ايها الكونت .. فلا بد انهما غادرا مقرهما الى مكان آخر .. ولكن أرى أن تذهب مع عشرة من رجالك الأشداء وتداهم المنزلين المذكورين ، وتقوم بتفتيشهما بدقة ، علك تعثر على أثر ...

ـ سأقوم بهـــذه المهمة حالاً . . .

ثم انحنى روشفور مسلمـاً واسرع بالخروج لينفـــذ أوامر الكردينال .

وعندما اصبح الكردينال وحده في الحجرة تذكر بوناسيو فطلب احضاره بعد ان اعتزم أمراً معيناً ، ولما وقع نظره عليه هش له وقال :

انت حر يا صديقي ، ويمكنك العودة فوراً الى منزلك . . ثم تناول من درج قريب منه كيساً يحوي مئة قطعـة ذهبية ، وناوله اياه قائلا :

ـ اليك هذه الهبة الصغيرة ، تعويضاً لـك عن الاضرار الـتي لحقت بك .

فتردد بوناسيو في أخذها وقال :

ـ هل صفحت عني يا سيدي الـــكردينال ؟

ـ اجل ياعزيزي بوناسيو ، وارجو ان اراك في المستقبـل فأجابه بوناسيو :

ـ انني رهن اوامر نيافتك ، وستجدني أطوع من بنانك .

وهنا اشار الكردينال بيده مودعاً ، بينما راح بوناسيو ينحني حتى كادت جبهته تلامس الأرض ،وهو يردد آيات الشكر والثناء للكردينال ، وما لبث ان غادر الغرفة وكأنه في حلم . . ولما اصبح خارج الغرفة راح يهتف قائلا : «عاش نيافة الكردينال العظيم . . »

وكان الكردينال يسمعه وهو يبتسم ابتسامة غامضه ثم خاطب نفسه قائلا :

ـ لقد كسبنا رجلاً جديداً يضحي بحياته من اجلي!

ولم يمضِ على خروج بوناسيو الا دقائق قليلة حتى فتح الباب مرة ثانية وظهر الكونت روشفور ، فبادره الكردينال بقوله :

ـ ما وراءك يا كونت؟

اجابه روشفور :

ـ لقد كانت تقديرات نيافتك صائبة ، اذ قمت مـــع رجالي بتفتيش المنزلين المـــذكورين ، فاتضح لي ان سيدة في السادسة والعشرين من عمرها اقامت في المنزل الاول مدة خمسة ايام وقد غادرته مساء امس ، اما في المنزل الثاني فقد اقام فيه رجل في السابعة والثلاثين من عمره وغادره هذا الصباح الى غـــير رجعة!

فهتف الكردينال وهو ينظر الى الساعة المعلقة في الجدار :

ـ وهل تأخرنا عن اللحاق بهما ؟ ان الدوقة دي شيفروز هي الآن في مدينة تورس ، اما الدوق دي بوكنغهام ، فهو الان في طريقه الى بولوني . . . وارى انه من الافضل ان نلحق به الى لندره .

ـ وما هي اوامر نيافتك؟

ـ عدم الاشارة الى ما حدث ، حتى نوهم الملكة باننا لم نقف على سرها ، وبذلك تعتقد اننا نسعى وراء مؤامرة معينة ، وعلينا ان نكون على اهبة الاستعداد ، كيلا نخسر المبادرة .

ويبدو ان الكونت روشفور قـــد تذكر بوناسيو ، فسأل الكردينال :

ـ وماذا فعلت نيافتك بذلك المدعو بوناسيو؟

أجابه بدهاء :

لقد جعلت منه جاسوساً على امرأته.

فاحنى روشفور رأسه امام دهاء هذا الرجل العظيم وانصرف؛ بينما انهمك الكردينـــال في تسطير رسالة خاصة ، وضعها ضمن مظروف وختمها بختمه الخاص ، ثم قرع الجرس ، فحضر الضابط نفسه ، فأمره باستدعاء تابعه « فيتراي » .

وبعد دقائق معدودة حضر فيتراي وهو على اهبة الاستعداد، فالتفت اليه الكردينال وخاطبه :

ـ اسمع يا فيتراي ، عليك ان تسافر حالا الى لندره ، وفور وصولك تسلم هذه الرسالة الى « ميلادي » واليك بهـذا الكيس المحتوي على مئتي قطعة ذهبية ، واعتقد انها كافية لنفقات رحلتك، وستنال اضعاف هذا المبلغ ، اذا نجحت في مهمتك ،شرط ان تعود في مدة اقصاها ستة ايام.

فتناول فيتراي رسالة الكردينال ، وانحنى باحترام دون ان ينبس ببنت شفة ، واسرع بها ليبدأ رحلته فوراً .

اما الرسالة التي حملها فهذا نصها :

«ميلادي !

توخي ان تحضري اول حفـــلة راقصة ، يحضرها الدوق دي بوكنغهام وراقبيه اذا كان يضع في قميصه ازراراً ماسية ، وابذلي جهدك لكي تنتزعي بعضاً منها ... وعندما تتمكنين من ذلك اعلميني حالا . »

١٥

رجال الكهنوت ... ورجال السيف

•

في اليوم التالي لوقوع هذه الحوادث الخطيرة ، تفقد القائـــد دي تريفيل الفارس آتوس ، فلم يجده ، وكان قد علم من الفارسين دارتنيان وبورتوس سبب اختفائه ، ولما كان يعتبر نفسه اباً حنوناً لفرسانه ، فقد قرر ان يقابل الملك ليلتمس منه العفو عن آتوس لانه اعتقل خطأ ..

وعندما طلب دي تريفيل مقابلة الملك ، كان جلالته يتحدث مع الكردينال ريشليو ، في مسألة هامة تتعلق في صميم الموضوع الذي جاء من اجله القائد دي تريفيل .

والمعروف ان الملك قد فرض في الآونة الاخيرة رقابة شديدة على تصرفات الملكة واتصالاتها وحركاتها في القصر وخارجه ... وسبب هذه الرقابة الوشايات المتكررة التي كان يتبرع بتقديمهـــا الكردينال ريشليو ، من وقت لآخر ، مدعياً الغيرة على سمعـة

الملكة ؛ وكان من نتيجة هذه الوشايات ، ان امر الملك بابعاد السيدة ده شيفروز الى مدينة تورس ؛ باعتبارها صديقة الملكة المقربة ، واكبر عون لها في شؤونها السياسية والغرامية ايضاً .

وفي ذلك اليوم ، قابل الكردينال ريشليو ، الملك بصورة خاصة ، وبدأ حديثه مدعياً ان السيدة دي شيفروز المبعدة ، قد حضرت سراً الى باريس ، واقامت خمسة ايام متوالية فيها .

فاستشاط الملك غضباً ، وراح يهدد ويتوعد ، وتركه الكردينال يسترسل في غضبه ، ثم ابلغه ان السيدة شيفروز قد حضرت لغاية معينة الى باريس ، بايعاز من الملكة ..

وتذكر الكردينال ذلك الفارس دارتنيان ، الذي تدخل في اللحظة الاخيرة وافسد عليه خطته ، فقرر أن يوغر صدر الملك عليه ، فاردف يقول لجلالته :

ـ وفي اللحظة التي كانت الأمور تسير فيها سيرا حسنا ، تجرأ فارس من حرس دي تريفيل ، على مهاجمة حرسي المكلفين بمراقبة بعض المشبوهين وبذلك أفسد عليهم خطتهم ...

وازداد الملك حنقا وهياجا ، وبينما كان جلالته على هذه الحالة دخل القائد دي تريفيل ، وهو غير عالم بمناورات الكردينال ، وما ان وقع نظر الملك عليه حتى بادره بقوله :

ـ لقد جئت ايها القائد في الوقت المناسب ، فهناك حوادث خطيرة تتعلق بفرسانك البواسل !

وفي لحظات معدودة ، أدرك القائد دي تريفيل ، بذكائه وغريزته ، ان عليه مواجهة خصم عنيد ، فبادر يقول :

ـ وأنا لدي أشياء خطيرة اريد أن اصارح جلالتك بها، تتعلق برجال الكهنوت ومؤامراتهم !

فسأله الملك :

ـ وهل هي أمور تسر ؟

فأجابه دي تريفيـــل ؟ :

ـ انها تتعلق باحد فرسان فرقتي يا مولاي ، لقد اساء بعض حرس الكردينال استعمال وظيفتهم ، وسمحوا لانفسهم بان يلقوا القبض على فارس من فرسان فرقتي داخل احد المنازل، ولم يكن هذا الفارس سوى آتوس .

فردد الملك الاسم بحركة آلية وقال :

ـ آتوس !... اظن اني اعرف هذا الفارس،فهو الذي اصاب القائد كاهوساك بجرح خطير .

فأجابه تريفيل وهو يرمق الكردينال بنظرة عابرة :

ـ هو بعينه يا مولاي ، لقد كان المسكين يقوم بزيارة احـد رفاقه من فرسان فرقة دي ايسار ،ولكنه لم يجده في منزله ، وبينما كان يهمّ بمغادرة المنزل ، داهمه الحرس واقتادوه الى السجن .

وهنا تبـــادل الملك والكردينال بعض الاشارات وما لبث جلالته ان قال :

ـ اعلم ذلك جيداً ، لقد تمّ ذلك لتنفيذ اوامرنا .

فسأله دي تريفيل :

ـ وهل جرى اعتقال الفارس آتوس لخدمة جلالتك ؟! ليقاد وسط الجمهور و كأنه احد المجرمين العاديين ؟وهو كما تعلم يا مولاي

قد سفك دمه من اجل جلالتك !

وهنا تدخل الكردينال ليدافع عن تصرفات حرسه . فقال :

ـ كيف تدعي ايها القائد براءة ذلك الفارس ، مع انه هاجم اربعة من رجالي ومنعهم من القيام بواجبهم ؟!

فأجابه دي تريفيل بصوت جهوري :

ـ اني اتحدى نيافتك ان تثبت صحة ما تقول ، لان الفارس آتوس قد تناول غداءه على مائدتي بحضور الدوق دي ترمويل والكونت دي شالوس .

فتدخل الملك في الموضوع محاولاً تهدئــــة اعصاب الخصمين العنيدين ، فالتفت الى قائده دي تريفيل وخاطبه بقوله :

ـ ما هذا الكلام يا دي تريفيل ؟!

فاردف دي تريفيل يقول :

ـ اذا كان نيافة الكردينال يصر على اتهام احد فرسان فرقتي فانني اطلب فتــــح تحقيق قضائي بالتهمة ، ذلك اني اثق بعدالة نيافتـــه !.

فكظم الكردينال غيظه وحاول ان يظهر بمظهر الرجـــل الهادىء وقال :

ـ في المنزل الذي انتهكت فيه حرمة العدالة ، يسكن شاب غاسقوني ، صديق حميم للفارس آتوس و . .

فقاطعه دي تريفيل :

ـ أتعني الشاب دارتنيان ؟

فأجابه الكردينال :

ـ اجل هو بعينه ، واريد ان اقول ان هذا الشاب مشمول برعايتك وحمايتك ايها القائد..

ـ انا لاانكر ذلك ، فهو من مواطني وانا افاخر بهم .

ـ انا لااعترض على ذلك ،الا انني اتهم هذاالشاب بانه تدخل بشؤون لاتعنيه ، وعرقل سير العدالة. .

فاجابه دي تريفيل:

ـ اعتقد ان نيافتك مخطىء في اتهامك ، لان ذلك الشاب قد امضى سهرته في قصري في تلك الليلة التي جرت فيها الحوادث .

فأجابه الكردينال بلهجة ساخرة :

ـ اذن فانت تريد ان تقول ان جميع فرسان فرقتك قضوا تلك الليلة في ضيافتك ؟!

فاحمر وجه دي تريفيل غضبا وأجابه بحدة :

ـ وهل تشك نيافتك بما اقول ؟

وهنا تدخل الملك في الحديث المرة الثانية ليضع حداً لهذا الجدل وقال :

ـ هناك قضاة مهمتهم ان يحققوا في مثل هذه القضايا ، فلنترك الأمر اليهم ليجروا العدالة .

فأبدى دي تريفيل ملاحظة عارضة وقال :

ـ أرى يا مولاي ان تحال هذه القضية اولاً الى رجال الشرطة ليتولوا التحقيق بها ، لأن أمر التحقيق منوط بهم ...

فاعجب الملك بالفكرة ووافق عليها فوراً ، ثم خاطب دي تريفيل :

ـ اذا تبين ان احد فرسانك قد اساء التصرف وتدخل بما لا

يعنيه ، فانني ساطرح في السجن عشرة من فرسانك ... لا بل مئة ... وربما جميع الفرقة ..!

فأجابه دي تريفيل :

— في اللحظة التي يصبح فيها احد فرسان فرقتي موضع شبهة عابرة ... فانا اؤكد لجلالتك ان جميـــع الفرسان مذنبون ، وستراني يا مولاي اضع سيفي تحت قدميك واعتزل الخدمة فوراً لان ذلك سينتهي بالقاء القبض عليّ ، بعد اعتقال الفارس آتوس ، وربما ألقي القبض ايضاً على الفارس دارتنيان !..

فأجابه الملك :

— يا لك من غاسقوني عنيد !..

فانتهز دي تريفيل هذه الفرصة وقال بلهجة توسل :

— ارجو يا مولاي ان تأمر اما باطلاق سراح آتوس ، او باحالته الى المحاكمة حالاً .

فتدخل الكردينال وقال :

— سيحال الى المحاكمة قريباً .

فأسرع دي تريفيل يقول :

— في هذه الحالة ، سأتولى الدفاع عنه بنفسي ، لاني واثق من براءته .

ويبدو ان الملك قد اقتنع بصحة اقوال قائده المخلص فسأله :

— هل تقسم بان آتوس كان بضيافتك في تلك الليلة ؟

اجابه دي تريفيل :

اقسم على ذلك بشرفي وبذكرى والدك العظيم ..

وهنا حاول الكردينال ، بأساليبه الخاصة ، حمل الملك على عدم

العفو عن الفارس آتوس فاقترب من الملك يقول :

ـ ولكن هذا الرجل متهم يا مولاي ، ويجب محاكمته اولاً .

فقاطعه دي تريفيل :

اني اكفله فهو فارس من افضل فرسان فرقتي ، ولن يهرب وارجو من جلالة مولاي ان يصدر عفوه حالاً ، لان آتوس يعاني العذاب والاضطهاد ، وهو الفارس الامين المخلص لجلالتك .

فبان التأثر على محيا الملك وقال :

ـ يا للشيطان ! هل يسيئون معاملة ذلك الفارس الشجاع ؟! ان هذا لا يجوز !

وما لبث ان وقـــع امراً ملكياً بالعفو عن الفارس آتوس واطلاق سراحه حالاً ، وسلم الامر الى القائد دي تريفيل ، الذي تناوله بلهفة لم تخف مظاهرها على الكردينال ، الذي كان يتحرق غيظاً وكمداً لفشل خطته .

واسرع القائد دي تريفيل بمغادرة قصر اللوفر ، حاملاً امر الملك وتوجه بنفسه فوراً الى سجن الباستيل ليطلق سراح الفارس آتوس .

اما الكردينال ريشليو ، فقـــد استمر في نصب شراكه ووشاياته ضد الملكة ، فأكد للملك ان الدوق بوكنغهام قد وصل الى باريس ومكث فيها مدة خمسة ايام مختبئاً في احد المنازل .

١٦

رسالة الملكة !

•

وبلغ هياج الملك وثورة غضبه حدها الاقصى ، فامتقع لونه وانتفخت اوداجه من فرط الغيظ وقال بصوت متهدج :

ــ أتقول أن بوكنغهام كان في باريس ، وماذا جاء يعمل ؟!

فأجابه الكردينال بخبث :

لا بد انه حضر ليتآمر مع اعداء جلالتك الهوكنوت والاسبان .

ويبدو ان الملك لم يقتنع بهذا الرأي فقال :

ــ انه جاء يتآمر على شرفي بمساعدة السيدتين دي شيفروز ولوغنفيل وآل كونده !

فبانت على شفتي الكردينال ابتسامة غامضة وقال :

ــ لا اشاطر مولاي هذا الرأي ، وربما كان حضور دي بوكنغهام لمسألة سياسية بحتة .

وعاد الملك يؤكد قائلاً :

ـ ولكني واثق من ان حضوره كان لغاية معلومة . بعيدة عن شؤون السياسة!

ففرك الكردينال يديه ، واقترب من جلالته وهمس بصوت خافت :

ـ ان شكوك مولاي حول تصرفات الملكة جعلتني اكون يقظاً ، فقد ابلغتني السيدة دي لانوى ، التي استجوبتها عدة مرات بناء لأوامر جلالتك ، بان الملكة قضت ليلتها الماضية ساهرة حتى ساعة متأخرة من الليل ،وانها بكت كثيراً صباح اليوم ، وقضت معظم وقتها في تسطير الرسائل الخاصة .

فصاح الملك بغيظ :

ـ لا شك أن هذه الرسائل كانت موجهة اليه !. ايها الكردينال يجب ان احصل على هذه الرسائل .

فتراجع الكردينال بضع خطوات الى الوراء وقال :

ـ وكيف السبيل للحصول عليها يا مولاي ، وهل اجسر على ارغام الملكة لأنتزع هذه الرسائل منها ؟؟

فأجابه الملك بلهجة حازمة :

ـ قلت لك اريد هذه الرسائل ، فهل تسمع ؟.. اريدها مهما كلف الامر .

فتظاهر الكردينال بالتفكير ، ثم قال :

ـ اقترح يا مولاي أن تعهد بهذه المهمة الخطيرة الى المستشار سيغوى ، فهذه المهمة تدخل ضمن اختصاصه

فهز الملك رأسه موافقا وقال :

ـ احضره حالاً !

فتردد الكردينال لحظة ثم التفت الى الملك وقال :

ـ ان اوامر مولاي منفذة الا انني اخشى ان ترفض الملكة تنفيذ اوامر جلالتك!

فأجابه الملك بحزم :

ـ سأحملها على تنفيذ هذه الاوامر ، وساتولى بنفسي ابلاغها ذلك ... والآن اذهب لاستدعاء المستشار سيغوى ، لاني اريد ان اتحدث اليه قبل ان اعهد اليه بهذه المهمة .

ثم ترك الكردينال ، وفتح باباً الى يمينه يؤدي رأساً الى جناح الملكة .

وكانت الملكة في تلك اللحظة بالذات جالسة بين وصيفاتها ، يستمعن بانتباه الى الوصيفة مونتبازون تقرأ مقاطع من الشعر الفرنسي الرقيق ، وانتهزت الملكة هذه الفرصة ، وحلقت بخيالها الى عالم آخر خارج اسوار هذا القصر الضيق ، وراحت تفكر بوضعها الحرج وبالمؤامرات التي تحاك ضدها وضد المقربين اليها ، حتى ان الملك نفسه بات يشك باخلاصها له ..

وبينما كانت غارقة في تأملاتها ، فتح الباب ودخل منه الملك وهو بحالةعصبية ظاهرة ، فتوقفت الوصيفة عن القراءة، وانتصبت الوصيفات واقفات احتراماً لجلالته ... فتجاهل تحية الوصيفات والتفت الى الملكة يخاطبها بنبرة قاسية :

ـ يا سيدتي .. سيحضر لمقابلتك المستشار سيغوى لمسائل خاصة كلفته بها ، فأرجو ان تسهلي عمله !

فامتقع وجه الملكة المسكينة ، وهي الزوجـة التي تعرضت في الاونة الاخيرة لوسائل التهديد بالطلاق والنفي والحكم عليها ، ولم تو َ بدأ من سؤاله :

— ولماذا هذه الزيارة يا مولاي ؟ وبماذا سيفضي الي المستشار؟؟

فاستدار الملك على عقبيه ، ولم يجب على سؤالها ، وخرج من حيث أتى ، مخلفاً وراءه امرأة في اشد حالات اليأس والقلق .

وفي اللحظة التي غادر فيها الملك جناح زوجته آن دوتريش ، اعلن ضابط الحرس ان المستشار سيغوى بالباب يطلب المثول بين يدي الملكة .

والمستشار سيغوى هذا ، كان قد وصل الى هذا المركز الرفيع في القضاء بفضل الكردينال ريشليو ، ومن الطبيعي ان يكون من اشد المخلصين لنيافته .. ولهذا كان الكردينال يثق به ثقـة عمياء ويوليه عنايته ، ويجزل له العطاء ، حـــتى اصبح يملك ثروة طائـــلة .

وعندما اذنت له الملكة بالدخول تعمدت ابقاء وصيفاتهـــا حولها وسألته :

— ماذا تريد ايها السيد ، وما هو هدفك من الحضور ؟؟

اجابها المستشار بصوت هادىء :

— جئت يا مولاتي انفذ اوامر جلالة الملك ، لاضع يدي على جميع اوراقك الخاصة .

فصاحت بانفعال :

— وما الغاية من هذا التصرف .؟ انه تدبير غير لائق !

- عفوك يا مولاتي ، انني مجرد آلة طيعة لجلالته ، انفـــذ اوامره بدقة .

وهنا التفتت الملكة باستعلاء الى وصيفتها الخاصة ستيفانا قائلة :

- سلميه جميع مفاتيح خزائني وادراجي ، ودعيه ينقب بهـا كما يشاء ... انها اوامر الملك !

وانحنى المستشار للملكة ، ثم لحق بالوصيفة التي وضعت تحت تصرفه جميع مفاتيح جناح الملكة الخاص ، وكان قـــد تلقى من الكردينال تعليمات خاصة ، تتلخص بان يقلب خزائن الملكة رأساً على عقب بحثاً عن رسالة أو رسائل غرامية بخط الملكة ... واسفر بحثه وتنقيبه الذي استمر حوالى ساعة عن لاشيء ... ممـا جعله يفكر بتفتيش الملكة آن دوتريش نفسها كما اوعز اليه الكردينال ، وبعد ان اعمل الفكر بعض الوقت ، توجه الى الملكة وهو بادي الارتباك وخاطبها بقوله :

- ان جلالة الملك واثق بان جلالتك قد كتبت رسالة خاصة صباح اليوم ، ولم يتسن لك ارسالها ، وبما انني لم اعثر عليها في حجرتك وبين اوراقك الخاصة ... فمعنى ذلك انك تحتفظين بها يامولاتي ...

فقاطعته الملكة بلهجة متعالية :

- وهل تجسر ايها السيد ان تضع يدك على مليكتك ؟!

اجابها المستشار بشيء من الارتباك :

- انني عبـــد امين للملك ، وكل ما يأمر به جلالته أنفذه !

فرمقته بنظرة احتقار وكبرياء وقالت :

- يالسخرية القدر ! لقـد اصبح جواسيس الكردينال ، من

اشد المخلصين لجلالته!!

ثم اردفت تقول بشيء من التحدي :

ـ لقد كتبت رسالة هذا الصباح ، وكنت افضل ان اسلمها بنفسي الى الملك اذا اصر على الاطلاع عليها .

فأجابها المستشار :

ـ لقد عهد اليّ جلالته بان ابحث عن هذه الرسالة ، وآتيه بها ..

فمدت الملكة يدها بحركة آلية الى صدرها ، وتناولت ورقة مطوية ، رمتها بوجه المستشار قائلة :

ـ هذه هي الرسالة فخذها ... واغرب عن وجهي في الحال! ..

فالتقط المستشار الرسالة بلهفة ، وانحنى حتى الارض محيياً الملكة ثم اسرع بالانصراف ..

وما ان اغلق الباب خلفه ، حتى تهاوت الملكة مغشياً عليها من شدة التأثر والاضطراب ، فاسرعت الوصيفات يحملنها الى سريرها ويحاولن انعاشها بشتى الطرق.

وتناول الملك لويس الثالث عشر الرسالة من يد المستشار بيد مرتجفة ، وكانت موجهة من الملكة الى شقيقها ملك اسبانيا وتتضمن حملة عنيفة على الكردينال ريشليو ، لمحاولته الاساءة اليها ، واخيراً تطلب من شقيقها ومن ابن عمها امبراطور النمسا ان يبديا استياءهما من السياسة التي يتبعها ريشليو في فرنسا ويهددا باعلان الحرب على فرنسا ، اذا لم يوافق لويس الثالث عشر على طرد الكردينال .

ولم تتضمن الرسالة اية عبارة غرامية او ما شابه ذلك . فبدا

الارتياح والغبطة على محيا الملك ، لان الشكوك التي ساورته لم تتأكد ، فالتفت الى المستشار وأمره باستدعاء الكردينال حالاً .

ولما مثل نيافته بين يديه بادره الملك بقوله :

- خذ واقرأ ايها الكردينال ، ان الرسالة تتضمن مسائل سياسية بحتة ، كما تتضمن تعريضاً بتصرفاتك ..

فتناول الكردينال الرسالة ، وقرأها بدقة ، ولما وصل الى العبارات الاخيرة المتعلقة به ، اعاد قراءتها مرة ثانية بامعان .

ثم رفع رأسه وتظاهر بالانكسار وقال :

- أترى يا مولاي الى اي مدى ذهب اعدائي ، انهم يهددون جلالتك باعلان الحرب اذا لم تطردني !.. ولو كنت مكانك لما تصلبت ازاء اصرار جلالتها ، وانا بكل فخر انسحب من الميدان، وخاصة وان صحتي ساءت في الآونة الاخيرة ،واصبحت لاتسمح لي بان اواصل الكفاح المستمر ، وارى من الافضل ان تختار مكاني امير كوتره ، فهو رجل شهم وبامكانه ان يواصل الحرب لرفع الحصار عن مدينة لاروشيل .

فقاطعه الملك باشارة من يده وقال :

- لا لزوم لاثارة هذا الموضوع ، فكن مطمئن البال ، واني اعدك بان جميع من ورد ذكرهم في هذه الرسالة سينالون ما يستحقونه من العقاب ... حتى الملكة نفسها !

فتظاهر الكردينال بالاضطراب وقال :

- عفوك يا مولاي ، فمعاذ الله ان ارضى بان ينال الملكة اي سوء بسببي . ولو ثبتت خيانتها لا سمح الله .. لكنت اول من

يطالب بانزال القصاص بها .. ولهذا اقترح على مولاي ان يسمى لمحاسنتها ، لكي تمحو اثر الاساءة التي تعرضت لها بسبب الشكوك التي ساورتك ، وارى ان تقيم جلالتك حفلة راقصة اكراماً لها ، وانت تعلم يا مولاي مبلغ شغفها بمثل هذه الحفلات الراقصة .

– لقد قررت ان اعمل بمشورتك ، واقيم حفلة راقصة مرضاة للملكة ، رغم انني لا احب اقامة هذه الحفلات .

فاردف الكردينال يقول :

– ولا تنسَ يا مولاي ان تطلب اليها ان تتزين بالازرار الماسية التي اهديتها اليها لمناسبة عيد ميلادها الاخير ، وذلك لتؤكد حبك لها وعطفك عليها ..

ثم استأذن الكردينال بالانصراف ، بعد ان تأكد من نجاح خطته التي وضع اسسها .

ولم يخامر الملك اي ريب في حسن نية وزيره الكردينال ريشليو ، فأسرع الى جناح الملكة ، التي كانت تتوقع زيارته بعد ان تسلم رسالتها ، ووقف على مضمونها . وبعد ان مهد الملك لحديثه ببعض العبارات الرقيقة بادر الى القول بانه قرر اقامة حفلة راقصة كبرى ، ولما سألته عن موعد هذه الحفلة ، اجاب بانه سيحدد موعدها بالاتفاق مع وزيره الكردينال ريشليو .

وهنا تولى الملكة اصفرار شديد ، وتوجست شراً من نتيجة هذه الحفلة ، التي تدرك مغزاها ومرماها !

ونفذ الملك وعده ، فاستشار الكردينال في موعد الحفلة ، فنصحه بان تكون يوم الثالث من شهر تشرين الاول (اكتوبر) اي بعد

ثلاثة عشر يوماً .

وتابع الكردينال يقول لجلالته :

- ولا تنس يا مولاي ان تلح على جلالة الملـــكة بان تزين ثوبها البديع بالازرار الماسية !

١٧

الوصيفة المخلصة

•

عندما اعاد الكردينال ريشليو الكرة وألحّ على جلالته ان يطلب من الملكة ان تتحلى بالازرار الماسية في الحفـــلة الراقصة الكبرى ، ساورت الملك لويس الثالث عشر الشكوك من جديد واحسّ بان وراء هذا الاصرار من جانب الكردينال ، مفاجأة غير سارة للملكة نفسها . ومع ذلك قرر ان يعمل بمشورة وزيره الكردينـــال ، ويلح على الملكة بان تضـــع على فستانها الازرار الماسية . واسرع الى جناح الملكة ، وهو عابس الوجه ، وبدأ حديثه مع زوجته بان وجّه اليها عـــدة اسئلة عن تصرفاتها وتصرفات وصيفاتها في اليومين الاخيرين ، واستمر يوجـــه اليها اسئلته واستجواباته المحرجة ، حتى نفد صبرها ولم تعد تتحمل كلماته اللاذعـة واتهاماته الغامضة المبطنة ، فبادرته وهي تشرق بدمعها متسائلة :

ـ انك لم تصارحني بما في صدرك يامولاي وما هي الجريمة التي ارتكبتهـا حتى تسيء معاملتي ... الا اني كتبت رسالة لشقيقي ملك اسبانيا ، اشرح له متاعبي ؟؟! ولكن الملك تهرب من الاجابة على سؤال الملكة وحول مجرى الحديث الى ناحية اخرى وقال :

ـ جئت اعلمك بانني بالاتفاق مع الكردينال قد حددنا موعد الحفـلة الراقصة في اليوم الثالث من شهر تشرين الاول القادم ، وارى ان ترتدي اللباس الرسمي ، ولا تنسي ان تتزيني بالازرار الماسية التي اهديتها لك لمناسبة عيد ميلادك .

ونزلت كلمات الملك على رأسها كضربات مطرقة ، اذ توهمت انه يعرف كل شيء ، وان وراء هـــذه المؤامرة يد الكردينال ريشليو الذي يسحب خيوطها للتخلص منهـــا بصورة نهائية !.. واحست بالارض وكأنها تميد من تحتهـا ، فاستندت الى اريكة قريبة منها خوف السقوط ، واعتصمت بالصمت .

ويبدو ان الملك استاء من سكوتها ، وذهب في تأويـله شتى المذاهب ، فعاد يكرر عليها السؤال :

ـ الا تسمعين ما اقوله لك يا سيدتي ؟

فغمغمت قائلة وهي تنتزع الكلمات انتزاعاً :

ـ اجل يامولاي !

ـ وهل تودين حضور هذه الحفلة الراقصة ؟

ـ اجل .

واكتفى الملك بهذا القدر من الحديث ، فاحنى رأسه انحناءة بسيطة للملكة وغادر الحجرة عائداً الى جناحه الخاص .

وما ان اصبحت آن دوتريش وحيـــدة في حجرتها، حتى تهالكت على مقعدها وهي في اشد حالات الاضطراب النفساني، وراحت تندب حظها العاثر وتحدث نفسها قائلة:

ـ لقد فقدت كل أمل بالخلاص من هذا العذاب الدائم... الكردينال سبب تعاستي وشقائي.. وهو الذي أوحى الى الملك بفكرة اقامة الحفلة المشؤومة، وحدد له موعدها ايضاً واشترط عليّ ان ارتدي اللباس الرسمي، وأتزين بالازرار الماسية... يا الهي الازرار الماسية! انها في لندره في حوزة الدوق بوكنغهام. فكيف السبيل اليها؟! واذا كان الملك لا يعلم شيئاً حتى الآن، فسيعلم كل شيء بعد الحفلة مباشرة!...

وجثت على ركبتيها تبتهل الى الله والسيدة العذراء، بان ينقذاها من هذا المأزق الحرج... ان صديقتها المخلصة السيدة ده شيفروز بعيدة عنها الآن، لقد ابعدها الملك الى تورس، وهي، اي الملكة، اصبحت اشبه بالسجينة في هذا القصر الكبير، المليء بالجواسيس، ولا يمكنها الاتصال بالخارج، خوفاً من العيون والارصاد التي وضعها الكردينال وانصاره حولها... واحست بغريزتها ان احـــدى وصيفاتها تخونها، وهي التي نقلت الى الكردينال تفاصيل اجتماعها بالدوق. الا انها لم تتمكن من حصر التهمة باحداهن. واخيراً تذكرت صديقها الامين دي لابورت، ولكنه اعلمها في المدة الاخيرة انه مراقب ولا يمكنه مغادرة قصر اللوفر! وفي غمرة اليأس المسيطرة على الملكة التعسة، برزت جرمين بوناسيو، وقد وصلت الى حجرة الملكة عن طريق باب سري، وخاطبت

الملكة بصوت عذب قائلة :

ـ الا يمكنني ان اقدم خدمة لمولاتي ؟

فالتفتت الملكة مندهشة نحو الصوت ، فوقع نظرها على جرمين بوناسيو ، واقفة على عتبة الباب وعلى ثغرها ابتسامة كلها امل ورجاء .

فهتفت الملكة مستبشرة :

ـ لقد جئت يا عزيزتي في الوقت المناسب ، اذ انني اتخبط بأزمة نفسية ، ولا يمكنني ان اثق باللواتي يحطن بي من وصيفات وصديقات .

فأجابتها جرمين بوناسيو وهي تنحني قائلة :

ـ اني مستعدة لان ابذل دمي في سبيلك يا مولاتي ، وانك على حق في ظنونك يا صاحبة الجلالة ، فهناك وصيفات خائنات من اقرب المقربات اليك ، ويجب ان تتخذي الحذر والحيطة حيالهن . اما بشأن الازرار الماسية التي اهديتها الى الدوق بوكنغهام الموجود حالياً في لندره ، فيجب ان تعود اليك قبل موعد الحفلة لكي تحبطي مؤامرة الكردينال وانصاره .

فارتاحت اسارير الملكة لكلمات وصيفتها المشجعة وسألتها :

ـ وكيف السبيل للحصول على الازرار ولو مؤقتاً وقبل موعد الحفلة ؟!

اجابتها جرمين بوناسيو :

ـ يجب ايفاد شخص مخلص لك يا مولاتي ، يحمل رسالة خاصة منك الى الدوق ، ليسلمه الازرار فيعود بها مسرعاً .

- ومن هو الشخص الامين الذي يقبل بان يقوم بمثل هـذه المهمـــة ؟

اجابتها جرمين :

- وهل تثقين بي يا مولاتي ؟

- كل الثقة يا جرمين .

- اذن تأكدي ان لدي الشخص المطلوب للقيام بهذه المهمة على اكمل وجه ، وارجو ان تسطري رســـالة الى الدوق دي بوكنغهام تشرحي فيها المؤامرة وتطلبي اليه ان يسلم الازرار الماسية الى الرسول .

فرحبت الملكة اليائسة بهذا الاقتراح ،وشرعت تكتب الرسالة المطلوبة ، ثم ختمتها بخاتمها الخاص ، وسلمتها الى جرمين بوناسيو كما اعطتها خاتماً ثميناً كان شقيقها ملك اسبانيا قد اهداهـــا اياه ، وطلبت اليها ان تبيعه وتستعين بثمنه على نفقات السفر للرسول ، وتناولت جرمين الرسالة والخاتم من يد الملكة ، وما لبثت ان توارت عن الانظار بالسهولة نفسها التي ظهرت بها .

وبعد ساعة من الزمن كانت جرمين بوناسيو تدخل منزلها ، وهناك فوجئت بوصول زوجها بوناسيو الذي اطلق سراحـــه الكردينال ، بعد ان منحه هبة مالية ، ليجعل منه اداة طيعـــة لتنفيذ مآربه الشخصية .

فرحبت به الزوجة الشابة بشيء من الفتور . وتذكرت المهمة الخطيرة التي كلفتها بها الملكة ، فانتهزت هذه الفرصة ، وحاولت اقناع زوجها بوناسيو ، بان يقوم بهذه المهمة ، ويسافر الى لندره ،

دون ان تذكر له الغاية من ذلك .

فبادرها زوجها بقوله :

ــ اني ارحب بالقيام بهذه المهمة ، شرط ان لا تسيء او تلحق اي ضرر بنيافة الكردينال .

فسألته زوجته:

ــ وما علاقة الكردينال بك ايها الاحمق ؟

اجابها باعتزاز :

ــ لقد عاهدت الكردينال بان لا اعمل ضده ، بعد ان احسن معاملتي واجزل لي العطاء .. ودعاني بصديقه الحميم !

فبان الامتعاض والغيظ على محيا زوجته وخاطبته بقولها :

ــ اذن فانت الآن من انصار الكردينال الذي اهان زوجتك وشوّه سمعة ملكتك؟!

فاجابها بعناد :

ــ ان مصلحة الفرد لا تقاس بشيء بالنسبة لمصلحة المجموع ، ولهذا فانا اعمل في سبيل مصلحة الدولة التي يرعاها ويدافع عن مصالحها الكردينال ريشليو العظيم .

فهزت زوجته كتفيها قائلة :

ــ ما معنى ذلك ، أتريد ان تقول انك من الاشخاص الذين يتآمرون على البلاط والملكة ؟

وهنا تناول بوناسيو الكيس المحشو بالذهب ورفعه بيده قائلاً :

ــ وماذا تقولين بهذا يا عزيزتي ؟

فتوجست خيفة وسألته :

ـ ومن اعطاك هذا الذهب ؟

اجابها وهو يزهو بعمله :

ـ نيافة الكردينال وصديقي الكونت روشفور .

فصاحت به بصوت متهدج :

ـ أتقول روشفور ؟ فهو الذي اختطفني .

ـ ولكن هو الذي ساعد على اطلاق سراحي .

فهزت رأسها قائلة :

ـ اذن فهو الذي اطلق سراحك ، ومنحك هذا الذهب ؟!

ـ نعم . ولكن هل تريدين ان توهميني بان الهدف من منحي هذا المال ، هو لاسباب سياسية ؟!

اجابته بحدة :

ـ لا شك بذلك ... انه يريد ان يحملني على خيانة مولاتي الملكة .

فقاطعها بوناسيو قائلا :

ـ تذكري يا عزيزتي ان الملكة امرأة اسبانية ، وان مايقوم به نيافة الكردينال ريشليو ، هو عين الصواب ولمصلحة فرنسا .

فبان التأثر والغضب على محيا جرمين الجميل وصاحت بزوجها قائلة :

ـ ما كنت اعهدك حقيراً الى هذه الدرجة !!

فاجابها :

ـ اني ارفض ان اشاركك تصرفاتك ، فقد ذقت من العذاب الواناً ، وسجنت في الباستيل ، وكدت افقد حياتي !

وهنا بلغ غيظ زوجته الذروة ، فراحت تهدده بانها ستعمل على اعادته الى سجن الباستيل بنفوذ الملكة ، فأجابها :

– في هـذه الحالة سأطلب مساعدة الكردينال ، وهو قادر على انقاذي .

وهنا تذكر بوناسيو ان عليه الاطلاع على نوع المهمة ، لينقل تفاصيلها الى سيـــده الجديد الكردينال ريشليو ، فعاد يحاول استدراج زوجته بقوله :

– ولكن لم تذكري لي يا عزيزتي ، ما الغـــاية من السفر الى لندره ؟

وادركت جرمين هدف زوجها من وراء ذلك ، فابت ان تشير الى المهمة ، وازداد بوناسيو الحاحاً في السؤال ، وازدادت امرأته غموضاً ، بعد ان ساورتها الظنون في اخلاصه لهـــا .

ولما يئس بوناسيو من الحصول على مزيـد من المعلومات عن المهمة وغايتها ،قرر ان يقصد توآ لمقابلة الكونت روشفور ،لينقل اليه تفاصيل حديثه مع امرأته وعن المهمة الغامضة الى لندره . ثم ادعى امام زوجته بانه ذاهب لقضاء حاجة مستعجلة ، وسيعود بعد قليل ، والحّ عليها بان تنتظره في المنزل .

وفي اللحظة التي غادر فيها بوناسيو المنزل ، سمعت جرمين طرقاً خفيفاً على باب الشرفة ، وصوتاً مألوفاً لديها يقول :

– افتحي يا عزيزتي ، فلي حديث ذو شجون معك !

١٨

بين الزوج والعشيق !

●

واسرعت جرمين تفتح باب الشرفة ، فطالعها الفارس الشاب دارتنيان بقامته الفارعة ومعالم وجهه الجذابة ، وبادرها دارتنيان قــــائلا :

ـ اسمحي لي يا سيدتي ان اصارحك بان لك زوجاً جباناً ..

فسألته مدهشة :

ـ وهل سمعت حديثنا ؟

ـ أجل ... ولهذا جئت أضع نفسي تحت تصرفــــك لأتولى القيام بالمهمة الخطيرة التي رفض زوجك القيام بها .

فتمتمت جرمين قائلة :

ـ وهل من المعقول ان اعهد اليك بمثل هذه المهمة الخطيرة ؟

ـ اعتقد ان ما قمت به مؤخراً يؤهلني لان اضطلع بهذه المهمة ولا تنسي انني اقوم بها رغبة في مرضاتك وكسب قلبك !.

وقبل ان تجيب على عبارته الاخيرة ، راحت تفكر ملياً بأمر هذا الشاب وتفانيه في خدمتها ومساعدتها ، فتأكدت ان الدافع الوحيد لذلك هو الحب ، فاعتزمت ان توليه ثقتها وقلبها معاً .

ولما وصلت الى هذا القرار التفتت اليه وقد ارتسمت على وجهها دلائل الجد وخاطبته بقولها :

ـ اسمع يا صديقي ، انني قررت ان افتح لك قلبي ، واطلعك على جميع اسراري ، ولكن ثق بأنه اذا حاولت خيانتي ، فسأقتل نفسي واتهمك بقتلي عمداً .

فأجابها دارتنيان :

ـ اما انا يا سيدتي ، فاذا لاقيت حتفي ، وانا اقوم بالمهمة فثقي بأن سرك سيذهب معي الى القبر .

وهنا بدأت السيدة بوناسيو توضح له تفاصيل المهمة الخطيرة ، وان على نجاحها يتوقف مصير الملكة التعسة التي ستذهب ضحية مؤامرات الكردينال واتباعه .

وانتهز دارتنيان هذه المناسبة ، وراح يبثها لواعج قلبه ، مؤكداً لها ان هذا الحب الذي غزا فؤاده ، سيكون سلاحه القوي للقيام بالمهمة على اكمل وجه ، والعودة سريعاً الى فرنسا لينعم بقربها .

وبعد حوار قصير بينهما ، اعترفت جرمين بأنها تبادله الحب وما ان سمع عبارتها ، حتى تناول يدها وراح يشبعها شماً ولثماً بشغف وقال :

ـ لقد قررت السفر في الحال !.

فرمقته بنظرة عطف وقالت :

- او تذهب دون ان تحصل على اجازة من قائد فرقتك .

أجابها :

ـ يا الهي ! لقد انساني حبك واجبي وفرقتي !.. وسأذهب هذا المساء الى القائد دي تريفيل ، لاحصل بواسطته على إجازة لمدة شهر . وقبل ان تدعه يذهب قالت :

- هناك مسألة اخرى يجب ان تذللها قبل سفرك ، وهي تأمين نفقات رحلتك .

فبادرها دارتنيان :

ـ سأتكفل بدبير المال بمساعدة بعض رفاقي من الفرسان .

وهنا اسرعت جرمين الى الخزانة التي وضع فيها زوجها منحة الكردينال ، وتناولت الكيس المحشو بالدنانير الذهبية وقدمته الى دارتنيان قائلة :

ـ اليك هذا المبلغ ، واظن انه يكفي لنفقات رحلتك ذهاباً واياباً.

واجابها دارتنيان وهو يتناول الكيس من يدها :

ـ يا لسخرية القدر، تصوري اننا سنستخدم مال الكردينال لانقاذ الملكة من شروره ومؤامراته!

وهنا سمعت جرمين صوت زوجها ، وهو يتحدث الى شخص آخر في الشارع، فهتفت تقول بصوت خافت :

ـ لقد وصل زوجي !

فاسرع دارتنيان الى باب الشرفة ليعود من حيث أتى ، الا انها امسكت بذراعه تقول:

ــ يجب ان اذهب معك، بعد ان استوليت على الدنانـــير الذهبية، والا تعرضت لنقمته الشديدة ، فهو شديد البخل ...

فشد على يدها وقال :

ــ اذن هلمي بنا الى جناحي في الطابق العلوي، وستكونين بأمن من كل اذى.

وتقدم دارتنيان وهو ما يزال ممسكا بيد جرمين ، وفتح باب الشرفة ، ليخرجا منها الى الممر ومنه صعدا السلم المؤدي الى جناحه بأمان ودون ان يشعر بهما أحد...

ومن الفجوة التي احدثها دارتنيان في ارض حجرته ، تمكنا من مراقبة كل ما يجري في المنزل السفلي، فشاهدا بوناسيو يدخل المنزل وبرفقته رجل غريب ، يرتدي معطفاً اسود اللون ، وما ان امعن دارتنيان النظر بتقاطيع وجهه ، حتى انتصب واقفاً ، ووضع يمينه بحركة آلية على مقبض سيفه وهو يردد :

ــ انه رجل «مينغ» بعينه !

فامسكت جرمين بذراعه قائلة :

ــ هدىء روعك ، ولا تقدم على حماقة توردنا موارد الهلاك!

فأجابها دارتنيان بانفعال :

ــ ولكنني اقسمت بشرفي ان اقتل هذا الرجل الغادر ...

فظلت جرمين متشبثة بذارعه وقالت :

ــ ان حياتك الآن ليست ملك يـــديك ، فانا باسم الملكة

اطلب اليك ان لا تقوم باي عمل قبل تنفيذ مهمتك في لندره .

فأجابها بعد ان هدأت اعصابه الثائرة بعض الشيء :

– وباسمك ، اليس لك سيطرة عليّ ؟

فضغطت على ذراعه قائلة :

– وباسمي ايضاً ارجوك ان لا تخاطر بنفسك .

وفي هذه اللحظة بالذات ترامى الى سمعهما حوار يدور بين بوناسيو ورفيقه ، فسمعا بوناسيو يقول :

– اعتقد انها ذهبت الى قصر اللوفر .

فسأله الرجل الغريب بقوله :

– وهل انت متأكد من انها لم تشك بنواياك وتصرفاتك ؟

فأجابه الزوج بوناسيو :

– كل التأكيد ، فهي تثق بي ثقة عمياء .

فسأله الرجل الغريب :

– وهل جارك الفارس دارتنيان الذي يسكن الطابق العلوي موجود في منزله ؟

– ان نوافذ غرفته مقفلة ، ومعنى ذلك انه غير موجود .

– اذهب واطرق بابه لتتأكد من ذلك .

فانصاع بوناسيو لاوامر الرجل الغريب ، الذي لم يكن سوى الكونت دي روشفور ، وقصد توآ الى باب شقة دارتنيان وراح يطرقه بشدة ، ولما لم يجبه احد ، عاد ليعلم الكونت روشفور بان لا احد في المنزل .

وعاد حديثهما يصل واضحاً الى مسامع جرمين ودارتنيان ،

فسمعا بوناسيو ينقل الى دي روشفور تفاصيل محادثته مع زوجته وسعيها لاقناعه بالسفر الى لندره لمهمة خاصة .

وهنا قاطعه دي روشفور يسأله باهتمام :

ــ وهل ذكرت زوجتك اسم الشخص الذي ستقابله في لندره؟

ــ كلا لم تذكر شيئاً من ذلك .

ــ يالك من احمق ، لقد اسأت التصرف ، وفوّت علينا فرصة نادرة برفضك القيام بتلك المهمة ، كما خسرت فرصة ذهبية للحصول على لقب رفيع عن طريق نيافة الكردينال .

ــ كن مطمئناً ياسيدي ، فزوجتي تحبني حتى العبادة ، واعتقد ان هناك متسعاً من الوقت للقيام بمحاولة اخرى .

وهنا هتفت جرمين وهي تصغي الى اقوال زوجها قائلة :

ــ يا له من احمق حقير !

فوضع دارتنيان سبابته على فمها قائلاً :

ــ لا ترفعي صوتك ، لئلا يشعروا بوجودنا .

وعاد صوت دي روشفور يرتفع سائلاً بوناسيو :

ــ وكيف السبيل الى الحصول على معلومات وافية عن هذه المهمة ؟

اجابه بوناسيو بابتسامته :

ــ سأذهب الى قصر اللوفر واقابل زوجتي هناك ، واقول لها بانني فكرت بالامر ملياً ، وقررت ان اقوم بالمهمة ، وبذلك احصل على الرسالة وعلى كافة المعلومات ، واذهب بها الى نيافة الكردينال .

فأجابه دي روشفور :

ــ اذن اسرع لمقابلة زوجتك ، وسأعود لاقف على نتيجة مسعاك !

وما لبث ان غادر دي روشفور المنزل ، بينما اسرع بوناسيو الى خزانته يفتحها ليتأكد من وجود الذهب الذي وضعه قبل ذهابه ... وفجأة سمع دارتنيان وجرمين صوت بوناسيو يزمجر صائحاً مولولاً باعلى صوته : بان ماله قد سرق... ثم اسرع مهرولاً الى الشارع وهو بحالة عصبية يسب ويشتم ... وعندما خلا المنزل التفتت جرمين الى دارتنيان قائلة :

ــ واخيراً لقد انصرف ، ويمكنك الآن ان تبدأ رحلتك حالاً ، وارجو ان تكون حذراً .

فتناول يدها وطبع عليها سيلاً من القبلات المحمومة ، ثم اسرع يغادر المنزل ، بعد ان ارتدى معطفاً طويلا يخفي تقاطيع جسمه ...

وظلت جرمين تشيعه ببصرها حتى توارى في احد منعطفات الشارع ، ثم جثت على ركبتيها تبتهل الى الله :

ــ يا الهي احفظ الملكة واحفظه !

١٩

خطة العمل

•

واسرع دارتنيان الى مقابلة القائد دي تريفيل ، وهو يعلم اخلاصة الملكه آن دوتريش ، واطلعه على مهمته فنصحه بأن لا يسافر وحده وقال :

ـ يجب ان تستعين برفاقك الفرسان الثلاثة ، لتتمكن من الوصول سالماً الى المكان الذي تقصده ، وسأبذل ما في وسعي لاستحصل لكم في هذه الليلة على اجازة لمدة اسبوعين ، وسأبعث بهذه الاجازات الى منازلكم .

فبادره دارتنيان قائلاً :

ـ ارجو ان ترسل اجازتي الى منزل الفارس آتوس لان رجال الكردينال يفرضون رقابة شديدة على منزلي منذ الصباح .

وتذكر القائد دي تريفيل ان هذه الرحلة الطويلة تحتاج الى نفقات باهظة فسأل دارتنيان :

ـ وهل فكرت في تأمين المال الازم لهذه الرحلة ؟
فضرب دارتنيان يده على الكيس المحشو ذهباً وقال :
ـ اجل يا سيدي القائد .
فمد دي تريفيل يده يصافح دارتنيان ويرجو له النجاح في مهمته .
وقصد دارتنيـــان تواً الى منزل آتوس ، حيث اجتمع شمل الفرسان الاربعة واخذوا يتشاورون في امر المهمة الخطيرة .
فقال بورتوس :
ـ لنرسم اولاً خطة العمل ، فالى اين يجب ان نذهب بادىء الأمر ؟
اجابه دارتنيان:
ـ الى ميناء كاليه ، فهو اقرب الطرق الى لنـــدره واكثر ملاءمة ، وأقل تعرضاً للاخطار . والامر في منتهى البساطة ايها الرفاق ... انني احمل بين طيات ملابسي رسالة خاصة الى شخص عظيم في العاصمة الانكليزية ، فاذا قدر لي ان اقتل في الطريق ، فليأخذها واحد منكم ، وواصلوا السير ، فاذا قتل حامل الرسالة فلينقلها آخر ، وهكذا دواليك . والمهم ايها الرفاق ان يبلغ احدنا في النهـــاية الى لندره سالماً ليتولى تسليم الرسالة الى صاحبها ، وتجدون في هذا الكيس مئة دينار ذهباً ، فقد قررت اقتسامها بيننا بالتساوي ، فيكون نصيب كل واحد منا ٢٥ دينـــاراً ، يستعين بها على تصريف شؤونه وسد نفقاته .
وانبرى الفارس بورتوس يبدي رأيه بهذه الخطة فقال :
ـ اعتقد ان سفرنا نحن الاربعة في وقت واحد ، مدعاة للشك

واقترح ان يأخذ كل منا طريقاً مختلفاً عن الآخر على ان نلتقي في كاليه مثلاً .

فقال دارتنيان :

ـ اعتقد ان خطة بورتوس صعبة التنفيذ اذ انه من الحكمة ان نجابه الاخطار التي قد تعترض طريقنا يداً واحدة ، لنتمكن من التغلب عليها ... ولا تنسوا ايها الرفاق ان عيون الكردينال ساهرة تراقبنا بدقة .

فاعجب الفارس آتوس بفكرة دارتنيان فهتف يقول :

ـ مرحى ... دارتنيان ، انني اشاطرك هذه الفكرة لانها معقولة ، ولا تنسوا ايها الرفاق بانني سأسير في الطليعة ، وسيكون الى جانبي الفارس دارتنيان ، فاذا حاول احد من الحرس او العسس اعتراض سبيلنا ، ابرزت له كتاب القائد دي تريفيل ، وابرز دارتنيان اجازته ، فاذا اصروا على توقيفنا ، لجأنا الى الدفاع عن انفسنا ، واری ان نصطحب معنا خدامنا الاربعة ونزودهم بالمدارات ، فنؤلف بذلك قوة لا بأس بها مكونة من ثمانية اشخاص ، يمكنها ان تصمد في وجه جيش من فرسان الكردينال وتمزق شمله .

فقال دارتنيان :

ـ ان رأي آتوس وجيه ، وأرى ان نوافق عليه جميعاً .

فصاح بورتوس وأراميس قائلين :

ـ اننا نوافق .

وبعد ان قام دارتنيان بتوزيع الدنانير الذهبية بالتساوي على

رفاقه ، اقترح اراميس اقامة حفلة صغيرة في حانة « غابة الصنوبر » فرحب الجميع بهذا الاقتراح ، وتواعدوا على اللقاء عنـــد الساعة الحادية عشرة في الحانة ، ليتسنى لكل واحد منهم اعداد ما يحتاج اليه في هذه الرحلة الطويلة الشاقة .


٢

٢٠

السفر الى لندره

❁

وفي الساعة الثانية من بعد منتصف الليل ، كان الفرسان الاربعة على صهوات جيادهم يتبعهم خدمهم الاربعة ، وخرجوا من باب سانت دنيس ليبدأوا رحلتهم الطويلة الشاقة .

وظل الصمت يخيم على هـــذا الركب الصغير الى ان تبدد الظلام ، وظهرت تباشير الصبح البـــاكر ، فانطلقت ألسنتهم بالدعابات والنكات اللاذعة ، غير عالمين بما تخبىء لهم الاقدار من مفاجاءات واخطار .

وتابع الركب سيره بسلام وهدوء حتى بلدة «شانتيلي» حيث ترجل الفرسان الاربعة امام باب نزل ليتنـاولوا طعام الافطار ، اذ كانت الساعة قد جاوزت الثامنة صباحاً ... وقبل ان يدخلوا النزل ، اوعزوا الى خدمهم بان لا يحلوا احزمة الجيـــاد ، استعداداً لمواصلة السير ، فور الانتهاء من تناول طعام الافطار .

وكانت قاعة الطعام تكاد تكون خالية الا من شخص جلس يتناول طعامه بهدوء .

واحتل الفرسان الاربعة، مائدة مواجهة لمائدة الرجل الغريب، وشرعوا يتناولون فطورهم بشهية ومرح . وطاب لذلك الرجل ان يرفع كأسه ، ويشرب نخبهم ، فبادله الفرسان الاربعة مجاملته بدورهم ، دون ان يولوه كبير اهتمام .

وفي اللحظة التي ظهر فيها الخادم موسكيتون يعلن ان الجياد جاهزة ، رفع الرجل الغريب كأسه واقترح على الفارس بورتوس ، الذي كان محاذياً له ، ان يشرب نخب نيافة الكردينال ، فأجابه بورتوس بشيء من التحدي ، انه يرحب بذلك ، شريطة ان يشرب الرجل نخب جلالة الملك .

وهنا رفع الرجل عقيرته وصاح بانه لا يعرف ملكاً لفرنسا ، سوى نيافة الكردينال .

فبان الحنق على محيا بورتوس ، ووصف الرجل بانه مخمور ولا يعي ما يقول ، فما كان من الرجل الغريب الا ان استل سيفه ، محاولاً الانقضاض على بورتوس .

وهنا تدخل آتوس بالامر موجهاً حديثه الى بورتوس :

ـ لقد ارتكبت حماقة لا بد ان تتحمل وزرها ، واصبح من المحتم عليك ان تبارز هـذا الرجل اللعين ، وتقضي عليه بسرعة ، وتلحق بنا فوراً ، لانه لا يمكننا الانتظار ..

وامتطى الفرسان الثلاثة اتوس وارامیس ودارتنيان صهوات جيادهم وتابعوا سيرهم مع خدمهم ، تاركين خلفهم رفيقهم الفارس ،

بورتوس ، ينخرط بمبارزة دامية مع ذلك الرجل الغريب ، الذي تعمد التحرش به لغاية مبيتة .

وفي بلدة « بوفيه » توقف الفرسان الثلاثة مـــدة ساعتين ، لينتظروا وصول رفيقهم بورتوس ، الا انـــه لم يصل ، فاضطر الفرسان ، الى متابعة طريقهم وعلى مسيرة فرسخ واحد من بلدة « بوفيه » اعترضتهم طريق ضيقة تقـــع بين مرتفعين ، وشاهدوا حوالي عشرة رجال منهمكين في اصلاح الطريق الموحلة ، ولم يتزحزح هؤلاء الرجال من مكانهم ليفسحوا الطريق امام الفرسان ، بل تعمدوا توجيه بعض العبارات والغمزات التي اعتبرها الفارس اتوس ، وهو اهدأ الفرسان الاربعة ، مهينة بحقه وحق رفاقـه ، فما كان منه الا ان وجه عنان جواده نحو اقرب العمال اليه واكثرهم « قاحة » وطرحه ارضاً ، وتابـــع سيره ، بينما اسرع الرجال المتنكرون بزي العمال الى فندق قريب ، وتناولوا منه بنادقهم ، التي كانت مخبأة هناك ، وراحوا يطلقون النيران على اتوس ورفاقه ، فاصيب اراميس برصاصة في كتفه ، كما اصيب الخادم موسكيتون برصاصة اخرى ألقته عن صهوة جواده .

وهنا صاح دارتنيان برفاقه :

انه كمين مدبر للايقاع بنا ، وتأخير سفرنا ، فاسرعوا ايها الرفاق ، ولا تفرطوا بما لديكم من رصاص .

وعلى الرغم من ان جرح اراميس ، بدأ ينزف منـــه الدم بغزارة ، فقد تحامل على نفسه ، وامسك بعنان جواده ولكزه بشدة ، ليلحق برفاقه الذين تمكنوا من النجاة . ولم يلبث ان لحق

بالركب جواد موسكيتون دون فارسه . فقال آتوس :

ــ حسناً ، لقد اصبح لدينا جواد احتياطي ، يمكن الاستفادة منه .

فاجابه دارتنيان مداعباً :

ــ اما انا ، فاحتاج الى قبعة ، لان قبعتي اطارتها رصاصة طائشة .

وتذكر ارامیس رفيقه بورتوس فقال :

ــ يا للانذال !... فلا بد ان يفتكوا ببورتوس عند مروره .

فاجابه آتوس بادي القلق :

ــ لو خرج بورتوس سليماً من تلك المبارزة ، لما تأخر عن اللحاق بنا !...

ثم تابعوا سيرهم الحثيث مدة ساعتين متواصلتين ، وعندما وصلوا الى بلدة « كريف كور » شعر ارامیس بالاعياء الشديد ، واعلن انه لن يقوى على متابعة السير معهم ، فاضطر الرفاق الى وضع ارامیس في احدى حانات البلدة برعاية خادمه بازان للسهر على راحته . بينما تابع آتوس ودارتنيان مع خادميهما السير ، آملين ان يتمكنوا من الوصول الى مدينة « اميان » ليبيتوا ليلتهم فيها .

وفي الطريق بدأ يفكر آتوس بالمخاطر والمفاجاءات التي تعرض لها مع رفاقه ، والتفت الى رفيقه دارتنيان يقول :

ــ يا للشيطان ! لم يبق غيرنا نحن الاثنين مع خادمينا ، غريمو وبلانشيه ، لنتولى تنفيذ المهمة التي تحملنا من اجلها اخطار

والمشقات . ولهذا فقد قررت ألاّ افتح فمي ، او اجرد سيفي حتى اصل الى ميناء كاليه . .

فاجابه دارتنيان :

.. دعنا من ذلك ، لنسرع بسيرنا ، قبل ان ينفق جوادينا .

ولكز الفارسان بطن جواديهما وانطلقا يسابقان الريح نحو اميان ، وتمكنا من الوصول اليها عند منتصف الليل ، فاتجها فوراً الى فندق « الزنبقة الذهبية » .

واستقبلهما صاحب الفندق ، امام مدخل فندقه ، واظهر لهما آيات الاحترام والخضوع ، وقادهما الى غرفتين تقعان في اقصى الفندق ، فلم يرتح الفارسان لهذا التدبير ، وقررا انهما يفضلان النوم في غرفة مشتركة ، فوافق الفندقي ، شريطة ان ينام الخادمان في الاسطبل .

ولكن الخادم بلانشيه لم يطمئن الى هذا التدبير ، فما كان منه الا ان تسلق نافذة الغرفة التي ينام فيها اتوس ودارتنيان ، واعلن انه قرر ان ينام امام الباب تحسباً للطوارىء !

فابدى دارتنيان موافقته على هذا الاقتراح وقال :

ـ ان شكل صاحب الفندق لم يعجبني ، ولا تدعو هيئته الى الارتياح والاطمئنان ، رغم اسرافه في اظهار الاحترام لنا .

ومرت الليلة بسلام ، واستفاق الفارسان اتوس ودارتنيان على صوت الخادم غريمو يشتم ويعربد ، عندما وقع نظره على الجياد وقد تورمت قوائمها ، وهي بحالة تعب شديد ، بحيث يستحيل عليها متابعة السير .

واسرع اتوس ودارتنيان بالنزول الى الاسطبل ، ليتفحصا الجوادين ، وما ان وقعت عينا دارتنيان على الجوادين حتى صاح بمرارة :

- لم يعد لنا ما نرجوه من هذين الجوادين ، وعلينا ان نسعى منذ اللحظة ، للحصول على جوادين جديدين ، مهما كلفنا الامر ، لنتمكن من استئناف السير فوراً ودون تأخير .

واحس دارتنيان في قرارة نفسه ، ان هذه المصادفات المزعجة ما هي الا مكيدة منظمة نصبت شراكها لمنعهما من مواصلة سيرهما . ولمحا اثناء خروجهما من الاسطبل ، جوادين بحالة جيدة ، تبدو عليهما دلائل الراحة والنشاط ، يقفان امام باب الفندق ، فاسرع اتوس الى صاحب الفندق ، ليباحثه في امر شرائهما ، فأبدى الرجل استعداده لبيعهما وحدد مبلغاً ، فتناول اتوس من جيبه ثلاثة دنانير ذهبية ، اعطاها لصاحب الفندق ، الذي كان جالساً الى مكتبه ، فاخذها هذا ووضعها داخل درج امامه ، متظاهراً بانه يتفحصها ، وما لبث ان اعاد يده وصاح بآتوس بحدة :

- ان دنانيرك مزيفة ايها الرجل ، وانا مضطر ان امنعك من متابعة سفرك مع رفيقك ..

فصاح به آتوس غاضباً :

- تباً لك ايها النذل ، سأقطع اذنيك جزاء لك على وقاحتك ...

وما ان أتمّ عبارته هذه حتى هجم عليه اربعة من الرجال المسلحين ، كانوا مختبئين في غرفة مجاورة ، محاولين تقييده ، وهنا

صاح باعلى صوته قائلاً :

— لقد وقعت في الشرك ، فانج بنفسك يا دارتنيان !

ثم اتبع عبارته هذه باطلاق رصاصتين من غدارته على مهاجميه.

وسمع دارتنيان وبلانشيه ، انذار اتوس فاسرعا الى الجوادين المربوطين امام باب الفندق فامتطياهما واعملا فيهما المهاميز ، وتمكنا من الفرار قبل ان يشعر بهما احد ، متخذين طريق كاليه هدفاً لهما ولما ابتعدا عن الفندق سأل دارتنيان خادمه بلانشيه :

— وهل علمت ماذا جرى لاتوس؟ !

اجابه بلانشيه :

— لقد لمحت اثنين من مهاجميه يسقطان صريعين ، وابصرته يقارع الاخرين بشدة وصلابة . !

اجاب دارتنيان :

— بورك فيه من بطل همام ، وانه ليؤلمني جداً ان اضطر الى تركه عرضة للمؤامرات والمكائد واتابع طريقي الى كاليه !

وبعد سير حثيث متواصل ، وصل دارتنيان مع خادمه بلانشيه الى بلدة « سانت ادمير » فتوقفا بعض الوقت ، ليريحا الجوادين من عناء السير المضني ، وزيادة في الحيطة والحذر ، فقد ربط كل منهما مقود جواده بذراعه ، ثم ابتاعا بعض الطعام وراحا يلتهمانه بشراهة ولذة وهما في عرض الشارع .

ثم استأنفا سيرهما مسرعين نحو ميناء كاليه . وعلى بعد فرسخ واحد من الميناء . توقف جواد دارتنيان عن السير من شدة

التعب والاعياء ، وبدأ الدم ينزف من انفه وفمه بغزارة . اما جواد بلانشيه فما لبث ان عجز عن المسير ... وهكذا اضطر دارتنيان وخادمه الى ان يقطعا المسافة الباقية حتى ميناء كاليه سيراً على الاقدام ، ليلحقا بالسفينة الوحيدة المبحرة الى ميناء دوفر في انكلترا .

ولما وصل دارتنيان مع خادمه بلانشيه الى الميناء ، كان قد سبقهما الى هناك ، رجل من النبلاء يرافقه خادمه ، وظهر من ملامحه انه وصل في تلك اللحظة من سفر طويل ، وتقدم من قبطان السفينة يسأله اذا كان بالامكان ان ينقله على ظهر سفينته الى ميناء دوفر ، فأجابه القبطان :

— لا مانع عندي ايها السيد ان كنت تحمل اذناً خاصاً من نيافة الكردينال ريشليو .

فاجابه الرجل النبيل :

— انني احمل هذا الاذن من نيافة الكردينال نفسه .

وتناول الرجل من جيبه مظروفاً سلمه الى القبطان ، الذي راح يتفحصه بدقة ، ثم التفت الى الرجل النبيل وقال :

حسناً ، وعليك يا سيدي ان تؤشر عليه من رئيس الميناء وهو يقيم في المنزل القائم في وسط تلك الغابة والذي يبعد حوالي خمسمائة خطوة من الميناء .

فاسرع الرجل النبيل مع خادمه الى ذلك المنزل الذي اشار اليه رئيس الميناء . وكان دارتنيان يسمع الحوار الذي دار بين رئيس الميناء والرجل النبيل ، وتأكد بأنه يستحيل عليه السفر الى

انكلترا ما لم يكن مزوداً باذن خاص من الكردينال ، وادرك بذكائه ، الطريق الذي عليه ان يسلكه . ولحق مع خادمه بأثر الرجل ، دون ان يشعر بهما .

وما ان اصبح الرجل النبيل في وسط الغابة حتى فاجأه دارتنيان بقوله :

— اسمح لي ايها السيد النبيل ، ان استفيد بالاذن الذي تحمله لانني مضطر للوصول الى انكلترا على عجل لامر هام جداً .

فأجابه الرجل بحدة :

—يا للوقاحة ! . لقد قطعت ستين مرحلة في ٤٤ ساعة لاتمكن من الوصول الى لندره ظهر غد .

فابتسم دارتنيان واجابه بسخرية :

— اما انا يا سيدي فقد قطعت نفس المسافه باربعين ساعة ، لابلغ لندره قبل ظهر غد !.. ولهذا ارجو ان تعطيني الاذن الذي تحمله !...

فانتفض الرجل واجاب دارتنيان :

— وهل تجرؤ ايها الرجل ان تعترض طريقي ؟!

قال ذلك ثم امتشق حسامه ، وهجم على دارتنيان يحاول ان يفتك به .

وهنا صاح دارتنيان بخادمه :

— تكفل يا بلانشيه بالخادم ، وانا سأتكفل بوضع حد لمقاومة هذا النبيل المعتد بنفسه !

واستطاع بلانشيه ان يضع حداً لمقاومة الخادم ، بينما دامت

المعركة بين دارتنيان وخصمه بضع دقائق ، اسفرت عـن سقوط الرجل النبيل ، مصابا بجرح بالغ في صدره .

فحمله دارتنيان ووضعه قرب شجرة كبيرة ، ثم استولى على الاذن الذي يحمـــله من الكردينال ، وكان باسم الكونت دي وارد ، واسرع مع خادمه الى رئيس الميناء ، الذي بادره بقوله :

– هل تحمل اذنا خاصا من نيافة الكردينال أيها السيد ؟

اجابه دارتنيان بقوله :

– اجل يا سيدي الرئيس ، وهذا هو !

وابرز له الاذن الذي استولى عليه من الكونت دي وارد ، ولما اطلع عليه رئيس الميناء قال :

– انه مستوفٍ الشروط ، ويمكن السفر ساعة تشاء .

فاجابه دارتنيان :

– انني من اخلص خدم نيافة الكردينال ، واقربهم اليه!

اجابه رئيس الميناء :

– يبدو ان نيافته ، يريد ان يمنع وصول شخص معين الى انكلترا :

فاجابه دارتنيان !

– اجل ، واعتقد انه يقصد منع شخص يدعى الفـــارس دارتنيان ، لقد خرج هذا الفارس مع ثلاثة من رفاقه الفرسـان قاصدين الوصول الى لندره .

فسأله رئيس الميناء :

– وهل تعرف هذا الرجل ؟

.. اجل اعرفه جيداً .

- وهل تتكرم باعطائي اوصافه ؟

- حباً وكرامة .

وهنا راح دارتنيان يسهب في اعطاء اوصاف الكونت دي وارد الذي تركه جريحاً في الغابة ، وزاد بقوله :

- ويرافقه خادم يدعى « سيمون » !

فشكره رئيس الميناء وقال :

- ليكن نيافة الكردينال مطمئنا ، فانني سأكثر من العيون والارصاد ، لامنع سفر هذا الشخص ، وسأعيده مخفوراً الى باريس !

ولم يضيع دارتنيان وقته سدى ، فشكر رئيس الميناء على سهره واخلاصه لنيافة الكردينال ، واسرع مع خادمه الى الميناء ليلحق بالسفينة التي كانت على اهبة المسير الى ميناء دوفر .

وفي عودته تحاشى دارتنيان مع خادمه ، ان يمرا بالغابة ، حيث تركا الكونت ، فاتخذا طريقاً آخر ووصلا الى الميناء في اللحظة التي كانت السفينة تعد العدة لرفع مرساتها استعداداً للاقلاع فلوح دارتنيان بالجواز الى القبطان قائلا :

اليك اوراقي مؤشر عليها ايها القبطان الهمام ...

فاجابه القبطان

- ولكن اين الرجل ؟

- انه لن يسافر اليوم ، وكن واثقاً بأنني سأدفع لك اجرة السفر عن اثنين !

— اذن هيا اسرع قبل فوات الاوان .

فقفز دارتنيان مع خادمه بلانشيه الى اول زورق صادفهما وطلب الى النوتي ان يسرع بهما الى السفينة ، وصعدا الى ظهرها في اللحظة التي كان البحارة يستعدون لرفع المرساة ايذاناً ببدء السفر .

وعندما اصبح دارتنيان داخل الغمرة التي خصصت لهما ، نزع قميصه ليعني بجرح بسيط أصاب كتفه في اثناء المعركة ضد اولئك العمال الاوغاد ثم استلقى على فراشه منهوك القوى من شدة التعب ، وما لبث ان راح يغط في نومه .

وفي صباح اليوم التالي ، عند الساعة العاشرة ، ألقت السفينة مرساتها في ميناء دوفر ، وبعد مضي نصف ساعة وطأت قدما دارتنيان الارض الانكليزية ، فتنفس الصعداء وخاطب خادمه بلانشيه قائلاً :

— ... واخيراً وصلنا انكلترا ، وعلينا ان نسرع في الحال الى لندره لنبلغ هدفنا .

وكانت وسائل النقل في انكلترا منظمة في ذلك العهد ، فاستأجر دارتنيان جوادين ، ليواصل السير مع خادمه الى لندره وقد تقدمهما دليل ليهديهما الطريق .

وقطعا المسافة من دوفر الى ابواب العاصمة الانكليزية باربع ساعات وبما ان دارتنيان لا يعرف الانكليزية ، فقد كتب اسم الدوق دي بوكنغهام على ورقة ، وراح يعرضها على كل من يصادفه بطريقه ليدله على قصر الدوق .

وكان الدوق دي بوكنغهام ساعة وصول دارتنيان في رحلة صيد بالارياف ، فقابل دارتنيان « بتريس » خادم الدوق الخاص وموضع ثقته ، وكان هذا يرافق الدوق في جميع اسفاره ، ويجيد التكلم بالافرنسية ، فاخبره دارتنيان بانه قادم رأساً من باريس ، في مهمة خطيرة جداً يتوقف عليها الموت والحياة ، ولهذا فهو يلح بمقابلة الدوق في الحال .

فاسرع بتريس لاعداد جوادين ، وقال لدارتنيان :

ـ هيا بنا لنقابل الدوق في قصره الريفي .

اما الخادم بلانشيه ، وكان قد اضناه التعب ، فقد طلب اليه دارتنيان الانتظار في قصر الدوق ، ريثما يعود من مهمته .

وفي اللحظة التي وصل فيها دارتنيان مع بتريس الى القصر الريفي ، كان الدوق يترجل عن صهوة جواده وهو ما يزال في بزة الصيد ، وما ان وقع نظره على دارتنيان ، حتى تعرف عليه فوراً ، وساورته الهواجس والقلق ، بأن وراء حضوره المفاجىء خطب عظيم ، فتقدم منه يسأله بلهفة :

هل اصاب الملكة اي مكروه ؟!

اجابه دارتنيان :

ـ كلا يا مولاي . . . ولكن هناك دلائل تشير الى ان جلالتها معرضة لخطر جسيم ، وليس من منقذ لها سواك !

فصاح الدوق بلهجة قلقة :

ـ انا . . اكون سعيداً جداً اذا استطعت ان اسدي خدمة لجلالتها ! تكلم ايها الفارس . ما وراءك من الاخبار ؟

فتناول دارتنيان من صدره رسالة الملكة وقال :

ـ اليك يا مولاي رسالة خاصة من الملكة .

فاختطفها الدوق بلهفة وراح يلتهم سطورها بعينيه التهاماً ، وما ان انتهى من تلاوتها ، حتى نادى خادمه الخاص بتريس وامره بان يلحق بحاشية جلالة ملك انكلترا قائلاً :

ـ اذهب وقدم معذرتي لجلالته ، بسبب اضطراري للعودة الى لندره لمهمة مستعجلة .

ثم امتطى صهوة جواده ولوى عنانه باتجاه طريق لندره وقال لدارتنيان :

ـ هيا بنا ايها الفارس الباسل .

٣١

الكونتس دي ونتر

•

وانتهز الدوق دي بوكنغهام هذه المناسبة، وراح يستوضح من دارتنيان عن الاحداث التي مرت بالملكة . فبسط الفارس للدوق كل ما يعرفه ، واسهب في الحديث عن المكائد والمؤامرات التي يحيكها الكردينال ريشليو للايقاع بالملكة ، وأتى على ذكر المخاطر والمشقات التي تعرض لها هو ورفاقه الفرسان الثلاثة اتوس وبورتوس واراميس ، وكيف اضطر الى التخلي عنهم الواحد بعد الآخر ، نتيجة الاشراك التي نصبها الكردينال واتباعه على طول الطريق من باريس حتى ميناء كاليه ، لمنعهم من الوصول الى لندره ، واخيراً ذكر دارتنيان للدوق الحيلة التي لجأ اليها ، لخرق الحصار الذي ضربه الكردينال ، ومبارزته مع الكونت دي وارد ، والاستيلاء على الأذن الذي يحمله من الكردينال ، ليتمكن من الابحار من ميناء كاليه الى دوفر .

وابدى الدوق دي بوكنغهام اعجابه الشديد بهذا الفارس الباسل الذي لم يتجاوز بعد العشرين من عمره .

وفي هذه الاثناء ، كان الجوادان يسابقان الريح باتجاه لندره ، ولم يخفف الدوق من سرعته حتى في شوارع لندره نفسها ، ولما دخل باحة قصره ، ترجل عن جواده ، واشار الى دارتنيان ان يتبعه ، واتجه تواً الى جناحه الخاص ، مجتازاً عدة ابهاء واسعة فخمة ، وفي جناحه ازاح احدى الستائر المخملية ، فكشفت عن باب فتحه بمفتاح من ذهب ، كان يحتفظ به في جيبه ، ثم التفت الى دارتنيان وقال :

ـ تعال وانظر ايها الفارس ... واذا تشرفت بالمثول بين يدي الملكة آن دوتريش ، فلا تنس ان تذكر لها ما شاهدت بام عينك .

فدخل دارتنيان تلك الغرفة ، فوجدها مفروشة بالسجاجيد الفارسية الفاخرة ومحلاة بالذهب ، وكانت الحجرة اشبه بمعبد صغير ، مضاء بعدد كبير من الشموع ، وفي وسط هذا المعبد ، اقيم مذبح يعلوه رسم بالحجم الطبيعي ، يمثل الملكة آن دوتريش ، والناظر الى الرسم يكاد يتخيل ملكة فرنسا تقف امامه بابهى جمالها وفتنتها .

حتى ان دارتنيان نفسه لم يتمالك من ان يبد اعجابه ودهشته . وتحت الصورة تماماً ، وضعت العلبة المزخرفة والمتضمنة الازرار الماسية .

واقترب الدوق من المذبح ، وجثا على ركبتيه وكأنه يريد

تلاوة صلاة قصيرة . . ومد يده الى العلبة يفتحها ويتناول منهـا الازرار الماسية وقد ربطت بعضها الى بعض بشريط حريري ، ثم التفت الى دارتنيان الذي وقف على بعد خطوات منه ، يخاطبه بقوله :

ــ هذه هي هدية الملكة ، وكنت اقسمت على ان ترافقني حتى القبر ، ولكن ارادتها فوق كل شيء . .

ثم رفع الازرار الى شفته وراح يقبلها بشغف ، وفجأة اطلق صيحة قوية . . . فسأله دارتنيان :

ــ ماذا دهاك يا مولاي ؟!

ـ يا الهي ! لقد فقد من هذه الحلية الثمينة حبتان . . واعتقد ان يداً أثيمة قد سرقتها ، وان الكردينال ريشليو هو الذي سدد الي هذه الضربـــة . . . انظر ، ان الشريط الحريري الذي يربط الازرار قد قطع بقص !

فسأله دارتنيان :

ـ وهل يشك مولاي بشخص معين ، فلربما امكن القـــاء القبض عليه قبل ان يتوارى عن الانظار ؟

فصاح الدوق قائلا :

ــ اسمع لقد تحليت بهذه الازرار مرة واحدة ، وكان ذلك في الحفلة الراقصة التي أقامها ملك انكلترا في قصر وندسور ، واذكر جيداً ان الكونتس دي ونتر ، قد تعمدت الاقتراب مني عـــدة مرات في اثناء الحفلة ، لا شك انها هي بنفسها جاسوسة الكردينال .

فقال دارتنيان متذهلا :

وهل يعني ذلك ، ان للكردينال جواسيس في جميـــع

انحاء العالم ؟!

اجابه الدوق وهو يصرف باسنانه من شدة الحنق :

ـ هو كذلك .. انه حقا لخصم عنيد !..

ثم اردف يقول :

ـ وفي اي يوم موعد الحفلة الراقصة التي تشير اليها الملكة في رسالتها ؟

ـ موعدها يوم الاثنين القادم ، اي بعد خمسة ايام فقط !

فاسرع الدوق دي بوكنغهام بالخروج من تلك الحجرة يتبعه دارتنيان ، وبدأ يفكر بحل سريع ينقذ الملكة آن دوتريش من ورطتها ، ثم ما لبث ان نادى وصيفه الخاص بتريس ، ولما حضر صاح به قائلاً :

ـ اسرع باستدعاء الصائغ ، وسكرتيري الخاص .

وبعد لحظات معدودة دخل امين سره ، وكان الدوق جالساً الى مكتبه منهمكا في تسطير بعض الاوامر المستعجلة .

ولما انتهى من الكتابة رفع رأسه يخاطب امين سره :

ـ اسمع يا جاكسون عليك ان تذهب بهذه الاوامر الى مستشار الملك ، وتطلب اليه ان يقفل الموانىء الانكليزية ، ويمنع سفر اية قاصدة الى فرنسا .

فبانت الدهشة على محيا جاكسون وسأله :

ـ وبماذا نبرر اتخاذ مثل هذه التدابير يا مولاي ؟ خاصة اذا طلب الملك تفسيرات عنها ؟

ـ قل لجلالته ، انني قررت اعلان الحرب ، وان هذه التدابير

مقدمة لاظهار العداء لفرنسا !

فانحنى السكرتير جاكسون ، وانصرف لينفذ اوامر سيده ، بينما التفت الدوق بادي الارتياح ، يخاطب دارتنيان :

لقد ضمنا ناحية معينه ، فاذا كانت الازرار المسروقـــة لم تهرب من انكلترا بعد ، فلن تصل الا بعد وصولك الى فرنسا ، فقد امرت بضرب حصار شديد على جميع السفن والمراكب الموجودة في الموانىء الانكليزية ، ومنعتها من الابحار الا باذن خاص .

وراح دارتنيان يفكر مليا بهذا الرجل العظيم الذي يضع جميع نفوذه وامكانياته في خدمة حبه !!

ويبدو ان الدوق قرأ ما يجول في مخيلة دارتنيان فابتسم وقال :

اجل ! ان آن دوتريش هي مليكتي ، فانا لا اتردد عن التضحية بكل شيء في سبيلها .. لقد طلبت الي الآن اوقف ارسال النجدات الى البروتستانت الذين يحاصرون لاروشيل ، فنفذت رغبتها في الحال !..

وهنا زادت دهشة دارتنيان وحيرته ، اذ تساءل الى اي خيط واه يرتبط مصير شعب او حياة الوف الرجال !.

وقطع عليه سبيل افكاره ، دخول الصائغ ، وهو ايرلندي ، كان موضع ثقة الدوق ، وكان يجني من وراء هذه الثقة مبلغـا ضخما ، يقدر بحوالي مئة الف جنيه في السنة .

وبعد ان حيا بكل احترام وخضوع ، ناوله الدوق الازرار الماسية ، وطلب اليه ان يصنع اثنين منها ، لا يختلفان عن الازرار

الاصلية ، وان ينتهي من صنعهما بعد غد ... ثم اردف الدوق يقـــول :

ـ واقترح عليك ان تباشر صنعهما هنا ضمن جدران قصري ، لاني لا اريد ان يقع نظر اي انسان عليهما .

فهز الصائغ رأسه ، واعلن انه سيفرغ من عمله في الموعدالذي حدده الدوق .

وتنفس الدوق الصعداء ، والتفت الى دارتنيان يربت عـــلى كتفه ويقول :

ـ والآن ماذا تطلب ايها الفارس الهمام ؟

اجابه دارتنيان بكل بساطة :

ـ اطلب فراشاً وثيراً ، لاني في أمس الحاجة الى الراحة والنوم .

فأجابه لطلبه في الحال ، وافرد له غرفة مجاورة لجناح الدوق .

وفي هذه الاثناء ، اذيع في انحاء لندره ، ان جميع السفن ، بما فيها سفن البريد ، القاصدة الى الموانىء الفرنسية لا تستطيع مغادرة الميناء ، وفسّر الناس هذا التدبير الطارىء بانه بداية اعلان الحرب على فرنسا !

•

وفي الموعد الذي حدده الدوق ، انتهى الصائغ من عمله ، وقدم للدوق الحبتين ، وبلغ من عنايته ودقته في الصياغة ، انه بات يستحيل على احذق الصاغة التمييز بينهما وبين الازرار الاصلية . فانبسطت اسارير الدوق ، واجزل للجوهري العطاء ، ثم استدعى دارتنيان الى جناحه الخاص وخاطبه :

- اليك هذه الازرار التي تجشمت الصعوبات من اجلها ، اما العلبة فقل لجلالتها انني احتفظت بها .. ولا تنسَ ان تكون شاهدي امام الملكة ، وتقول لها انني فعلت فوق طاقة البشر ، لأنفذ رغبتها . فاجابه دارتنيان :

- كن مطمئناً يامولاي ، فسابلغ الملكة كل ما رأيته بالتفصيل.

وتطلع الدوق الى الفارس دارتنيان وقال :

- اما انت ايها الفارس الهمام ، فكيف استطيع ان اكافئك على خدماتك واخلاصك ؟!

فاحمر وجه دارتنيان واجابه :

- انني يا سيدي في خدمة ملك وملكة فرنسا ، وانتمي الى فرقة دي زيسار ، ولهذا فان ما قمت به يعتبر خدمة واجبة للملكة .

فشكره الدوق بحرارة وقال :

- لقد دبرت امر عودتك الى فرنسا ، بحيث تصل الى باريس دون عناء او مشقة ، فما عليك الا ان تقصد الى الميناء وتسأل عن المركب المسمى « ساند » وتسلم الى قبطانه هذه الرسالة ، فيبحر بك في الحال الى ميناء فرنسي منعزل لا يقصده الا صيادو السمك

فقاطعه دارتنيان :

- وما اسم هذا الميناء ؟

- سان فاليري ، وهنالك تقصد فور وصولك الى نزل متواضع ، ولا تنس ان تبدل ملابسك وتنزع من قبعتك شارة الفرقة التي تنتمي اليها .. وتقابل صاحب النزل ، وتسر بأذنه

كلمة السر وهي « الى الامام » فيرحب بك ! ويقدم لك جواداً مسرجاً ويدلك على الطريق التي يجب ان تسلكها .

وبعد ان زوده بهذه التعليمات مد يده وصافحه بحرارة وقال :

ــ ارجو لك التوفيق والسلامة ، ولنفترق الآن كصديقين حميمين .

فصافحه دارتنيان وقال :

ــ اخشى ان نصبح عدوين لدودين في المستقبل ، اذا ساءت العلاقات بين بلادي وبلادك .

وحيا الدوق وانصرف مسرعاً باتجاه الميناء ، ولما وصل الى مواجهة برج لندن ، عثر على المركب « ساند » وسلم رسالة الدوق الى القبطان ، الذي احسن استقباله ، وتولى بنفسه انجاز المعاملات اللازمة ، وبعد نصف ساعة ، كان المركب يخرج من الميناء المزدحم بأكثر من خمسين سفينة ، وبينما كان المركب يمر امام السفن الواقفة ، خيل لدارتنيان انه لمح على ظهر احدى السفن السيدة الحسناء « ميلادي » والتي سبق له وشاهدها في بلدة « مينغ » ولكن سرعة مجرى النهر ، لم تمكنه من ان يتبين ملامحها بدقة .

وفي صباح اليوم التالي ، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة ، ألقى المركب « ساند » مرساته في ميناء سان فاليري ، ونزل منه دارتنيان الى اليابسة ، واتجه لتوه الى النزل الذي عينه له الدوق ، وكان مزدحماً بالبحارة الفرنسيين ، وهم يتحدثون عن الحرب المرتقبة بين فرنسا وانكلترا ، وكأنها امر واقع حتماً .

وراح دارتنيان يبحث عن صاحب النزل ، ولما عثر عليه ،

اقترب منه وهمس بأذنه كلمة السر « الى الامام » فأبدى الفندقي اهتماماً خاصاً به ، واشار اليه ان يتبعه ، وقاده الى باب صغير يؤدي الى باحة الفندق حيث وجد جواداً مسرجاً بانتظاره ، فامتطاه ، وقبل ان يبدأ السير بادره الفندقي بقوله :

ـ عليك ان تسلك الطريق المؤدية الى بلانجي ، ومنها تواصل طريقك الى توفشناتل ، وهناك تقصد الى نزل « البجعة الذهبية » فاهمس بأذن صاحبه بكلمة السر ، تحصل على جواد آخر لتتمكن من متابعة سيرك .

وتمكن دارتنيان من قطع المسافة بين سان فاليري ونوفشناتل باربع ساعات ، ونفذ التعليمات بحذافيرها ، وحصل على جواد آخر ، فامتطاه وتابع سيره بعد ان اعطى عنوانه للفندقي ... الذي نصحه بأن يتخذ طريق روان وجهة سيره ، وفي روان ابدل الجواد بغيره ، وهكذا تمكن من قطع ستين مرحلة باقل من اثنتي عشرة ساعة .

وكانت الساعة تدق التاسعة صباحاً ، عندما اجتاز باحة قصر القائد دي تريفيل ، الذي استقبله متظاهراً بعدم الاكتراث وكأنه رآه في الصباح ذاته ، وبينما كان يشد على يده ، ابلغه ان فرقته ستقوم بدورها في حراسة قصر اللوفر هذا المساء ، وعليه ان يلتحق برفاقه في الحال .

٣٢

الحفلة الراقصة

●

وفي اليوم التالي لعودة الفارس دارتنيان ، كانت باريس كلها تتحدث باهتمام زائد عن الحفلة الراقصة ، التي ستقام مساء اليوم في قصر البلدية ، تكريماً لصاحبي الجلالة الملك لويس الثالث عشر والملكة آن دوتريش ، وكان العمل جارياً منذ بضعة ايام على قدم وساق لانجاح هذه الحفلة بشكل يتناسب مع عظمة ومقام المحتفى بهما .

وعند الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم ، وصلت الى قصر البلدية فرقتان من الحرس الملكي احدهما فرنسية والاخرى من الجنود السويسريين المستأجرين .

اما الفرقة الفرنسية ، فكانت فرقة القائد دي زيسار ، والتي ينتمي اليها فارسنا دارتنيان ، وقد تم توزيعها على ابواب القصر ومداخله .

وما ان ازفت الساعة السابعة مساء ، حتى بدأت جموع المدعوين والمدعوات من النبلاء ، تفد الى قصر البلدية زرافات لتحتل مقاعدها المخصصة لها في القاعة الكبرى .

وعند الساعة العاشرة ، تعالت الهتافات وعبارات الترحيب من الجماهير المحتشدة في الخارج ، احتفاء بقدم جلالة الملك الذي وصل وحده في عربته الملكية ، ترافقه عدة عربات اخرى تقل كبار النبلاء والاشراف ، وفي مقدمتهم وزير الملك ومستشاره نيافة الكردينال ريشليو ، وكانت عربته الفخمة والتي تحمل شعاره الخاص تسير وراء عربة الملك مباشرة .

وعندما ترجل الملك لويس الثالث عشر من عربته امام مدخل قصر البلدية ، لاحظ النبلاء المحيطون به بان مسحة من الاضطراب والقلق بادية على محيا جلالته ، وبعد ان ردّ على تحية الجماهير بفتور ظاهر ، اتجه توّاً الى المقصورة الملكية التي اعدت لاستراحته ، بانتظار بدء الحفلة .

وتعالت الهتافات مرة ثانية معلنة وصول موكب الملكة آن دوتريش ، وعندما دخلت القاعة ، لوحظ انها بادية الحزن والاعياء ايضاً ، رغم تكلفها الابتسام .

وفي اللحظة التي كانت تدخل فيها الملكة الى القاعة ازيح ستار عن مقصورة تقع الى يسار القاعة ، وظهر من خلفه ، وجه نحيل هو وجه الكردينال ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الشماتة والسخرية ، عندما وقع نظره على صدر الملكة ، ووجده خالياً من الازرار الماسية .

وبعد قليل ظهر الملك من طرف آخر للقاعة وقـــد ازداد اصفرار وجهه، وكان الكردينال يسير الى يساره وهو يهمس باذنه بعض الكلمات بصوت خافت ، وما لبث ان اقترب من الملكة بخطوات سريعة ، وخاطبها بصوت متهدج لم يسمعه سواها :

ـ لا ادري لماذا يا سيدتي ، لم تتزيني بالازرار الماسية ؟!

فرمت الملكة آن دوتريش ببصرها خلف الملك ، الى حيث الكردينال بعيداً وعلى شفتيه ابتسامة شيطانية وقالت :

ـ خشيت ان افقد بعض هذه الازرار الماسية الثمينة في وسط هذه الجموع الزاخرة .

فاجابها الملك بلهجة ساخرة :

ـ اخطأت يا سيدتي ، انني قدمت هـــذه هدية لك ، لكي تظهرين بها امام الناس .

ـ اذا كنت تصر جلالتك على ذلك ، فاني سارسل في طلبها من قصر اللوفر في الحال .

ـ أسرعي ... اسرعي باحضارها يا سيدتي في الحال ، فالحفلة ستبدأ بعد ساعة ..

وحيال هذا الاصرار من جانب الملك ، حيت آن دوتريش الملك بانحناءة قصيرة من رأسها وانسحبت مع وصيفاتها .

وشعر الحضور ان ثمة امراً ذا شأن قـــد حدث بين الملك والملكة ، ولكن لم يدرك كنهه احد ، اذ جرى الحوار بينهما في صوت خافت لم يصل الى المدعوين الذين افسحوا المجـــال للملك والملكة بان يتبادلا الحديث بحرية .

وعاد الملك الى مقصورته الخاصة ليبدل ملابسه، ويرتدي ثياب الرقص، ثم ما لبث ان خرج من مقصورته وقــد ارتدى بزة الصيد، وبدا فيها شاباً انيقاً، يضاهي اجمل فتيان فرنسا رشاقة واناقة، واقتدى به افراد حاشيته، فارتدوا ملابس الصيد ايضاً.

وفي هذه الاثناء، تقدم الكردينال من جلالته، وقدم له علبة صغيرة، تحتوي على حبتين من الازرار الماسية التي اهداها الملك لزوجته آن دوتريش.

فبانَ الاضطراب على محيا الملك وسأل الكردينال:

— ما معنى هذا ايها الكردينال ؟!

— معناه يا مولاي، انــه اذا ظهرت الملكة وعلى صدرها الازرار الماسية، وكان عددها عشرة بدلاً من اثني عشرة، فلا بأس من ان تسأل جلالتهــا، من الذي استولى على الحبتين الناقصتين ؟

وحدق الملك بوجه الكردينال، وكأنه يطلب منه تفسيراً... ولكن الوقت لم يسعفه ليفصح عن رأيه... فقد ترامى الى سمعه اصوات الاعجاب صادرة من كبار المدعوين والمدعوات، عندما برزت الملكة، وهي في أبهى زينتها، وقد فاقت جميع المدعوات جمالا وفتنة! والذي لفت نظر الملك اكثر من اي شيء آخر... الازرار الماسية تتـألق على صدرها البديع بشكل مغر، ينتزع الاعجاب، ولمعت عينا جلالته بالغبطة والارتياح، بينما انقبضت اسارير الكردينال حقداً وغيظاً... اذ كانت الازرار الماسية كاملة العدد على صدر الملكة!! وفي غمرة سروره واعجابه خطا

الملك نحو زوجته الملكة واخذ بيدها بعد ان انحنى لها ، واشار الى جوقة الموسيقى ان تبدأ العزف ، معلناً افتتاح الحفلة !

وظلت الموسيقى تعزف مدة ساعة كاملة ، وعندمـــا انتهى الرقص ، انتهز الملك هذه الفرصة وانتحى بالملكة آن دوتريش زاوية في القاعة وقال لها :

– اشكرك يا سيدتي لحرصك الشديد على تنفيذ رغبتي .

ثم استقرت عيناه بحركة لاشعورية على الازرار الماسية التي تزين صدر الملكة واردف يقول :

– لقد حرصت على ان احمل لجلالتك الماستين المفقودتين من هذه الحلية .

فتصنعت الملكة الدهشة وقالت :

هل ترغب جلالتك بان تهديني ماستين جديدتين ، فيصبح عدد الحبات ١٤ بدلا من ١٢ ، انه منتهى الكرم والسخاء منك يا مولاي !

وراح الملك لويس الثالث عشر يحصي الماسات وتأكد انها ١٢ ماسة ، فالتفت الى الكردينال ريشليو وسأله بلهجة صارمة :

وبماذا تفسر ذلك ايها الكردينال ؟

فتظاهر الكردينال بالبساطة والخضوع وقال :

كنت ارغب ان تتنازل جلالة الملكة وتقبل الماستين هدية متواضعة مني ، ولما كنت لا اجرؤ على تقديمها الى جلالتها بنفسي فقد رأيت ان اعمد الى هذه الوسيلة الجديدة .

وانبرت الملكة تجيبه وقد تعمدت ان ترسم على شفـــتيها

ابتسامة مصطنعة وقالت :

- اشكر نيافتك على هذه الهدية ، لاني واثقة تمام الثقة بانك بذلت في سبيل الحصول على هاتين الماستين ، اكثر مما دفعه الملك ثمنا الماسات الاثنتي عشرة !

قالت ذلك بشيء من التحدي ، وحيت الملك والكردينال بانحناءة قصيرة من رأسها ، وانسحبت الى مقصورتها لترتدي ثيابها.

وكان الفارس دارتنيان يراقب في هذه الاثناء ما يجري من احداث ، بوصفه من فرقة دي‌زيسار التي كانت تقوم بحراسة قصر البلدية في تلك الليلة . وبينما كان يفسح الطريق امام الملكة ، لتدخل الى مقصورتها،شعر بيد ناعمة بيضاء تربت على كتفه ، وامرأة مقنعة بقناع كثيف من المخمل الاسود ، تشير اليه بيدها ان يتبعها ... وما ان امعن النظر في ملامحها حتى عرف انها جرين بوناسيو ملهمته وباعثة الحب الطاهر في سويداء قلبه !

وكان دارتنيان قد التقى بها لفترة قصيرة ،عندما قصد بصورة سرية الى القصر ، فور وصوله من انكلترا ،حاملا الازرار الماسية الى الملكة من الدوق دي بوكنغهام .

اما في هذه المرة فقد قرر في قرارة نفسه ان يبثها غرامه واشواقه ، ولهذا سار في اثرها بلا تردد ، ورآها تفتح بابا وتدخل فتبعها على الاثر ، فالفى نفسه في دهليز مظلم ، ثم رآها تزيح سجادة معلقة بالجدار ، تكشف عن باب سري ، تفتحه ، وتدخل وخلفها دارتنيان ، الى غرفة واسعة الارجاء مضاءة بالشموع ، وما تلبث ان تختفي . وفي هذه الاثناء يطرق سمعه اصوات نساء صادرة عن

غرفة مجاورة ، ويتضح له من الاحاديث التي وصلت اليه ، ان الملكة موجودة في تلك الغرفة مع وصيفاتها . ومع ان دارتنيان لا يعرف صوت الملكة ، فقد تمكن من ان يميزه بين اصوات النساء الاخريات ، اذ كانت يمتاز بلكنته الاجنبية عن بقية الاصوات .

وفجأة امتدت يد ناعمة ، وناصعة البياض من فرجة الباب الذي دخل منه ، وادرك انها يد الملكة آن دوتريش ، فجثا على ركبتيه ، ولمس تلك اليد الممدودة بكلتا يديه برفق واحترام ، وطبع عليها قبلة صامتة ... وعندما اختفت تلك اليد البديعة ، خلفت وراءها شيئاً ، تبينه دارتنيان فيما بعد ، فوجده خاتماً ثميناً في وسطه فص من الماس البراق ... فاستخفه الطرب لهذه الهدية الثمينة تخصه بها الملكة ، وشعر بالزهو والكبرياء يهز اعطافه .

ووضع دارتنيان الخاتم الماسي باصبعه وانتظر ان يحصل على مكافأة من مليكة قلبه ، بعد ان حصل على مكافأة مليكته ! وبعد انتظار دام برهة من الزمن ، ظهرت حبيبة قلبه جرمين بوناسيو ، وكان ما يزال القناع الكثيف يحجب وجهها الفتان ، وقبل ان يسترسل في العتاب والحديث ، وضعت سبابتها فوق شفتيه ترجو ان يعتصم بالسكوت ثم تقدمت منه وهمست باذنه قائلة :

– ارجو ألا تذكر لاي مخلوق كان ما جرى لك ، وعد من حيث أتيت .. والى اللقاء في المستقبل القريب ..

فتشبث دارتنيان بها قائلا :

– ومتى اراك يا معبودتي ؟!

اجابته بحذر :

– ستصلك مني رسالة خاصة الى منزلك تعلمك كل شيء. فكن صبوراً ... والى اللقاء القريب !

٢٣

موعد غرامي !

●

وعاد دارتنيان الى منزله فوجد خادمه بلانشيه بانتظاره على أحر من الجمر ، فبادره قائلا :

- هل حمل الي احد رسالة خاصة ؟

اجابه بلانشيه :

- لم يحمل احد رسالة خاصة ... ولكن هناك رسالة قد وصلت بطريقة سحرية !..

- وماذا تعني بذلك ايها الغبي ؟

- اعني انني عثرت على رسالة ملقاة على المائدة في غرفتك دون ان اعرف مصدرها !

وأين هذه الرسالة العجيبة ؟

- تركتها في مكانها على المائدة ... اذ انه من غير المعقول ان تتسرب الرسائل الى اصحابها على هذه الصورة السحرية ...

واسرع دارتنيان الى غرفته ، ليأخذ تلك الرسالة ، ويقرأها بلهفة وشغف اذ كانت من حبيبته جرمين بوناسيو ، وتقول فيها :

ـ انني احمل اليك الثناء العاطر والشكر الجزيل على ما قمت به من الاعمال الباهرة !.. ولا تنسَ ان تقابلني مساء غد عند الساعة العاشرة في ضاحية سان كلود ، في مواجهة منزل السيد « داستراه » .

وخيل لدارتنيان ان الساعات لحلول موعد اللقاء ، طويلة ، فراح يحلم بالمتعة التي سيحصل عليها ... فقد كان ذلك اول موعد له مع حبيبة قلبه .

ولاحظ خادمه بلانشيه انهماك سيده بالتفكير فظنه مشغول البال ، فسأله :

ـ هل اقلقتك وصول هذه الرسالة الى غرفتك بطريقة تدعو الى الحذر والعجب معاً ؟

اجابه دارتنيان ضاحكاً :

ـ لقد اخطأت التقدير يا بلانشيه .. واليك بهذا الدينار اشرب بثمنه نخب نجاحي !..

فشكره بلانشيه واستأذن بالانصراف .

وبات دارتنيان ليلته يحلم الاحلام الذهبية ، واستفاق في ساعة مبكرة من الصباح ، ونادى خادمه بلانشيه وقال له :

ـ سأعود الى المنزل عند الساعة السابعة مساءً ، وعليك ان تجهز اثناء غيابي جوادين مسرجين للقيام برحلة قد تستغرق الليل بطوله .. ولا تنسَ ان تتسلح ببندقيتك وغدارتك .

فبان القلق على وجه بلانشيه وسأل دارتنيان :

– يا الهي ! هل لتلك الرسالة الملعونة التي هبطت علينا من السماء ، علاقة بهذه الرحلة الغامضة ؟

– كن مطمئناً ايها الغبي ... ولن نقوم سوى بنزهة ليلية للترفيه عن النفس .

وبينما كان الفارس دارتنيان يغادر منزله ، لمح صاحب المنزل بوناسيو ، واقفاً امام باب منزله ، يبادره التحية ، فاضطر دارتنيان ان يجامله ويبادله تحيته . وانتهز بوناسيو هذه المناسبة ، وراح يزعم امام دارتنيان ، بان اتباع الكردينال يسيئون معاملته ، والتنكيل به .

واضطر دارتنيان ان يستمع الى حديثه على مضض ، متظاهراً بالاشفاق عليه ، ثم ودعه وتوجه توا الى قصر القائد دي تريفيل ، فوجده منشرح الصدر ، بادي الابتسام ، لان الملك والملكة قد ابديا نحوه كل عطف ورعاية اثناء الحفلة الراقصة .. بينما قابله الكردينال بوجه عابس ، وانتهز القائد دي تريفيل فرصة خلوته بالفارس دارتنيان وخاطبه بصوت منخفض :

– والان دعنا نتحدث بصراحة عن مغامرتك الاخيرة ، لان لهذه المغامرة علاقة وثيقة بما يبدو على الملك والملكة من امارات الغبطة والانشراح ، وانتصار الملكة على مؤامرات الكردينال واتباعه ... وبهذه المناسبة انصحك ان تكون شديد الحذر ، فالكردينال قوي الذاكرة ، ولن ينسى انك كنت السبب في احباط مؤامرته الاخيرة على الملكة .

فسأله دارتنيان :

– وهل تظنه يعلم اني كنت في لندره ؟

– وهل سافرت الى لندره وعدت منها بهذا الخاتم الماسي الذي يلمع في اصبعك ؟

فاحمر وجه دارتنيان حنقاً وقال :

– ولكن هذا الخاتم الماسي ليس من عدو ... فالملكة هي التي انعمت عليّ به .

وراح الفارس دارتنيان يقص على القائد دي تريفيل ما جرى له من المفاجاءات الغريبة اثناء الحفلة الراقصة... وبعد ان استمع القائد الى حديث مواطنه ، نصحه بان يبيع الخاتم الماسي او على الاقل ان ينزعه من اصبعه ويخفيه .

فسأله دارتنيان بلهجة يشوبها بعض القلق :

– وهل هناك ما اخشاه ؟

– كل شيء محتمل من جانب الكردينال ، فلا تنم بعد الآن نوم الرجل المطمئن ، واعلم ان اتباع الكردينال يحدقون بك من كل جانب ، فلا تثق بأحد ، لا بصديق ولا بقريب ... وخاصة بعشيقة ...

فامتقع وجه دارتنيان وسأله :

– ولماذا الحذر من العشيقة اكثر من سواها ؟

اجابه القائد دي تريفيل :

– لان من عادة الكردينال ، ان يستخدم النساء كواسطة للتنكيل باعدائه ... ولهذا رأيت ان احذرك من النساء بصورة خاصة .

٢٤

اختطاف جرمين بوناسيو

•

وفي الساعة السابعة مساء ، كان بلانشيه ينتظر سيده الفارس دارتنيان في باحة قصر دي تريفيل ، ممسكاً بعنان جوادين على أهبة الاستعداد وقد تسلح ببندقية وغدارة ، كما وضع في حزام جواد دارتنيان غدارتين تحسباً للطوارىء .

وخرج دارتنيان ليجد كل شيء جاهزاً ، فامتطى جواده وتبعه على الاثر بلانشيه ، متجهاً نحو سان كاود . ولاحظ دارتنيان ان خادمه بلانشيه بدأ يسير بمحاذاته عندما توغلا في غابة بولونيا ، وسط الاشجار الكثيفة ، فالتفت اليه يسأله :

– اراك معتصماً بالصمت يا بلانشيه ولماذا ؟؟

– ان اجتياز هذه الغابة الموحشة ، توحي اليّ بالرهبة والصمت التام .

فسأله دارتنيان مداعباً

ـ وهل انت خائف ؟

ـ لست خائفاً يا سيدي ، وكل مافي الامر انني اخشى التكلم بصوت مرتفع في وسط هذه الغابة .

ـ ولماذا الخوف يا بلانشيه ؟

أخشى ان نذهب ضحية الغدر والخيانة يا سيدي ... لقد راقبتك وانت تحدث بوناسيو امام باب منزله، ولم ارتح لتصرفاته وهيئته ..

ـ واي شيطان جعلك تذكر بوناسيو في هذه اللحظة ؟ .. لا شك انه الجبن !

ـ ليس الجبن يا سيدي ... بل قل الحذر واليقظه .

فاجابه دارتنيان وكان قدتذكر مانصحه به قائده دي تريفيل :

ـ الحقيقة ان تصرفات ذلك الخنزير بوناسيو ، لا تعجبني !

ثم لكز جواده يستحثه على السير ... وعاد الصمت يخيم من جديد على الفارسين ، الى ان اجتازا الغابة وانتهيا الى ضاحية سان كلود ، وهناك اتجه دارتنيان الى المكان الذي حددته له عشيقته ، وترجل عن جواده ، وسلم زمامه الى بلانشيه وقال :

ـ إسمع يا بلانشيه ، عليك ان تنتظرني في احدى الحانات القريبة من هنا حتى الساعة السادسة صباحاً .

وترك خادمه يدخل احدى الحانات ، واتجه بدوره نحو شارع فرعي منعزل ، يقع فيـــه المنزل الذي عينته جرمين بوناسيو في رسالتها ، وكان يحيط به سور مرتفع . وكان وصول دارتنيان في

الموعد المحدد بالضبط ، ولكنه لم يجد احداً ينتظره ، وراقب المنزل فلم يسمع حركة او اشارة من داخله وراح يدور حول المنزل يتفحصه بدقة وامعان ، وفي اثناء ذلك بدأت ساعة سان كلود تـــدق معلنة العاشرة مساء .

وكانت عينا دارتنيان رغم الظلام الدامس ، لا تفارق نوافذ المنزل لحظة واحدة ، وظل ينتظر حتى الساعة الحادية عشرة دون جدوى ، واخيراً عيل صبره ، فاقترب من سور المنزل يحـاول تسلقه ، فلم يستطع ، فاتجه الى شجرة مرتفعة قريبة من السور ، وتسلقها بخفة ، وراح يتطلع الى داخل المنزل من خلال النوافذ فوقع نظره على اشياء فظيعة ، جعلت شعر بدنه يقشعر .. كان هناك غرفة مبعثرة الاثاث ، وقد تحطم زجاجها ، وفي وسـطها مائدة زاخرة بألوان الطعام والمشروبات قد بعثرت محتوياتهـــا حديثاً على ارض الغرفة .. مما يدل على انها كانت مسرحاً لمعركة عنيفة . وتمكن دارتنيان رغم الضوء الخافت الذي ينير الغرفة ، من رؤية بقع الدماء تلطخ ارجاءها وبعض الثياب النسائية الممزقة ملقاة على الارض .

واسرع دارتنيان بالنزول ، ليواصل بحثه حول المـــنزل ، فعثر قرب السور على فردة قفاز نسائية يفوح منهـا عطر ذكي الرائحة ، كما شاهد على الارض الرطبة آثار اقدام لعدة رجال مختلطة بعضها ببعض و آثار دواليب عربة امام باب المنزل .

وذهبت بدارتنيان الظنون ان حبيبة قلبه قد ذهبت ضحية مؤامرة جديدة من اتباع الكردينال لاختطافـها ... واسرع

يطرق باب المنزل المجاور ، عله يجد من يساعـــده على حل هذه الالغاز والمعميات ، ولم يجبه احد ، واعاد الطرق بشدة ، وهنـا شـــاهد نوراً خافتاً يظهر من خلال احد النوافذ ، فرفـع رأسه وقال :

ـ بحق السماء . افتح يا هذا ، ولا تخش بأساً .

وفجأة فتحت نافذة تطل على الطريق واطل منها رأس كهل فبادره دارتنيان يشرح له غرضه ، فقال انه كان على موعد مع امرأة حسناء في المنزل المجاور ، ولم تحضر ، وانه يعتقد ان حادثاً قد اصابها في هذا المنزل .

وكان الكهل يصغي الى ما يقوله دارتنيان ويهز رأسه وكأنه يؤيد قوله ثم التفت الى الشاب وقال :

ـ لا تطلب مني ان اصرح لك بما رأيت ، لاني اخشى ان يصيبني مكروه من جراء ذلك .

وهنا تناول دارتنيان من جيبه ديناراً ورماه الى الكهل وقال :

ـ بالله عليك تكلم ، وقل ماذا رأيت ولا تخش بأساً .

فتلقف الكهل الدينار وراح يداعبه بين يديه واعتزم ان يصرح بما يعرفه للشاب وقال :

ـ كانت الساعة تقارب التاسعة عندما سمعت ضجة قرب منزلي فرميت ببصري من خلال النافذة ، فشاهدت بعض الاشخاص يحاولون اقتحام منزلي ، ولما كنت فقيراً ولا اخشى اللصوص ، بادرت الى فتح باب منزلي ، فطالعني وجوه ثلاثة رجال ، وعربة مقفلة وقفت على مقربة منهم ، وسألتهم عن غرضهم من الدخول

الى منزلي ، فاجابني احدهم بأنهم يبحثون عن سلم ..

قلت له : «لدي سلم قديم استخدمه لقطف الثمار من حديقتي» .

فبادرني بقوله: « هيا جئنا به ، واليك هذا الدينار وادخل الى منزلك واياك ان تحاول مراقبة ما يجري في الخارج . »

فاسرعت باحضار السلم ، ثم أقفلت باب منزلي بعد ان القى الدينـــار بوجهي ... ولكني شككت بنواياهم ، فعدت الى مراقبتهم من باب الحديقة ، فشاهدت الرجال الثلاثة يسندون السلم الى جدار المنزل المجـــاور ، ويستدعون رجلاً كهلاً قصير القامة يرتدي ملابس قاتمة ، ويطلبون اليه ان يتسلق السلم ليراقب ما يجري داخل احـــدى الغرف المضاءة ، فتسلق الرجل القصير السلم ، ولما نزل سمعته يقول بصوت خشن :

– انها هي بعينها ! .

وبسرعة البرق ، اقترب الرجال الثلاثة من باب المنزل ، وفتحه احدهم بمفتاح معه ، ودخلوا . وبعد لحظات قليـــلة ترامى الى سمعي صرخات امرأة تستغيث ... وبعد دقائق ثلاث ، شاهدت الرجال الثلاثة يحملون بين أيديهم المرأة الشابة ، بعد ان كمموا فمها ولفوا جسدها برداء اسود ووضعوها داخل العربة التي انطلقت بهـا بسرعة ، بينما امتطى الرجال الثلاثة جيـــادهم وساروا باسرها .. »

ولما انتهى الرجل من حديثه سأله دارتنيان وهو بادي القلق :

– وهل يمكنك ان تصف الرجل الذي كان يتزعم هـــذه الحمـــلة ؟

ـ انه رجل اسمر اللون، له شاربان، وتدل ملامحه على انه من النبلاء .

فصاح دارتنيان :

ـ انه هو بعينه ... دائماً هو ذلك الشيطان الحقير !

وعندما غادر دارتنيان ضاحية سان كلود ، كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليـل ، فراح يبحث عن خادمه بلانشيه في الحانات الواقعة قريباً من المنطقة وبعد ان اعياه البحث دون ان يجده، قرر ان يقضي ليلته ساهراً في احدى هــذه الحانات ، فدخل اول حانة صادفته في طريقه ، وكانت تعج بطبقة من العـمال يسكرون ويعربدون، فاخترق صفوفهم واختار لنفسه مائـدة منزوية وجلس عليها منفرداً وطلب زجاجة من الخمر ، راح يحتسيها بتمهل ، وهو بادي القلق .....ولما اتى عليها ، غلبه النعاس،فنام نوماً مضطرباً ، واستفاق في الصباح ، ليرى نفسه مع حفنة من الافاقين الذين تعودوا النوم في هذه الحانات ، فاسرع بالخروج ، وما ان سار بضع خطوات حتى لمح رغم الضباب الكثيف،خادمه بلانشيه ، يقف امام احدى الحانات. ممسكا بيده عنان الجوادين

٢٥

الفارس بورتوس

وبدلاً من ان يقصد الفارس دارتنيان الى منزله ، ليصلح من شأنه ، ويأخذ قسطاً من الراحة بعد تلك الليـــلة المرهقة للجسم والاعصاب، توجه تواً الى قصر القائد دي تريفيل ،وقدعزم ان يروي له كل ما حدث له من مفاجاءات واحداث خطيرة.

واصغى القائد دي تريفيل الى حديث مواطنه الشاب باهتمام ثم قال له :

– لاشك ان لنيافة الكردينال ضلعاً في هذه المؤامرة .

فسأله ارتنيان :

– وبماذا تشير عليّ ياسيدي القائد ؟

– اشير عليك ان تسرع بمغادرة باريس في الحال .

– ولماذا يا سيدي القائد ؟

– لا حاجة لشرح الاسباب الآن ، فعليك ان تغادر باريس

في اسرع وقت ممكن ، وسأتولى بالنيابة عنك مقابلة جلالة الملكة ، واذكر لها تفاصيل حادث اختفاء وصيفتها جرمين بوناسيو ... وربما في عودتك تكون الامور قد سويت على ما يرام .

وادرك دارتنيان ان وعد قائده ومواطنه يعني كل شيء ، فانحنى مودعاً وانصرف .

وفي طريق عودته الى منزله ، التقى ببوناسيو يقف على باب منزله وهو يرتدي ملابس الصباح ، فقرر ان يتجاهله ، الا ان بوناسيو تعمد التحرش به وبادره بقوله :

ـ يبدو انك تمتعت بليلة لذيذة ايها الشاب ، بدليل عودتك في مثل هذه الساعة من الصباح .

فاجابه دارتنيان بلهجة ساخرة :

ـ اما انت يا سيد بوناسيو ، فلست بحاجة الى ملاحقة النساء ، فامرأتك اية في الجمال والفتنة .. ومن كانت السعادة في بيتـه ، فلا حاجة به الى الركض وراءها ...

فامتقع وجه بوناسيو لهذه العبارة وتظاهر بالابتسام وقال :

ـ يا لك من شاب مغامر ، وارجو ان يكون التوفيـــق حليفك في مغامراتك الغرامية . فصعده دارتنيان من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، وقد ساورته الشكوك ، وأيقن ان الرجل القصير الذي استخدمه الرجال الثلاثة لاختطاف تلك المرأة من منزلها في ضاحية سان كلود ، ما هو الا بوناسيو نفسه ، وقـــد ساعد رجال الكردينال على تسليم امرأته اليهم ... وود دارتنيان لو يقبض على خناق هذا الرجل الحقير ويقضي عليه في الحال ...

الا انه تمالك اعصابه ، وتابع سيره الى شقته .

وهناك تلقاه خادمه بلانشيه بلهفة قائلاً :

ـ لقد حضر الى هنا السيد دي كانوا ، وطلب مقابلتك . .

فسأله دارتنيان مندهشاً

ـ وهل تعني دي كانوا ، قائد حرس الكردينال بنفسه ؟

ـ اجل يا سيدي

ـ وماذا جاء ليعمل ، هل جاء لالقاء القبض عليّ ؟

ـ لا ادري يا سيدي لقد ألح بان توافي نيافة الكردينال الى قصر اللوفر لمسألة هامة .

ـ وماذا أجبته ؟

ـ قلت له انك مسافر خارج باريس ، فعاد يكرر قوله: «قل لسيدك ان يذهب لمقابلة الكردينال عند عودته ، لان على هـذه المقابلة تتوقف سعادته . »

فربت دارتنيان على كتف خادمه بلانشيه وقال :

ـ اطمئن يا عزيزي بلانشيه ، فسوف تحتفظ بسمعتك هذه المرة كرجل صادق ، لاننا سنرحل بعد ربع ساعة ، ولا تنسَ ان تجهز كل مايلزمنا من مؤونة وذخيرة لرحلة طويلة وشاقة ايضاً.

واردف دارتنيان يقول :

ـ اسمع يا بلانشيه ، عليك ان توافيني مع اربعة جياد الى قصر القائد دي تريفيل ، لانني قررت ان ابحث عن رفاقي الثلاثـــة : آتوس ، بورتوس ، وارامیس ،واعود بهم الى باريس ، وارى ان تنتظرني في باحة القصر مع الجياد ، لكي لا نلفت نظر اعدائنـــا

الذين يتربصون بنا ، وخاصة هذا الرجل النذل بوناسيو ...

وغادر منزله بهدوء ، وقصد اول الامر الى منازل رفاقه الثلاثة آتوس وبورتوس واراميس ، فوجد في منزل الاخير رسالة معطرة مكتوبة بخط انيق ، فاخذها ليوصلها الى صاحبها ، وبعد ان وصل الى قصر دي تريفيل ، وافاه الى هناك بلانشيه مع اربعة جياد جاهزة .

وعندما خرجا من قصر دي تريفيل، سار كل واحد منهما باتجاه مختلف زيادة في الاحتياط، على ان يلتقيا على باب سان‌دينس ومن هناك تابعا سيرهما بكل حذر وحيطة حتى بلدة شانتيلي ، وقصد دارتنيان النزل الذي تناول فيه طعام الافطار مع رفاقه الفرسان الثلاثة ، ودخله واتجه الى حجرة منعزلة ، جلس فيها وطلب زجاجة من اجود الخمور وطعاماً ، ثم امر الخادم ان يحضر اليه قدحين ويستدعي صاحب الفندق ، ولما حضر بادره دارتنيان بقوله :

ــ هل لك ان تشاركني بتذوق هذا النبيذ ، ولنشرب اولاً نخب نجاح فندقك .

فشكره الفندقي من صميم قلبه ورفع كأسه وراحا يتجاذبان أطراف الحديث الى ان سأله دارتنيان عن مصير الفارس بورتوس ..

فأجابه الفندقي :

ــ انه ما يزال يقيم في الفندق ، منذ تلك المبارزة المشؤومة ، والامر الذي يقلقني ، النفقات الباهظة التي تراكمت عليه .. وقد

حاول ان يستنجد بعشيقة من النبيلات لتمده بالمال ، فقد سلمنا رسالة باسم الدوقة « كوكينار » في باريس ، ولكن حتى الان لم تصله المساعدة ..

فبادره دارتنيان بقوله :

— لا تقلق من هذه الناحية ، فستتولى تسديد هذه النفقات ، والان هل يمكنني رؤيته ؟

— بكل تأكيد ياسيدي، انه يقيم في الطابق الاول في الغرفة رقم (١) .

واسرع دارتنيان يرتقي الدرج ، ودخل الى الغرفة التي يحتلها بورتوس ، فوجده مستلقياً على سريره، بينما كان خادمه موسكيتون منهمكا في اعداد الطعام .

وما ان ابصر بورتوس صديقه دارتنيان ، حتى هتف قائلا :

— هذا انت ايها الصديق ؟!. اهلا بك ! ولكن اعذرني لاني لا استطيع الوقوف للترحيب بك .

وحدق بوجه دارتنيان بشيء من القلق واردف يقول :

— وهل علمت ماذا اصابني ؟

اجابه دارتنيان بعدم اكتراث :

— كلا .. وارجو ان تقص عليّ ماذا جرى لك ؟

فبان الارتياح على وجه بورتوس وقال :

— لقد اصطدمت رجلي بحجر ، فوقعت ارضاً بينما كنت اكيل الضربات الى خصمي ... اما المال الذي كان في جيبي ، فقد قامرت به ، وخسرته كله ، واصبحت مديوناً لصاحب الفندق

بمبلغ كبير ، ولهذا كتبت الى احدى صديقاتي لكي تبعث لي بمبلغ خمسين ديناراً ، الا انها حتى الان لم تجب على رسالتي ..

وفي هذه الاثناء كان الخادم موسكينون قد انتهى من اعداد الطعام ، فدعا بورتوس صديقه دارتنيان ليشاركه طعام الافطار فشكره وقال انه تناول طعام الافطـــار فور وصوله . وراح دارتنيان يسرد على مسامع بورتوس ما حل بهم من متــاعب ومشاكل ، فاخبره كيف تعرضو المؤامرة ،انتهت باصابة اراميس بجرح في كتفه واضطراره الى البقاء في بلدة كريفكور ، كما تورط آتوس بمشكلة اخرى هي اتهامه بتزوير النقود ، مما اضطره الى تركه في اميان ، ومتابعة سيره الى كاليه مع خادمه بلانشيه . ثم تحدث باسهاب عن الصعوبات التي اعترضت طريقه للوصول الى انكلترا وكيف تمكن من تذليلها.

وبعد ان قضى بعض الوقت مـــع صديقه بورتوس اعلمه انه ينوي مواصلة السير حتى اميان ماراً ببلدة كريفكور ، ليطمئن على صديقه اتوس واراميس ثم ودعه وانصرف ،واعداً بان يسلك الطريق نفسها في عودته مع رفيقيه ...

٣٦

اراميس . . . الراهب

●

ومرت بمخيلة دارتنيان حوادث ليـــلة امس ، وموعده مع السيدة بوناسيو في ضاحية سان كلود ، وراح يحدث نفسه : ترى ماذا حل بها ؟ واين هي الآن ؟ ! وتذكر مؤامرة الكردينال ريشليو واتباعه ضد الملكة آن دوتريش ، فتأكد ان حبيبته المسكينة ، كانت ضحية نقمة الكردينال عليها لانها وصيفة الملكة ، ولم يشعر الا وقد وصل الى بلدة كريفكور ، حيث ترك اراميس وخادمه . . .

واستقبلته على مدخل الحانة امرأة بدينة ، تبدو البساطة والدعة على وجهها المنتفخ المتورد ، فحياها وسألها :

هل لك يا سيدتي الطيبة ، ان تعلميني عما حل بشاب جريح اضطررنا الى تركه مع خادمه في حانتك منذ عشرة ايام تقريباً

اجابته المرأة البدينة .

ــ أتعني ذلك الشاب الجميل فهو ما يزال مقيماً هنا . . .

فانبسطت اسارير دارتنيان وسألها :

ــ واين هو الآن ؟

ــ لا اعتقد انه سيقابلك ، لانه في خلوة مع كاهن القرية ، ورئيس الدير اذ انه بعد شفائه من جرحه ، اعلن عن رغبتــــة في الانخراط بسلك الرهبنة !

وضرب دارتنيان على جبهته وقال :

ــ يا الهي لقد سها عن بالي بانه اختار مهنة الجنديه مؤقتاً ! . .

فسألته المرأة البدينة :

ــ وهل تصر على رؤيته يا سيدي :

ــ اجل . . .

فاشارت المرأة بيدها قائلة :

ــ انه يقيم في الطابق الثاني في الحجرة رقم ٥ .

واسرع دارتنيان الى تلك الحجرة ، فوجد صديقه اراميس جاث بخشوع بين اثنين من رجال الكهنوت ، يستمع الى قراءة يتلوها الكاهن بصوت خاشع . . وكان كل شيء في الغرفة يوحي بالرهبة والخشوع . .

ورفع اراميس رأسه بهدوء وقال بلهجة تغلبت عليها الرزانة :

ــ مرحباً بك ايها العزيز دارتنيان ، ثق انني مسرور برؤيتك .

اجابه دارتنيان ساخراً :

ــ يا الهي ! هذا انت يا اراميس . . ؟ كدت لا اعرفك !

وهنا التفت اراميس الى صديقه وقال :

ـ اني اشكر الله على عودتك اليّ سالماً وفي تمام الصحة ... وقد كنا قبل حضورك نتناقش في بعض المسائل الروحية التي تشغل بالنا منذ زمن بعيد ، ويسرني ان اعرف رأيك فيها .

اجابه دارتنيان بلهجته الساخرة :

ـ ان رأي رجل السيف في مثل هذه القضايا لا قيمة له !

فامتعض رجلا الدين من لهجة دارتنيان الساخرة ، وانسحبا من الغرفة ، فرافقهما اراميس حتى الدرج ، وعاد ليجد صديقه دارتنيان يحرق الارم من شدة الغيظ ، فبادره اراميس يقول بصوت هادىء :

ـ أرأيت يا صديقي .. انني عدت الى السلك الذي نشأت في وسطه !

فسأله دارتنيان :

ـ وما الدافع لهذا التبدل الفجائي في مجرى حياتك !

ـ ان لهذا قصة قديمة ، فعندما كنت في التاسعة من عمري ، دخلت احد الاديرة ، لأتلقى علوم اللاهوت واصبح راهباً فيما بعد . وقبل ان ارسم راهباً بايام قليلة ، وكنت قد قاربت العشرين ، حدثت لي حادثة ، ابدلت اتجاه حياتي .

ففي ذات يوم كنت في زيارة لأحد المنازل التي كنت اتردد عليها من حين لآخر ، ففاجأني ضابط شاب ، في خلوة مع سيدة المنزل ، بينما كنت اقرأ لها حياة القديسين .. فابدى الضابط غضبه ، الا انه لم ينبس ببنت شفة ، وما ان خرجت من المنزل

حتى لحق بي وخاطبني وهو يهز بيده سوطاً :

– هل تعجبك ضربات هذا السوط ؟

اجبته :

– لم يجرؤ احد ان يوجه اليّ مثل هذا الكلام .

– اسمع ايها الراهب الشاب ، اذا حاولت العودة الى المنزل فلن اتأخر من استخدام سوطي في قفاك ..

فامتقع وجهي ، ولم اجد مخرجاً سوى السكوت ، وبلع الاهانة ، وانا ارتدي ملابس الكهنوت .

ولما رأى الضابط تخاذلي قهقه ضاحكاً وادار لي ظهره ، وعاد الى منزل السيدة وهو منشرح الصدر ... وعدت الى الدير وانا في اشد حالات الغضب والاضطراب ، وشعرت بدماء الشباب الحارة تفور في رأسي ، لقد كانت الاهانة فظيعة ولا يمكن السكوت عنها ...

واتخذت في تلك الليلة نفسها قراراً خطيراً ، ابلغته في الصباح لرئيس الدير ، وقلت له بانني غير مهيء لان ارسم كاهناً ، ولهذا اطلب ارجاء ذلك مدة سنة .

وخرجت من الدير ، وقصدت امهر لاعب سيف في باريس ، وتلقيت على يده تدريبات بديعة على لعب السيف واصول المبارزة طيلة سنة كاملة . وبعد انقضاء سنة ، وفي مثل اليوم نفسه الذي تلقيت فيه اهانة ذلك الضابط ، حضرت حفلة راقصة . وما ان لمحت ذلك الضابط بين الحاضرين ، حتى اقتربت منه وقلت له بلهجة حازمة :

- لقد قررت ايها الضابط ان اتحداك وازور منزل تلك السيدة الواقع في شارع « بايان » ؟

فابتسمت حدقتا الضابط وسألني بلهجة مرتبكة :

- وماذا تقصد بهذا القول ، ومن انت ؟

اجبته :

- انني الراهب الذي هددتني بسوطك لسنة خلت واليوم جئت لاصفي حسابي معك ، فهلم بنا ...

فبان التردد والارتباك على وجهه ثم قال بصوت مبحوح :

- هيا بنا !..

ثم التفت الى بعض السيدات المحيطات به وقال :

- ساعود حالاً ، بعد ان افرغ من تصفية حسابي مع هذا السيد المغرور !

وتعمدت ان أسير به الى شارع بايان ، وتوقفت في المكان الذي وجه به الاهانة اليّ منذ سنة ، وتمكنت في الجولة الاولى من ان اوجه طعنة قوية اخترقت صدره وكانت كافية للقضاء عليه ..

وهكذا اضطررت لان اطلق حياة الرهبنة وانضم الى فرقة الحرس الملكي ، بمساعدة صديقاي آتوس وبورتوس ، اللذين تعرفت عليهما ، عندما كنت اتدرب على المبارزة .

والآن بعد ان اصبت بهذا الجرح ، عاودتني من جديد ، فكرة الالتحاق بسلك الرهبنة .

فابتسم دارتنيان وسأله :

- أوليس في سويداء قلبك بقية حب لفتاة حسناء ..

فتظاهر اراميس بالامتعاض من سؤال رفيقه وقال :
ــ ما هذا الهراء ؟..
وهنا زفر دارتنيان زفرة عميقة وقال :
ــ اما انا فاحببت امرأة حتى العبادة ، وقد اختطفتها يد اثيمة ولا ادري اين هي الآن ، فربما كانت سجينة او في عالم الاموات !
اجابه اراميس :
ــ ان تعزيتك الوحيدة ايها الصديق ، انها لم تهجرك او تجفوك عمداً ... اما انا ...
وشعر بان لسانه قد انزلق فعاد الى الصمت .
وضرب دارتنيان يده على جبينه وكأنه تذكر شيئاً وقال :
ــ لقد سها عن بالي ان اعلمك ان رسالة معطرة قد وصلت الى منزلك بباريس في اثناء غيابك ، وقد حملتها معي ...
وتناولها دارتنيان من جيبه واردف يقول :
ــ وهذه هي ..
فاختطفها اراميس بلهفة وراح يلتهم سطورها ، ولما انتهى من تلاوتها صاح جذلاً :
ــ شكراً لله ، لقد اضطررت للعودة الى تورس ... انها ما زالت تحبني ...
وهجم على دارتنيان يحتضنه ويقول :
ــ انني في منتهى السعادة يا صديقي ..
ثم راح يرقص في حجرته من فرط غبطته . ونادى خادمه بازان وطلب اليه ان يعد لهما وجبة طعام فاخرة ، وان يأتيهما بأربع زجاجات من أفخر خمور بورغونيا المعتقة ، احتفاء بهذه المناسبة وبرجوع اراميس عن قراره والعودة الى صفوف زملائه الفرسان .

٢٧

زوجة آتوس

●

وبعد ان انتهيا من تناول الطعام وتجرع زجاجـات الخمر ، التفت دارتنيان يخاطب اراميس :

ـ علينا ان نبحث عن آتوس لنطمئن عليه .

فسأله اراميس :

ـ وهل هناك من خطر يتهدده ؟

ـ هذا ما اخشاه ، لا سيا وقد تركته مشتبكاً بمعركة داميـة مع عدد من اتباع الكردينال المأجورين .

ـ سأرافقك للبحث عنه ، واعتقد انني اصبحت بحالة تسمـح لي بركوب الخيل ، ومتى ستواصل سيرك ؟

ـ غداً عند منبلج الصباح ، وسنرى اذا كان باستطاعتك مرافقتي .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي كان بلانشيه وبازان قد اعدا الجياد استعداداً لبدء الرحلة .

وكان أول من اعتلى ظهر جواده اراميس وما ان دار بـه الجواد بضع دورات حتى شعر بآلام حادة في موضـع الجرح ، ولاحظ دارتنيان اصفرار وجهه ، فأسرع ينزله من على ظهر الجواد ، ويحمله حتى غرفته ، ولما استقر على سريره بادره دارتنيان بقوله :

– لا بد ان جرحك لم يندمل تماماً ، وعلى هذا سأواصـــل سيري مع خادمي بلانشيه ، لنبحث عن آتوس وسأمر بك في طريق عودتي .

ثم ودعه وغادر الفندق مع بلانشيه . مواصلاً سيره الحثيث نحو بلدة اميان ، فوصلها عند الساعة الحادية عشرة ، فترجل عن جواده ، امام باب الفندق الذي ترك فيه آتوس ، ودخله ويـده على مقبض حسامه ، ولما وقع نظره على الفندقي اللعـــين بادره دارتنيان :

– هل عرفتني ايها الرجل؟

اجابه الفندقي وهو يمد يده ليصافح دارتنيان :

– لم أتشرف بمعرفتك ايها السيد العظيم ..

فتجاهل دارتنيان يد الفندقي وقال بلهجة جافة :

– سأجعلك تتذكرني جيداً . قل لي ماذا حل بذلك الفارس الذي اتهمته زوراً بأنه مزيف نقود ؟

فامتقع وجه الفندقي وبان الخوف والارتباك في حركاتـــه وقـال :

– عفوك يا سيدي سأكون صريحاً وصادقاً هذه المرة ، لقد

دفعت غالياً ثمن تلك الهفوة .

ولحق بلانشيه بسيده واقترب من الفندقي ينتهره ، بينما كان دارتنيان يلح عليه بالسؤال عن آتوس .

وبدأ الرجل يرتجف خوفاً من سوء المصير ، وخاطب دارتنيان متوسلاً :

ـ ارجو يا سيدي ان تتفضل بالاصغاء اليّ قليلاً !

اجابه الفارس بلهجة خشنة :

ـ هيا تكلم و كن صادقاً في حديثك

وبدأ الفندقي يتكلم قال :

ـ لقد قيل لي ان احـــد مزيفي النقود الخطيرين سيصل الى فندقي مع عدد من رفاقه وخدمه وسيكون متخفياً بزي فرسان الحرس الملكي ...

فقاطعه دارتنيان بصبر نافد :

ـ وماذا جرى للفارس واين هو الآن ؟؟

ـ لا تقلق عليه فهو بصحة جيدة ، اذ تمكن مع خادمـــه من الافلات من قبضة مهاجميـه ، واعتصم في قبو الخمور واقفل الباب عليه من الداخل ، وما يزال منذ ذلك اليوم في داخل القبو ، يرفض الخروج . وذات يوم حاولت النزول الى القبو مـع اثنين من خدمي ، لاحضار بعض زجاجات الخمر المعتقة واللحوم المقددة ، فثار ثائره ، وهددنا بالموت اذا دخلنا القبو ... فاضطررت الى العودة مع خدمي ، عندما سمعته يحشو غدارتيه استعداداً لاطلاق النار علينا . تصور يا سيدي انه منذ ان احتل القبو مع خادمه ، لم يجرؤ احد على الدخول ، واصبحت مهدداً بالخراب ، لان

مؤونة الفندق كلها مخزونة داخل القبو ، فهناك براميل وزجاجات الخمر والجعة وكميات اللحوم المقددة والجبن ...

فاطلق دارتنيان ضحكة مدوية وقال :

— لقد انتقم آتوس لنفسه منك ، وكان عمله جزاء وفاقاً .

وهنا تقدم الفندقي من دارتنيان متوسلاً وقال :

— ارجوك يا سيدي ان تقنعه بالخروج من القبو ، فقد وصل الى الفندق منذ ساعات اثنـــان من الانكليز مغرمان بالخمور الفرنسية ، وطلبـــا اليّ ان احضر لهما بعض الزجاجات المعتقة ، فاعتذرت لهما ، بعد ان اخبرتهما بقصة الفارس الذي يعتصم بالقبو ..

وفي هذه الاثناء ، سمعت اصوات صادرة عن القبو ، فاسرع دارتنيان وبلانشيه الى مصدر الاصوات ، فوجدا الانكليزيان يحاولان اقتحام باب القبو ، ليحصلا على زجاجات الخمر .

وادرك آتوس الذي يعتصم مع خادمه داخل القبو ، بما يجري في الخارج فصاح باعلى صوته مهدداً متوعداً :

— هيا اقتحموا باب القبو ، وسترون ما سيحل بكم ! ..

وبان التردد على الرجلين الانكليزيين ، وراحا يتبادلان النظرات ، فوجدا ان من العار عليهما التراجع ، فتقدم احدهما من باب القبو ورفسه برجله محاولاً فتحه .

وفي هذه اللحظة تردد صوت دارتنيان يقول لخادمه :

— كن على استعداد يا بلانشيه !

وهتف آتوس من خلف باب القبو يقول :

— يا الهي ! يخيل لي اني اسمع صوت دارتنيان !

فاجابه دارتنيان بصوت مرتفع قائلاً :

– انا هنا يا صديقي فلا تقلق .

قال آتوس :

– مرحباً بك ايها العزيز .. والآن دعنا نصفي حسابنا مع هذين الوقحين .

وشعر الرجلان الانكليزيان بالخطر يحدق بهما من كل حدب فانسحبا ، مفضلين السلامة على التمتع بالخمرة الفرنسية اللذيذة ... وتقدم الفندقي من دارتنيان يتوسل اليه ان يطلب من صديقه آتوس بان لا يطلق النار .

فصاح دارتنيان باعلى صوته يخاطب آتوس :

– لا حاجة لاطلاق النار ، فقد انسحب الرجلان ، وانا الآن وحدي مع بلانشيه فيمكنك ان تفتح الباب .

وما هي الا دقائق معدودة ، حتى برز رأس آتوس من فتحة باب القبو ، فاسرع دارتنيان بالدخول ليجد اكواماً من زجاجات الخمر والجعة الفارغة متراكمة قرب الباب ، وكان آتوس على احسن ما يكون صحة وعافية ، وقابله بالترحاب وهو يترنح من شدة السكر ، بينما وقف خادمه غريمو خلفه يحمل بندقية وهو كسيده ثمل ايضاً .

وهكذا جلا آتوس مع خادمه غريمو عن القبو ، بعد ان اقنعه دارتنيان ، واطمأن الى ان اخصامه قد ذهبوا الى غير رجعة .

وجاء الفندقي يشكو مصيبته ويقول بان الخسارة التي تكبدها باهظة ، فبادره دارتنيان بقوله :

ـ اين جواد الفارس آتوس ؟

ـ انه في الاسطبل .

ـ وكم يساوي ؟

ـ ستون ديناراً .

ـ لا بل يساوي اكثر من ثمانين ديناراً ، خذه مقابل الخسائر التي تكبدتها بسبب آتوس .

فاحتج أتوس قائلاً :

ـ وكيف تساوم على جوادي ؟

اجابه دارتنيان :

ـ لا تقلق ، فلقد احضرت لك جواداً في حالة جيدة ، بدلاً من جوادك العجوز .

وهنا التفت آتوس الى الفندقي وقال :

ـ اذن احضر لنا زجاجتين من افخر خمورك ، لنشرب نخب بورتوس واراميس .

فاسرع الفندقي يلبي طلبه دون تردد ، وهو يحدث نفسه بانفراج ازمته قريباً .

وملأ آتوس قدحه وقدح دارتنيان وقال :

ـ لنشرب نخب بورتوس واراميس .

قال ذلك وافرغ محتويات كأسه في جوفه دفعة واحدة ثم القى نظرة فاحصه على دارتنيان وقال :

ـ ارى مسحة من الحزن بادية على صفحة وجهك ، فما الذي يقلقك ايها العزيز ؟؟

اجابه دارتنيان :

ـ انني أتعس مخلوق على هذه الارض .

ـ وهل تعاستك بلغت الى هذا الحد من اليأس ؟

وراح دارتنيان يقص على صديقه باختصار ما صادفه في رحلته الى لندره من مشقات واخطار ، وعودته الى باريس سالماً بعد ان تمكن من اتمام مهمته على اكمل وجه ، ثم ذكر ما جرى له بعد الحفلة الراقصة من المصادفات الغريبة ، والتي انتهت بمغامرته مع السيدة بوناسيو .

وكان آتوس يصغي بانتباه كلي الى حديث صديقه دارتنيان ، ولما انتهى زفر زفرة عميقة وقال :

ـ يحق لك ان تبتئس ايها الصديق .

ويبدو ان حديث دارتنيان عن مغامرته الغرامية مع جرمين بوناسيو ، قد لمس وتراً حساساً من قلب الفارس ، فاطرق هذا لحظة ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ قد تتصور ان لي قلباً قدّ من صخر ، والحقيقة ان قلبي اصيب بطعنة في الصميم . . . والحب ياصديقي كورقة اليانصيب . . والذي يربح هو الخاسر . . . ولهذا انصحك ان تخرج خاسراً من كل مغامرة غرامية . . .

اجابه دارتنيان :

ـ ولكن المرأة التي احبها ، تبادلني الحب بصدق واخلاص .

ـ لا تكن غبيا . . .

ـ ان هذا ما يقوله كل عشيق مخدوع ! . .

– ولكني وسأقص عليك يا صديقي قصة حب حدثت لاحد لأصدقائي لتكون لك عبرة وعظة ...

فابدى دارتنيان استعداده لسماع القصة .

وبدأ آتوس حديثه فقال :

– كان احد اصدقائي رجلاً نبيلاً ، يحمل لقب كونت ، ويقطن مقاطعة (بيري) وكان شابا موفور الصحة والنشاط ، في الخامسة والعشرين من عمره ، يتمتع بقسط وافر من الجمال والذكاء ، وصدفة التقى فتاة رائعة الجمال ، هادئة الطبع ، كانت تقطن في منزل متواضع الى جوار اخيها الكاهن .. ومنذ اللقاء الاول ، اسرت لبه ولامست شغاف قلبه ، فأحبها حباً جنونيا ، وعزم على ان يتخذها زوجة له ، ويجعل منها السيدة الاولى في تلك المقاطعة ، مع انه كان بامكانه لكونه السيد المطاع هناك ان يغريها ليشبع شهوته منها وينبذها بعد ذلك نبذ النواة .

واصبحت هذه الفتاة زوجة الكونت ، وعاشت في بحبوحة من العيش والسعادة والهناء ...

وذات يوم بينما كان الكونت مع زوجته في رحلة صيد ، سقطت الزوجة الشابة عن ظهر جوادها واغمي عليها في الحال ، فاسرع الكونت الى نجدتها ، وارتأى ان يحل ازرار ثوبها ، لكي يمكنها من التنفس بسهولة ، وكشف عن كتفيها وصدرها لينعشها بالماء . ووقع نظر الكونت على وشم موسوم على كتفها ، جعله ينتفض غيظاً ... لقد رأى زهرة الزنبقة موسومة على كتفها ، وهي العلامة التي يسم بها السارقون !

وتوقف آتوس عن متابعة حديثه ، وكانت علامات التأثر بادية على قسمات وجهه، وتناول قدحه يجرع ما فيه من خمر جرعة واحدة، ويمسح حبيبات العرق البارد التي كالت جبهته، وسأله دارتنيان بلهفة :

– وماذا فعل الكونت بعد ذلك ؟

– لقد شعر الكونت ان كرامته قد اهينت ، وانه كان ضحية الخيانة والخداع ، فما كان منه الا ان مزق ثياب زوجته ، واوثق يديها وعلقها الى جذع شجرة قريبة ..

فبادره دارتنيان يقول :

– يا الهي لقد اصبح مجرماً في نظر الناس !

فغمغم اتوس بصوت متهدج :

– اجل اصبح مجرماً ... الا انه ثأر لشرفه وكرامته ...

وتناول آتوس زجاجة الخمر وراح يكرع ما فيها الى ان أتى عليها .. وترك رأسه يسقط بين راحتيه ، بينما كان دارتنيان يرمقه بنظرات اشفاق ورثاء . ثم عاد يتمتم بصوت خافت :

– وهكذا اشفيت تماماً من الحب .. من فتنة النساء وخداعهن .

وسأله دارتنيان :

– وماذا جرى لشقيقها الراهب ؟

– كان بودي ان اشنقه هو الآخر .. الا انه اختفى في اليوم نفسه ، والانكى من ذلك انه لم يكن شقيقها ، بل عشيقها وقد تخفى بثياب الكهنوت ليخدع الناس ..

وتذكر آتوس رغم سكره ، بان لسانه قد انزلق ، فعاد يردد على مسمع من دارتنيان :

ـ ان ذلك الكونت تعيس ، وتعاسته لا تقاس بالشيء الذي تشكو منه انت ياصديقي .

ثم تناول شريحة من لحم الخنزير ووضعها في صحن دارتنيان وقال :

ـ هيا تذوق هذا اللحم المقدد ، انه لذيذ جداً .. تصور انني تجرعت خمسين زجاجة من اجود خمور هذا الفندق اللعين وكمية كبيرة من هذا اللحم .

وكانت اعصاب دارتنيان لم تعد تحتمل مزيداً من الارهاق فوضع رأسه بين راحتيه وتظاهر بالنوم .

ولما شعر آتوس ان صديقه قد استسلم للكرى ، تناول قدحه وافرغ ما فيه بجوفه وغرق في تأملاته ..

٢٨

العودة الى باريس

●

وفي صباح اليوم التالي ، راح دارتنيـــــان يستعرض مأساة صديقه آتوس المحزنة ، وادرك بغريزته ان صديقه ، انما روى قصة غرامه الشخصية تحت تأثير افراطه في شرب الخمر .

وبكر الخادمان بلانشيه وغريمو في اعداد الجياد استعداداً للسفر . وظل آتوس طيلة الوقت معتصماً بالصمت المطبق ، وعندما حانت ساعة الرحيل التفت الى صديقه وقال له :

— لقد كنت ليلة امس ، شديد السكر ، واظنني رويت لك قصة حب مؤثرة أليس كذلك ؟

فاجابه دارتنيان متظاهراً بعدم الاكتراث :

— يبدو انني كنت اشد سكراً منك ، لانني لا اذكر انني سمعتك تروي قصصاً محزنة .

وعاد آتوس يحاول ان يزيل من مخيلة صديقه اي اثر او شك

لقصة امس فقال :

ـ ألم تلاحظ ان كل انسان له طابعه الخاص ، فانا مثلاً عندما افرط في الشراب يسيطر عليّ طابع الحزن ، فأبدأ بسرد المآسي والقصص المحزنـــة ، التي سمعتها من مربيتي عندما كنت فتى في العاشرة .

فأيد دارتنيان قول صديقه متظاهراً بالاقتناع ، وهنا بان الارتياح على وجه آتوس وعادت اليه طبيعته ، فراح يتجاذب وصديقه اطراف الحديث في مختلف الشؤون ، وهما على ظهر جواديهما .

وعندما وصلا الى بلدة كريفكور ، كان اراميس يتكىء على نافذة غرفته يحدق في الأفق البعيد .

فصاح دارتنيان وآتوس في صوت واحد :

ـ مرحى ... مرحى يا اراميس !

فانتبه لوجودهما وهتف جذلاً :

ـ هذا انت يا آتوس ... ودارتنيان مرحباً بكما .

وبعد استراحة قصيرة لم تطل اكثر من ساعة ، انضم اليهما اراميس وخادمه بازان ، واستأنف الركب الصغير سيره قاصداً بلدة شانتيللي ، ليلتقوا برفيقهم الرابع الفارس بورتوس .

وكان بورتوس قد استعاد قواه ، واصبح بحالة تمكنه من مرافقة اصدقائه الى باريس .

ولما سأله آتوس عما اصابه ، ولماذا تأخر عن اللحاق بهم ، ابى الاعتراف بانه اصيب بجرح اثناء المبارزة ، وادعى انه اصيب بالم في ركبته اقعده عن الحركة ، وتظاهر رفاقه بتصديق قوله .

واخيراً وصل الرفاق الاربعة الى باريس ، واقاموا مأدبة غداء فاخرة لمناسبة عودتهم سالمين من تلك الرحلة المحفوفة بالاخطار والمشقات .

وبعد ان انتهوا من الطعام ، اسرع دارتنيـــان الى منزله ، فوجـــد رسالة تنتظره من القائد دي تريفيل يعلمه فيها ان الملك وافق على الحاقه بفرقة الحرس الملـكي .

فرقص قلب دارتنيان غبطة وسروراً ، فقدنال ما كان يرجوه ويتمناه .

فاسرع ينقل الى رفاقه الثلاثة ، النبأ السار ، فوجدهم مجتمعين في منزل آتوس ودلائل الاهتمام بادية على وجوههم . فابلغوه ان القائد دي تريفيل ، انبأهم بان الملك سيبدأ حملته ضد الهوكنوت لطردهم من بلدة لاروشيل حيث يعتصمون بها منـــذ اشهر . وطلب اليهم قائدهم ان يكونوا على اهبة الاستعداد بكامل اسلحتهم وجيادهم ، لأن الحملة ستبدأ في بداية شهر ايار (مايو) القادم ، بعد خمسة عشر يوماً .

وراح الفرسان الاربعة يتداولون في امر الحصول على اسلحة جديدة وجياد صالحة بعد ان فقدوا جيادهم ومعـداتهم في تلك المغامرة .

واستأذن دارتنيان بالانصراف بعد ان وعد رفاقه بان يعمل من جهته على مساعدتهم ، وتوجه الى قصر دي تريفيل ليشكره

٣٩

محاولات للحصول على المعدات

●

كان اهتمام الفارس دارتنيان منصباً بصورة خاصة ، في البحث عن حبيبته ، فقد ابلغه دي تريفيل بانه اعلم الملكة باختفاء وصيفتها جرمين بوناسيو ، فوعدت بالاهتمام للعثور عليها .

اما الفارسان بورتوس وواراميس ، فقد انصرفا يبحثان بجد ونشاط عن وسيلة للحصول على المال لشراء الاسلحة والجياد ، بينما اعتصم آتوس في منزله ، معلنا انه لن يبذل اي مشقة في هذا السبيل . .

وذات يوم لمح دارتنيان صديقه بورتوس يقف قرب كنيسة سان لو ، فراح يراقبه عن كثب ، فرآه يدخل الى الكنيسة ، فتبعه على الاثر ، فشاهده يستند الى احد الاعمدة يراقب جموع المصلين الذين كانت تزخر بهم الكنيسة ، ولاحظ دارتنيان ان هناك امرأة شقراء تجلس على مقعد قريب من المكان الذي وقف

فيه بورتوس . ويستدل من مظهرها انها من النبيلات وانها نفس الفتاة التي صادفها في بلدة « مبنع » وأن اسمها « ميلادي » ، اذ كانت ترافقها فتاة زنجية تحمل مسنداً لتستخدمه السيدة الجميلة في الركوع عليه عند الصلاة .

وكانت السيدة ترمق بورتوس من حين لآخر بطرف عينها .

ولما انتهت الصلاة ، تعمد بورتوس ان يعترض طريقهـــا ، ويبادلها النظرات والتحية وهي تهم بمغادرة الكنيسة .

وفي تلك اللحظـة بالذات اقتربت من بورتوس امرأة اخرى سمراء ، علم دارتنيان انها السيدة كوكينار .

وهمست المرأة في اذن بورتوس قائلة :

ـ هل تتكرم بمرافقتي ، فلدي ما اقوله لك على انفراد .

فابدى بورتوس بعض التردد ، الا انه انصاع للامر الواقع ، عندما رآها تتأبط ذراعه وتشده اليها تدعوه الى المسير .

ولما اصبحا خارج الكنيسة ، انحرفت به الى زقاق منعزل ، وبعد ان اطمأنت الى انه ليس هناك من يسمعنا قالت :

ـ يخيل لي انك اصبحت مغامراً كبيراً . . ايها السيدبورتوس؟

ـ ولماذا ياسيدتي ؟

ـ لا تحاول الانـكار ، فلقد راقبتك منـذ البداية ، وانت تتحدث بالاشارة الى تلك السيدة العظيمة . . انها ولا شك احدى الاميرات .

ـ اخطأت التقدير ، فهي دوقة وليست اميرة .

ـ اذن فقد اصبحت الرجل المدلل للسيدات الجميلات النبيلات .

– ان حظي سعيد ياسيدتي !

فصاحت به السيدة كوكينار حانقة :

– يا الهي ما اشد نسيان الرجال ، واكثر خداعهم !

فأجابها بورتوس بلهجة ساخرة :

– والنساء أيضاً ... لقد كدت أموت في ذلك الفندق الصغير ببلدة شانتيللي ، ومع ذلك لم تتنازلي بالاجابة على رسالة واحدة من رسائلي الثلاث .

واحست السيدة كوكينار بخطأها ، فراحت تتودد الى فارسها قائلة :

– وهل نسيت كم ضحيت من أجلك في الماضي ... اما المبلغ الذي طلبته مني برسالتك الاخيرة فأؤكد لك انني لم استطع الحصول عليه من زوجي البخيل .

– لقد كتبت الك يا سيدتي لثقتي بك ، مع انني لو أرسلت اطلب من الدوقة ، ولا حاجة لذكر اسمها ، اي مبلغ من المال لما تأخرت لحظة واحدة . فدمعت عينا السيدة كوكينار وقالت بصوت متهدج :

– لقد كنت قاسيا جداً في انتقامك مني ، وثق انني لن أتأخر في المستقبل عن مساعدتك بكل ما تطلبه مني .

– دعينا يا سيدتي من حديث المال .. انه لا يليق بالمحبين .

– وهل ما زلت تحبني ايها العزيز ؟

وظل بورتوس محتفظا بهدوئه وصمته دون ان يجيب على سؤال عشيقته .

وعادت تكرر السؤال بلهجة التوسل :

– تكلم لماذا لا تجيب ؟؟

فرفع بورتوس رأسه وقال بلهجة حزينة :

ـ ان نفسي تحدثني بأنني سأقتل في الحملة التي ستبدأ بعد خمسة عشر يوماً .

فارسلت السيدة كوكينار زفرة من صميم قلبها وقالت :

ـ لا سمح الله ...

ـ اصارحك يا عزيزتي ، بأنني ما زلت احتفظ لك في سويداء قلبي بالحب الخالص ، ولكن بعد خمسة عشر يوماً ستبدأ تلك الحملة اللعينة ، وسأضطر الى الانهماك في اعداد ما يلزمني من اسلحة ومعدات ، وربما اضطررت للسفر الى بلدي في بريتانيا ، للحصول على المبلغ اللازم لهذه الرحلة .

وسكت لحظة ثم اردف يقول :

ـ وبما ان الدوقة التي لحقتها في الكنيسة مسافرة الى تلك المقاطعة ، فقد قررت مرافقتها الى هناك ...

فقاطعته السيدة كوكينار قائلة :

ـ لا حاجة بك الى السفر يا عزيزي ، وسأتولى بنفسي تدبير المبلغ من زوجي البخيل الهرم ... فعد غداً الى منزلي عند الظهر . وسأدعي امام زوجي بأنك قريبي وقد جئت الى باريس لاعمال خاصة . ولا تنسَ ان تكون حذراً .

فتناول بورتوس يد عشيقته وقبلها بحرارة قائلاً :

ـ شكراً لك ، وثقي ان حبك لن يبرح قلبي . والى اللقاء ..

٣٠

ميلادي !

●

وكان دارتنيان يصغي الى هذه المحاورة الغرامية بين صديقه بورتوس وعشيقته ، ولما افترق العاشقان ترك صديقه يذهب في سبيله ، وذهب في اثر ميلادي ، فسمعها تقول لسائق عربتها بان ينقلها الى ضاحية سان جرمين .

فعاد ادراجه الى منزله ؛ وأوعز الى خادمه بلانشيه ان يعد جوادين ويلحق به الى منزل آتوس .

وكان آتوس كعادته جالسا الى مائدة الشراب ، يجرع الخمر فقص دارتنيان عليه مغامرة صديقهمابورتوس مع المرأتين ،وانتهى الى القول بأن بورتوس تمكن بدهائه من الحصول على المال اللازم لشراء جواد قوي ومعدات حربية .

فأجابه آتوس :

ــ اما أنا فلن ألجأ الى هذه الوسيلة .

وفي هذه اللحظة اطل بلانشيه برأسه من باب الغرفة ، وابلغ سيده دارتنيان بأن الجياد جاهزة .

فسأله آتوس بدهشة :

ـ ولمن الجياد ؟؟

ـ لقد قررت ان اقوم برحلة قصيرة في ضاحية سان جرمين لمراقبة المرأة التي التقى بها بورتوس في الكنيسة ، واعتقد انها لها علاقة باختطاف جرمين بوناسيو .

قال له آتوس :

ـ يا لك من مغرم تعس ، تبحث عن سعادتك الضالة بين الاوهام ... وارجو الا تصاب بصدمة نفسية من جراء هذا الحب .

ثم نهض دارتنيان يودع صديقه آتوس ، ويسرع في ركوب جواده ، متجهاً في طريق سان جرمين وخلفه خادمه بلانشيه .

وتذكر دارتنيان وهو في طريقه ، ان ميلادي هذه ، على علاقة برجل « مينغ » ، الذي اختطف السيدة بوناسيو في المرة الاولى ، ولا بد انه هو الذي اختطفها في هذه المرة ايضاً ! وقرر ان يبذل ما بوسعه لمقابلة ميلادي ليقف منها عن مصير حبيبته .

ولما وصل الى ضاحية سان جرمين ، تمهل في سيره وراح يراقب المنازل الواقعة على جانبي الطريق ، علّه يلمح وجهاً يعرفه ، وبعد ان قطع مسافة قصيرة ، وقع نظره مصادفة على شخص يجلس في حديقة احد المنازل الفخمة ، عرفه في الحال انه خادم الكونت دي وارد المدعو سيمون ، والذي التقى به في كاليه . فاوعز

الى بلانشيه ان يترجل عن جواده ويقترب منه ليتنسم اخبار سيده الكونت دي وارد . بينما تابع دارتنيان سيره بالجوادين الى زقاق منعزل قريب من المنزل ، ووقف يراقب وهو على ظهر جواده ما يجري في الداخل .

وفجأة سمع صوت عربة تقف امام المنزل ، ويطل منها رأس السيدة ميلادي ، ثم تهبط منها فتـاة يانعة هي وصيفة ميلادي ، وتتجه مسرعة صوب باب المنزل ، وهناك تصادف بلانشيه واقفاً بالباب ، فتظنه خادم الكونت ، الذي كان قد دخـــل في تلك اللحظة الى المنزل ، وتمد الوصيفة يدها بورقة مطوية قائلة :

ــ هذه الرسالة الى سيدك .

فسألها بلانشيه متذهلاً :

ــ أتقولين الى سيدي ؟!

ــ اجل وهي لامر مستعجل جداً . . .

قالت ذلك واسرعت عائدة الى العربة التي كانت بانتظارها ، وما ان اصبحت بداخلهـــا ، حتى تابعت العربة سيرها بسرعة ، واختفت بلحظات قليلة عن الانظار .

واخذ بلانشيه يقلب الورقة المطوية بين يديه وقد اخذه العجب والحيرة ، ثم ما لبث ان اسرع بها الى سيده دارتنيان قائلاً :

ــ لقد اعطتني هذه الرسالة وصيفة جميـلة وطلبت اليّ ان اسلمها لك .

فتناول دارتنيان الرسالة وقرأ فيها العبارة التالية :

ــ « هناك شخص يود مقابلتك للافضاء اليك بحديث خطير »

ويهمه ان يلقاك في الغابة ،وسينتظر غداً خادم اسود جوابك امام فندق « الحقل الذهبي » .

وبعد ان انتهى من تلاوة الرسالة رفع رأسه يخاطب خادمه بلانشيه بقوله :

ـ اذن فالكونت دي وارد، لم يمت ، وقد تمكن من العودة الى باريس ... وكانت هذه الرسالة موجهة اليه ولا شك ..

اجابه بلانشيه :

ـ اظن ان سيفك لم يصب منه مقتلاً .

ولكز فارسنا الشاب ظهر جواده وقال لبلانشيه :

ـ هيا بنا نلحق بالعربة .

وتمكنا من اللحاق بالعربة بمدة قصيرة لم تتجاوز خمس دقائق فشاهدها تقف الى جانب الطريق ، وقد وقف امام بابها ، فارس يرتدي ثياباً فاخرة .

ويبدو ان الحديث بين الفارس والسيدة ميلادي ، كان هاماً مما اتاح لدارتنيان ان يقترب منهما دون ان يشعرا به .

وكان الحديث يدور بين الاثنين باللغة الانكليزية ، فلم يفهم منه دارتنيان شيئاً ... الا انه ادرك ان ميلادي تقسو بكلامها ثم ما لبثت ان صفعت الفارس بمروحتها على وجهـــه ، فقابلها الفارس بضحكة عالية ، زادت في حنق ميلادي وغيظها .

ورأى دارتنيان ان الفرصة مؤاتية له للتدخـــل بين السيدة والفارس ، فاقترب من الباب الآخر وخاطب السيدة بقوله :

ـ أتسمح لي السيدة ان اعرض خدمتي عليها ... قولي كلمة

واحدة ، وسترين كيف اؤدب هذا الفارس الوقح .

فالتفتت ميلادي الى الفارس دارتنيان تقول بلهجة ناعمة :

– انه شرف عظيم لي يا سيدي الفارس ان احظى بحمايتك ، لو لم يكن الرجل الذي احادثه هو شقيقي .

وصاح الفارس الآخر يقول بحدة :

– من هذا الرجل الوقح ، ولماذا يتدخل بما لا يعنيه ؟

فبادره دارتنيان بلهجة حازمة :

– انت الوقح ، واذا كانت هذه السيدة التي تقول انها قريبتك ، تتحمل وقاحتك ، فأنا لن احتملها . .

وسمع دارتنيان السيدة ميلادي توجه عبارة بالانكليزية الى الفارس ، ثم ما تلبث ان تأمر سائق عربتها قائلة :

– سر بنا حالاً الى الفندق .

وحاول الفارس الآخر ان يلحق بالعربة ، الا ان دارتنيان اعترض طريقه ، خاصة بعد ان عرف انه احد الانكليزيين اللذين التقى بهما في فندق اميان . وخاطبه بقوله :

– مهلاً ايها السيد ، لا تنسَ ان عليك حساباً يجب ان تسدده قبل ان ترحل .

اجابه الفارس :

– انني مستعد لان اقابلك انت ورفاقك ، فحدد الموعـــد والمكان .

– قابلني هذا المساء في حديقة اللوكسمبورغ عند الساعة السادسة .

– حسناً سأكون في الموعد المحدد .

وقبـــل ان يفترق الخصمان تم التعارف بينهما ، فعلم الفارس دارتنيان ان خصمه يدعى الكونت وي دنتر ، بارون شيكليد .

وعاد دارتنيان مع خادمه بلانشيه الى باريس ، وقصد اتوه الى منزل صديقه الفارس آتوس ، ليروي له ما صادفه في رحلتـه القصيرة الى سان جرمين .

وبعد ذلك عاد الى منزله ، وهنا بدأ يعدّ في مخيلته خطة بارعة اعتزم تنفيذها في القريب العاجل .

٣١

المبارزة الجماعيه

•

وما ان ازفت الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم ، حتى كان الفارس دارتنيان مـــع رفاقه الفرسان الثلاثة يصلون الى حديقة اللوكسمبورغ ينتظرون وصول الكونت الانكليزي مع رفاقه ، ولم يطل انتظارهم طويلا ، فقد حضر الكونت دي ونتر وبرفقته ثلاثة من النبلاء الانكليز ، فقدم دارتنيان شاهديه باسميهما : آتوس وبورتوس . ويبدو ان الكونت دي ونتر ورفاقه لم تعجبهم هذه الاسماء وقالوا انها اسماء غير نبيلة ، فاغتاظ آتوس من هذا القول ، وخاطبهم بقوله :

ـ انها اسماء مستعارة ايها السادة . وثقوا اننا لا نقل عنـــكم نبـــلا .

وانتهت المناقشة بين الفرسان والنبلاء الانكليز الى مبارزة حامية ، اذ اشتبك كل من آتوس وبورتوس وأراميس مـــع

الانكليز الثلاثة، بينما تولى دارتنيان تصفية حسابه مع خصمه الكونت دي ونتر، واسفرت هذه المبارزة الجماعية عن سقوط النبلاء الثلاثة صرعى بيد الفرسان.

اما دارتنيان فقد تمكن من التغلب على خصمه الكونت، إلا انه قرر ان يعفو عنه، لغاية مبيتة في نفسه، فما ان شاهده يسقط على الارض عاجزاً بعد ان طار السيف من يده حتى وقف دارتنيان فوق رأسه ونصل سيفه على رقبته قائلًا:

– يمكنني ان اقضي عليك ايها الكونت، الا انني قررت ان اهبك الحياة اكراماً لشقيقتك.

وكان دارتنيان قد وضع خطة محكمة، منها العفو عن الكونت دي ونتر، فمد الكونت يده الى فارسنا الشاب يشكره بحرارة قائلًا:

– اسمح لي ان أدعوك منذ الآن يا صديقي الحميم.

واقترب من دارتنيان يضمه الى صدره، بينما وقف الفرسان الثلاثة يتفرجون على هذا المنظر المؤثر.

وكان الفارسان بورتوس واراميس قد استوليا على اسلحة النبيلين الانكليزيين وجواديهما، كما استولى بورتوس على كيس مليء بالدنانير الذهبية سقط من خصمه الانكليزي. وقبل ان ينصرف الكونت دي ونتر التفت الى الفارس دارتنيان يقول:

– هل تسمح يا صديقي الحميم ان اقدمك الى شقيقتي اللادي كلاريك، فهي ذات نفوذ واسع في البلاط الفرنسي. وباستطاعتها ان تؤدي الك خدمة كبيرة.

فانبسطت اسارير دارتنيان وانحنى علامة القبول ، اذ لم تكن هذه السيدة سوى ميلادي ...

واعطاه الكونت دي ونتر عنوان شقيقة السيدة ميلادي او اللادي كلاريك ، في الساحة الملكية ،وتواعدا على اللقاء في منزل الفارس آتوس ، ليتولى الكونت تقديم دارتنيان الى اللادي كلاريك .

وعاد فارسنا الشاب الى منزله يصلح من شأنه ويستعد الموعد ، وبعد ذلك قصد الى منزل صديقه آتوس ، وقص عليه كعادته موعده المنتظر مع السيدة الشقراء ميلادي .

فهز آتوس رأسه وقال :

— عليك ان تكون حذراً ، ايها الصديق ، لأنني اراك سريع التقلب فقد فقدت امرأة حسناء وصفتها بانها طيبة القلب ، رائعة الجمال كاملة .. وبدأت الان تتعلق بحب امرأة اخرى .

اجابه دارتنيان :

— ما زلت احب جرمين بوناسيو من صميم القلب ، اما هذه فسأعمد الى اتخاذها عشيقة لي ، لأحقق هدفي ، وللوقوف على الدور الذي تلعبه هذه المرأة في البلاط الفرنسي .

قال اتوس :

— اؤكد لك ان الدور الذي تلعبه هذه المرأة الشقراء « ميلادي » ليس من الصعب التكهن به ، فهي ولا شك جاسوسة الكردينال .. واخشى ان تقودك الى مكيدة جديدة تقع بها في سهولة كلية .

ـ يا للشيطان ! .. انك تنظر دائما الى الاشياء بمنظار اسود.

ـ يا عزيزي انني دائما احذر خـــداع النساء ، لأنني بلوتهن ودفعت ثمناً غاليا على حساب كرامتي ومستقبلي .. وخاصة الشقراوات منهن ! فارجو لك النجاة يا عزيزي والتوفيق .

وفي هذه الاثناء حضر الكونت دي ونتر في الموعد المحدد ، الى منزل الفارس آتوس ، فاستقبله دارتنيان وحده ، بينما انتقل آتوس الى غرفة اخرى .

واصطحب الكونت دي ونتر الفارس دارتنيان الى قصر شقيقته اللادي كلاريك وقدمه اليها قائلًا :

ـ اقدم لك يا عزيزتي هذا الفارس الشاب ، الذى كان بامكانه ان يقضي عليّ في مبارزة شريفة . ومع ذلك عفا عني اكراما لك .. فارجو ان تقدمي له الشكر والثناء .

فرمقته ميلادي بنظرة فاحصة تفاعلت فيها عـدة عوامل ثم قالت بلهجة مغرية :

ـ اهلًا بك ايها الفارس الباسل ، وثق انني لن انسى لك هذا الجميل ..

وبدأ الكونت يشرح لها تفاصيل مبارزته مع الفارس دارتنيان وهي تصغي اليه بانتباه كلي ، وترمق الفـــارس من حين لآخر بنظرة ذات معنى لم يدرك مغزاها دارتنيان الا فيما بعد .

وبعد أن انتهى الكونت من حديثـــه ، اقترب من مائدة الشراب فملأ قدحين قدم احدهما لدارتنيان واحتفظ لنفسه بالآخر ، وبينما هو يرفع كأسه ليشرب نخب دارتنيان ، دخلت الوصيفة وتقدمت

من الكونت تهمس بأذنه بعض الكلمات، فاعتذر في الحال وغادر القاعة بعد ان طلب من شقيقته أن تهتم بأمر ضيفها الفارس .

وما ان غادر الكونت المكان ، حتى انحلت عقـــدة لسان ميلادي ، فبدت على حقيقتها ، ولم تتردد في ابلاغ دارتنيان ان الكونت دي ونتر ليس اخاً لها ، بل شقيق زوجها المتوفي ، وانها انجبت من زوجها غلاماً ، هو الذي سيحمل اقب اللوردية .

واستمر الحديث بين ميلادي ودراتنيان نصف ساعة ، تأكد فارسنا في نهايتها ان ميلادي ليست انكليزية ، بل فرنسية الاصل من اللهجة الصحيحة التي تتكلم بها وعندما غادر دارتنيان قصر اللادي كلاريك ، كان واثقاً من نفسه بأنه كسب ثقتها ومحبتها .

وعاد دارتنيان في اليوم التالي فاستقبلته بالترحاب والحفاوة وكانت بمفردها فأبدت عناية خاصة به ، وراحت تسأله عن شؤونه الخاصة واوضاعه الاجتماعية ، واخيراً سألته اذا كان يرغب في الالتحاق بخدمة نيافة الكردينال .

وكان دارتنيان فطناً فلم تفته الغاية من هذا السؤال ، فأثنى ثناء حاراً على نيافته ، وقال انه ما كان ليتأخر عن الالتحاق في حرس الكردينال ، لو هيأت له الظروف معرفة القائد دي كافوا بدلاً من القائد دي تريفيل مواطنه الذي ألحقه بفرقة حرس الملك .

وغيرت ميلادي الحديث باتجاه آخر وسألت دارتنيان بدون اكتراث : هل زرت انكلترا ؟

فأجابها بانه سافر الى انكلترا بمهمة خاصة كلفه بها القـــائد دي تريفيل ، وهي شراء عدد من الجياد الانكليزية ، واضاف بانـــه

احضر معه فعلاً اربعة منها كنموذج .

وعضت ميلادي على شفتيها ، لانها تأكدت انها تلعب لعبة خاسرة مع هذا الغاسقوني الداهية .

وانتهت زيارة فارسنا الشاب فانصرف ، وبينما كان يجتاز الرواق الطويل المفضي الى الباب الخارجي التقى الوصيفة الحسناء كاتي ، فداعب خديها متودداً .

وتكررت زيارات دارتنيان الى قصر ميلادي في الايام التالية وفي كل زيارة كانت ميلادي تقابله بالترحاب . وفي كل مساء عند انصرافه كانت تعترض طريقه الوصيفة الجميلة تحاول التحرش به والتودد اليه ، فكان يقابل عملها بشيء من عدم الاكتراث .

٣٢

العشيقة البخيلة

●

ومع ان الفارس بورتوس قد خرج من تلك المبارزة بحصة الاسد اذ استولى على كيس مفعم بالدنانير الذهبية من النبيـــل الانكليزي الذي صرعه ، الا انه لم يهمل موعده مع عشيقته مدام كوكينار في منزلها .

وما أن ازفت الساعة الواحدة من بعدظهر اليوم التالي ، حتى كان بورتوس يطرق باب عشيقته ، وما ان لمحتـــه يجتاز الرواق خلف الخادم ، حتى بانَ عليها الارتباك وبادرته قائلة :

هذا انت يا ابن العم .. مرحباً بك يا عزيزي بورتوس ...

فاسرع بورتوس الى تحيتها مدعياً امام الخادم بانه قادم لتوه من الريف لاعمال خاصة في باريس قد تستغرق بضعة ايام .

فرحبت به وقادته الى قاعة الاستقبال ، وكان قدوم ضيف الى منزل السيد كوكينار النائب العام الهرم، امراً غير مألوف،

ولهذا السبب انتقل اليه النبأ غير السار ، بسرعة البرق ، فهرول الى قاعة الاستقبال يتوكأ على عصاه ليري هـذا الضيف الثقيل الذي حضر في الموعد المحـــدد لتناول طعام الغداء ... فتولت الزوجة تقديم الضيف ، على انه ابن عمها ، وقد حضر اليوم من الارياف لقضاء بعض الاعمال في باريس فراح الزوج الكهل المعروق يرمق زائره بنظرات فاحصة بضع ثوان ثم خاطبه بقوله :

– يبدو اننا اقرباء ايها السيد بورتوس اليس كذلك ؟!

فهز بورتوس رأسه علامة الموافقة وقال :

– اجل ايها السيد كوكينار ، وانه لشرف عظيم لي ، ان اكون قريبك !

اجابه الكهل بخبث :

– وان هذه القرابة التي بيننا تتصل عن طريق النساء .

فاحمر وجه زوجته السيدة كوكينار ، التي ادركت غرضه من وراء هذه الغمزة ، الا انها بلعت هذا التعريض ، خوفاً من افتضاح امرها .

وحان موعد تناول طعام الغداء ، فدعي الضيف بورتوس الى حجرة الطعام ، وهي عبارة عن غرفة مظلمة تقع في مواجهـــة المطبخ ، وكانت الوان الطعام عادية جداً ، تتفق مع ما اشتهر به النائب العام العجوز وزوجته من بخل شديد .

ونهض الضيف بورتوس عن المائدة وهو اشد جوعا من قبل ، لان الطعام الذي وضع على المائدة لم تستسغه نفسه .

وبعد تناول الطعام انسحب كوكينار الى غرفته ليأخـــذ

قسطه من الراحة والقيلولة ، بيـــنما ادخلت السيدة كوكينار عشيقها بورتوس الى غرفة منعزلة ، وبدأت مساومـــة بينهما على المبلغ الذي يحتاج اليه لشراء معداته واسلحته والتي وعدته به اذا ظل على اخلاصه وحبه لها .

وبعد مساومة طويلة وحوار اطول بين الفـــارس المعشوق والعشيقة البخيلة ، استغرق اكثر من ساعة ، تمكن بورتوس بمـا اشتهر به من دهاء وقوة عزم ، من انتزاع مبلغ ثمانماية دينار ، كما وعدته باعطائه جواداً كريماً له وبغلاً قوياً لخادمه موسكيتون .

٣٣

بين الوصيفة والسيدة

•

على الرغم من نصائح الفارس آتوس وتحذيره ، فقد وقع دارتنيان في حب ميلادي او اللادي كلاريك ، واصبح يتردد بصورة منتظمة على منزلها في الامسيات ، يتردد اليها ويلاحقها بغزله ، آملًا ان تستجيب لحبه في يوم من الايام .

وفي ذات يوم ، بينما كان يهم بالدخول الى منزل ميلادي التقى الوصيفة كاتي في الرواق الطويل ، فاعترضت طريقه وخاطبته بصوت متردد :

– لدي ما اقوله لك يا سيدي الفارس ..

أجابها دارتنيان : « تكلمي فكلي آذان صاغية ! »

– من المستحيل ان اتحدث اليك في هذا المكان يا سيدي الفارس ، لان ما سأقوله لك غاية في الخطورة ... ولهذا ارجو ان تتبعني . وامسكت بيده تقوده الى سلم مظلم ، وبعد ان

صعدت واياه حوالي خمسين درجة ، فتحت باباً وقالت له :
– ادخل يا سيدي الفارس ... يمكننا في غرفتي الخاصة ان نتحدث بحرية .
ثم اشارت الى باب آخر واردفت تقول :
– هذا الباب يفضي الى غرفة اللادي كلاريك مباشرة ، وهي لا تحضر الى غرفتها قبل منتصف الليل .
وتركزت عينا دارتنيان دون ان يشعر على ذلك الباب ، ولاحظت الوصيفة ذلك فبادرته بقولها :
– هل تحب سيدتي اللادي ايها الفارس ؟
– بل اعبدها ... يا كاتي .
فزفرت الوصيفة الحسناء زفرة عميقة وقالت :
– من المؤسف حقاً ألا" تبادلك سيدتي هذه العاطفة ، اذ انها لاتضمر لك شيئاً من الحب .
فبانَ الامتعاض على وجه دارتنيان وسألها :
– هل انت مكلفة من قبل سيدتك ، ان تقولي لي ذلك ؟
فهزت رأسها بالنفي ، ثم تناولت من صدرها ورقة مطوية ، قدمتها الى دارتنيان قائلة :
– خذ واقرأ ...
فتناول الفارس الشاب الرسالة وقرأ العنوان ، وكانت باسم الكونت دي وارد . وتذكر غريمه ميلادي عندما التقى بهما في ضاحية سان جرمين وقرب منزل هذا الكونت بالذات . وراح يقرأ ما تضمنته تلك الرسالة :

« لم اتلق منك جواباً على رسالتي الاولى .. هـــل نسيت النظرات المحمومة التي كنت توجهها اليّ في الحفلة الراقصة الـتي اقامتها السيدة دي كيز؟ انها فرصـــة يا عزيزي الكونت فلا تدعها تفوتك ! »

فامتقع لون دارتنيان وبان عليه التأثر .. واحس انه طعن في كرامته ، لقد حاول ان يستولي على قلبها،فلم يفلح ، فهي منشغلة بحب رجل آخر .. ولاحظت الوصيفه كاتي اضطرابه فبادرته قائلة بصوت مفعم بالرثاء والعاطفة :

ـ يا لك من شاب تعس !

ـ وهل ترثين لحالي يا صغيرتي ؟

ـ اجل ومن صميم قلبي ... لانني بلوت الحب .

ـ اذن ارجو ان انال مساعدتك للانتقام من سيدتك .

ـ واي نوع من الانتقام تريده ؟

ـ اريد ان اسيطر عليها ، واسعى لابعاد منافسي على حبها .

فأجابته كاتي بحدة :

ـ لن تحظى بمساعدتي يا سيدي الفارس !..

فاقترب منها دارتنيان يطوق خصرها بذراعه ويقول :

ـ ولماذا يا عزيزتي كاتي ؟!

فغمغمت قائلة :

ـ لان سيدتي لا تحبك .

وادرك دارتنيان بفطنته ما ترمي اليه الوصيفة الحسناء،فاسرع يبحث عن شفتيها ليمتص رحيقها بقبلة طويلة .. جعلت الوصيفة

تتخاذل وتقول بصوت مبحوح :
ــ لا . . لا . . انك لا تحبني . . انك تحب سيدتي .
فأجابها دارتنيان دون ان يدعها تفلت من بين ذراعيه :
ــ وهل تريدين يا صغيرتي ان اقدم لك برهاناً ساطعاً على اني بدأت اشعر نحوك بشيء من الحب ؟
فسألته بدلال :
ــ وما هو هذا البرهان ؟
ــ هو ان اكرس هذه الليلة لك ، واعتبر نفسي وكأني قضيتها مع سيدتك .
فاشرقت اسارير الوصيفة الشابة وقالت :
ــ سنرى . . .
ــ حسنا يا عزيزتي ، لقد قررت البقاء هنا .
وجلس على مقعد قريب من سريرها وتركها تجلس الى جانبه على السرير واردف يقول لها :
ــ انك والحق يقال ، اجمل وصيفة رأيتها في حياتي !
ثم راح يتمدحها ويتملقها . ! ومرت الساعات بين هجوم من قبل دارتنيان وممانعة مغرية من قبل الوصيفة الجميلة .
ودقت الساعة معلنة انتصاف الليل ، وبعد لحظات قليلة سمعت الوصيفة جرس سيدتها يدق ، فصاحت في صوت خافت :
ــ يا الهي . . ان سيدتي تناديني ، ارجوك ان ترحل حالاً .
فنهض دارتنيان واختطف قبعته متظاهراً بالانصراف ، وبدلاً من ان يخرج من الباب ، فتح باب خزانة كبيرة واختبأ بداخلها

بين اثواب السيدة ميلادي ، فصاحت الوصيفة مذعورة :

– وهل تريد ان تبقى هنا ؟

فاغلق باب الخزانة عليه ولم يجبها . وعاد الجرس يدق بشدة ، فاسرعت الوصيفة لتلبية نداء سيدتها ، ولما فتحت الباب الموصل الى حجرة سيدتها ، تركته مفتوحا ، مما اتاح لدارتنيان ان يسمع ما دار من حديث بين ميلادي ووصيفتها . .

فسمع ميلادي تسأل وصيفتها :

– ألم يحضر الشاب الغاسقوني هذا المساء ،

اجابتها كاتي :

– وهل بدأت سيدتي تميل الى هذا الشاب ؟

– انني اكرهه . . لاسباب عديدة يجهلها هو ، وهناك حساب طويل بيني وبينه يجب تصفيته قريباً . لقد فقدت ثقة نيافة الكردينال بسببه ، كما الحق بي ضرراً فادحاً ، اذ حجب دم شقيق المرحوم زوجي الكونت دي ونتر ، حين كان في مقدوره ان يقتله في مبارزة شرعية ، وبذلك حرمني من الحصول على ثلاثمائة الف جنيه سنوياً .

وارتعدت فرائص دارتنيان وهو يسمع هذه المرأة تفصح عن خططها الجهنمية .

وسمعها بعد ذلك تخاطب وصيفتها قائلة :

– والآن عودي الى حجرتك ، وابذلي جهدك غداً لتحصلي على جواب من الكونت دي وارد .

وبعد ذلك سمع دارتنيان اغلاق الباب الذي يفصل بين غرفة

ميلادي وغرفة وصيفتها ، ولما اطمأن الى ذلك ، فتح باب الخزانة وخرج بتمهل فقابلته كاتي قائلة بصوت منخفض :

– ما لك ممتقع الوجه ؟

فغمغم دارتنيان :

– يا لها من امرأة قذرة مخيفة !

– صه ! فقد تسمع صوتك ، فهي لم تنم بعد ... والان هيا اخرج .

– سأخرج ولكن فيما بعد ...

قال هذ وجذبها اليه وعصر جسدها اللدن بين ذراعيه القويتين فحاولت المقاومة والافلات ، الا انها خشيت افتضاح امرها ،... واخيراً وبعد ممانعة لم تدم طويلاً ، وجدت لا لها بد من الاستسلام ، فاستسلمت .

وقد برر فيما بعد ، دارتنيان هذا العمل بينه وبين نفسه ، بانه انتقام من ميلادي ... ووجد عذراً مقبولاً لمن يقول بان الانتقام هو متعة الالهة .

وانحصر هم فارسنا الشاب ، بأمر واحد هو استدراج الوصيفة كاتي ، بعـــد ان وثقت به ، لمعرفة مصير ومقر حبيبته جرمين بوناسيو . وقد اقسمت الوصيفة المسكينة بكل مقدس عندها ، انها لا تعرف عنها شيئاً ، اذا ان سيدتها لا تطلعها على جميـــع اسرارها .

وتعمد دارتنيان ان يزور ميلادي في مساء اليوم التـالي ، فوجدها متبرمة ناقمة ، الا انها قابلته بالابتسام والترحيب ، وسمحت

له بان يلثم يدها عندما همّ بالانصراف ، وامام الباب الخارجي التقى بالوصيفة كاتي فامسكت بذراعه وقادته توآ الى حجرتها ، وفي اللحظة التي دخلت فيها مع الفارس الحجرة ، سمعت سيدتها تنـــاديها فاسرعت اليها.

وسمع دارتنيان حواراً طـــويلاً يتعلق بالكونت دي وارد وعدم اجابته على الرسالتين اللتين بعثت بهما اليه ، وطلبت ميلادي الى وصيفتها ان تحضر غداً عند الساعة التاسعة صباحاً لتحمل رسالة ثالثة الى الكونت.

ولما عادت كاتي الى حجرتها طلب اليها دارتنيان ان تحمل الى منزله رسالة سيدتها . ثم تكررت عملية الهجوم والدفاع بين فارسنا الشاب والوصيفة كاتي ، انتهت باستسلام الوصيفة .

وعاد دارتنيان الى منزله عند الساعة الخامسة صباحاً . وعنـد الساعة الحادية عشرة ، حضرت كاتي تحمل اليـــه الرسالة ، فمزق غلافها وقرأ :

« هذه هي الرسالة الثالثة التي اكتبها لك ، لأقول فيها انني احبك .. حذارِ الا" اكتب لك الرسالة الرابعة واقول فيها انني اكرهك .. ! »

ولما انتهى دارتنيان من تلاوة الرسالة بادرته كاتي بقولها :

ـ وهل ما زلت تحبها ؟

أجابها دارتنيان بلهجة جازمة :

ـ كلا .. انك مخطئة في ظنونك ، فانا لا احبها ابداً ، واريد الانتقام منها ، فهي تتعمد تحقيري .

وتناول دارتنيان ورقة وسطر عليها الرسالة التالية بلسان الكونت دي وارد وهذه نصها :

« سيدتي ، لقد شككت بان تكون الرسالتين السابقتين موجهتين لي شخصياً ، وقد اسفت كثيراً لأنني لم اجب عليهما في حينه ، ولكن الآن بعد ان تأكدت من عاطفتك وحبك لي ، قررت ان اقابلك هذا المساء ، عند الساعة الحادية عشرة .. »

وطوى الرسالة ووضعها في مظروف وناولها الى الوصيفة كاتي قائلاً :

— هذا جواب الكونت دي وارد ..

فامتقع وجه كاتي ، اذ كانت متشككة بمحتويات الرسالة ، فطوق دارتنيان خصرها وقال :

— اسمعي يا عزيزتي ، لا بد من ان تنتهي هذه المهزلة ، وتعلم سيدتك ميلادي ، بانك سلمت الرسالة الاولى الى خادمي بدلاً من تسليمها الى الكونت أو خادمه ، كما ان الرسالة الثانية قد تسلمتها انا ومزقتها ، ولذلك ارى ان تسلميها هذه الرسالة ، ودعيني انقذ ما يمكن انقاذه .. فسألته كاتي :

— وماذا تحتوي هذه الرسالة ؟

— ستطلعك ميلادي على محتوياتها

فصاحت به كاتي قائلة :

— آه .. اذن فانت لا تحبني ، انني تعيسة !

اجابها دارتنيان :

— ان النساء مخدوعات دائماً .

وقبل ان تذهب كاتي وعدها دارتنيان بان يزورها في حجرتها بعد زيارة سيدتها ..

٣٤

بورتوس وأراميس يبحثان عن المال

•

ومنذ اللحظة التي قرر فيها الرفاق الاربعة مواصـــلة سعيهم للحصول على معدات واسلحة جديدة ، لم يجتمع شملهم في مكان معين ، الا انه كان من عادتهم ان يلتقوا مرة في كل اسبوع بمنزل صديقهم الاكبر الفارس آتوس ، ذلك لان آتوس لم يبارح منزله طيلة هذه المدة .

وذات يوم اجتمع شمل الرفاق الاربعة في منزل الفارس آتوس وراحوا يتحدثون في شؤونهم الخاصة ، وفي اثناء ذلك حضر الخادم موسكيتون واخبر سيده بورتوس بضرورة الاسراع الى مـنزله لأمر هام جداً . فاستجاب الفارس بورتوس لالحاح خادمه واسرع الى منزله .

وبعد لحظات قليلة حضر بازان وابلغ سيده الفارس اراميس بأن في المنزل شخصاً ينتظره ويلح في مقابلته .

فسأله اراميس :

ـ ومن هذا الشخص ؟

ـ ان ملامحه تدل على انه من المتسولين !

فبادره اراميس بحدة :

ـ اتقول شحاذ ؟ ولماذا لم تصرفه ؟

اجابه بازان :

ـ لقد اصر على مقابلتك لامر هام جداً ، وقال انه قادم من بلدة تورس .

فهتف اراميس :

ـ قادم من تورس ؟.. لا شك ان هذا الرجل يحمل انباء سارة .

وما لبث ان اسرع بالذهاب الى منزله لمقابلة ذلك الرجل. وما ان توارى اراميس عن الانظار ، حتى التفت الفارس دارتنيان الى آتوس يقول :

ـ لا شك ان هذه المقابلات المفاجئة ، لها علاقـــة بمغامرات غرامية .

اجابه آتوس :

ـ دعنا من بورتوس واراميس ومغامراتهما ، ودعنا نتحدث عن مغامراتنا الاخيرة مع الشقراء الانكليزية «ميلادي» لقد دعاني امس القائد دي تريفيل الى قصره ، وأبدى قلقه من كثرة زياراتك لتلك الانكليزية التي تستمد نفوذها من الكردينال لانها من اتباعه .

اجابه دارتنيان :

– لقد اطلعتك على الاسباب التي جعلتني اكثر من التردد على منزل تلك السيدة ، ذلك ان لها علاقة باختفاء السيدة بوناسيو .

– فهمت ... انك في سبيل العثور على امرأة تغازل امرأة اخرى ... انها الطريق الطويلة الا انها اكثرها تسلية ومتعة !

وكاد دارتنيان يبسط لصديقه آتوس تفاصيل مغامرته الاخيرة مع ميلادي ووصيفتها الحسناء كاتي ، الا انه فضل السكوت ، لأن اتوس لا يتسامح بمثل هذه التصرفات فسكت ،بعد ان اقتنع آتوس بوجهة نظر صديقه الشاب .

ولنتبع الفارس اراميس الى منزله لنراه يتسلم من الشحاذ القادم من بلدة تورس رسالة خاصة ، فاسرع يفض غلافها بلهفة زائـدة ، ويقرأها وقد جاء فيها :

« ايها الصديق .. يأبى القدر الا ان يطول أمد فراقنا .. ولكن ايام الشباب الجميلة لن تذهب دون رجعة ، ارجو ان تقوم بواجبك في حملة الربيع القادمة . خذ ما يسلمك اياه حامل رسالتي هذه ، لا تنساني .. والوداع او بالاحرى الى اللقاء . »

ورفع اراميس رأسه عن الرسالة ، ليري الشحــــاذ قد مزق بطانة معطفه الداخلية ، واخرج منها مئة وخمسين قطعة ذهبية اسبانية ، وضعها على المائدة امام عيني اراميس الحائرتين ، وسرعان ما اتجه نحو الباب وخرج مهرولاً ، قبل ان يتسنى لاراميس ان يستزيد منه او يستوضحه ..

وأعاد اراميس تلاوة الرسالة مرة ثانية ، فقرأ في اسفلهـــا الملاحظة التالية : « ان حـــامل رسالتي هذه نبيل من نبلاء

الاسبان فلا تهمل تقديم واجب الاحترام له ...».

فلحق بالرجل الى الباب ، فوجده قد توارى عن الانظار ، فعاد الى الحجرة وقد تملكته الغبطة ، لوفاء حبيبته واخلاصها له وراح يقبل الرسالة بشغف كلي ويناجي صاحبتها باعذب الالفاظ ، متذكراً ايامه الحلوة مع هذه الحبيبة ، معللاً النفس باللقاء القريب .

وعندما أطل خادمه بازان من باب الغرفة وشاهد الدنانير الذهبية تغطي المائدة ، اصيب بدهشة ، ونسي بانه جاء ليبلغ سيده قدوم الفارس دارتنيان ، الذي دخل في تلك اللحظة ووقع نظره على النقود الذهبية تلمع على المائدة وقال :

ـ يا لك من محظوظ كبير يا عزيزي اراميس ، ان اصدقاءك في تورس يبدون نحوك كل اهتمام وعطف !

اجابه اراميس :

ـ انك مخطىء يا عزيزي دارتنيان ، لقد تلقيت هذا المال من احد الناشرين ثمناً لاشعار ارسلتها له .

اجابه دارتنيان بلهجة ساخرة :

ـ حقاً ان هذا الناشر سخي جداً ، لانه يشتري انتاجك الادبي بوزنه ذهباً ..

ثم رمقه بنظرات ذات معنى واردف يقول :

ـ وهذه الرسالة التي على وشك السقوط من جيبك لا شك انها من الناشر ايضاً !

فاحمر وجه اراميس ، واسرع يدس الرسالة في جيب معطفه

الداخلي ويقول :

ــ هلم بنا الآن نبحث عن رفاقنا ، لنحتفل بهـــذه المناسبة السعيدة . .

اجابه دارتنيان :

ــ لعمري لقد مضى علينا زمن طويل لم نجتمع فيه على مائدة طعام او شراب .

واسرع الصديقان الى منزل الفارس آتوس ، فوجداه معتصماً بمنزله لا يفارقه ، فابلغه دارتنيان بان اراميس قد هبطت عليه الثروة من السماء ، قادمة عن طريق تورس ، وانه قرر دعوة الرفاق الى مأدبة فاخرة .

ثم توجه الصديقان اراميس ودارتنيان الى منزل بورتوس ليزفا اليه البشرى السارة ، فالتقيـــا في الشارع القريب لمنزله ، خادمه موسكيتون وكان يجر خلفه جواداً وبغلاً .

فسأله دارتنيان عن سيده بورتوس ، فقال الخادم بانه قصد الى منزل عشيقته الدوقة . .

واعاد دارتنيان السؤال عن الحيوانين اللذين يجرهما خلفه فقال :

ــ ان عشيقة سيدي بورتوس قد ارسلت له هدية مؤلفـة من جواد كريم من افضل جياد اسبانيا ، وبغل قوي ، الا ان زوجها الرجل البخيل قد استبدل الجواد الاصيل بهذا المعقور ، كما استبدل البغل القوي بهذا البغل الاجرب ، ولهذا طلب اليّ اعادتهـما الى منزل العشيقة .

وتركهما الخادم موسكيتون ليلحق بسيده بورتوس ، الذي

وصل الى منزل عشيقته السيدة كوكينار ودلائل الغضب بادية على محياه ، وكانت العشيقة قد رأته يدخل المنزل على هذا الحال ، كما شاهدت خادمه موسكينون يجر خلفه الجواد والبغل ، فأدركت مقدماً سبب غضبه ، فقابلته بالترحاب وحاولت تهدئة اعصابه ، معترفة بان الخطأ ليس خطأها ، بل خطأ زوجها البخيل الذي استبدل الهدية دون علمها ، واعدة عشيقها الفارس باستبدال الجواد باحسن منه .

وحاول بورتوس ان يدعها وشأنها وينصرف ، الا انها تشبثت بذراعه متوسلة وقالت :

ــ اسمع . . . ان السيد كوكينار سيذهب في هذا المساء لمقابلة الدوق دي شولناس ، لاعمال خاصة ، وسأكون في المنزل لوحدي فتعال لنتفاهم .

فهز بورتوس رأسه وقال :

ــ سأرى . . والى المساء .

٣٥

عندما تطفأ الانوار تتساوى نساء العالم

●

وكان الفارسان بورتوس ودارتنيان ينتظران بفارغ الصبر حلول المساء ، فتوجه الشاب الغاسقوني كعادته الى منزل ميلادي عند الساعة التاسعة مساء ، فالفاها منشرحة الصدر ، تملأ الغبطة اعطافها ، وتأكد فارسنا الشاب ان رسالته التي سلمها للوصيفة كاتي قد وصلت ، وهي مصدر هذه الغبطة .

ودخلت بعد حين الوصيفة كاتي تحمل بعض المرطبات ، وكان يبدو على محياها دلائل الحزن والقلق .

وراح دارتنيان يقارن بين المرأتين ، فاعترف بينه وبين نفسه ، بان الطبيعة قد خـــدعت في تكوين نفسية كل من المرأتين ... فمنحت السيدة العظيمة ، نفسية مبتذلة شريرة ، بينما وهبت الوصيفة البسيطة ، قلباً كبيراً جديراً بالميلات .

وما ان أزفت الساعة العاشرة حتى بدأ القلق يساور ميلادي ،

وادرك دارتنيان السبب ، فالقى نظرة عابرة على الساعة المعلقة ، ثم مالبث ان نهض من مقعده ، وتناول قبعته ليهم بالانصراف ، فقابلت ميلادي بادرته بالارتياح ، وابتسمت له كما سمحت له بان يطبع على يدها قبلة طويلة قبل ان ينصرف .

وهذه المرة لم تكن الوصيفة كاتي تنتظره في الرواق كعادتها في كل مساء ، وكان عليه هذه الليلة ان يصعد الدرج المظلم وحده ، ليبحث عن حجرتها ، ولما اطل برأسه الى الداخل ، وجدها تدفن رأسها بين يديها وهي تنشج بالبكاء ، ومع انها احست بدخوله ، الا انها لم ترفع رأسها ، فاقترب منها وازاح يديها ، وراح يعبث بشعرها ويداعب خديها بانامله .

فهدأت بعض الشيء ، وراحت تقص عليه ، بأن سيدتهـــا تلقت رسالته بالغبطة والسرور ، ومنحتها مكافأة مالية ، ثم ابدت الوصيفة المسكينة تخاوفها من عاقبة هذا العمل ، عندما تكتشف سيدتها الخدعه ، فطمأنها دارتنيان بانه سيتدبر الامر .

واضافت كاتي بان سيدتها طلبت اليها ان تطفىء جميع الانوار في جناحها الخاص ، وفي حجرة نومها ايضاً ، وعلى الكونت العشيق ان يصل الى حجرتها تحت ستار الظلام .

وفي هذه الاثناء كانت ميلادي قد وصلت الى حجرة نومها ، فاسرع دارتنيان الى الاختباء في الخزانة ، وما ان اقفل الباب عليه ، حتى سمع الجرس يدق ، ولبت الوصيفة النداء ، الا انها لم تترك الباب مفتوحاً كالسابق ، ومع ذلك فقد تمكن دارتنيان من ان يسمع الحديث بين المرأتين .

وطلبت ميلادي من وصيفتهـــا ان تطفىء النور الذي يضيء غرفتها ، وتعود لتنتظر وصول الكونت دي وارد ، لتتولى توصيله الى باب حجرتها .

فنفذت الوصيفة تعليمات سيدتها ، وبينما كانت تفتح البـــاب الذي يفصل حجرتها عن حجرة سيدتها ، كان دارتنيان قد خرج من مخبأه في الخزانة ، ووقف امامها محاولاً الدخول ، ولما شعرت به كاتي ، حاولت منعه خشية افتضاح امرها ، الا انـه اصر على الدخول وهمس باذنها قائلاً :

– لا تخشي بأساً ، فسأدافع عنك ، واحميك من كل اذى يلحق بك .

وترامى الى سمع ميلادي التي كانت مرهفة الحس صوت الهمسات فصاحت قائلة :

– من هناك ؟

اجابها دارتنيان بصوت منخفض ، محـــاولاً تقليد صوت الكونت دي وارد :

– هذا انا يا سيدتي .. الكونت دي وارد !

فهتفت ميلادي من غرفتها تقول بصوت مرتجف :

– ولماذا لا تدخل يا كونت ... انت تعلم انني انتظرك .

وحيال هذا النداء من ميلادي ، ابتعد دارتنيان عن الوصيفة كاتي ، ونفذ من الباب الى حجرة نوم السيدة ميلادي التي كانت تعبق بالروائح العطرية الذكية .

وكان موقف دارتنيان مؤلماً جداً ، فقد كانت الغيرة تنهش

قلبه نهشاً ، وتألم كما كانت تتألم المسكينة كاتي التي راحت تذرف الدموع السخية في الغرفة المجاورة .

وفي هذه اللحظة اقتربت منه ميلادي وامسكت براحته بين يديها وراحت تضغط عليها بشغف ثم قالت :

ــ اجل يا كونت انني سعيدة بهذا الحب ، واتخيل نفسي من نظراتك وعباراتك ، اننا التقينـــا قبل الآن ... وارجو ان لا تنساني .

ثم تناولت من صدرها خاتماً ماسياً ثميناً وادخلته في اصبع دارتنيان قائلة :

ــ هذا الخاتم هدية مني ...

وتظاهر دارتنيان بأنه يريد اعادته اليها ، الا انها اصرت عليه قائلة :

ــ احتفظ بهذا الخاتم كعربون لهذا الحب الذي بيننا .

وغمغم دارتنيان يخاطب نفسه :

ــ يا لها من امرأة غامضة !

وفي هذه اللحظة خطرت لدارتنيان فكرة جريئة ، عزم على تنفيذها ، وهي ان يعلن عن حقيقته ، ويصارحها بأنه اراد الانتقام منها ... الا انها بادرته بقولها :

ــ يا لك من ملاك مسكين ، لم يتمكن ذلك الوحش الغاسقوني من ان يقضي عليك ... هل ما زالت جراحك تؤلمك ؟

اجابها دارتنيان :

ــ اجل ...

فتمتمت ميلادي بصوت غامض .

ــ كن مطمئناً ! فسأنتقم لك بنفسي، وسيكون انتقامي رهيباً .

وعلى الرغم مما تفوهت به ضده فقد احس دارتنيان بان هذه المرأة المخيفة ، تسيطر عليه سيطرة غريبة ، فهو يحبها ويكرهها في آن واحد ، ولم يكن يتصور اجتماع الحب والكراهية في قلب واحد وان باجتماعهما يؤلفان حباً غريباً شيطانياً . . .

ودقت الساعة تعلن منتصف الليل ، وكان على العاشقين ان يفترقا ، وعندما هم دارتنيان بالانصراف ، شعر بالأسى يحز قلبه لهذا الفراق ، وبعد ان تبادلا القبلات المحمومة ، تواعدا على اللقاء في الاسبوع القادم .

وودت المسكينة كاتي ان تتحدث الى عشيقها قبل انصرافه ولكن سيدتها لم تمكنها من ذلك ، اذ رافقته رغم الظلمة حتى الدرج المؤدي الى الباب الخارجي .

وفي صباح اليوم التالي ، اسرع دارتنيان الى منزل صديقه آتوس ، ينقل اليه تفاصيل مغامراته في الليلة الماضية ، وقطب الفارس آتوس حاجبيه وقال :

ــ يبدو لي ان ميلادي هذه ، امرأة مخيفة ، ولكنك لم تكن مخطئاً في خداعك لها ، ولا تنس انها عدوة لدودة حتى ولو احتويتها بين ذراعيك .

وكانت عينا آتوس قد تركزت على الخاتم الماسي الذي يضعه دارتنيان في اصبعه ، وانتبه الشاب الى ذلك وقال مشيراً الى

الخاتم :

ـ هل يعجبك هذا الخاتم ؟

ـ انه نادر الوجود ، هل حصلت عليه بدلاً من الخاتم الذي اهدته اليك الملكة ؟

ـ كلا انه هدية من ميلادي ، ولقد اعطتني اياه هذه الليـلة !

ـ دعني اتفحصه . . .

فانتزعه الفارس الشاب من اصبعه وقدمـه الى اتوس الذي انهمك يتفحصه بدقة كلية . . . ثم ما لبث ان بانت على قسمات وجهه دلائل القلق وقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ من المستحيل ان تكون هي . . والا فكيف وصل هذا الخاتم اليها ؟!.

فبادره دارتنيان :

ـ وهل تعرف صاحب هذا الخاتم ؟

ـ يخيل اليّ انني اعرف صـــاحبه ، وهو انا ، اذ يذكرني بذكريات مؤلمة جداً ، لا اريد ان ارددها الآن .

فسأله دارتنيان :

ـ ومن اهداك هذا الخاتم ؟

ـ انه هدية من المرحومة أمي ، وقد ورثته من امها ايضاً ، فهو حلية قديمة توارثتها العائلة وتعتز بها .

ـ وهل اضطررت الى بيعه ؟

اجابه آتوس بصوت متهدج :

ـ لقد قدمته هدية في ليلة غرام . . .

واطرق دارتنيان مفكراً ، يستعيد قسمات تلك المرأة التي أهدته الخاتم .

وقطع عليه حبل افكاره آتوس يقول :

ــ احتفظ بهذا الخاتم يا عزيزي ، فأنت اعز من ولدي ... وانصحك بأن تترك هذه المرأة ، لأن نفسي تحدثني بانها مخلوق مشؤوم .

ــ انك على حق واؤكد لك ان هذه المرأة تخيفني .

ــ اذن ابتعد عنها ، والله يرعاك ويبعد شرورها عنك .

واستأذن الفارس الشاب بالانصراف ليعود الى مسكنه ، وهناك وجد بانتظاره الوصيفة كاتي ، وكانت بحالة يرثى لها من الاعياء والاصفرار .

فاعلمته ان سيدتها أوفدتها لتطلب من الكونت دي وارد ،تحديد موعد زيارته القادمة .

وكانت كلمات آتوس وتحذيراته ما تزال ترن في أذني الشاب فتناول ورقة وسطر عليها بلسان الكونت الرسالة التالية :

« ليس باستطاعتي ياسيدتي ان احدد لك موعداً قريباً ، لان عليّ عدة مواعيد من هذا النوع يجب ان اقوم بها ... وعندما يحين دورك سأعلمك .! »

وناول الرسالة دون ان يختمها الى كاتي ، التي قرأت سطورها ، فانبسطت اساريرها ، واسرعت بها الى سيدتها . وما ان اطلعت عليها ميلادي حتى راحت ترتجف من شدة التأثر والحنق وقالت تخاطب وصيفتها :

ـ من المستحيل أن يكتب رجل نبيل ، الى سيدة مثل هذه الرسالة !

وفجأة شعرت بضيق في صدرها ، وحاولت ان تخطو نحو النافذة ، لتستنشق الهواء النقي ، الا أن رجليها لم تقويا على حملها ، فتخاذلت على اريكة وهي تلهث ، واقتربت منها الوصيفة تريد ان تحل ازرار ثوبها الضيق لتمكنها من التنفس بسهولة ، ففتحت ميلادي عينيها ، وانتهرت وصيفتها وأمرتها بمغادرة الحجرة وتركها بمفردها .

٣٦

حلم الانتقام

وفي المساء اوعزت ميلادي الى وصيفتها كاتي ان تُدخل بجناحها الخاص الفارس دارتنيان فور حضوره ، الا انه لم يحضر في تلك الليلة ... ومرت ثلاثة ايام انقطع دارتنيان عن زيارة ميلادي ، مما زاد في قلقها واضطرابها . وفي اليوم الثالث اوفدت وصيفتها كاتي برسالة خاصة للفارس الشاب ، فتناولها وكانت هذه المرة باسمه وليس باسم الكونت دي وارد ، وقرأ فيها :

« يبدو لي انك اهملت شأن اصدقائك الجدد ... لقد انتظرنا انا وشقيق زوجي الكونت دي ونتر ، حضورك امس ، ولكن بلا جدوى . ونأمل ان نراك في هذا المساء .

لادي كلاريك »

ولما انتهى من تلاوة الرسالة بادرته الوصيفة كاتي قائلة :

ــ وهل تنوي ان تلبي الدعوة ؟

ـ اسمعي ياصغيرتي ، انه من الضروري أن البي هذه الدعوة ، كيلا يفسر انقطاعي عن زيارة سيدتك ، تفسيراً يسيء اليك.

ـ يا الهي ما اشد دهائك ! انك دائماً تجـــد مبرراً معقولاً لتصرفاتك . وهل تريد ان تلاحقها بحبك ؟

فأكد لها الفارس الشاب بانه لن يخضع لها او ينقاد الى اغراءاتها.

وفي الساعة التاسعة كان دارتنيان يدخل مـــنزل ميلادي ، ويتجه رأساً الى جناحها الخاص ، حيث استقبلته بجفاوة بالغة ، ولاحظ انها مكفهرة الوجه بادية الاعياء .

فسألها عن صحتها فأجابته :

ـ سيئة جداً ، اذ أشعر باعياء .

ـ اني آسف اذ ازعجتك بزيارتي ، فاسمحي لي ان انسحب.

فاسرعت تمسك بذراعه قائلة :

ـ لا تذهب ان وجـودك الى قربي يرفه عني ، ويخفف من آلامي.

وراحت تبدي للفارس الشاب ضروب المجاملة والتودد ، الى الى أن سألته اذا كان له عشيقة يحبها ، فتنهد واجابها :

ـ لقد كنت قاسية في سؤالك هذا ... لأنه منذ اللحظة التي التقيت بك ، اصبحت لا اتنفس الا من اجلك .

فارتسمت على شفتي ميلادي ابتسامة غريبة وقالت :

ـ الى هذا الحد انت تحبني ؟!

فقرب دارتنيان مقعده منها ، بينما اردفت تقول :

ـ وماذا يمكنك ان تعمله لتؤكد صدق حبك ؟

ـ كل ما يطلب مني فعله ، فأنا مستعد لانفذه فوراً .

ـ كل شيء مهما كان خطيراً ؟

ـ كل شيء .

فتظاهرت ميلادي كأنها تفكر بأمر ثم التفتت الى الفارس وقالت :

ـ هناك عدو لي لدود ، اود التخلص منه، مهما كلف الامر ، عدو اهانني بقساوة ، فهل يمكنني الاعتماد عليك .

فأدرك دارتنيان فوراً من تقصد بذلك فأجابها :

ـ يمكنك الاعتماد عليّ ياسيدتي ، فساعدي وحياتي اضعها تحت تصرفك .

لقد كانت تقصد ميلادي بذلك العدو اللدود الكونت دي وارد الذي حطم قلبها وطعنها في كرامتها وكبريائها ، فقررت أن تسخر هذا العاشق الغاسقوني للقضاء على الكونت الغادر !

وهنا امسكت بذراعه تتودد اليه قائلة :

ـ اذن لقد فهمت ما اقصد ياعزيزي دارتنيان ؟

ـ هيا اذكري اسم ذلك العدو السيىء الحظ .

فترددت بعض الشيء ثم قالت :

ـ انه يدعى ...

فقاطعها دارتنيان بقوله :

ـ دي وارد ..

فأمسكت ميلادي بكلتا يديه قائلة :

ـ وكيف عرفت اسمه ؟ !

فأدرك الشاب بانه تسرع في الكلام وارتكب هفوة يجب ان يعمل على تلافيها فقال :

– لقد علمت ان دي وارد هو عدوك اللدود ، لأنه كان امس يتحدث الى بعض اصدقائه ، وبيده خاتم ماسي ثمين قال انه هدية منك .

فصاحت ميلادي حانقة :

– يا له من رجل حقير !

وامسكت بكتف الفارس الشاب تسأله :

– وهل ستنتقم لي قريباً ؟

– سأثأر لك من عدوك غداً اذا شئت ..

وهنا تناهى الى سمعها حركة ، فارهفت السمع ، ثم التفتت الى دارتنيان تقول :

– انه الكونت دي ونتر شقيق زوجي ، وارى انه من غير المناسب ان يراك هنا .

وقرعت الجرس لوصيفتها كاتي ، ثم فتحت الباب الموصل بينها وبين حجرة الوصيفة ودفعته قائلة :

– عد اليّ عند الساعة الحادية عشرة ، فانا بانتظارك .

ولما اصبح في حجرة كاتي ، راحت هذه تنحي عليه باللائمة ، ولم يدعها تسترسل في ثرثرتها وغيرتها فوضع اصبعه على شفتيها وقال :

– لا تكوني حمقاء .. هذه المرأة شريرة وخطرة ، وعلينا ان نحذرها !

٣٧

سر ميلادي

•

وغادر حجرة الوصيفة كاتي ، وراح يذرع الطريق المجاورة لمنزل ميلادي ذهاباً واياباً ، يفكر بالطريقة للخلاص من هذه المرأة الخبيثة. وحدثته نفسه بان يذهب الى منزله ، ليسطر رسالة طويلة الى ميلادي ، يصارحها بكل شيء ، فيقول لها بانه انتحل شخصية الكونت دي وارد ، واجاب على رسائله و ... الا انه عدل عن هذه الفكرة ، اذ تغلبت انانيته وطموحه على كل شيء للسيطرة على هذه المرأة بشخصه . وتابع سيره وهو يراقب جناح ميلادي ، وما ان شاهد النور يطفأ حتى توجه رأساً الى حجرة الوصيفـــة كاتي ، التي حاولت منعه من الدخول بدافع الغيرة ، ولكن ميلادي فتحت الباب ، ودعته الى الدخول ثم اغلقت الباب خلفها .

واندفعت كاتي بدورها وراء الباب تتفاعل بصدرها عوامل الغيرة والغضب وكبرياء المرأة العاشقة المطعونة بحبها ، تدفعهـا

لارتكاب الحماقات ! . . الا ان هذه العوامل ما لبثت ان هدأت ثائرتها ، عندما اتضح للمسكينة بانها ستكون الخاسرة من وراء هذا العمل !

وفي الوقت نفسه كانت تصطرع في نفس الشاب دارتنيان عوامل اخرى ، وسمع صوتاً خفيفاً يهتف باذنه ، انه لم يكن سوى آلة الانتقام ، ولكن كبرياء فارسنا الغاسقوني خنقت هذا الصوت ، وجعلته يأمل بان يكون العشيق الحبيب المفضل لهذه المرأة .

وبدأ دارتنيان حديثه مع ميلادي ، بان تعفو عن عدوها الكونت دي وارد ، وقبل ان ينطق بعبارته الاولى نفرت منه وقالت بلهجة حانقة :

ـ هل انت خائف من مقابلته يا عزيزي دارتنيان ؟

ـ لست خائفاً ، ولكن قد يكون ذلك المسكين ، اقل جرماً مما تتصورين .

ـ على كل ، فهو قد خدعني ، ولهذا فهو يستحق الموت .

أجابها دارتنيان بلهجة حازمة :

ـ اذن يجب ان يموت ، طالما اصدرت حكمك عليه .

وأعجبتها لهجة الفارس وقراره الحازم ، فاقتربت منه بدلال تداعب خديه وتتودد اليه باغراء . . .

ولم ينصرف دارتنيان من مخدع عشيقته ميلادي ، الا عند تباشير الفجر الاولى ، وعندما كان يهمّ بالانصراف ، تنبهت ميلادي وعادت تذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه بالثأر من الكونت دي وارد .

اجابها دارتنيان :

ـ انني على تمام الاستعداد ، لأن انفذ ما وعدت به ، ولكني اود ان اتأكد من انك تحبينني فعلًا .

ـ اظنني اعطيتك البرهان الكافي حتى الآن .

ـ لا شك في ذلك ، ولكن اذا كنت تحبينني كما تصرحين ألا تخافين عليّ ؟

ـ وممن اخاف عليك ؟

ـ من ان اصاب بجرح قاتل ، او ان اقتل على الفور مثلًا !

ـ مستحيل ، انك رجل شجاع ، ومن امهر لاعبي السيف .

ـ وما رأيك في اللجوء الى وسيلة اخرى للثأر منه ؟

فرمقت ميلادي عشيقها بنظرة فاحصة ، دون ان تنبس ببنت شفة ، وقالت اخيراً :

ـ حقاً كنت واثقة من انك ستتردد في تنفيذ ما وعدت به .

ـ ليس هذا تردداً .. ولكنني ارثي لحال هذا الكونت منذ ان اقلعت عن حبه .

ـ ومن اعلمك بانني احببته ؟

ـ اندفاعك الجنوني للانتقام منه .

وسكت دارتنيان لحظة ثم عاد يقول :

ـ وبالاضافة الى ذلك،فانني اصبحت مهتماً بامر هذا الكونت المسكين ..

ـ انت !.. ولماذا ؟

ـ لسبب لا يعرفه غيري ، وهو بعيد كل البعد عن كونه

مجرماً نحوك .

فهتفت بصبر نافد قائلة :

ـ اوضح هذه الالغاز ..

ـ سأوضح لك كل شيء فيما بعد .. والآن اخبريني، هل تصفحي عني اذا اقدمت، بدافع الحب، على ارتكاب هفوة نحوك؟

فردت عليه بجدة :

ـ ربما صفحت عنك ..

وحاول الفارس الشاب والابتسامة تعلو شفتيه ، ان يقرب فمه من شفتي عشيقته ميلادي ، الا انها لم تمكنه من ذلك ، وعادت تلحّ عليه بقولها :

ـ لماذا لا تكون صريحاً وتتكلم بما تعرفه ؟

فصمت دارتنيان بعض اللحظات ثم رفع رأسه ليسألها وابتسامة التحدي والتشفي لا تفارق شفتيه !

ـ ألم تحددي موعداً للكونت دي وارد يوم الخميس الماضي في هذا المكان ؟

فأجابته بلهجة جازمة ، ادهشت دارتنيان :

ـ كلا ..

ـ لا تحاولي الكذب يا ملاكي الجميل .

فبادرته حانقة :

ـ صارحني بما عندك ، ولا تحاول اثارة اعصابي .

ـ ان الكونت دي وارد غير مذنب تجاهك ولا يستحق الموت ..

ـ ولماذا ؟

فتردد لحظات قليلة ثم قال :

ـ ان الخاتم الماسي الذي قدمته هدية للكونت دي وارد ، هو الآن في حوزتي.. وان الكونت المسكين لم يزرك يوم الخميس بل الذي زارك في حجرتك هذه ليلاً منتحلاً اسمه وشخصيته هو انا بنفسي .

وانتظر دارتنيان بعد هذه القنبلة التي اطلقها بوجـــه عشيقته ميلادي، ان تثور هذه المرأة وتتخاذل ليتلذذ برؤية دموعها تذرف ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك ، بل هجمت عليه ودفعته بكلتـــا يديها في صدره بكل ما اوتيت من قوة. فما كان من الشاب الا ان امسك بطرف غلالتها الحريرية الناعمة ، محاولاً تهدئتها ، وكان من نتيجة ذلك ان تمزقت الغلالة، وانكشفت عن كتفين مستديرين ناصعي البياض . ووقف دارتنيان يمتع نظره بهذا المشهد الفريد ، واذا به ينتفض انتفاضة الذعر والدهشة ، فقـــد ابصر في مؤخرة كتفها الايسر شارة « زهرة الزنبق » ظاهرة بوضوح على ذلك الكتف الجميل الناصع ، وهي الشارة التي يسم بها الجلاد ، اللصوص والمجرمين .

وفطنت المرأة الى حركته ، وأدركت فوراً الباعث لهذه الدهشة ، وانه وقف على سرها ، هذا السر الخطير الذي لا يعرفه احد سواها . فانتصبت انتصابـــة الحيوان الجريح واستلت من صدرها خنجراً حاداً ، وانقضت على دارتنيان تحاول الفتك به ولكنه تمكن في اللحظة الحاسمة من امتشاق حسامه ليدافع به عن

نفسه ضد هذه الذئبة الثائرة ، وتمكن من ابعادها عنه بجهـد ، ثم راح يتراجع الى الوراء ، الى ان بلـــغ الباب الموصل الى حجرة الوصيفة كاتي ، ففتحه بسرعة خاطفة ، واندفع بقفزة واحـــدة حتى صار خارج حجرة ميلادي ، ثم بادر الى اغلاق الباب خلفـه واوصده بالمزلاج .

وسمع صوت ميلادي الهائجة تقذف من فمها الشتائم وتصيح باصوات منكرة وهي تضرب الباب براحتيها بشدة محاولة تحطيمه، ولكنها عجزت عن فتحه ..

وقدمت الوصيفة كاتي الى الفارس الشاب الذي فرّ من حجرة سيدتها حاسر الرأس ، كل مساعدة لتسهل فراره من المنزل . وفي اللحظة التي كان دارتنيان يتسلل فيها من المنزل ، كانت ميلادي تقرع الجرس بشدة وتطلب الى جميع الخدم بان لا يدعوا احـداً يخرج من المنزل وان يحكموا اغلاق الابواب !

٣٨

كيف حصل آتوس على معداته

•

وانطلق الفارس دارتنيان وهو على تلك الحالة ، يعـــدو في شوارع باريس ، في تلك الساعة المتأخرة من الصباح ، ويده على مقبض حسامه ، وظل يجري بلا توقف حتى وصل الى منزل صديقه الفارس آتوس .

وفتح له الباب الخادم غريمو ، فأصابه الذعر لمرأى دارتنيان على هذه الحالة ، واسرع يوقظ سيده آتوس ، الذي نهض من نومه ليرى صديقه الشاب في حالة يرثى لها ، فسأله :

ـ ماذا حدث ايها الصديق ؟! هل مات الملك ، ام هل قتلت نيافة الكردينال ؟؟

فأجابه دارتنيان :

ـ لا هذا ولا ذاك ايها العزيز .. سأقص عليك ما رأيته بأم عيني ، وهو بعيد عن التصديق ، لقد رأيت كتفها الجميل الناصع

البياض .. رأيته موسوماً بشارة زهرة الزنبق وكدت لا اصدق ما رأيت .

فامتقع وجه الفارس آتوس ، الذي كان يصغي الى حديث صديقه بكل حواسه ، وسأله :

— ومن هي هذه المرأة ؟!

— انها ميلادي او اللادي كلاريك بذاتها .

ثم اقترب دارتنيان من صديقه يهمس باذنه قائلاً .

— والآن اودّ ان اعرف؟ هل كنت تعتقد اعتقاداً جازماً، انها هي الاخرى قد ماتت فعلاً ؟.. اعني تلك الفتاة التي خنقتها وعلقتها فوق الشجره ، عندما حدثتني عنها في فندق اميان؟

وطفق دارتنيان يسرد اوصاف ميلادي او اللادي كلاريك بدقة واسهاب ، بينما راح آتوس يغمغم بصوت خافت بعبارات غير مفهومة ، وقد استند بظهره الى المدخنة وبدا وكأنه يفكر بمآسي الماضي ، وأخيراً رفع رأسه وقال :

— اذن لم تمت تلك الحية الرقطاء، وهي لاتزال على قيد الحياة تواصل نفث سمومها !

وقطع عليهما حديثهما ، حضور بلانشيه خادم دارتنيان ، يبلغ سيده وجود فتاة حسناء في منزله تنتظره .

واسرع الفارس دارتنيـــان الى منزله ، ليرى الوصيفة كاتي تبادره بقولها :

— لقد وعدتني بان تحميني من كل اذى ... اليس كذلك!

— اجل ياعزيزتي ... والان اخبريني ماذا حدث بعد ذهابي.

ـ لقد راحت تصب عليك جام غضبهـــا ، ثم تذكرت انك هربت عن طريق حجرتي ، فاتهمتني بانني متواطئة معك ضدها ، وانني سهلت لك الفرار ، فطردتني في الحال ، وهي تهددني باسوأ العواقب .

وفي هذه الاثناء وصل رفاقه الثلاثة الى المنزل ، واطلعوا على الحادثة ، فقرروا جميعاً مساعدة هذه الفتاة المسكينة والعمل على ابعادها عن باريس خشية أن يلحقها شر ميلادي .

وتبرع الفارس اراميس بتسطير رســالة خاصة الى السيدة « بواتراسي » لتتخذ من كاتي وصيفة خاصة لها ، وسلم الرسالة الى الفتاة ثم اقترب دارتنيان من الفتاة وانتحى بها زاوية وخاطبها وهو يربت على كتفها متودداً :

ـ والآن سنفترق ياعزيزتي ، وآمل ان نجتمع في المستقبل القريب .

وبعد ذلك قصد دارتنيان الى احد المرابين اليـهود ، ورهن الخاتم الماسي بمبلغ خمسماية دينار ، وتولى بمساعدة خادمه بلانشيه شراء معدات حربية له ولصديقه الفارس آتوس كما ابتاع جوادين اصيلين .

٣٩

مقابلة

●

واجتمع شمل الفرسان الاربعة مرة ثانية عند الساعة الرابعة ، في منزل آتوس ، وكان اهتمامهم بشأن المعدات اللازمة للحملة قد تلاشى نهائياً ، وحل محله الاطمئنان . وبانت على ملامح ابطالنا الطمأنينة والارتياح التام ، تخفي وراءها ما يخبئه كل منهم من مشاكله وامراره الخاصة . وفجأة دخل عليهم بلانشيه ، يحمل معه رسالتين الى سيده الفارس دارتنيان .

وكانت الرسالة الاولى ، عبارة عن ورقة زرقاء اللون مطوية بعناية ورشاقة ، فقفز قلبه سروراً وغبطة ، اذ خيل له انه عرف مصدر الرسالة . اما الرسالة الثانية فكانت كبيرة الحجم وعليها شعار نيافة الكردينال ريشليو .

واسرع دارتنيان يفض الرسالة الاولى آملاً ان يطلع على انباء سارة ، وقرأ فيها ما يلي :

« حاول ان تقوم بنزهة يوم الاربعاء القادم ، بين السادسة والسابعة مساء ، على طريق شايو ولا تنس ان تراقب العربات التي قد تمر امامك . واذا كنت تحب الاحتفاظ بحياتك وحياة الذين تحبهم ، فلا تتلفظ بكلمة واحدة او تقوم بحركة يشتم منهـــا انك عرفت الشخص الذي يضحي بحياته من اجل ان يراك ولو لحظة عابرة » ولم تكن الرسالة تحمل اي توقيع ظاهر ...

ولما عرض الرسالة على صديقه آتوس قال له :

ـ انها مكيدة مدبرة للايقاع بك فاحذر ..

فأجابه دارتنيان بقوله :

ـ يخيل الي انني اعرف صاحب هذه الكتابة ..

فبادره آتوس بقوله :

ـ ربما كانت الكتابة مقلدة تقليداً متقناً ... ولا تنس ان في الساعة السادسة والسابعة مساء تكون طريق شايو مقفرة تماماً ، وكأنك تتوغل في غابة ..

اجابه دارتنيان :

ـ اقترح ان نذهب جميعنا الى هناك ، ومن المؤكد اننا لن نؤكل لقمة سائغة نحن وخدمنا الاربعة واسلحتنا ؟..

فأيد بورتوس قول صديقه واضاف قائلاً :

ـ وستكون مناسبة طيبة لاستخدام معداتنـــا واسلحتنا الجديدة .

ووقف الفارس دارتنيان يقول لرفاقه :

ـ الساعة الآن هي الرابعة والنصف ،ولدينا متسع من الوقت

لنذهب الى طريق شايو لنكمن هناك ونراقب العربات المارة ، حتى ولو كانت مؤامرة ضدنا ، فبامكاننا ان نحبطها فوراً ..

فأبدى الرفاق الثلاثة موافقتهم على اقتراح صديقهم دارتنيان ، وقبل ان يغادر الفرسان منزل رفيقهم آتوس ، قال دارتنيان :

– لنقرأ الرسالة الثانية قبل ان نتحرك من هنا ..

وتناول الرسالة الثانية المختومة بخاتم الكردينال وفضها وراح يتلو ما فيها :

« ان السيد دارتنيان من حراس جلالة الملك في فرقة القائد دي زيسار مدعو للمثول في معسكر نيافةالكردينال ريشليو هذا المساء عند الساعة الثامنة .

قائد الحرس

لاهودينيير »

فصاح الفارس آتوس قائلا :

– هذا موعد يثير القلق والشكوك ، اكثر من الموعـــد الأول ..

فبادره دارتنيان بصوت هادىء :

– ساذهب الى الموعد الثاني عندما انتهي من الاول فهناك متسع من الوقت للموعدين ..

فاسرع اراميس يقول :

– اما انا فسأذهب الى الموعد الاول لأنالداعي اليه امرأة اما الثاني فسأتجاهله لا سيا وان الداعي اليه الكردينال ...

فصاح بورتوس :

ــ انني اؤيد وجهة نظر اراميس بدون تحفظ ..

فقال دارتنيان :.

ــ مهلا ايها الرفاق ، لقد تلقيت قبل اليوم دعوة مماثلة من القائد دي كافوا يدعوني لمقابلة نيافة الكردينال فاهملتها ، وكانت النتيجة ان تعرفت في اليوم التالي الى مصيبة كبيرة هي اختفاء جرمين بوناسيو .. ولهذا قررت هذه المرة ان اذهب لارى نيافته .

فبادره آتوس بقوله :

ــ اذا كنت قد عقدت العزم على الذهاب ... فاذهب .

فقال اراميس .

ــ وسجن الباستيل ؟ ..

اجاب دارتنيان :

ــ اعتمد على مساعيكم لاخراجي منه ...

فصاح الفرسان الثلاثة بصوت واحد :

ــ اطمئن ايها الصديق ، واننا نعاهدك على ذلك .

واردف آتوس يقول :

ــ حقاً لقد اشتقنا الى منازلة فرسان الكردينال والتحرش بهم وليكن هذا المساء عند الساعة الثامنة موعداً جديداً لاثارة المشاكل بيننا وبين فرسان نيافته ...

فاسرع بورتوس يقول :

ــ اما انا فسأذهب الى مقر القائد دي تريفيل لاعلم رفاقنا في الفرقة ، ليكونوا على تمام الاستعداد في الساعة الثامنة مساء ،

اما انتم فاعدوا الجياد والأسلحة ولتكن هذه الليلة المعركة الفاصلة بيننا وبين رجال الكردينال .

وخرج الرفاق الاربعة من منزل آتوس ، وامتطوا صهوات جيادهم متجهين اولاً نحو طريق شايو وعندما وصلوا الى قرب قصر اللوفر ، شاهدوا القـــائد دي تريفيل عائـداً من ضاحية سان جرمين ، فاوقفهم ليجزي لهم التهنئة والشكر على المعـدات الجديدة المجهزين بها .

وانتهز دارتنيان هذه المناسبة وتقدم من دي تريفيل ليطلعه على الرسالة التي تلقاها من الكردينال ، كما اطلعه على القرار الذي اتخذ بموافقة رفاقه ، وأقر القائد دي تريفيل خطة الرفاق الاربعـة بكامل تفاصيلها .

وأكد له انه في حال اختفائه ، فسيعمل المستحيـــل لمعرفة مكانه وانقاذه ..

وفي تلك اللحظة ، بدأت ساعة « السامارتين » تدق معلنـــة السادسة ، فأسرع الرفاق الاربعة للاستئذان من قائدهم وتابعوا سيرهم نحو طريق شايو ، وفي اقـــل من خمس دقائق ، كان الفرسان يتربصون قرب طريق شايو في المكان الذي حددتـــه الرسالة .

وبعد انتظار ربع ساعة تقريباً ، ظهرت عربة فخمة قادمـة من طريق « سيفر » . واحس الشاب دارتنيان بشعور خفي ينبئه بان هذه العربة تضم الشخص الذي ضرب له الموعد .

وما ان اقتربت العربة من الفارس الشاب حتى شاهد رأس

امرأة حسناء يطل من النافذة ويضع على فمه اصبعيه كأنـه يريد ان يرسل له قبلة في الهواء ... وانطلقت من صدر فارسنا الشاب صيحة فرح اذ كانت المرأة التي وقع بصره عليهـــا هي السيدة بوناسيو . وعلى الرغم من التعليمات التي أعطيت له في الرسالة ، الا ان دارتنيان لكز جواده محاولاً اللحاق بالعربة ،ولكنه لم يستطع اللحاق بها فقد اندفعت العربة تشق طريقها وغابت في الظلام .. واختفى معها كل اثر لجرمين بوناسيو .

وبينما هو في مطاردته للعربة ، تذكر الوصية الواردة في الرسالة : « .. بانه اذا كان يحافظ على حياته وعلى حياة من يحب فلا يحاول الاتيان بحركة ... » وما لبث ان توقف عن المطاردة ، وعاد الى رفاقه الفرسان الذين كانوا ينتظرون أوبته بفارغ صبر ... في حين كانت العربة تغذ في سيرها نحو باريس ..

والتفت دارتنيان الى رفاقه قائلاً :

لا شك انهم ينقلونها من سجن الى آخر ... فكيف السبيل الى انقاذها ؟ ..

وأجابه آتوس :

— دع ذلك للظروف .. واحمد ربك على انهـا لا تزال على قيد الحياة .

ودقت الساعة في هذه اللحظة ، السابعة والنصف ، فتذكر دارتنيان موعده مع الكردينال ، فأسرع مـع رفاقه الى شارع سان اونوريه ،ثم الى معسكر «الكردينال» حيث وجدوا اثني عشر

فارساً من فرقة الحرس الملكي موزعين في المكان بانتظار اشارة من زملائهم الفرسان ، فتولى آتوس توزيع هذه القوة الى ثلاث فرق تولى هو قيادة احدها، بينما ترك لكل من بورتوس واراميس الفرقتين الثانيتين .

اما دارتنيان فقد مضى لتوه الى مقر الكردينال ريشليو لمقابلته .

وفي قاعة الانتظار التي جلس فيها دارتنيان شاهد خمسة من فرسان الكردينال الذين يعرفونه تمام المعرفة ويعرفون انه هو الذي اصاب قائدهم دي جوساك بجرح بليغ في صدره . وعلى الرغم من نظرات الشرر التي راح الفرسان يحدجونه بها ، جلس بكل اعتداد واستهتار بينهم .

وما هي الا لحظات حتى حضر حاجب الكردينال واشار اليه ان يتبعه ، فقام دارتنيان من مقعده ولحق الحاجب الى قاعة فسيحة تركه على بابها ثم انسحب .

ورمى فارسنا الجريء بصره في ارجاء القاعة ، فشاهد في نهايتها رجلاً نحيفاً يجلس الى مكتب فخم يطالع كتابا ضخمـاً امامه دون ان يعره ادنى اهتمام لدى دخوله . .

وحسب الفارس الشاب ، للوهلة الاولى ، انه امام قاض يفحص ملفه . . ثم رأى الرجل يكتب سطوراً غير متعادلة فخيل اليه انه امام شاعر . . وبعد ثوان اغلق الرجل كتابه ثم رفع رأسه . . .

وهنا ادرك دارتنيان انه امام الكردينال ريشليو وجهاً لوجه . . .

٤٠

مقابلة مفزعة

●

كان الكردينال يتكىء بمرفقه على كتاب ساندآ وجنته ، وهو يتأمل الشاب بامعان .

كانت نظرته عميقة فاحصة نافذة حتى ان دارتنيان أحس بها تتسرب الى شرايينه كأنها الحمى . ومع ذلك فقد تمالك نفسه ، ووقف بشيء من الاعتداد ، وقبعته في يده ، ينتظر حديث نيافته .

وتكلم الكردينال اخيرآ فقال :

ــ هل انت ايها السيد من عائلة دارتنيان دي بيرن ؟

واجابه الفارس الشاب :

ــ نعم يا سيدي .

ــ ولكن يوجد عدة فروع من هذه العائلة في « تارب » وضواحيها ، فالى اي منها تنتمي ؟...

ــ انني ابن الرجل الذي قاتل في الحروب الصليبية تحت قيادة

الملك الكبير هنري ، والد صاحب الجلالة مليكنا الحالي .

ـ هذا ما حسبته . فهو اذن انت ، الشاب الذي غادر قريته منذ سبعةاو ثمانية أشهر ليبحث عن الثروة والمجد في باريس ؟

ـ نعم يا صاحب النيافة !

ـ ولقد مررت في طريقك بقرية مينغ ، حيث وقعت لك حادثة ما .. انني لا اذكر ما هي .. ولكنها حادثة ما ...

وقال دارتنيان مقاطعاً .

ـ اليك ما وقع لي يا صاحب النيافة ..

وقاطعه الكردينال بابتسامة كأنها تقول انهيعرف القصةجيداً وتابع :

ـ لا فائدة من سردها .. لقد كنت تحمل رسالة توصية الى السيد دي تريفيل اليس كذلك ؟

ـ نعم يا صاحب النيافة ، ولكن وقع لي في حادثـــة مينغ تلك ان ..

وقاطعه نيافته :

ـ ان فقدت الرسالة منك .. نعم انني اعلم ذلك . ولكن السيد دي تريفيل انسان له نظريته الصائبة ، فما ان شاهدك لاول مرة حتى الحقك بفرقةدي زيسار على أمل ان ينقلك بين يوم وآخر الى فرقة الفرسان .

وقال دارتنيان :

ـ ان صاحب النيافة مطلع تماماً على قصتي ..

ومضى الكاردينال يقول :

ـ ومنذ ذاك الوقت حدثت لك امور كثيرة ، مثل ذهابك ذات يوم للنزهة في « الشارترو » بينما كان يجدر بك ان تكون غير هناك ، ثم قمت مرة اخرى برحلة مع اصدقائك . . وقد توقفوا هم في الطريق بينما تابعتها انت . . لقد كان لك على ما يبدو اعمال في انكلترا !.

وقال دارتنيان بشيء من الامتعاض :

ـ ولكني يا صاحب النيافة كنت ذاهباً . .

وقاطعه الكاردينال :

ـ كنت ذاهبا للصيد في وندسور . . أو في مكان آخر . . هذا لا يخص احداً غيرك ، انا ادرك ذلك ؟ ولكن اذا كنت مطلعا على كل هذه الامور فلان مهمتي ان اعرفها . وعند عودتك استقبلتك شخصية بارزة ، وانني ارى بسرور انك لازلت تحتفظ بالهدية التي قدمتها لك .

واختطفت يد دارتنيان الى الجوهرة التي اعطته اياها الملكة وأدار وجهها الى الداخل ولكن بعد فوات الاوان .

وتابع الكاردينال قائلاً :

ـ وفي اليوم التالي تلقيت زيارة « دي كافوا » ورجاك ان تمرّ على قصري ... ولكنك لم تأتِ وكان هذا خطأ فادحاً منك .

ـ ولكني خشيت يا مولاي ان اكون موضع غضب نيافتك

ـ آه . . ولكن لماذ ، يا سيدي . . ؟ ألانك قمت بتنفيذ أوامر رؤسائك بشجاعة وذكاء يعجز عنها اي شخص آخر غيرك . . أمن اجل هذا كانت ستحل عليك ملامتي . . في حين انك تستحق

المديح ..؟

ان الاشخاص الذين يعصون الاوامر هم الذين ينالون عقابي .. وليس الذين مثلك يطيعون .. جيداً . والدليل على ذلك تذكر تاريخ اليوم الذى طلبت منك فيه انتزورني . ابحث في ذاكرتك عما حدث مساء ذاك اليوم .

وارتعدت فرائص دارتنيان .. فقد كانت تلك الليلة هي الليلة التي أختطفت فيها عشيقته مدام بوناسيو . وتذكر انه قبل نصف ساعة فقط مرّت من امامه المرأة المسكينة .. ولعلها كانت مقودة بنفس القوة الجبارة التي اختطفتها يومذاك .

ومضى الكاردينال قائلاً :

— واخيراً .. لما كان قد مضى عليّ فترة ليست بالقصيرة لم اسمع خلالها باخبارك ، فقد شئت ان اعرف ماذا تفعل .. على كل ، فلا شك انك لاحظت ان شيئاً خفياً كان يسيرك في اعمالك . واحب ان اقول لك ان ذلك ليس قوة غيبية ، وانما هو تبعاً لخطة قد وضعتها لك انا ..

وهنا كانت الدهشة قد سيطرت كلياً على دارتنيان ، في حين اضاف الكاردينال :

— لقد شئت ان اعرض لك الخطة في اليوم الذي طلبت منك فيه ان تزورني ، ولكنك رفضت زيارتي . من حسن الحظ ان هذا التأخير لم يفقد شيئاً كثيراً من اهمية الموضوع ... والآن سوف تستمع الي .. اجلس هنا امامي ياسيد دارتنيان .. فانك شاب نبيل ولا يجوز ان تستمع اليّ ، وانت واقف ..

واشار الكاردينال باصبعه الى احد المقاعد ، فاستقر عليه دارتنيان وهو في غاية الذهول بينما تابع الكاردينال قائلاً :

ـ انك شجاع يا سيد دارتنيان ، وذكي في الوقت نفسه ، وانني اعجب بالاشخاص الاقوياء العقلاء ... ولذلك فان علي ان ابلغك ان لك اعداء اقوياء ، وانك اذا لم تأخذ حذرك منهم فسوف يقضون عليك ..

وغمغم الفارس الشاب :

ـ وانهم قادرون على ذلك بكل سهولة يا مولاي ، انهم اقوياء ذو سلطان ، اما انا فوحيد ...

ـ هذا صحيح .. ولكن على الرغم من انك وحيد فقد استطعت حتى الآن ان تفعل اشياء كثيرة ، ولست اشك انه يمكنك ان تفعل اشياء اكثر ، ولكنك بحاجة الى من يسدد خطواتك في مهنة المغامرة التي اخترتها ، واذا لم اكن مخطئاً ، فانك قد جئت باريس يحدوك امل الحصول على الثروة والمجد..

وقال دارتنيان :

ـ انني في سن يعيش المرء فيها على الآمال ..

ـ ليس هناك من آمال لا يستطيع ان ينالها صاحب العزيمة .. اسمع ايها الفارس الشاب.. ما رأيك في الانخراط في سلك حرسي ..؟

وهتف دارتنيان بذهول :

ـ آه .. يا مولاي ..!

ـ انك تقبل العرض .. أليس كذلك ؟

ورده دارتنيان بشيء من الحرج :
ـ يا مولاي ...
وصرخ الكردينال بدهشة :
ـ ماذا .. هل ترفض ؟
ـ اني انتمي الى حرس جلالة الملك يا مولاي . وليس لي الحق ان لا اكون راضياً عن وضعي ..
ـ ولكن فرقة حرسي الخاصة على ما اعتقد ، هي في نفس الوقت فرقة حرس لجلالته ... فطالما ان المرء يعمل في فرقة فرنسية فانه يخدم الملك !..
ـ يا مولاي .. ان نيافتك قد اساء فهم أقوالي ..
ـ انك تريد تبريراً لعملك .. أليس كذلك ؟ حسناً اني اعرف قصدك . فانت تملك هذا التبرير .. برر عملك امام الرأي العام اني أتحت لك فرصة للتقدم .. وبرر العمل امام نفسك ... بأنك بحاجة الى الحماية ياسيد دارتنيان .. اذ لا يخفى عليك ان لدي عدة شكاوى ضدك .. ولا اظنك ستقضي ايامك ولياليك كلها في خدمة الملك فقط ..
واحمر وجه دارتنيان بينما تابع الكردينال قائلاً وهو يضع يده على حزمة من الاوراق امامه :
ـ ان لدي ملفاً خاصاً بك ... ولقد شئت ، قبل ان اطلع عليه ، ان اتحدث اليك .. انني اعرفك رجلاً حازماً عاقلاً ... وان خدماتك يمكنها ، بدلاً من ان تقودك الى المهاوي ، ان تعود عليك بالخير الكثير ... هيا فكر يا صديقي واتخذ قرارك ..

وقال دارتنيان :

– لقد غمرتني بعطفك يا مولاي ، وان سمو شعور نيافتك نحوي يجعلني اشعر كأنني صغير جداً ... ولكن ما دمت يامولاي قد سمحت لي ان اتحدث اليك بصراحة ...

وتوقف دارتنيان لحظة عن متابعة حديثه .. فبادره الكردينال يستحثه على الكلام بقوله :

– تكلم ...

فعاد دارتنيان يقول :

– اود ان اصارح نيافتك ان جميع اصدقائي هم من فرسان فرقة حرس جلالة الملك ، بينما شاءت الاقدار والمصادفات الغريبة ان يكون جميع اعدائي ينتمون الى فرقة نيافتك .. فاذا قبلت ما تعرضه عليّ والالتحاق بحرس نيافتك ، اكون قد خسرت مودة اصدقائي في فرقة حرس الملك ، ولم افز بصداقة الفرسان الآخرين.

فنظر الكردينال الى الفارس الشاب نظرة استعلاء وسخط وقال :

– وهل يتبادر الى ذهنك ايها الفارس ، انني اعرض عليك عملاً لا تستحقه او ينقص من كرامتك ؟

اجابه دارتنيان محاولاً الاحتفاظ برباطة جأشه وهدوئه :

– ان عطف نيافتك يشملني دائما ، وارى نفسي غير جدير بمكارم نيافتك . وبما ان حملة حصار لاروشيل ستبــدأ قريبا ، وسأقوم بواجبي فيها ، فأرجو عندما اعود من هذه الحملة ، ان اكون قد قمت باعمال استحق عليها عطف نيافتك وحمايته ...

فقاطعه الكردينال بحدة ونفاد صبر :

ـ اذن فانت ترفض العمل في خدمتي ايها الشاب؟! فابق حيث انت ، وتذكر جيداً ان في اللحظة التي اتخلى بها عن حمايتك ورعايتك فحياتك لن تساوي في نظر اي كان درهما واحداً .

فاحتقن وجه الفارس الغاسقوني غضباً واجابه بعنجهية الغاسقونيين قائلاً :

ـ اعرف ذلك جيداً ... ولن انساه .

فبادره الكردينال محاولاً تخفيف حدة غضبه بقوله :

ـ وبالاضافة الى ما قلته لك ، لا تنسَ ايها الفارس الشاب ، انني انا الذي سعيت وراءك ، وفعلت كل ما في وسعي لاجعلك في خدمتي ... ولكنك لم تقدر مساعيّ وبلغ من استهتارك ،انك قابلت اهتمامي بالرفض التام .

اجابه دارتنيان مبدياً للكردينال كل احترام وخضوع :

ـ لقد اسأت فهم قصدي يا سيدي الكردينال فانا لا يمكن ان ارفض رعايتك وعطفك،وثق بانني سأحفظ لنيافتك كل الاحترام والاخلاص مهما تقلبت الظروف .

ونهض الكردينال اشارة انتهاء المقابلة وقال :

ـ اذن سنلتقي بعد حملة لاروشيل ايها الفارس دارتنيان . وسأتتبع خطواتك واعمالك عن كثب في اثناء هذه الحملة ، لانني سأكون هناك أراقب ما سيجري .

فقابل الفارس عبارة الكردينال الاخيرة بانحناءة من رأسه وغادر القاعة بخطوات ثابتة ، وخرج من المكان الذي دخل منه ، وفي اسفل الدرج وقع نظره على رفاقه الفرسان الثلاثة مع عدد من

زملائهم ينتظرون عودته وهم على احر من الجمر . واسرع خادمه بلانشيه يبلغ الفرسان الاخرين الذين احاطوا بقصر الكردينال استعداداً للطوارىء ، بأن سيده دارتنيان قد خرج من قصر الكردينال سالماً ، وطلب اليهم العودة الى ثكناتهم .

وعندما عاد الفرسان الاربعة الى منزل آتوس ، راحوا يمطرونه بالاسئلة والاستفسارات عن الغاية التي استدعاه من اجلها الكردينال فاكتفى دارتنيان بالقول ان نيافة الكردينال عرض عليه الالتحاق بفرقة حرسه الخاصة برتبة عالية ، الا انه رفض رفضا باتاً عرض الكردينال ، واضاف بأن هذا التصرف قد اغضب نيافته كثيراً .

وهنا صاح رفيقاه بورتوس وأراميس في صوت واحد :

ــ حسناً فعلت ، برفضك عرض الكردينال .

ولما خلا الجو للفارس آتوس ، التفت الى رفيقه الشاب دارتنيان وقال :

ــ اعتقد انك اخطأت في تصرفك مع الكردينال ، اذ كان عليك ان تقبل ما عرضه عليك . .

فابتسم دارتنيان وقال :

ــ ان هاتفا في داخل نفسي ينذرني بانني سأتعرض لمشقات واخطار عديـــدة .

وقضى الفرسان الاربعة طيـــلة اليوم التالي في حزم معداتهم وامتعتهم استعداداً للسفر في حملة لاروشيل ، وقصد فارسنا الشاب الى قصر مواطنه القائد دي تريفيل لتوديعه لمناسبة سفره .

وفي المساء انتظم عقد الفرسان الاربعة مع عدد من زملائهم

من فرقة دي تريفيل ودي زيسار ، وقضوا الليلة في شرب ومرح حتى ساعة متأخرة من الليل .

وفي الصباح الباكر ، عندما انبعث صوت النفير داعيـــاً الفرسان والجنود للاستعداد ، اسرع الفرسان الاربعة مع رفاقهم الى الاحتشاد في صفوف متراصة منظمة امام قصر اللوفر ، حيث وقف جلالة الملك لويس الثالث عشر وجلالة الملكة على شرفـــة القصر ، يشاهدان استعراض الفرق الذاهبة الى بلدة لاروشيل ، وتابعت هذه الفرق سيرها المنظم مخترقة شوارع باريس ، المكتظة بالجماهير التي بكرت في الحضور لتحيي الجنود البواسل .

وقد وقف بين هذه الجماهير امرأتان تحملان مناديل حريرية بيضاء ، يشرن بها الى مكان معين ، وهاتان المرأتان هما : مدام كوكينار عشيقة بورتوس ، والوصيفة كاتي التي جاءت خصيصـــاً لتلقي نظرة وداع على فارسها الحبيب دارتنيان الذي كان يمر امامها في تلك اللحظة مع فرقته .

وعندما وصل الفارس الشاب الى ضاحيـــة سانت انطوان ، التفت ليلقي نظرة استبشار على سجن الباستيل القائم الى يمينه ، ولما كانت انظاره مركزة على السجن ، فلم يـــلاحظ عدوته ميلادي او اللادي كلاريك ، التي كانت ممتطية صهوة جوادها ، وتشير باصبعها الى رجلين من الاشرار ، كانا على مقربة منها ، مالبثا ان حثا الخطى ليتأكدا من انه الشخص الذي قصدته ميلادي .

ثم ما لبثت ان التزت بطن جوادها وتوارت عن الانظار ، بينما لحق الرجلان الشريران بفرقة الفارس دارتنيان ، وعند خروجهما من بوابـــة سانت انطوان ، امتطيا جوادين مجهزين كانا بانتظارهما هناك .

٣

٤١

حصار لاروشيل

●

يعتبر حصار لاروشيل من ابرز الحوادث السياسية التي وقعت ابان عهد الملك لويس الثالث عشر ، ومن اهم الاعمال الحربية التي قام بها وزيره الكردينال ريشليو .

ولذا وجب علينا ان نذكر لمحة خاطفة عن تفاصيل هذه الحملة الحربية لعلاقتها الوثيقة بوقائع قصتنا .

فقد كانت اهداف الكردينال السياسية، عندما بدأ في حصار لاروشيل ، بعيـــدة المدى ، يضاف اليها المرامي الخاصة ، التي كانت بالنسبة لنيافته ، توازي المطامع السياسية .

ففي عهد الملك هنري الرابع ، خصص للهيكنوت ـ البروتستانت ـ عدد من المدن الشمالية ، كأماكن امــانٍ يعيشون فيها احراراً ويمارسون طقوسهم الدينية ، الا ان هذه المدن استعيدت منهم الواحدة تلو الاخرى ، عندمــا اعتلى الملك لويس الثالث عشر

العرش ، وكانت بلدة لاروشيل الواقعة على الشاطىء المواجه لبلاد الانكليز ، آخر معقل حصين لمعتنقي مذهب « كالفن » .

وكانت قوات البروتستانت المدافعة عن لاروشيل ، مؤلفة من خليط عجيب من جميع الجنسيات والنزعات ، فالتحق بهذه القوات ، عدد من الاسبان والانكليز والايطاليين الناقمين على سيطرة البابا ، يضاف اليهم المغامرون وجنود المرتزقة من جميع شعوب اوروبا .

وقـــد اتخذت لاروشيل اهمية كبرى ، بعد سقوط معاقل البروتستانت الاخرى وتدميرهـــا على ايدي القوات الملكية الـكاثوليكية ، خاصة وانها الميناء الوحيد المفتوح بوجه الانكليز للتسلل عن طريقه الى الاراضي الفرنسية . فاذا سقطت بيد قوات الملك لويس الثالث عشر ، سدت الثغرة البحرية الوحيدة في وجه انكلترا ، عدوة فرنسا التقليدية ، ويكون الكردينال ريشليو قد اتمّ بذلك العمل العظيم الذي بدأته جان دارك واستأنفه فيما بعد الدوق دي كيز .

وفي هـــذا الجو الغامض ، وضع الكردينال ريشليو خططه الحربية ، في حصار لاروشيل ، آملاً بالاستيلاء عليهـــا ، والقضاء على آخر حصن للبروتستانت في فرنسا الكاثوليكية .

وكما اشرنا في السابق ، فان الكردينال كان يخفي بالاضافة الى اهدافه وخططه السياسية ، مآرب شخصية بحتة ، تتعلق بشؤونه الخاصة .

وقد تبين مما تقدم ان نيافته متيّم بحب الملكة آن دوتريش

وانه قد ناصبها العداء ، عندما علم انهـــا مغرمة بذلك النبيـــل الانكليزي الدوق دي بو كنغهام .

فكان طبيعياً ان يسعى الكردينال للثأر لنفسه من الملكة ومن عشيقها الدوق الانكليزي . واغتنم الكردينال ريشليـــو مناسبة حصار لاروشيل ، لا لينقذ فرنسا من اعدائهـا فحسب ، بل ليتخلص هو ايضاً من مزاحم عنيد وقوي . وتأكد الكردينال انه اذا شن حرباً على انكلترا ، فكأنه يحارب الدوق دي بو كنغهام بالذات ، وبالتالي اذا تمكن من اخضاع انـكلترا في اعين اوروبا ، فمعناه اذلال الدوق دي بو كنغهام في اعين الملكة آن دوتريش .

وكان الدوق دي بو كنغهام النافذ الاول في بريطانيا وكان يتفق مع الكردينال في هذه الناحية ، فهو ايضاً يتمنى ان يثأر لوطنـه ولحبـــه من الكردينال عن طريق سحق القوات الفرنسية الكاثوليكية ، التي تهاجم ميناء لاروشيل المعقل الاخير للبروتستانت ، والدخول الى باريس مكللاً باكليل الغار .

وبذلك ينحصر الصراع العنيف الدائر بين اقوى دولتين في اوروبا في ذاك الحين ، بين رجلين عاشقين ، يتنافسان علـى قلب الملكة آن دوتريش .

وسبق الدوق دي بو كنغهام عدوه الالد وشنّ حربا خاطفة على المعاقل الفرنسية ، فقد فاجأ عدوه بقواته الانكليزية التي ظهرت قرب جزيرة « ري » والمؤلفة من ثمانـــين سفينة حربية وعشرين الف مقاتل ، وتمكن من اخذ القوات الفرنسية على حين غرة ، واستطاع بعد معركة دامية ان ينزل بقواته على الشاطىء الفرنسي ويستولي

على جزيرة « ري » المواجهة لميناء لاروشيل .

ولنذكر بطريقة عابرة ان هذه المعركة قد اسفرت عن مقتل الكونت دي شانتال ، الذي ترك طفلة يتيمة في الشهر الثامن عشر من عمرها ، عرفت فيما بعد باسم مدام دي سافيني الاديبة الفرنسية المعروفة .

واضطر قائد الحملة الفرنسية الكونت دي تواريك ان ينسحب الى قلعة سان مارتن مع الحامية ؛ وقد عجلت هذه الهزيمة في جعل الكردينال يسرع في اتخاذ قرار حاسم ، بارسال نجدات اضافية على جناح السرعة ، لتعزيز الحملة الفرنسية التي تحاصر مدينـــة لاروشيل وترابط في بعض المعاقل والحصون المجاورة للميناء ... وكان في جملة القوات الاضافية التي ارسلت بسرعة الى الخطوط الامامية فرقة فارسنا الشاب دارتنيان .

ونجح الكردينال باقناع الملك بان يشخص بالذات الى الجبهة ، ليشرف على العمليات الحربية ، وفعلاً غادر جلالته باريس قاصداً لاروشيل على الرغم من سوء حالته الصحية ، ولما وصل الى بلدة فيلاروى اصيب بحمى قوية ، اضطرته للتوقف عن متابعة سيره الى لاروشيل .

واجتمع الفرسان الثلاثة آتوس وبورتوس واراميس معاً لكونهم من فرقة الحرس الملكي المكلفة بملازمة الملك وحراسته ، امّـــا دارتنيان الذي لحق ، عند تعبئة الحملة ، بفرقته السابقة الـــتي يقودها دي زيسار ، فقد اضطر ان يفترق مرغماً عن رفاقه الفرسان الثلاثة ، ويواصل سيره مع فرقته الى لاروشيل .

وكان لهذا الفراق الاضطراري بين دارتنيان ورفاقه اثره السيء في نفس فارسنا الشاب ، فزادت هواجسه وقلقه .

وفي العاشر من شهر ايلول عام ١٦٢٧ ، كان الدوق دي بوكنغهام مع قواته الانكليزية ، ما تزال مسيطرة على جزيرة « ري » ، وتشدّد حصارها على معقل سان مارتن وحصن دي لابري ؛ وكانت المعارك الحربيــة حول لاروشيل قــد استؤنفت منــذ يومين ، حول احد المعاقل المنيعة التي كان قد شيدها الدوق انغوليم قرب المدينة ، وكانت فرقة القائد دي زيسار ترابط في مينيم . وفي ذلك المكان ، كان دارتنيان يقضي معظم اوقاته في الوحدة والتأمل ، وقلما يختلط برفاقه رجال الحرس . وذات ليلة اعتكف بخيمته ، واطلق العنان لافكاره ، مستعرضاً اوضاعه بعد ان مرّ على قدومه الى باريس عامين كاملين . فوجد نفسه انه لم يحقق ما كان يصبو اليـه كل شاب طموح ، من ثروة وحب ... لقد انغمس في الشؤون العامـة والسياسة ، وكسب عداوة رجل قوي رهيب ، يمكنه ان يسحقه ساعة يشاء ، الا وهو الكردينال ريشليو . وهناك عدو آخر ، كان في نظره اقل شأناً وخطراً من الاول وهو ميلادي ، او اللادي كلاريك ، واحس بدافع خفي يهتف به بان يحذر منها .

ومقابل هــذه العداوات الخطرة ، كسب عطف الملكة آن دوتريش وحمايتهــا ... وكان عطف الملكة في ذاك الوقت ، مدعاة للحذر والحيطة . ولما وصل بتأملاته الى هذا الحد شعر بضيق يطبق على صدره ، فأسرع بالخروج من خيمته ، ليقوم بنزهة قصيرة

في الهواء الطلق ، وسار في الطريق الوحيـــد المقفر الموصل من المعسكر حتى قرية « انغوتان » ويبدو انه قطع مسافة طويلة دون ان يشعر ، ولم ينتبه لنفسه الا والخيوط الاخيرة لاشعة الشمس قد غابت وراء الافق ... وفي تلك اللحظة بالذات حانت منه التفاتة الى الجهة اليمنى من الطريق ، فخيل له انه يرى فوهة بندقية مصوبة نحوه من وراء سياج قريب !

ولما كان دارتنيان حاد البصر ، سريع الادراك ، فقد علم في الحال ان وراء هذه الفوهة المصوبة اليه كميناً لاغتياله ، فقرر ان يعمل بسرعة فائقة وان ينجو بنفسه من هذا الكمين ، بان يركض باقصى سرعته باتجاه المعسكر . وما ان استدار وهمّ بالجري ، حتى واجهته فوهة بندقية اخرى مصوبة اليه من خلف صخرة مرتفعة ، ورآها تنخفض شيئاً فشيئاً باتجاهه ، وكأن حاملها يحكم تسديد الهدف ، وما ان رآها دارتنيان تتركز نحوه ، حتى انبطح ارضاً ليتفادى الرصاص ، وفي اللحظة التي لامس جسمه التراب ، سمع ازيز الرصاص يمر من فوق رأسه ، ولم يضع الفارس الشاب وقته ، بل انتصب واقفاً وراح يعدو باقصى سرعته باتجاه المعسكر ، بينما انطلقت في اثره رصاصة ثانية من فوهة البندقية الاخرى ، فأخطأته أيضاً ... واستمر دارتنيان في ركضه نحو المعسكر ، وفي هذه الاثناء تمكن الرجل الاول من تعبئة بندقيته وصوبها هذه المرة بدقة واحكام نحو الفارس الهارب ، واطلقها فاصابت قبعة دارتنيان واطارتها عن رأسه ، فأسرع يلتقطها وهو في عدوه ، وتمكن من الوصول سالماً الى المعسكر وهو على آخر رمق .. ودخل دارتنيان

خيمته وراح يفكر بهذه المحاولة ... فظنّ اول الامر ان بعض جنود البروتستانت قد تسللوا داخل الخطوط الفرنسية ونصبوا هذا الكمين للفتك بالجنود الفرنسيين غدراً ، الا انه عندما فحص الثقب الذي احدثته الرصاصة في قبعته، تأكد له انه كان ضحية كمين لا يستبعد ان يكون من تدبير الكردينال او ميلادي .

وقضى الفارس الشاب ليلته عرضة لاحلام مزعجة حرمته لذة النوم والراحة .

وفي صباح اليوم التالي ، علم ان الدوق دورليان القائد العام للحملة ، قرر القيام بجولة تفتيشية ليتفقد القوات التي وصلت مؤخراً من باريس .

وكانت فرقة القائد دي زيسار التي ينتمي اليها الفارس دارتنيان ، اسرع الجميع الى الاستعداد . وعندما وصل الدوق دورليان ، ادت له الفرقة بكاملها التحية وقرعت الطبول ، ثم تولى القائد دي زيسار تقديم كبار الضباط للدوق وبعد ان انهى دي زيسار من تقديم الضباط ، انهمك بحديث خاص مع القائد العام ، ثم التفت نحو دارتنيان الذي كان يقف في مقدمة فرقته ، واشار اليه ان يقترب ، فاسرع الفارس الشاب يلبي النداء ... ولما اصبح على مقربة من قائده همس دي زيسار باذنه قائلاً :

ـ ان الدوق يطلب بعض الرجال البواسل للقيام بمهمة خطرة ... وقد لفت نظر سعادته اليك ، واكدت له انك خير من قام بمثل هذه المهمة .

فانحنى دارتنيان وقال :

– شكراً لك يا سيدي القائد على هذه الثقة .

واردف القائد دي زيسار يقول :

– ان قوات البروتستانت المرابطة بداخل لاروشيل تمكنت في الليل الماضي من شن هجوم محدود، استولت في نهايته على حصن، كانت القوات الملكية الفرنسية قد احتلته منذ يومين . والمهمة المطلوب اتمامها ، تنحصر في القيام بعملية استكشاف حول ذلك الحصن لمعرفة عدد الحامية الانكليزية المرابطة فيه .

وهنا تدخل الدوق بالحديث لاول مرة وقال .

– يلزمنا للقيام بهذه المهمة ثلاثة او اربعة من الفدائيين الاشداء، بقيادة رجل عرف بالبأس ومتانة الاعصاب .

فبادره القائد دي زيسار بقوله :

– اما الرجل الكفؤ لتولي قيـــادة هــذه الحملة الصغيرة ، فها هو امامك يا مولاي ...

مشيراً الى الفارس دارتنيان ، ثم اردف يقول :

– اما الفدائيون الاربعة ، فيمكن اختيارهم من بين حرس الفرقة الاشداء ، واری ان نترك امر اختيارهم لدارتنيان .

وهنا امتشق الفارس دارتنيان حسامه والتفت الى رفاقه قائلاً :

– اريـــد اربعة من الرجال الاشداء لا يترددون في بذل حيـــاتهم .

فاسرع الى تلبية ندائه اثنـــان من رفاقه رجال الحرس ، كما انضم اليهما على الاثر ، اثنان من الجنود العاديين ، لم يكن الفارس الشاب قــد رأى لهما وجهاً من قبل ، ولم ير في مظهرهما ما يدعو

الى الريبـــة او الطعن في شجاعتها ، لذلك قبل تطوعهما .

وسار دارتنيان مع رجاله الاربعة باتجاه ذلك الحصن الصغير ، متخذين من الخنادق الكثيرة المحفورة حول المدينة ، ستاراً يحميهم من رصاص اعدائهم ، وسار رفيقاه من رجال الحرس الى جانبيه ، اما الجنديان فكانا يتبعانهم على بعد خطوات قليلة . ولما اصبح دارتنيان على بعد مئة خطوة من ذلك الحصن ، توقف قليلاً مع رفيقيه ، والتفت الى الوراء ، فلم يجد اثراً للجنديين ، فحمل تصرفهما على محمل الخوف ، ولم يعرهما كبير اهمية . وتابع سيره مع رفيقيه باتجاه الحصن ، ولما اصبحوا على مسافة ستين خطوة من الحصن ، بدا لهم وكأنه خالٍ من الجنود ، اذ لم تصدر من داخل الحصن اية حركة تدل على وجود حامية فيه ، مما حدا بهم الى الاعتقاد ان الانكليز قد جلوا عنه خوفاً من هجوم معاكس تشنه القوات الفرنسية لاسترداده .

وما ان خطوا بضع خطوات ، حتى ارتفعت من ابراج الحصن سحابة من دخان عقبها ازيز الرصاص الذي راح يتساقط حولهم ، فارتدوا على اعقابهم ، بعد ان انبطحوا ارضاً ليتفادوا الطلقات ، وقد تحققوا ان في داخل الحصن حامية وفيرة العدد . وقبل ان يتمكنوا من الالتجاء الى الخندق ، سقط احدهم ، بعد ان اصيب برصاصة في ظهره ، فانحنى دارتنيان ليحمله الى الخندق ، ودوّى في تلك اللحظة ازيز طلقين ناريين صادرين عن الجهة المقابلة للحصن ، واصابت رصاصة رأس الجريح فحطمته اما الثانية فمرت من فوق رأس دارتنيان واصابت صخرة قريبة .

فرفع الفارس رأسه ليتبين مصدر الرصاص ، وتذكر في الحال تصرفات الجنديين المريبة واختفائهما فجأة ، ثم المحاولة التي تعرض لها ليلة امس ... فادرك ان الخطر يحيق به من الجانبين ؛ فرمى بنفسه على الارض الى جانب رفيقه المحتضر ، متظاهراً بانه اصيب اصابة مميتة .

وفجأة شاهد رأسي الجنديين ، يرتفعان من وراء أكمة ، تبعد ثلاثين خطوة عنه ، ثم رآهما يتجهان نحوه ...

وادرك دارتنيان ، ان هذين الجنديين لم ينضما الى القوات ، الا لاغتياله بدافع من اعدائه الاقوياء .

وشاء حسن حظ دارتنيان ان يهملا تعبئة بندقيتيهما ، فاقتربا منه بلا حذر ، يريدان الاجهاز عليه بطعنة من حربة البندقية . ولما اصبحا على بعد عشر خطوات منه ، انتصب فجأة واقفاً على قدميه ، ممتشقاً حسامه ، وانقض عليهما ، فذعرا لهذه المفاجأة وحاولا الفرار من وجهه ، باتجاه الحصن ، وتمكن احدهما من الافلات ، وراح يعدو صوب معسكر الاعداء ، واذا برصاصة من حامية الحصن تصيبه في كتفه فتجندله ، فيسقط على الارض ، اما رفيقه الآخر ، فقد اضطر ان يدافع عن نفسه فاشتبك الاثنان في معركة ضارية لم تدم سوى لحظات قليلة ، فقد تمكن دارتنيان من توجيه طعنة قوية من سيفه ، اخترقت فخذ الرجل ، وجعلته ينطرح ارضاً والدم ينزف من جرحه ، فأسرع الفارس يضع نصل سيفه على رقبته محاولاً الاجهاز عليه ، فنظر اليه الشقي نظرة استرحام وتوسل وقال :

ـــ اذا عفوت عني يا سيدي ، سأعترف لك بكل شيء ...

فتردد دارتنيان قليلاً وقال :

ـ هيا قل من الذي دفعك لاغتيالي ؟

اجابه الشقي الجريح :

ـ امرأة لا اعرفها ، يطلقون عليها اسم « ميلادي » ورفيقي الاخر هو الذي تفاوض معها ، وفي جيبه الآن رسالة منها لم يطلعني على مضمونها .

ـ وكم تقاضيت من المال مقابل اشتراكك في هذه الجريمة ؟

ـ خمسون ديناراً .

ـ انه مبلغ ضخم بالنسبة لافاق مغامر مثلك ... والآن اذا كنت تريد ان اعفو عنك ، فما عليك الا ان تزحف على بطنك ، لتحصل على الرسالة من جيب رفيقك الجريح .

فرفع الشقي يده متوسلاً وقال :

ـ رحماك ياسيدي انني جريح ، ولا يمكنني ان اتفادى رصاص حامية الحصن ، وانني اتوسل اليك باسم تلك المرأة التي تحبها والتي ما زالت على قيد الحياة .

فدهش دارتنيان وسأله :

ـ ومن انبأك بانني احب امرأة ، وانني اعتقد انها ميتة ؟

ـ علمت ذلك من رفيقي ، ومن مضمون الرسالة التي تلقاها من السيدة المدعوة ميلادي .

ـ وهذا ما يزيدني رغبة في الحصول على الرسالة ، هيا سر امامي .

وهنا انهضه دارتنيان وجعله يسير متوكأ على بندقيته ، بينما

مشى خلفه ... وسار الرجل متخاذلاً والدم ينزف منه ، فأشفق عليه دارتنيان ، فأعفاه من هذه المهمة ، قائلًا :

ــ سأريك الفرق بين رجل شهم نبيل ، وبين رجل غادر لئيم ... هيا ابق انت هنا ، وسأذهب انا بمفردي .

وتمكن فارسنا الشاب بمهارته وقوة اعصابه من ان يتفادى الرصاص الذي اطلق عليه ، ووصل الى الجريح الآخر ، وكانت اصابته خطرة ، فرأى ان يحمله على ظهره ، ليكون ترساً يحميه من الرصاص ، وسار به مسرعاً باتجاه الخندق ...

وفي اثناء سيره شعر بهزة خفيفة ، فعلم انها رصاصة اصابت الرجل الجريح الذي يحمله ، واخيراً تمكن من الوصول سالماً الى الخندق فطرحه الى جانب رفيقه الجريح ، وكان قد لفظ انفاسه الاخيرة بعد اصابته بالرصاصة الثانية ...

وبعد ان استراح دارتنيان بعض الوقت راح يبحث في جيوب الرجل الميت فعثر على محفظة نقود تحتوي على جزء من المكافأة التي تقاضاها من ميلادي ، فرمى بالمال الى رفيقه ، وتناول الرسالة وشرع يقرأها :

« بما انكم فقدتم اثر تلك المرأة ، التي التجأت الى الدير الذي كان من واجبكم ان تحولوا بكل الوسائل دون بلوغها اليه ، فقد بات عليكم ان لا تهملوا على الاقل ، القضاء على الرجل . . والا فان يدي طويلة ، وسأجعلكم تدفعون غالياً ، المئة دينار ، التي تقاضيتموها ثمناً لعمل لم تنجحوا حتى في تأدية جزء منه . »

وكانت الرسالة لا تحمل اي توقيع ، الا ان دارتنيان لم يشك

نها مرسلة من ميلادي ، فوضعها في جيبه باحتراس ، ليستخدمها في المستقبل .

ثم التفت الى الرجل الجريح يستوضحه عـــن المرأة التي أتى ذكرها في الرسالة ، فقال الرجل :

ـ ان ميلادي عهدت الينا باختطاف امرأة شابة حسناء ، عند خروجها من باريس عن طريق « لافييت » ولكننا دخلا الى احدى الحانات القريبة وراحا يكرعان كؤوس الخمرة الجيـدة ، ولما خرجا من الحانة وجدا انهما تاخرا عن الموعد المحدد لهما عشر دقائق تماماً ، وبذلك نجت المرأة الحسناء من الاختطاف ووصلت الى الدير الذي كانت تقصده سالمة .

فسأله دارتنيان :

ـ وماذا كنتما تنويان ان تفعلا بتلك المرأة بعد اختطافها ؟

ـ لقد طلب الينا ان ننقلها الى قصر ميلادي . .

فأيقن دارتنيان ساعتئذ ان الملكة آن دوتريش لم تنسَ وصيفتها المخلصة ، السيدة بوناسيو بل بذلت جهدها لمعرفة المكان الذي سجنت فيه ، فسعت لانقاذها ، وارسالها الى مكان امين في احد الاديرة . . . وادرك في تلك اللحظة مغزى الرسالة التي وصلته منها وموعده في طريق شايو . .

واجتاحته موجة من الغبطة والسرور ، حملت معها الى قلبه نفحة من العطف والشفقة على ذلك الرجل الجريح ، فقام يضمد جرحه وقال له :

ـ هيا استند على ذراعي ، فقد عفوت عنك . . وهلم بنا لنرجع .

الى المعسكر بعد ان اتممنا ما طلب منا ...

فسكره الجريح من صميم قلبه ... وجثا على ركبتيه يغمر رجلي منقذه بالقبلات .

وكان زميل دارتنيان الذي نجا من الموت بعد ان رأى رفيقه يسقط صريعاً برصاص رجال حامية الحصن، قد عاد الى المعسكر ، واذاع ان جميع رفاقه قد قتلوا ، وكم كان سرور رجال الحرس ودهشتهم عندما رأوا دارتنيان يعود سالماً معافى . وقص دارتنيان على قائده دي زيسار ما تعرض له من اخطار واهوال ، وأكد له ان في الحصن حامية قوية كاملة العدد ، لكنه لم يتعرض للملابسات الخاصة التي تعرض لها من قبل الجنديين وهنأه القائد دي زيسار باسمه واسم الدوق دورليان على بسالته واقدامه ، ومنحه مكافأة طيبة ولم يكن من حديث لرجال المعسكر طيلة ذلك اليوم سوى مغامرة دارتنيان الموفقة ونجاته من الموت باعجوبة .

٤٢

خمرة انجو

•

وجاءت الانباء من بلدة فيلروى تقول ان الملك قـــد تماثل للشفاء بعد مرض عضال اصابه ، ولما كان متشوقاً للحضور الى جبهة القتال في لاروشيل ، فقد قرر ان يحضر عندمـــا يتمكن من ركوب جواده .

وفي هذه الاثناء كان الدوق دورليان ، الذي كان يتولى قيادة الحملة ويعلم انه مضطر إن عاجلاً او آجلاً للتخلي عن القيادة إما للدوق انغوليم او لاحد القائدين ، باسومبيـار ، او شومبورغ ، الذين يتنازعون للوصول الى هذا المنصب ... وحيال ذلك فقد فضل الدوق دورليان ان لا يتحمل مسؤولية اية عملية حربية ، سواء في شن هجوم لطرد الانكليز من جزيرة « ري » او بفك الحصار عن معقل سان مارتن وقلعة دي لابري ...

وذات صباح من تشرين الثاني ، تلقى دارتنيان الرسالة التالية

من بلدة فيروي :

« السيد دارتنيان

لقد كلفني رفاقك الفرسان آتوس وبورتوس واراميس ، وهم الآن في السجن ، بسبب السكر والعربدة بعد سهرة عامرة في فندقي ، تجرعوا فيها نبيذ انجو المعتق ، بأن ارسل اليك اثني عشرة زجاجة من هذا النبيذ ، الذي تذوقوا طعمه اللذيذ على مائدتي ، لتشربها في صحتهم .

خادمكم المطيع
غودو
متعهد غذاء فرسان الملك »

فابتسم دارتنيان وهو يتسلم هذه الهدية من رفاقه الاعزاء وقال يخاطب نفسه :

« مرحى للاصدقاء الاوفياء ، انهم يذكرونني في مسراتهم ومرحهم ، كما اذكرهم انا في وحدتي وضيقي . وهم يطلبون مني ان اشرب في صحتهم وسانفّذ رغبتهم ، ولكنني لن اكون وحدي .

وقرر ان يقيم حفلة صغيرة دعا اليها اثنين من رفاقه رجال الحرس ، كما دعا الجندي الجريح الذي اصبح اتبع من ظله ، وكان اسمه « بريزمون » .

وفي الموعد المحدد في المساء ، كان خادمه بلانشيه بمساعدة خادم آخر يدعى « فورو » قد اعدا طعاماً فاخراً في مشرب المعسكر ، فتولى بلانشيه تقديم الطعام ، بينما تولى الخادم فورو مهمة اعداد

الاقداح ، وفتح زجاجات النبيذ .

وبدأ الرفاق في تناول طعامهم ، وما ان أديرت كؤوس الشراب عليهم ، حتى ترامى الى اسماعهم ، ضجة كبيرة في الخارج وصوت الطبول تقرع بشدة ، ثم سمعوا هتافات عالية تردد :

– يعيش الملك ... يعيش الكردينال ؟

وادرك دارتنيان ان الملك قد وصل ، وان رفاقه الفرسان الثلاثة لا بد ان يكونوا قد وصلوا ، فأسرع الى الخارج ، فشاهد موكب الملك يمر وكان مؤلفـاً من حرسه الملكي ، وحاشيته يضاف اليها عشرة آلاف مقاتل إضافي ، حضروا لتعزيز الحامية التي تحاصر بلدة لاروشيل . وبعد ان جرت مراسيم استقبال جلالته ، اسرع دارتنيان يبحث عن رفاقه الفرسان الثلاثة ، ولما وجدهم بادرهم بقوله :

– من حسن حظكم اننا نحتفل هذا المساء بشرب زجاجات النبيذ ، التي وصلتني هدية منكم ، فهلموا شاركونا الطعام والشراب .

فتبادل الفرسان الثلاثة النظرات وسأله آتوس مندهشاً :

– أتقول عن النبيذ الذي أرسلناه لك ؟

– اجل ... لقد تلقيت رسالة من رجل يدعي غودو ، قال انه متعهد غذاء فرسان الملك في انجو ، ومع الرسالة اثنتي عشرة زجاجة من نبيذ انجو هدية منكم ...

فأجابه آتوس :

– لم نرسل مثل هذه الهدية لك ، وأرى أن نمتنع عن شرب نبيذ لا نعرف مصدره ومرسله .

فأيّد كلامه دارتنيان ، ثم تناول الرسالة التي وصلته وعرضها

على الانظار ، فأمعن آتوس النظر بالخط وقال :

– ان كاتب الرسالة ليس الفندقي غودو ، فأنا أعرف خطه ، فقد قدّم لي قائمة الحساب بخطه .

فقال بورتوس :

– اذن فالرسالة مزورة !

ومرت بمخيلة دارتنيان فكرة جعلته يهتز من رأسه لاخمص قدميه ، فاندفع الى المشرب قائلاً :

– هلموا بنا ايها الرفاق ، ولنسرع قبل فوات الاوان .

ووصل الى المشرب وخلفه رفاقه الفرسان الثلاثة ، وكان اول شيء وقع نظره عليه ، الجندي بريزمونت منطرحاً على الارض يتأوه ويتلوّى كالافعى ، بينما وقف قربه بلانشيه وفورو ، وقد علت وجهيهما صفرة الموت يحاولان اسعافه ، وما ان وقع نظر بريزمونت على دارتنيان حتى فتح فمه يغمغم بصوت خافت والزبد الابيض يتناثر منه .

– لقد تظاهرت بالعفو عني ... ثم ما لبثت ان عمدت الى قتلي بالسم ، لقد دعوتني لاشرب من هذا النبيذ المسموم .

فاقترب دارتنيان من الرجل المحتضر وجثا على ركبتيه وقال له بلهجة الاشفاق والتوسل :

– اقسم لك على الانجيل وبكل مقدس ، أنني كنت اجهل كل الجهل ان الخمرة مسمومة ، والدليل على ذلك انني كنت على وشك ان اشاطرك الشراب من هذه الخمرة التي وصلتني من مصدر مجهول

فأرسل المحتضر حشرجة متقطعة وغمغم قائلاً .

ـ لا أصدقك ...

ثم توقف عن الكلام ودخل في النزع الاخير ، وعانى سكرات الموت بضع دقائق ، وانتفض انتفاضة اخيرة ، وهمدت كل حركة فيـــه .

فنهض دارتنيان وقد امتقع وجهه ، والتفت الى رفاقه وقال :

ـ ان هذا لفظيع حقاً ، لقد انقذتم حياتي ايها الرفاق مرة ثانية ، كما انقذتم حياة هذين الصديقين اللذين دعوتهما للشراب .

مشيراً الى رفيقيه من رجال الحرس الذين وقفا مسمرين من هول هذه الحادثة المفجعة .

والتفت دارتنيان الى ضيفيه وأردف يقول :

ـ اني اعتذر لكما عما حدث ، فقـــد كدنا نذهب ضحيــة مؤامرة غادرة ، ولنشكر الله على نجاتنا ، ونأمل ان نلتقي في المستقبل .

فأحنى الضيفان رأسيهما وانسحبا ، بعد ان أكدا لدارتنيـان بكتمان الحادث .

وهنا قال آتوس لرفاقه :

ـ هلموا نخرج من هذه الحجرة ، لنجد لنا مكاناً اصلح نتناول فيه بعض الطعام .

ونادى دارتنيان خادمه بلانشيه وطلب اليـه ان يتولى دفن الجثة بمساعدة الخادم فورو في مكان بعيد عن المعسكر .

وانتقل الفرسان الاربعة الى حانة قريبة مـن المعسكر حيث

تناولوا بعض الطعام واكتفوا بشرب الماء القراح ، وقد تولى آتوس جلبه بنفسه من النبع المجاور للمعسكر .

وبعد ان انتهوا من تناول وجبتهم الخفيفة قال دارتنيان يخاطب صديقه آتوس :

ان المعركة التي اخوضها ، هي معركة حتى الموت ، كما ترى ايها الصديق ..

فهز آتوس كتفه وقال :

ـ اعلم ذلك جيداً ايها العزيز ... ولكن هل تعتقد انها هي؟

ـ بل انني واثق من ذلك كل الثقة ، ولا تنسَ زهرة الزنبق الموسومة بها كتفها اليسرى .

ـ ولكنها قد تكون امرأة انكليزية اقترفت جريمة في فرنسا ، فوسمت بهذه الشارة بعد ارتكابها الجريمة .

فأمسك دارتنيان يد آتوس وقال هامساً :

ـ انها امرأتك يا عزيزي آتوس ، لأن كل الدلائل تثبت ذلك : الزهرة التي على كتفها ، والخاتم الماسي ، وافعالها الشيطانية ..

فتنهد آتوس وقال :

ـ لقد ظننت انها ماتت ، فقد علقتها بالشجرة من رقبتها .

فهز دارتنيان كتفه بدوره وقال :

ـ ولكن كيف الخلاص من شرور هذه المرأة ومؤامراتها ؟

ـ اسمع عليك ان تقابلها في اول مناسبة ، وهددها بافشاء سرها واذاعة عارها في اوساط البلاط اذا أصرّت على ملاحقتك بشرها ، واعتقد ان لغة التهديد والوعيد ستفعل فعلها في تلك

النفس الخبيثة ، وحاول ان تتظاهر بأنك ترغب في التفاهم معها ، واحلال الوئام بينكما محل العداوة .

فقال دارتنيان :

ـ اني استحسن هذه الفكرة ، لكن كيف السبيل الى معرفة مقرها والاجتماع بها ؟

ـ لا تتعجل الامور ، فالزمن كفيل بتهيئة الاسباب ، فانتظر ...

ـ لكن الصبر والانتظار في جو المكائد والمؤامرات امر لا يطاق ..

ـ لا تقلق يا صاح ، فسنعمل على مجابهة الموقف ونرد كيد المتآمرين الى نحورهم .

٤٣

نزل الحمامة الحمراء

•

ولم يكد المقام يستقر بالملك لويس الثالث عشر ، حتى أبدى رغبته في مباشرة الهجوم في الحال ، وكان يقصد من وراء هذه السرعة والاندفاع ، الثأر لنفسه من الدوق دي بوكنغهام الذي يتولى قيادة القوات الانكليزية التي جاءت تنجد اهالي لاروشيل البروتستانت .

وعقد مجلساً حربياً دعا إليه كبار ضباط الجيش ، وأفضى اليهم برغبته باعداد هجوم مفاجىء وعلى نطاق واسع على جزيرة « ري » لطرد الانكليز منها ، ومن ثمّ تشديد الحصار على مدينة لاروشيل ، وظلّ حتى ساعة متأخرة من الليل يدرس مع ضباطه الخطط والتدابير الواجب اتخاذها لإنجاح هذا الهجوم .

ولما وضعت الخطة التي تمّ الاتفاق عليها موضع التنفيذ ، نشب خلاف جديد بين كبار قادة الجيش ، وادّى الى تأخير تنفيـــذ

رغبات الملك .

فقد كان كل من القائدين « باسومبيار » و « شومبورغ » يحمل لقب ماوشال فرنسا ، ولكل منهما الحق في قيادة الجيش تحت اوامر الملك ، الا ان الكردينال ريشليو ، كان لا يأمن للقائد « باسومبيار » لنزعته البروتستانتية القديمة ، ولهذا السبب حاول استبعاده عن القيادة . اما الملك فقد كان يفضل حصر القيادة بالدوق « انغوليم » دون غيره . كما ان شومبورغ كان يطالب بها لنفسه ..

وحيال هذا الخلاف بين كبار القادة ، وخشية ان يتطور الخلاف الى انقسام يهدد وحدة الجيش ، وبالتالي يؤدي الى هزيمته في الحملة التي يعلق عليها كل من الملك والكردينال آمالاً جساماً ، فقد تم الاتفاق على جعل لكل من القادة الثلاثة ، قيادة مستقلة وقسّمت جبهة القتال الى ثلاث مناطق ، عهد الى كل من باسومبيار ودي شومبورغ والدوق دي انغوليم ، بقيادة منطقة عسكرية .

وبعد ان تم تسوية هذه المشكلة الخطيرة ، بدأ التفكير مجدداً في اعداد الحملة للهجوم المنتظر على جزيرة « ري » لطرد القوات الانكليزية منها .

وقد حالف الحظ القوات الفرنسية ، اذ كان الجنود الانكليز الذين يحتلون الجزيرة ، بحاجة ماسة الى امدادات مستمرة من المؤن والذخيرة والاطعمة والمشروبات . وكان غذاء الجندي الانكليزي مقتصراً على اللحوم المقددة والبسكويت الرديء . ونتيجة لذلك تفشت بين الجنود الانكليز الامراض بكثرة ، وارتفع معدل الوفيات بشكل اثّر في معنويات باقي الجنود وثبّط من هِمم قادتهم

ولم يقف الامر عند هذا الحـــد ، فقد تحالفت العوامل الطبيعية ضدهم فاستمر هياج البحر بضعة ايام بما لم يعهد له مثيل من قبل ، وكان من نتائجه ان عرقل تحركات السفن الحربية وسفن التموين الانكليزية القادمة من انكلترا الى الشواطىء الفرنسية ، كما قذف بعضها الى الشاطىء الفرنسي الصخري ، فتحطمت شر تحطيم .

وشعر الدوق دي بوكنغهام قائد الحملة الانكليزية بما يحيط به من اخطار وصعوبات جمة ، ومع ذلك فقد ركب رأسه وقرر البقاء في الجزيرة ليجابه الامر الواقع ، وذلك من باب العناد وتحدي العوامل الطبيعية .

وفي هذه الاثناء ، كان الملك لويس الثالث عشر قد فرغ من استعداداته ، فقرر القيام بعمل حاسم سريع .

ونجحت المحاولة نجاحاً باهراً ، لم يكن يتوقعه الملك ولا وزيره الكردينال ريشليو ، فقد اضطرت القوات الانكليزية بعد معركة لم تدم طويلاً ، الى التراجع على طول الجزيرة ، وأن تفر نحو الشاطىء ، محتمية بالسفن الحربية التي تقف على مقربة من الجزيرة تاركة في ساحة القتال حوالي الفي قتيل وجريح ، كما غنمت القوات الفرنسية في هذه المعركة ، اربعة مدافع وستين راية ، نقلت الى باريس وعلقت باحتفال رائع في قبة كنيسة نوتردام .

واقيمت صلوات الشكر في المعسكر وفي سائر المدن والمقاطعات الفرنسية طيلة اسبوع كامل .

وانتشى الكردينال ريشليو بنشوة الظفر فقرر في الحال متابعة القتال وتشديد الحصار على لاروشيل تمهيداً لشن هجوم واسع .

والاستيلاء عليها نهائياً .

وكان في جملة اسرى الحرب الذين وقعوا في ايدي القوات الفرنسية ، رسولاً خاصاً يدعى « مونتاغو » من قبل الدوق دي بوكنغهام ، وقد عُثر معه على أوراق رسمية تثبت ان هذا المندوب كان مكلفاً باجراء مفاوضات رسمية لعقد حلف بين انكلترا واسبانيا واللورين . وان هذا الحلف موجه ضد فرنسا بالذات . وبالاضافة الى ذلك فقد عثر في مقر الدوق ، الذي اضطر لمغادرته على عجل ، على عدة وثائق ومستندات رسمية ، تؤكد وجود هذا الحلف ، كما تبين ان لمدام دي شيفروز والملكة آن دوتريش ضلع بهذه المحاولة . .

وكان الكردينال ريشليو يعلم حق العلم مدى نشاط الدوق دي بوكنغهام ونفوذه في انكلترا ، ومبلغ الحقد الذي يضمره له ، وكان لا يشك مطلقاً ان قيام مثل هذا الحلف ، معناه القضاء على نفوذه قضاء تاماً ، واقصاؤه عن المسرح السياسي الى الابد ، وفوز سياسة اسبانيا والنمسا في قصر اللوفر المستمدة من وحي الملكة آن بما لها من صلات القرابة في هاتين المملكتين ... ولهذا كان يحسب للدوق ومشاريعه الواسعة الف حساب ، ويسعى جهده لابعاد الملك لويس الثالث عشر عن النفوذ والسيطرة الاسبانية والنمسوية . وعليه فوق ذلك ان يحبط المؤامرة التي تنسج ضده ، بقصد القضاء عليه او على الاقل ، ابعاده عن المسرح السياسي في قصر اللوفر . وكان يعمل ليلاً ونهاراً بهمة لاتعرف الكلل من مقره الذي اتخذه مؤقتاً قرب الجبهة ، ولم تكن تفوته من مشاكل السياسة والحرب

شاردة ولا واردة .

وكان المنزل الذي اتخـذه مقراً له ومسرحاً لنشاطه الدائم ، يعج في اية ساعة من ساعات الليل او النهار بالرسل والاشخاص من مختلف الهيئات والطبقات ، يحملون له من انحاء فرنسا وغيرها من بلدان اوروبا الانباء والتقارير الخطيرة ... وبالاضافة الى هذه الزيارات المتعددة ، فقد تعرض نيافته الى زيارات كادت تودي، بحياته اذ انتشرت الشائعات عدة مرات تؤكد ان نيافته قد تعرض لمحاولات اغتيال ، كادت تذهب بحياته في كل مرة .

وكان من الطبيعي ان يروّج خصوم الكردينال بان هـــذه الشائعات ليست الا من نسج الخيال، وان مروجها هو الكردينال نفسه ، تبريراً لما يقوم به من اعمـــال الشدة والعنف ضد خصومه السياسيين والعاديين .

كانت مهمة فرقة فرسان الملك منحصرة في مرافقة الملك في تنقلاته في انحاء الجبهة، والسهر على راحته وحمايته. ولهذا تسنى للفرسان الثلاثة ورفيقهم دارتنيان ان يتمتعوا بأيام طيبة ، بعد الاستيلاء على جزيرة « ري » .

وفي ذات ليلة كان الفرسان الثلاثة آتوس وبورتوس واراميس عائدين من حانة « الحمامة الحمراء » التي اهتدى عليها آتوس في اليوم السابق ، وكان الفرسان الثلاثـــة يسيرون في الطريق المؤدي الى المعسكر ، وقـــد امتطوا جيادهم الأصيلة وتدثروا بمعاطفهم العسكرية ، وهم في كامل عدتهم واسلحتهم ، تحسباً للطوارىء

ولمجابهة اي شرك ينصب لهم .

ولما اصبحوا على مسافة ربع مرحلة من قرية « بوانار » ،طرق اسماعهم وقع حوافر جياد قادمة نحوهم ، فتوقفوا في الحال عن السير ، وما هي الا دقائق معدودة حتى برز لهم فارسان يسيران بطمأنينة، وكأنهما لا يتوقعان مفاجأة ولا يخشيان شراً في مسيرهما منفردين في ذلك الليل البهيم .

وتوقف الفارسان عن السير عندما ابصرا الفرسان الثلاثة وبدا عليهما انهما يتشاوران فيما اذا كان يواصلان طريقهما او يعودان...

وحيال هذا التردد البادي في تصرفات الفارسين، تقدم الفارس آتوس نحوهما بضع خطوات وصاح بهما بصوت حاد :

ـ من يعيش ؟

فرد عليه احد الفارسين بلهجة حازمة :

ـ ونحن نرد لكم السؤال : من يعيش ؟

فقال الفارس آتوس بحزم :

ـ ان هذا الجواب لا يقنع ايها السيد ، فإما ان تنطق بكلمة السر ، والا نضطر الى اطلاق الرصاص عليكما ...

فأجابه الفارس الآخر بلهجة حازمة ، كمن اعتاد على اصدار الأوامر :

ـ حذار ايها السادة من عاقبة التهور .

فقال آتوس وقد ثبت لديه انمن يخاطبه له ملء الحق بتوجيه الاسئلة والاوامر .

ـ نحن فرقة فرسان جلالة الملك .

ـ والى اية فرقة تنتمون ؟

ـ الى فرقة القائد دي تريفيل .

ـ حسناً اني آمركم ان تتقدموا وتوضحوا لي السبب الذي يحملكم على البقاء خارج المعسكر الى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

فأطاع الرفاق الثلاثة وتقدموا وهم على صهوات جيادهم بضع خطوات ، ثم اشار آتوس الى رفيقيه بان يبقيا في مكانهما ، وتقدم وحده من الفارسين الغريبين غير هيّاب ولا وجل وقال :

ـ عفواً يا سيدي الضابط ، اننا نجهل شخصية الذي يخاطبنا ، ولم نرتكب خطأ نستحق اللوم عليه ، فقد رأيتم اننا قمنا بواجبنا كحرّاس مخلصين في خدمة الملك .

فسأله الفارس الغريب محاولاً ان يستر وجهه بطرف معطفه :

ـ ما اسمك .

فاجابه آتوس بحدة . وقد بدأ صبره ينفد من تصرفات ذلك الفارس وإصراره عـــلى استجوابهم دون ان يظهر شخصيته على حقيقتها :

ـ ولكني ارجوك ايها السيد ، قبل ان اذكر اسمي ، ان تبرز لي الدليل القاطع على ان لك الحق في استجوابي على هذا الشكل .

فعاد الرجل الغريب يسأل آتوس :

ـ ما اسمك ايها الفارس ؟ . . .

ثم رفع يده بحركة سريعة ، تاركاً طرف معطفه يسقط عن وجهه فصاح آتوس منذهلاً :

ـ نيافة الكردينال ... عفوك يا مولاي !!

ولم يعلق الكردينال على دهشة الفارس آتوس، بل عاد يكرر عليه السؤال :

ـ ما اسمك ؟

ـ آتوس يا صاحب النيافة .

ـ ورفيقاك ؟

ـ بورتوس واراميس .

وهمس الكردينال باذن مرافقه بصوت خافت :

ـ ان هؤلاء الفرسان الثلاثة سيرافقوننا ولا يجب ان يعودوا الى المعسكر قبل عودتنا اليه، لانني لا اريد ان يعلم احد بخروجي من المعسكر في هذا الليل .

فالتفت آتوس إلى الكردينال وقال :

ـ اذا طلب منا مولاي ان نحتفظ بالسر ، فنحن نعاهده بذلك ونقسم بشرفنا .

فرمقه الكردينال بنظرة فاحصة وقال :

ـ انك حاد السمع ايها الفارس آتوس ، وانني ارغب اليكم مرافقتي لكي تتولوا المحافظة عليّ وحراستي .

ـ نحن على استعداد للقيام بهذه المهمة يا مولاي .

وهنا نادى رفيقيه بورتوس واراميس ، اللذين اسرعا يؤديان التحية باحترام زائد للكردينال .

وراح ينقل الكردينال نظره بين الفرسان الثـــلاثة وهم على صهوات جيادهم كالعمالقة وقال :

ـ اعرفكم ايها السادة ، واعرف ميولكم الشخصية ، ويؤسفني انكم لستم من اصدقائي ، ولكني اعترف بانكم من اشد الفرسان بسالة وشجاعة واخلاصاً .

ايها السيد آتوس ، هل لك مع رفيقيك ان تصحبوني في هذه الجولة الليلية .

فأجابه الفارس آتوس :

ـ هذا شرف عظيم لنا يا مولاي !

وصدع الفرسان الثلاثة للأمر ، وتأهبوا للسير في ركاب الكردينال ، الذي ، بعد ان ستر وجهه من جديد بطرف معطفه وتفقد غدارتيه ، لكز جواده ، فاندفع به في الطريق وتبعه الفرسان الثلاثة وتابعه ، يتقدمهم الفارس آتوس الذي سار بمحاذاة الكردينال .

وبعد ان قطعوا مسافة فرسخين تقريباً ،وجدوا انفسهم من جديد امام نزل « الحمامة الحمراء » الذي قضوا فيه الشطر الاول من ليلتهم .

ويبدو ان الفندقي كان على علم بشخصية الزائر الكبير الذي سيزوره في تلك الليلة ، فصرف زبائنه في ساعة مبكرة ، ليستطيع التفرغ لخدمة زائره العظيم وتلبية رغباته في جو هادىء ،بعيداً عن اعين الفضوليين .

ولما اصبح الكردينال على مسافة عشرة خطوات من باب الفندق ، اشار بيده الى الفرسان الثلاثة والى تابعه ، بالوقوف والانتظار ، وكان يقف امام باب الفندق جواد مسرج على أتمّ

الاستعداد . وترجـــل الكردينال عن جواده وتقدم من باب الفندق وكان مقفلاً ، وطرقه بقبضة يده ثلاث مرات بطريقـــة خاصة ، وعلى الاثر خرج رجل ملتف بمعطف ، وتبادل مـــع الكردينال بعض الكلمات الخاطفة ، ومن ثم امتطى ذلك الرجل صهوة الجواد المسرج ، ولوى عنان جواده باتجاه باريس .

وبعد ان ابتعد الرجل التفت الكردينال الى الفرسان الثلاثة وقـــال :

ـ هيا اقتربوا ايها السادة ..

فلبى الفرسان الامر ، وعندما اصبحوا قرب باب الفندق ، ترجلوا عن جيادهم ، ووقفوا ينتظرون الاوامر .

وكان الفندقي واقفـــاً على عتبة الباب ، وفي اعتقاده ان الكردينال ليس الا ضابطاً كبيراً من ضباط الجيش ، جاء يلبي دعوة سيدة جميلة ليقضي بعض الوقت معها في فندق هادىء .

وهنا التفت الكردينال اليه وسأله :

ـ هل لديك حجرة في الطابق الارضي ، يمكن لهؤلاء السادة ان يستريحوا فيها قرب مدفأة ، ريثما اعود اليهم ؟

فأحنى الفندقي رأسه باحترام وقال :

ـ لدي يا مولاي هذه القاعة الفسيحة الدافئة ..

وتقدم من باب فتحه ، فانكشف عن قاعة فسيحة الارجاء فيها عدة مقاعد وثيرة ، وفي وسطها مدفأة تشتعل نارها ، فألقى الكردينال نظرة عابرة على القاعة وقال :

ـ انه مكان دافىء ، ويمكنكم ايها السادة أن تنتظروا فيه ،

ولن يطول ، انتظاركم اكثر من نصف ساعة

وبينما كان الفرسان الثلاثة ، يدخلون الى القاعة الدافئة ، كان الكردينال يرتقي الدرج المؤدي الى الطابق الاول بسرعة ،دون ان يستعين بالفندقي ليدله على المكان الذي يقصده .

٤٤

سر المدفأة !

●

ولما اصبح الفرسان الثلاثة وحدهم داخل القاعة الدافئة ، راحوا يتساءلون فيما بينهم عن الشخص الذي يقصد الكردينال الاجتماع به سراً في هذا الفندق المنعزل !

وعندما عجزوا عن حل هذا اللغز ، طلب الفارس بورتوس من الفندقي بان يحضر لهم طاولة نرد .

وجلس الفارسان بورتوس واراميس يقطعان الوقت باللعب ، بينما راح آتوس يذرع ارض القاعة ذهاباً واياباً ، وهو منشغل الذهن ، يحاول اكتشاف سر هذه الزيارة الغامضة التي يقوم بها الكردينال ريشليو ، رغم ما يتعرض له من اخطار في تجواله في تلك الاماكن النائية ليلاً .

وكان الفارس آتوس في سيره بالقاعة على هذا الشكل ، يقف مراراً عديدة امام جزء من قسطل المدفأة المتصل بالغرفة الواقعة

فوق قاعتهم مباشرة ، وكان في كل مرة يمر بها يسمع تمتمة كلمات غير واضحة لم يعرها في البدء كبير اهتمام، الا ان الهمس اخذ يصل الى اذنيه بصورة اكثر وضوحاً ، فوقف قرب المدفأة ، يرهف السمع .

ويظهر ان ما سمعه في هذه المرة كان على جانب كبير من الخطورة والاهمية اذ اشار الى زميليه ، بورتوس واراميس بالتزام الصمت التام ، ليتسنى له السماع ، ثم ألصق اذنه بفوهة المدخنة وترامى الى سمعه صوتاً خشناً يقول :

– إسمعي يا ميلادي ...

فأجابه صوت نسائي يقول :

– إنني مصغية لما تقوله يا سيدي الكردينال .

وعاد الصوت الخشن ، ولم يكن سوى صوت الكردينال ريشليو ، يقول :

– لقد أعددت لكِ مركباً صغيراً ، مع بحارته الانكليز وقبطانه من اتباعي المخلصين ، وسيكون هذا المركب بانتظارك عند مصب نهر « الشارنت » بالقرب من حصن « لابوانت » وسيقلع غداً صباحاً .

فأجابته المرأة بلهجة حازمة :

– إذن فعليّ ان اذهب الليلة ؟

فأجابها الكردينال :

– بل في هذه اللحظة بالذات ، ففي الخارج اثنان من رجالي ينتظرانك على باب الفندق ، وهما مكلفان بمرافقتك الى المكان

الذي تقصدين . . وقد أصدرت إليهما الأوامر بتنفيذ كل ما تطلبينه اليهـــما . .

وسأخرج الان من الفندق قبلك ، وبعد أن ينقضي على ذهابي نصف ساعة ، يمكنك مغادرة الفندق .

فأجابته ميلادي قائلة :

– بقيَ الآن يا صاحب النيافة ان تشرح لي المهمة التي ترغب اليّ القيام بها ، ولما كنت احرص اشد الحرص على الاحتفاظ بثقة نيافتك ، فأرجو ان توضح لي هذه المهمة ، لئلا اقع في هفوة جديدة تفسد الخطة التي وضعت خطوطها .

وساد الصمت برهة ، كما لو كان الكردينال يفكر ملياً في الامر الخطير الذي سيفضي به الى ميلادي .

وانتهز الفارس آتوس هذه الفرصة وأشار الى رفيقيه بورتوس واراميس بالاقتراب من المدفأة والاستماع الى ما يجري من حديث خطير في الغرفة العليا .

وانتقل الفارسان الى قرب المدفأة وأرهفا السمع ، وبعد لحظات قليلة طرق سمع الفرسان الثلاثة صوت الكردينال يقول :

– اسمعي يا ميلادي ، يجب ان تسافري على ظهر ذلك المركب الى لندره ، وعندما تصلين الى هناك عليك ان تبذلي جهدك لمقابلة الدوق دي بوكنغهام الذي عاد الى عاصمة بلاده بعد فشله في معركة جزيرة « ري » . . .

فقاطعته ميلادي قائلة :

– أرى من واجبي ان أصارح نيافتك ، بإخلاص ، ان الدوق

دي بوكنغهام بدأ يرتاب بتصرفاتي ارتياباً ظاهراً ، على اثر حادثة اختفاء الحبتين الماسيتين اللتين انتزعتهما من صدره في تلك الحفلة الراقصة ، وانه من الصعب استعادة ثقته بي ..

فأجابها الكردينال بهدوء :

ـ لا شأن للثقة في الامر هذه المرة ، فانت انما تتقدمين اليه بكل صراحة ، بصفتك موفدة من قبلي ، تملكين حق التفاوض باسمي .

اجابته ميلادي :

ـ حسناً يا سيدي الكردينال ، سأنفّذ اوامرك وتعليماتك بحذافيرها .

ـ قلت انه يجب عليك فور وصولك الى لندره ، ان تسعي لمقابلة الدوق دي بوكنغهام ، ومتى اجتمعت اليه ، صارحيه بانني مطلع تمام الاطلاع على كل الامور التي يدبرها في الخفاء ، والمؤامرات التي ينسج شباكها ، وان شروعه في تنفيذ مشاريعه العسكرية وتحالفاته مع الدول الاخرى ، ستعود بالوبال عليه ، وعلى الشخص الذي يحبه . كما انها لن تؤثر في موقفي ادنى تأثير . لانني قررت ان اوجّه الى حبيبته الملكة آن دوتريش ضربة قاضية ، حالما يبدو لي انه ماض في اخراج مشاريعه الى حيز الوجود .

ولا تنسي ان تخبري الدوق ، انه عند تركه جزيرة « ري » بتلك السرعة ، قد نسيَ في مقر قيادته رسالة خطيرة ، ولسوء حظه وقعت هذه الرسالة في يدي . وما تضمنته الرسالة من معلومات يصح ان يتخذ دليلاً على ان غرام الدوق بالملكة قد أفقده صوابه .

وكانت ميلادي تصغي الى ما يقوله الكردينال دون ان تنبس ببنت شفة ، وقد اذهلتها المعلومات الخطيرة التي يدلي بها نيافته . ثم استطرد يقول :

ـ واجزم بان الدوق متى علم بان الحرب التي يسعى لاثارتها ضدي سيكون من اولى نتائجها ثلم شرف الملكة والتشهير بها وربما القضاء عليها ... فانه لا بد ان يفكر ملياً قبل الاقدام على تنفيذ ما يعد من مشاريع ومحالفات عسكرية، هدفها اذلال فرنسا والقضاء على نفـــوذي .

فقالت ميلادي :

ـ واذا رفض الاذعان لعروض نيافتك ، فماذا يكون موقفي منه ؟

اجابها الكردينال بلهجة قاسية :

ـ اذا رفض التفاهم ، فارجو اذ ذاك ان تقع حادثة من تلك الحوادث المفاجئة التي تبدل سياسة الدول . وانه لمن المحتمل جداً حدوث مثل هذه الحوادث المفاجئة في البلدان التي تكثر فيها الخلافات الطائفية والمذهبية ، وان نجد احد المتعصبين المتحمسين لمذهبهم يقبل ان يضحي بحياته للذود عن معتقده الديني ... امثال رفاياك وجان كليان وغيرهما .

والمعلومات المتوفرة لدي تؤكد ان طائفة « المطهرين » من البروتستانت ناقمون اشد النقمة على اعمال الدوق دي بوكنغهام ، حتى ان وعّاظ هذه الطائفة لا يتورعون عن تسميته بالرجـــل الفوضوي . فقالت ميلادي ،وقد بدأت تفهم الغاية التي يرمي اليها:

ـ وكيف السبيل الى تحقيق ذلك يا سيدي ؟

فتابع الكردينال حديثه بلهجة طبيعية :

ـ وعلينا الآن ان نعثر على امرأة حسناء ، قوية الاعصاب من المغريات للدوق دي بوكنغهام ، ولا اظن ان ايجاد هذه المرأة بالامر الصعب ؟

فأجابته ميلادي بلا تردد :

ـ بل لقد وجدتها يا سيدي الكردينال ، انها واقفة امامك .

فافتر ثغره عن ابتسامة قصيرة ، ثم رمقها بنظرة عابرة وقال :

ـ انتِ ؟ وماذا تطلبين لقاء قيامك بهذه المهمة ؟

ـ يكفيني ان أحصل من نيافتك على شهادة خطية تثبت ان كل عمل اقوم به مهما يكن نوعه ، انما هو لخير فرنسا ، فلا اكون مسؤولة عما قد اضطر الى اللجوء اليه من وسائل وطرق لتنفيذ الغاية التي انتدبتني لها .

فأجابها الكردينال بلهجة جافة :

ـ ستنالين ما ترغبين في الحال ..

وعادت ميلادي تقول بلهجة الواثقة من نفسها :

ـ والآن ، وبعد ان تلقيت من نيافتك جميع التعليمات فيما يختص باعدائك ، فأرجو ان تسمح لي بأن احدثك عن اعدائي .

ـ وهل لكِ اعداء ؟

ـ نعم يا سيدي الكردينال ، ومن حقي ان استعين بسلطتك ونفوذك في التغلب عليهم ، لاني انما اكتسبت عداوتهم اثناء قيامي بتنفيذ أوامر نيافتك .

ومن هم ؟

ـ هناك اولاً تلك المرأة الماكرة جرمين بوناسيو .

ـ انها ما تزال في سجن « مانت » على ما اعتقد .

ـ لقد كانت في سجن مانت ، إلا أن الملكة تمكنت من الحصول على أمر من الملك ، ونقلتها الى أحد الاديرة الامينة .

ـ واين مكان هذا الدير ؟

ـ لم اتمكن يا سيدي الكردينال من معرفة مكانه حتى الآن .

ـ دعي الامر لي ، فسأعرف مقرها هذه المرة ..

ـ وهناك عدو آخر لي ، هو عشيق السيدة بوناسيو .

ـ وما هو اسمه ؟

ـ ان نيافتك تعرفه جيداً ، فهو الذي ألحق العار بعدد من فرسانك ، وفي مقدمتهم الكونت دي وارد ، رسولك الخاص الى لندره .

فأجابها الكردينال بحدة :

ـ أتعنين ذلك الفارس الطائش دارتنيان ؟

ـ هو بعينه يا سيدي الكردينال ...

ـ هيا اتني ببرهان دامغ ، وانني اعدك بان اقوده الى سجن الباستيل ليقضي بقية عمره فيه .

فأجابته ميلادي بصوت كفحيح الافعى :

ـ اسمع يا سيدي الكردينال ، انها مسألة حياة او موت ، انها مقابلة بالمثل ، حياة رجل برجل ، فاذا ساعدتني بالتغلب على هذا ، ساعدتك بالتغلب على ذاك ..

ولم يترك الكردينال لها المجال للاسترسال في حديثها وشكواها الى ابعد من ذلك فقال بلهجة جافة :

– لست اعلم بالضبط ما تطلبين مني ، ومع ذلك فاني سأعمل على تحقيق رغبـــاتك ، والآن احضري لي ورقاً وقلماً لاكتب لك ما تريدين ...

وتلا ذلك صمت عميق لبضع لحظات ، بينما كان الكردينال يسطر الرسالة والتعليمات التي طلبتها منه ميلادي ، ادرك الفارس آتوس الذي كان يسمع الحديث بان مؤامرة خطيرة تدبر ضد رفيقه الفارس دارتنيان، فانتحى برفيقيه بورتوس واراميس وأسر لهما بصوت خافت :

لقد سمعنا الكفاية،وأرى من الضروري أن أغادر هذا المكان على عجل ، اما أنتما فابقيا ههنا ، ومتى عاد الكردينال وسأل عني، فقولا له اني خرجت لاستكشف الطريق مخافة ان يكون الاعداء قد نصبوا كميناً لنيافته .

فقال اراميس :

– كن يقظاً يا آتوس .

فاجاب آتوس وهو يهم بالانصراف من القاعة :

– كن مطمئن البال ، فلن أفقد متانة أعصابي .

وعـــاد بورتوس واراميس يحتلان مكانهما بالقرب من المدفأة علهما يسمعان بقية الحديث بين الكردينال وميلادي ، بينما كان رفيقهما آتوس قدامتطى صهوة جواده بهدوء،وأعلم تابع الكردينال

بانه ينوي القيام بجولة استكشافية في الطريق المؤدية الى المعسكر فلم يشك التابع بامره ، وتركه يذهب دون ان يعترض سبيله .

وما أن ابتعد آتوس عن المنزل ، حتى لكز جواده ، فانطلق به يعدو بسرعة فائقة نحو المعسكر .

٤٥

مقابلة بين آتوس وميلادي

●

ولم تمض عشر دقائق على ذهاب آتوس حتى فتح الكردينال باب القاعة والقى نظرة شاملة عليها ، فألفى بورتوس واراميس منهمكين في لعب النرد ، فسألهما :

ـ أين الفارس آتوس ؟

فأجابه بورتوس :

ـ لقدذهب في جولة استطلاعية في الطريق المؤدي الى المعسكر .

ـ وماذا تعمل ايها الفارس بورتوس ؟

ـ لقد كسبت حتى الآن خمسة دنانير من رفيقي اراميس . .

ـ يمكنكما ارجاء اللعب الى وقت آخر ، ولنذهب الآن .

فأجابه بورتوس :

ـ نحن في خدمة نيافة الكردينال .

وامتطى الكردينال صهوة جواده ، وسار خلفه بورتوس

وارامیس ثم تابعه الخاص باتجاه المعسكر .

ولنعد الآن الى الفارس آتوس ، فبعد ان قطع مسافة مئتي خطوة عن المنزل ، توقف عن المسير فجأة ، ولوى عنان جواده باتجاه المنزل ، متخذاً طريقاً جانبياً بين الحقول ، وما ان أصبح على بعد عشرين خطوة من المنزل ، حتى طرق سمعه صوت حوافر جياد تقترب منه ، فتأكـد انه الكردينال مع رفيقيه بورتوس وارامیس، فانتحى مكاناً قصياً، واوقف جواده ممتنعاً عن الاتيان باية حركة ، وما ان مر الكردينال مع مرافقيه ، حتى تابع الفارس آتوس سيره نحو النزل ، وفي لحظات معدودة كان يطرق بابه ويخاطب الفندقي الذي عرفه :

ـ ان سيدي الضـابط سها عن باله ان يزوّد السيدة ببعض التعليمات الضرورية ، وقد ارسلني لاقوم بالنيابة عنه بهذه المهمة .

فافسح الفندقي له الطريق وقال :

ـ يمكنك ايها السيد مقابلة السيدة، فهي ما تزال في غرفتها .

ولم يضع آتوس هذه الفرصة،فاسرع يرتقي الدرج بسرعة جنونية ثم اقتحم غرفـة ميلادي ، فوجدها تضع قبعتها تأهباً للانصراف ، فدخل الحجرة واقفل الباب خلفه بهدوء .

وشعرت ميلادي بالحركة فالتفتت مذعورة ، فوجدت رجلا طويل القامة ، واقفاً قرب الباب ، وقد إلتف بمعطف طويـل وارخى قبعته فاخفت معالم وجهه .

وذعرت ميلادي لوجود هذا المارد العملاق يظهر فجـأة في غرفتها وصاحت والرعب يملأ قلبها :

– من أنت ؟ .. وماذا تريد ؟!

فتمتم آتوس وكأنه يحدث نفسه :

– يا إلهي .. انها هي .. فهذا صوتها !

وبحركة سريعة أرخى معطفه وازاح القبعة عن وجهه، واقترب من ميلادي وهو يحدق بها بنظرات نارية وقال :

– والآن هل عرفتني يا سيدتي ؟

فخطت ميلادي خطوة الى الامام لتتبين معالم وجهه ، ثم ما لبثت ان تراجعت الى الوراء مذعورة وكأنها تواجـــه ثعباناً رهيباً ..

– إذن .. فقد عرفتني ولا ريب !

وظلت ميلادي تتراجع وهي ترتجف .. حتى اصطدم جسمها بالحائط وراحت تغمغم بصوت مبحوح :

– يا الهي !.. الكونت دي لافر ؟!

– اجل يا ميلادي ... انا الكونت دي لافر بالذات ، فهيا اجلسي ولنتحدث في بعض الامور التي تهمنا .

ووجدت ميلادي نفسها مسوقة بقوة خفية ، فتهالكت على اول مقعد صادفته ، وكأنها تستمع الى حكم القـــدر ينطق بـه آتوس الذي بدأ يخاطبها بقوله :

– انك شيطان مريد وجد على هـــذه الارض ! ولكن تأكدي انـــه بمعونة الله يمكن التغلب على مؤامرات الابالسة امثالك... لقد وضعك الجحيم مرة ثانية في طريقي، وجعلك غنية، واعطاك اسماً جديداً ، فأصبحت امرأة جديدة ، ولكن الزمن لن

يزيل منك العنصر الخبيث والنفس الشريرة .

واثـّرت هذه العبارات اللاذعة في نفس ميلادي، فوضعت رأسها بين يديها وراحت ترسل زفرات عميقة ، بينما تابع آتوس حديثه قائـــلاً :

ـ كنت تعتقدين أني اصبحت في عالم الاموات ، كما كنت اعتقد انك ذهبت الى الجحيم . وان هذا الاسم الغريب « آتوس » يخفي وراءه الكونت دي لافر ، كما يخفي اسم ميلادي كلاريك ، « آن دي بويل » كما كان يدعوك شقيقك المحترم ، عندما تزوجنا . حقاً ان وضعنا غريب جداً !

وكانت ميلادي قد تمالكت أعصابها فقالت :

ـ والان ماذا تريد مني .. ومن أرسلك الي ؟

اجابها آتوس بلهجة قاسية :

ـ جئت لاقول لك انني ، طيلة غيابي عنك ، لم افقد اثرك ، اذ كنت اتتبع حركاتك وسكناتك عن كثب .

ـ اذن فانت تعلم ماذا فعلت ؟

ـ باستطاعتي ان اسرد عليك سجل اعمالك الشريرة، منذ الساعة التي التحقت فيها بخدمة الكردينال ريشليو ، حتى هذا المساء . اسمعي فأنت التي سرقت الماستين من صدر الدوق دي بوكنغهام، وانت التي دبرت اختطاف السيدة بوناسيو ، ورحت تتـــذللين للكونت دي وارد، ليقضي ليلة بين احضانك، وأنت التي ارسلت اثنين من المأجورين الاشرار لاغتيال منافس عشيقك ، الفـارس دارتنيان ... وعندما وجدت ان رصاص اتباعك اخطأ الهدف ،

عمدت الى ارسال زجاجات من النبيذ المسموم مرفقة برسالة مزورة الى ذلك الفارس ... واخيراً فأنت التي تعهدت منذ ساعة تقريباً، وفي هذه الحجرة، للكردينال بان تغتالي الدوق دي بوكنغهام، واشترطت مقابل ذلك ان يتعهد لك بالقضاء على عدوك دارتنيان.

فامتقع وجه ميلادي وبان الاضطراب على قسمات وجهها وقالت:

ـ إنك الشيطان بعينه!

ـ ربما ... والآن اصغي الى ما أقوله لك: يمكنك ان تحاولي قتل الدوق دي بوكنغهام فهذا لا يعنيني، لكن حذار ان تمسي شعرة من دارتنيان، فهو صديقي الحميم، وهو الشخص الوحيد الذي ادافع عنه بحياتي .. واني اقسم لك بان ذلك اليوم سيكون آخر ايامك!

فأجابته:

ـ ان دارتنيان قد وجّه الي اهانة لا تغتفر، ولذلك قررت ان أقتل ... عشيقته اولا السيدة بوناسيو ثم هو! ..

فغلت في صدر آتوس مراجل الحقد والغيظ على وقاحة هذه الحية الرقطاء، وساورته نفسه بان يخمد انفاسها في الحال، فتناول من وسطه غدارة، واقترب منها، وهو يسدد فوهتها الى رأس تلك المرأة الماكرة، فحاولت الاستغاثة الا ان صوتها احتبس في حلقها وخرج من فمها كحشرجة المحتضر ... والصق آتوس فوّهة الغدارة الباردة بصدغها وقال بلهجة حازمة:

ـ ايتها المرأة الشريرة، اعطني الرسالة التي تحمل توقيع

الكردينال ... والا أقسم لكِ بان أهب دماغك في الحال !

ولو كان الذي يهدد ميلادي رجلاً آخر غير آتوس ، لترددت كثيراً في الخضوع والاستسلام ، ولهذا فقد تغلبت عليها غريزة حب الحياة ، وتخيلت الرصاص يهشم رأسها الجميل ، فمدت يدها بحركة آلية الى صدرها وتناولت الرسالة وسلمتها فوراً الى آتوس قائلة بصوت متهدج :

ـ اليك الرسالة ... ولتحل اللعنة عليك ...

فارتسمت على شفتي آتوس ابتسامة غامضة ، فانتزع الرسالة من يدها ، واعاد غدارته الى وسطه وتقدم من المصباح ليتأكد من انها الرسالة المطلوبة وقرأ فيها السطور القليلة التالية :

« ان حامل هذه الرسالة قد فعل ما فعله بامري ولمصلحة الدولة ...

٣ كانون الاول ١٦٢٧ ريشليو »

وبعد ان قرأ آتوس ما تضمنته الرسالة التفت الى ميلادي وقال :

ـ والآن بعد ان انتزعت منك اسنانك السامة ايتها الافعى الماكرة ... فانهشي ما طاب لك !

ثم غادر الحجرة ، بعد ان ارخى قبعته ليخفي معالم وجهه والتف بمعطفه الطويل ، واسرع يمتطي جواده ... وقبل ان يصل الى المعسكر بمئتي خطوة طرق سمعه حوافر خيل تسير متمهلة ، فتقدم يصيح بصوت جهوري بكلمة السر :

ـ من يعيش ؟

فأجابه صوت الكردينال يقول :

ـ لا شك انه فارسنا الهمام آتوس يقوم بمهمة الاستطلاع .

فأجابه آتوس :

ـ اجل يا سيدي الكردينال .

ـ اشكرك ايها الفارس مع رفيقيك على يقظتكم واخلاصكم ، والآن هيا سيروا شمالاً وكلمة السر الجديدة هي «الملك وجزيرة ري» ثم حيا الفرسان الثلاثة بانحناءة خفيفة من رأسه وسار متجهاً الى اليمين ، وخلفه تابعه الخاص ، اذ قرر ان يقضي ليلته في المعسكر.

وما ان ابتعد عنهم حتى صاح بورتوس واراميس بصوت واحد:

ـ لعنة الله عليه ... لقد وقّع رسالة تحكم على رفيقنا دارتنيان بالمـــوت .

فبادرهما آتوس ضاحكاً :

ـ لا تخشوا بأساً فها كم الرسالة !

وتبادل الرفاق النظرات ، دون ان ينبسوا ببنت شفة ، اذ اقتربوا من الحرس .

وعندما اصبحوا في حجرتهم ، اسرعوا بايفاد الخادم موسكيتون لابلاغ دارتنيان بان يحضر لمقابلتهم في الحال .

اما ميلادي ، فما ان استردت روعها ، حتى نزلت من الحجرة ووجدت في انتظارها امام باب الفندق اثنين من رجال الكردينال فامتطت جوادها وسارت برفقتها ، دون ان تنبس ببنت شفة . وبينما كانت على صهوة جوادها ، سوّلتها نفسها ان تقصد رأساً الى الكردينال وتقصّ عليه ما جرى لها مع آتوس ، وكيف انتزع منها الرسالة بالقوة . الا انها ترددت ، خشية ان يفضح آتوس امرها

ويعلن انها موسومة على كتفها اليسرى بشارة « الزنبقة »، ففضلت السكوت واعتزمت مواصلة طريقها لاتمام المهمة التي كلفها بها الكردينال ، وبعد ذلك يمكنها ان تستعين مرة ثانية بنيافته ليساعدها على الانتقام من اعدائها . . .

وهكذا تابعت سيرها طوال الليل، وفي الساعة السابعة صباحاً وصلت الى « تور دي لابوانت » وعند الساعة التاسعة كانت على ظهر سفينة متجهة الى انكلترا .

٤٦

حصن سان جرفيه

●

ولما دخل الفارس دارتنيان على رفاقه الثلاثة وجدهم مجتمعين في حجرة واحدة . آتوس غارق في تأملاته ، وبورتوس يصلح من وضع شاربيه ، اما اراميس فكان يتلو صلواته من كتاب صلاة صغير يحمله معه ويحرص عليه اشد الحرص ، فبادرهم دارتنيان بقوله :

— ارجو ايها الرفاق ان يكون ما حملكم على استدعائي بهذه السرعة وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل ، من الامور الخطيرة ، والا فلن اغتفر لكم هذا الازعاج بدلا من تركي أنال قسطي من الراحة بعدما تحملته من مشقات واهوال في استيلائي مع رفاقي على حصن كان يحتله العدو ، ولكم وددت لو كنتم برفقتي ، فقد كانت المعركة حامية الوطيس .

فأجابه بورتوس وهو ما يزال منهمكاً في فتل شاربيه :

ــ ونحن أيضاً تعرضنا لأخطار جسيمة في هذه الليلة ...

فرفع آتوس رأسه وصاح :

ــ ما هذه الثرثرة يا آتوس ؟

قال دارتنيان وقد لاحظ دلائل الاهتمام على وجه آتوس :

ــ يبدو لي ان هناك اموراً خطيرة قد حدثت هنا ...

فتجاهل آتوس عبارة دارتنيان واردف يخاطب اراميس بقوله :

ــ ما رأيك في وجبة دسمة ونبيذ جيّد في هذه الساعة في نزل « باربايو » الذي تناولت عشاءك فيه اوّل امس؟

فأجابه اراميس :

ــ انه مكان هادىء ، ولكن طعامه لم يعجبني كثيراً ..

فقال آتوس :

ــ اذن هلموا ايها الرفاق الى نزل « باربايو » فالجدران هنا لها آذان تسمع .

وكان دارتنيان خبيراً باخلاق وتصرفات آتوس ، فأدرك في الحال ان الموقف شديد الخطورة ، فأسرع يتأبط ذراع صديقه آتوس ويخرجـــان ثم يتبعهما على الاثر بورتوس واراميس . وفي الطريق صادف آتوس خادمه غريمو فاشار اليه ان يلحق به .

وعندما وصلوا الى مشرب نزل « باربايو » ، كانت الساعة قد قاربت السادسة صباحــاً ، فطلب الرفاق الاربعة فطوراً ، واختاروا قاعة قصية ليختلوا بها ، ويكونوا بمعزل عن أي ازعاج او مضايقة ... ولكن خابت امالهم ، إذ ما لبث ان ازدحم

النزل وغرفه بعدد كبير من الجنـــود السويسريين والحرس والفرسان ..

فنفذ صبر آتوس وقال :

ــ هيا قص علينا يا دارتنيان مغامرتك هذا الليلة.. وسنروي لك فيما بعد مغامرتنا .

فانبرى جندي ثمل كان يحمل بيده قدحاً مترعاً بالخمر وقال:

ــ اسمعوا ايها الرفاق ان هذا الفارس يريد أن يقص عليكم مغامرة فريدة في نوعها .

فاتجهت الانظار نحو دارتنيان ، الذي اعتدل في جلسته ، وادرك ما يرمي صديقه آتوس من وراء هذه المناورة ، وبـــدأ يسرد باسلوب جذاب كيف استولى مع نفر قليل من رفاقه على حصن « سان جرفيه » وفتحوا ثغرة في سور الحصن وادخلوا فيها برميلاً من البارود ، ثم اشعلوا النار فيه ، فلم يلبث ان انفجر وأحدث ثغرة واسعة في الحصن ، تمكنوا بواسطتها من الوصول الى داخل الحصن ، واشتبكوا مع الحامية بمعركة ضارية ،أسفرت عن مقتل خمسة رجال من رفاق دارتنيان ، وسقط من حاميـــة الحصن عشرة جنود ، وأركن الباقون الى الفرار .

وعلّق احد الجنود بقوله :

ــ لا شك انهم سيرسلون فرقة مع عدد من المهندسين والبنائين لترميم الحصن .

فقال دارتنيان :

ــ هذا ممكن ..

وانتهز آتوس المناسبة فهتف يقول :

ــ هناك رهان .. فمن يشترك به ؟

فسأله الجندي المجاور له :

ــ وما هو نوع هذا الرهان ؟

قال آتوس :

ــ اراهنكم ايها السادة ، على اننا ، انا ورفاقي الثلاثة: بورتوس واراميس ودارتنيان ، على تمام الاستعداد لان نذهب الى ذلك الحصن ونتناول طعامنا هناك ، وان نصمد مدة ساعة من الزمن ، في وجه الهجمات التي يشنها علينا العدو .

وتبادل بورتوس واراميس النظرات ، وادركوا الغاية التي يرمي اليها رفيقهما آتوس ... أما دارتنيان فقد انحنى على آتوس وهمس باذنه قائلاً :

ــ انها مجازفة خطرة قد تعرضنا للهلاك ..

فأجابه آتوس هامساً :

ــ نحن على كل حال معرضون للموت بين ساعة واخرى في هذا المكان .

وهنا اقترب اربعة من الجنود واعلنوا موافقتهم على الاشتراك بهذا الرهان ، وسأل احدهم آتوس :

ــ وما هو المبلغ الذي يتوجب على الخاسر دفعه ؟

فقال آتوس :

ــ أنتم اربعة ونحن اربعة ، وعلى الفريق الخاسر ان يعد وليمة لثمانية اشخاص .. فهل توافقون على هذا الرهان ؟

فهتف الجنود الاربعة بصوت واحد :

ـ موافقون..

وفي هذه اللحظة اعلن الفندقي بان الطعام قد أصبح معداً ، فنادى آتوس خادمه غريمو وطلب اليــــه ان يضع الطعام في سلة كبيرة ، فاسرع غريمو ينفذ رغبة سيده دون اعتراض .

وعلى الاثر تناول آتوس من جيبه دينارين رماهما الى الفندقي وقـــال :

ـ هيا ائتنا بزجاجتين من الشمبانيا ، واحتفظ بالباقي لادوات الطعام .

وشعر الفندقي بانه لم يفز بصفقة رابحة مع هؤلاء الفرسان ، فانتهز فرصة انشغالهم ، ودسّ زجاجتين من نبيذ انجو بدلاً من الشمبانيا .

وقبل ان يغادر الفرسان الاربعة النزل ، التفت آتوس الى احد المراهنين المدعو « بوسيني » وقال :

ـ هل لك ان تضبط ساعتك على ساعتي ؟

فتناول المدعو « بوسيني » ساعته وقال :

ـ الساعة الآن السابعة والنصف تماماً .

ثم خرج الفرسان الاربعة يتبعهم الخادم غريمو يتأبط بذراعه سلة الطعام الكبيرة ، واتجهوا رأساً نحو حصن « سان جرفيه » .

ولما اصبحوا في منتصف الطريق التفت دارتنيان الى آتوس يسأله :

ـ هل لك يا عزيزي ان توضح لي هدف هذه الزيارة ؟

فأجابه آتوس ببرود :

ـ هناك أمور غاية في الخطورة يجب ان نتباحث فيهـــا على انفراد ، ولانه يستحيل علينا ان نتداول فيهـا في ذلك النزل وسط هذا الجمع الغفير من الجنود والفرسان . واشار آتوس بيده الى الحصن الذي بدا للعيان وأردف يقول :

ـ اما هناك ضمن الحصن ، فلن يزعجنا أحد ..

وتدخل بورتوس بالحديث وقال :

ـ يبدو لي انه كان من الاجدر بنا في مثل هذه المغامرة ، ان نتسلح ببنادقنا .

فأجابه آتوس :

ـ لا حاجة بنا الى ان نثقل كواهلنا في حمل البنادق ... فاذا احتجنا الى شيء من ذلك ففي الحصن يمكننا ان نجد حاجتنا من البنادق والرصاص والبارود ، اذا اضطررنا ان ندافع عن انفسنا .

فهتف اراميس قائلا :

ـ حقاً انك رجل عظيم يا عزيزي آتوس !

وكان الخادم غريمو ، حتى تلك اللحظة يشك في موضوع هـذه الزيارة ، فاقترب من سيده وشده بذيل معطفه من الخلف وقال :

ـ الى اين نحن ذاهبون ؟

فأشار آتوس بيده نحو الحصن دون ان يكلف نفسه عنـــاء الكلام .

فقال غريمو :

ـ ولكن هذه المجازفة قد تقضي علينا يا سيدي ..

فلم يرد آتوس على حديث خادمه ، مما حدا بهذا الاخير ان

يضع السلة على الارض ويجلس الى جانبها.. فتناول آتوس غدّارة من حزامه ، وقرّبها من رأس غريمو ، فانتفض المسكين وكأن سلكاً كهربائيـــاً قد مسه ، فأشار اليه آتوس ان يحمل السلة ويتقدمهم ، فصدع للامر دون تردد ، وتقدم الصفوف ، واصـبح في المقدمة ، بعد ان كان في المؤخرة .

وبعد دقائق قليلة وصل الرفاق الاربعة مع خادمهم الى الحصن فأداروا وجوههم ناحية المعسكر ،فشاهدوا اكثر من ثلاثمائة جندي محتشدين على باب المعسكر ، وفي مقدمتهم المراهنين الاربعـة ، فتناول آتوس قبعته من على رأسه ولوح بها للجنود ، فردوا على تحيته بالهتافات ..

وبعد ذلك توارى الرفاق الاربعة داخل الحصن ، وكان قد سبقهم اليـــه الخادم غريمو .

٤٧

« مجلس حرب » الفرسان

●

وصح ما توقعه آتوس ، فلم يكن في الحصن سوى عشرات القتلى من الفرنسيين واعدائهم اهالي لاروشيل البروتستانت .

فالتفت آتوس الى رفاقه وقال :

- ايها الرفاق علينا ان نسرع بجمع عدد من البنادق الصالحة الاستعمال وكميات من الطلقات النارية ، ريثما ينتهي غريمو من اعداد الطعام .

فوافق الرفاق على اقتراح آتوس ، وبدقائق معدودة جمع الرفاق اثنتي عشرة بندقية ومئة طلقة . وقبل ان يبدأ الرفاق بتناول طعامهم ، طلب اليهم آتوس ان يحشوا بنادقهم لتكون جاهزة ، كما اوعز الى خادمه غريمو بان يقوم بمهمة الحراسة بعد أن أعطاه نصيبه من الطعام وزجاجة من نبيذ الجو .

وافترش الفرسان الاربعة الارض وراحوا يلتهمون طعامهم

بشهية ويتجرعون زجاجات النبيذ .
والتفت دارتنيان الى صديقه آتوس يقول :
ـ والآن وقد اصبحنا في مكان لا نخشى ان يسمعنا فيه احد ، فأرجو ان تطلعنا على سرك الخطير ؟ ..
فتردد آتوس بعض الوقت ثم قال :
ـ ان السر الذي تلح بالاطلاع عليه ، هو انني قابلت ميلادي ليلة امس .
فارتعشت اطراف دارتنيان وقال :
ـ أتعني انك رأيت إمرٍ ...
فقاطعه اتوس بقوله :
ـ صه .. لعلك نسيت انني لم اطلع غيرك على شؤوني الخاصة
وسأله دارتنيان :
ـ واين قابلتها ؟
ـ على بعد مرحلتين من هنا في نزل « الحمامة الحمراء » .
اجابه دارتنيان :
ـ اذن فهي ما تزال تجد في أثري ... وستحاول القضاء علي ..
ـ لا تخشَ بأساً ، فهي الآن على ظهر سفينة تقلها بعيداً عن الشواطىء الفرنسية .
فتنفس دارتنيان الصعداء .
وكان بورتوس قد ضاق ذرعاً فصاح يسأل آتوس :
ـ ومن هي هذه المرأة المسماة ميلادي ؟
ـ انها سيدة فاتنـة ، اظهرت كل عطف واخلاص لصديقنـا

دارتنيان ، ويبدو انه لسبب اجهله قد نقمت عليه ، وحاولت ان تنتقم منه ، فمنذ شهر تقريباً دبرت مؤامرة لاغتياله بواسطة اثنين من الاشرار ، ثم حاولت تسميمه ، وامس طلبت رأسه من الكردينال نفسه .

وسأل دارتنيان :

ـ ما الذي طلبته من الكاردينال ؟

فأجابه بورتوس قائلاً :

ـ هذا صحيح يا عزيزي صحة كلام الانجيل ، فقد سمعته باذناي . كما سمعه آتوس وارامیس .

فأرخى دارتنيان ذراعيه دلالة اليأس وقال :

ـ اذن فلا فائدة من الاستمرار في النضال ...

فربت آتوس على كتفه وقال :

ـ لا تقنط ايها العزيز ، فلا مجال لليأس .

وهنا برز غريمو من الجهة المقابلة يصيح بالفرسان :

ـ هناك قوة من الاعداء متجهة نحونا ...

ـ وكم عددها ؟

ـ عشرون رجلاً .

ـ وما هي المسافة التي تفصلنا عنهم ؟

ـ حوالي خمسماية خطوة .

اجابه آتوس :

ـ حسناً لدينا متسع من الوقت لنلتهم ما تبقى من هذه الدجاجة ، ونأتي على آخر قطرة من النبيذ .

ورفع كأسه قائلا :

ـ ايها الرفاق لنشرب في صحة دارتنيان ..

فقلب الفارس الشاب شفتيه وقال :

ـ قد لا تساوي حياتي بعد اليوم ادنى قيمة .

فشد آتوس على ذراعه وقال :

ـ الله اكبر ، كما يقول المسلمون ، والمستقبل بيد الله ، فلا تخش بأساً ولا تجعل اليأس يستحوذ على نفسك !

قال هذه العبارة ، وافرغ كأسه في جوفه دفعة واحدة ، ثم نهض وتناول بندقية من البنادق الاثني عشرة ، فتبعه على الاثر الرفاق الثلاثة وتسلح كل منهم ببندقية ، بينما اوعز آتوس الى خادمه غريمو ان يبقى في المؤخرة لكي يتولى تعبئة البنادق التي تفرغ .

وبعد مضي لحظات معدودة ، وصلت القوة الى الخندق المجاور للحصن والذي يربط المدينة بالحصن .

واخذت اراميس الشفقة على هؤلاء المساكين .

فبادره بورتوس بقوله :

ـ حقا انك راهب قليل الايمان ، لانك تشفق على جماعة من الهراطقة .!

وفي تلك اللحظة كان آتوس يقوم بمناورة خطرة ، اذ وقف في مكان بارز يطل على الجنود والعمال الزاحفين نحو الحصن ، ورغم معارضة دارتنيان لذلك فقد رفع صوته يخاطبهم وكانوا قد اصبحوا على بعد خمسين خطوة :

ـ ايها السادة ، لقد احب بعض الرفاق وانا من بينهم ، ان نتناول

طعام الفطور داخل هذا الحصن،ولهذا نطلب اليكم الانتظار بعض الوقت ريثما ننتهي من تناول طعامنا ... هذا اذا كنتم ترفضون الانضمام الينا ومشاركتنا في شرب نخب ملك فرنسا .

وهنا صاح به دارتنيان :

ـ حذار يا آتوس ، انــــه يصوّب بندقيته الى صدرك ... حـــذار ..

فأجابه آتوس ببرود :

ـ انهم من الطبقة البورجوازية ، وهم لا يحسنون اصابة الهدف .

ولم يكد يتم دارتنيان عبارته حتى انطلقت اربع رصاصات وسقطت على مقربة من آتوس ، دون ان تمسه بأذى .

وبعد لحظات قليلة دوّت أربع طلقات اخرى ، صادرة عن الفرسان الاربعة ، فأصابت ثلاثة من الجنود سقطوا في الحـــال صرعى ، واصيب احد العمال بجرح بالغ في كتفه .

وصاح آتوس بخادمه :

ـ ناولني بندقية محشوة ...

فاسرع غريمو يلبي طلب سيده ، بينما حشا الفرسان الثلاثة بنادقهم واطلقوها مرة ثانية ، فأصابت هذه المرة ، الجاويش الذي يرافق القوة واثنين من العمال ، اما باقي القوة فقد اركن افرادها الى الفرار ...

وصاح آتوس جذلاً :

ـ والآن هلموا ايها الرفاق ، لنبرح الحصن ...

وقفز الرفاق الاربعة الى خارج الحصن، ولما وصلوا الى ساحة

المعركة ، استولوا على البنادق الاربع ، وعلى الرمح الذي كان يحمله جاويش القوة .

والتفت آتوس الى خادمه وقال :

ــ أسرع بتعبئة البنادق يا غريمو ... بينما نستأنف حديثنا .

فسأله دارتنيان :

ــ قلت انها غادرت الاراضي الفرنسية ، فإلى اين ذهبت ؟

ــ لقد قصدت لندره . وهدفها اغتيال الدوق دي بوكنغهام .

فارسل دارتنيان صيحة دهشة واستنكار وقال :

ــ إنه عمل سافل ...

فقال آتوس :

ــ اما انا فلا اهتم كثيراً بهذا الامر .

ثم التفت الى غريمو الذي انتهى من حشو البنادق وأردف يقول :

ــ خذ هذا الرمح واربطه بطرف منديل ابيض واغرسه في اعلى الحصن ، لكي يعلم هؤلاء الثائرون انهم يقاتلون خصوما شجعانا مخلصين للملك .

فقام غريمو ينفذ تعليمات سيده بدقة وسرعة ، وما ان انقضت لحظات قليلة على رفع العلم الابيض ، حتى قابله رفاق الفرسان الاربعة من وراء الحواجز بالهتافات والتشجيع .

وعاد دارتنيان يقول :

ــ ولكن لا تنس ان الدوق هو صديق لنا .

اجابه آتوس

ــ ولا تنسَ انه انكليزي ، وهو الذي قاد الحملة ضد قواتنا في

جزيرة « ري » . . . ولذا فلتفعل ميلادي بالدوق ما تشاء فلا يعنيني من أمره شيئاً .

وقال دارتنيان :

– انه قدم لنا خدمات جلى في الماضي ، فمن واجبنا ان نقابله بالمثل على الاقل . . .

وقال اراميس :

ـ ان الله يريد التوبة للخاطىء ، لا هلاكه . . .

فاجاب آتوس بنفاد الصبر :

ـ دعونا من هذا الحديث ، فسنعود الى بحثه في مناسبة اخرى .

والتفت الى دارتنيان واستطرد يقول :

ـ اما الذي يهمك ان تعرفه فهو انني تمكنت من ان انتزع من تلك المرأة الماكرة الوثيقة التي تحمل توقيع الكردينال ، والتي بواسطتها يمكنها ان تتخلص منك وربما منا ايضاً .

فقال بورتوس :

ـ اذن فهذه المخلوقة هي الشيطان الرجيم بعينه . .

فسأل دارتنيان صديقه بقلق :

ـ وهل هذه الورقة ما زالت بحوزتك :

فمد آتوس يده الى جيبه الداخلي وتناول ورقة مطوية قدمها لدارتنيان ، الذي اخذهـا بلهفة وراح يتلوها بصوت مرتفع على مسمع من رفاقه :

« إن حامل هذه الرسالة قد فعل ما فعـــله بامري ولمصلحة الدولة . . ٣ كانون الاول ١٦٢٧ ريشليو »

فقال اراميس :

ـ انها وثيقة مستوفية الشروط القانونية .

وقال دارتنيان :

ـ يجب تمزيق هذه الوثيقة في الحال .. فهي تحمل الموت بين سطورها ..

فهز آتوس رأسه وقال :

ـ اخطأت، بل علينا ان نحتفظ بها فهي كنز ثمين، يمكننا الاستفادة منه في المستقبل .

فقال بورتوس :

ـ من حسن حظنا انها بعيدة الآن عن فرنسا .

فأجابه آتوس :

ـ ولكنها تقلقني سواء كانت في انكلترا أو في فرنسا .

قال دارتنيان :

ـ انها مصدر قلق لي اينما كانت .

ثم صمت لحظة وأردف يقول :

ـ لدي فكرة ايها الرفاق ..

وقبل ان يتم عبارته صاح غريمو من برج المراقبة :

ـ الى السلاح ... الى السلاح ..

فوثب الفرسان الاربعة بسرعة الى بنادقهم .

وكان القادمون في هذه المرة قوة مؤلفة من خمسة وعشرين جندياً يحملون البنادق ويسيرون بخطوات ثابتة نحو الحصن ، ولم يكن بينهم احد من العمال ، بل كانوا من جنود الحامية .

فقال بورتوس :

ـ ارى ان نعود في الحال الى المعسكر ، لان الكفة غير متعادلة هذه المرة ..

فصاح به آتوس قائلا :

ـ من المستحيل ان نعود بهذه السرعة لعدة اسباب ، منها اننا لم نفرغ من بحث مشاكلنا الخاصة بعد ، وفوق ذلك وهو الاهم فان المدة المحددة لبقائنا في الحصن لم تنته بعد ، ولا يزال امامنا عشر دقائـــق .

فقال اراميس :

ـ اذن علينا ان نرسم خطة لمجابهة هذا الهجوم الطارىء .

فأجابه آتوس :

ـ الامر اسهل مما تتصور ، ففي اللحظة التي يصبح فيها اعداؤنا في متناول بنادقنا نمطرهم بوابل من رصاصنا ، فاذا واصلوا الزحف نحو الحصن اعدنا الكرة مرة ثانية وثالثة الى ان نجبرهم على التراجع .

فتحمس بورتوس لهذه الخطة وصاح :

ـ مرحى آتوس ، انك خلقت لتكون قائـــداً كبيراً تفوق الكردينال مهارة ودهاء .

فصاح آتوس :

ـ اوصيكم ان تحسنوا التصويب على اهدافكم ، لكي لا تفرطوا بالطلقات المحدودة التي بحوزتنا ...

وانطلقت اربع رصاصات لتصرع اربعة من الجنود المهاجمين ، واثارت هذه المفاجأة نقمة ضابط القوة ، فأمر جنوده بان يطوقوا

الحصن ، وتوالت البنادق الاربع تقذف حممها بلا انقطاع ، وتصيب الهدف ، ومع ذلك استمر الجنود المهاجمون في مواصلة زحفهم ، ولما وصلوا الى حافة الخندق كان كل ما بقي من طلقات نارية في حوزة الفرسان الاربعة خمس عشرة طلقة . وادرك آتوس الخطر الذي يتهدده مع رفاقه فأسرع الى تنفيذ فكرة جهنمية رسمها في مخيلته منذ الساعة التي اعتزم فيها الصمود بوجه هذه القوة .

وصاح برفاقه :

ـ هلموا الى الجدار المتداعي الذي يشرف على الخندق ايها الرفاق ... ولنفرغ من امرهم ، ما داموا يأبون الا الموت ... فالى الجدار ...

وتقدم الفرسان الاربعة من الجدار المتداعي وانضم اليهم غريمو واسندوا فوهات بنادقهم اليه ، وراحوا يدفعونه بشدة واذا بالجدار ينفصل عن قاعدته ويتمايل ، ثم يهوى الى الخندق محدثاً دوياً رهيباً ، اختلط باصوات الذعر التي تعالت من افواه الجنود ، واعقبها انين الجرحى وحشرجة المحتضرين ..

فغمغم آتوس بصوت خافت :

ـ اعتقد اننا اجهزنا عليهم جميعاً .

فصاح بورتوس من الطرف الآخر يقول :

ـ هناك ثلاثة اشخاص استطاعوا النجاة .

وفي الواقع تمكن اربعة من الجنود من الخلاص ، وار كنوا الى الفرار في حالة ذعر وخوف متجهين نحو مدينة لاروشيل .

وتناول آتوس ساعته وقال :

ـ لقد مضى على وجودنا داخل هذا الحصن ساعة كاملة ، وبذلك نكون قد كسبنا الرهان ... وعلينا قبل العودة الى المعسكر ان نستمع الى فكرة دارتنيان .

فقال دارتنيان :

ـ ما رأيكم في السفر مرة ثانية الى انكلترا ، لمقابلة الدوق دي بوكنغهام ؟

اجابه آتوس :

ـ لن تقدم على هذه الحماقة ...

ـ ولماذا .. الم اذهب في الماضي الى انكلترا ؟

اجابه آتوس ببرود :

ـ لقد تبدلت الظروف ، فنحن الآن في حالة حرب مع الانكليز ، وكان الدوق في ذلك الحين حليفاً لنا وليس عدواً .. اما في الظروف الحاضرة فكل محاولة من هذا القبيل تعتبر خيانة .

فأدرك دارتنيان خطورة مجازفته ، ففضل السكوت .

فتدخل ارامیس الذي ظل صامتاً وقال :

ـ لدي فكرة قد تكون صائبة ، وهي ان نطلع الملكة على ما نعرفه من امور خطيرة ..

فهتف آتوس :

ـ نطلع الملكة .. ولكن كيف يتسنى لنا ذلك وليس لنا علاقات وثيقة بالبلاط .

قال ارامیس وقد تضرج وجهه بالاحمرار :

ـ انا اتعهد بايصال الرسالة الى الملكة بطريقة مضمونة ، فانني اعرف في مدينة تورس شخصاً مأموناً ..

وتوقف اراميس عن الكلام وهو يرى ابتسامة ذات مغزى ترتسم على شفتي آتوس .

فقال دارتنيان مستفهماً :

ـ ألا توافق يا آتوس على هذه الفكرة؟

ـ لست اعارض هذه الفكرة، ولكنني اريد ان أبدي ملاحظة هامة لأراميس ، بانه ليس بامكانه ان يغادر المعسكر ، امـا اذا اراد الاعتماد على رسول من قبله ليوفده الى تورس ، فمعناه ان جميع الاباء الكبوشيين ، ورهبان الاديرة الذين ينتمون للكردينال سينقلون نص الرسالة الى نيافته بحذافيرها قبل ان تصل الى مرسلها في تورس ، وتنتهي هذه المهزلة بالقاء القبض عليـه وعلى الشخص الذي يعتمد عليه في تورس .

وفي هذه الاثناء قال آتوس :

ـ يخيل لي اني اسمع صوت النفير العام ، صادراً عن معسكر الاعـــداء ...

فارهف الرفاق الاربعة السمع ، فترامى الى مسامعهم صوت قرع الطبول واضحة جلية .

فاردف آتوس يقول :

ـ سترون انهم سيجردون ضدنا فرقة بكاملها .

وقال دارتنيان :

ـ اظن ان صوت الطبول يقترب منا .

اجابه آتوس :

ـ دعهم يقتربون فلدينا متسع من الوقت ، لننجو بانفسنا ، ونخرج سالمين ..

ثم التفت الى دارتنيان يسأله :

ـ ما اسم شقيق زوج تلك الماكرة « ميلادي » ؟

ـ اللورد دي ونتر .

ـ واين هو الان ؟

ـ لقد عاد الى لندره في اليوم الذي نشبت فيه الحرب .

ـ حسناً ، فهو الرجل الذي نحتاج اليه لتنفيذ خطتنا ، وعلينا أولاً ان نعلمه بان زوجة شقيقه المتوفي تنوي اغتيال احد كبار النبلاء الانكليز ونطلب اليه ان يراقبها مراقبة شديدة . ولا تخلو لندره من بعض المؤسسات الخاصة بالفتيات التائبات ، باستطاعة اللورد ان يحجز ميلادي باحداها وبذلك نأمن شرها نهائياً .

فقال اراميس :

ـ وارى من الافضل ان نبلغ الملكة واللورد دي ونتر في وقت واحد .

فقال دارتنيان :

ـ ومن سيتولى نقل الرسالتين الى تورس والى لندره ؟

فأجابه اراميس :

ـ أما رسالة تورس فاعتمد على خادمي بازان في ايصالها .

ـ وانا على خادمي بلانشيه لايصال الرسالة الى لندره .

فقال بورتوس :

ـ اذا كنا لا نستطيع مغادرة المعسكر، فليس ما يمنع خدمنا من القيام بهذه المهمة .

فقال اراميس :

ـ فعلينا من اليوم ان نحرر الرسالتين ونزود الخادمين بازان وبلانشيه بالمال اللازم ليبدآ رحلتهما غداً .

فسأله آتوس :

ـ ومن اين نأتي بالمال اللازم ؟

وتبادل الرفاق الاربعة النظرات ، وعلت وجوههم سحابة حزن ، لم تدم طويلاً . . .

وصاح دارتنيان فجأة :

ـ حذار ايها الرفاق . . اني ارى اشباحا عديدة تتحرك نحونا . . أعتقد ان هناك جيشاً برمته يزحف .

ورمى آتوس بنظره وقال :

ـ حقا انهم يزحفون بسرعة فائقة .

ثم التفت الى خادمه غريمو وسأله :

ـ هل نفذت ما طلبته منك ؟

فهز غريمو رأسه مشيراً الى دزينة من جثث الموتى انتصبت وفي ايديها البنادق بشكل يخيل للناظرين من بعيد انهـا جنود متأهبون للقتال .

فقال آتوس :

ـ احسنت صنعاً يا غريمو ، لقد قمت بعمل تستحق عليه الثناء .

فقال بورتوس :

ـ لم افهم الغـــاية من هذا العمل كله !

فاجابه دارتنيان :

ـ ستفهم فيما بعد ، والآن هيا بنا لنبرح الحصن.

واسرع الرفاق في مغادرة الحصن وكان الخـــادم غريمو قد سبقهم الى الخروج يحمل سلته الفارغة . ومـا كادوا يسيرون بضع خطوات حتى صاح آتوس :

ـ لقد نسينـــا انزال الراية ايها الرفاق .. ومن العار علينـــا ان نترك علمنا بيد اعدائنا ، ولو لم يكن في الواقع سوى منديل ابيض .

وهرول مسرعاً الى قمة الحصن ، وانتزع العلم من مكانه ، ولوّح به محيياً رفاقه في المعسكر . وفي تلك اللحظة كان جنود لاروشيل قد اقتربوا من الحصن ، وانطلقت ثلاث رصاصـــات اصابت العلم الابيض ...

وتعالت الصيحات من رفاقه :

ـ انزل ... انج بنفسك . .

فهبط قمة الحصن بخطى ثابتة ، غير عابىء بما يحدق بـــه من أخطـــار .

وما ان ابتعد الرفاق الاربعة عن الحصن ، حتى تجـــاوبت اصداء الطلقات النارية تنهمر على الحصن بكثرة هائلة .

فصاح بورتوس متعجباً :

ـ ولكن على من يطلقون النار ؟

اجابه آتوس :

ـ انهم يطلقونها على جثث القتلى التي تركناها منتصبة وبايديها البنـــادق .

وما ان ابصر الجنود الفرنسيون رفاقهم الاربعة عائدين وهم يسيرون بخطى ثابتة ،حتى تعالت اصواتهم بالهتاف ودوّت اكفهم بالتصفيق الحاد .

وكان جنود لاروشيل قد وصلوا الى الحصن وادركوا الحيلة التي عمد اليها آتوس ، فازدادت نقمتهم وراحوا يطلقون الرصاص على غير هدى في اثر الفرســـان الاربعـــة .

وهنا التفت آتوس الى رفاقه وقال :

ـ يالهم من جنود لا يحسنون اصابة الهدف . . لقد قتلنـــا منهم اثني عشر رجلاً بالرصـــاص ، ولم نصب بجرح بسيط . . .

وحانت من آتوس التفاتة الى يد دارتنيان ، فوجد نقطة دم متجمدة فسأله :

ـ هل اصابك رصاص العدو؟

اجابه دارتنيان :

ـ كلا . . انه خدش بسيط نتج عن احتكاك فص الخاتم الماسي باصبعي بينما كنا ندفع الجدار المتداعي .

فصـــاح بورتوس :

ـ ان هذا الخاتم الماسي ، يحل ازمة المـــال التي نعانيها . . . وعلينا ان نبيع الخاتم لنحصل على المال اللازم لتنفيذ ما اتفقنا عليه .

فبادره دارتنيان يقول :

ـ ولكن هذا الخاتم هو هدية من الملكة .

فاجابه آتوس :

ـ هذا لا يمنع ، فنحن سنستخدم ثمن الخاتم لانقاذ الدوق دي بوكنغهام عشيق الملكة .

فقال دارتنيان دون تردد :

ـ اذن فلنبع الخاتم .

وكانوا قد اقتربوا من المعسكر فقال آتوس :

ـ لا تزيدوا كلمة واحدة على ما اتفقنا عليه ، ولنلتزم الصمت المطبق .

وقطع عليه الكلام اصوات الهتافات ، فقد كان المعسكر يضج بمئات الجنود والفرسان الذين تجمهروا للترحيب بالفرسان الاربعة . ودوّت الهتافات من كل جانب « ليحيى الفرسان . . . وكان أول المرحبين بهم الجنود الاربعة كما امتدت مئات الايدي بالمصافحة والعناق .

واشتد الضجيج والحماس لدرجة ان الكردينال نفسه أرسل قائد حرسه يستطلع جلية الامر ، وخشي أن يكون الشقاق قد دب بين افراد الجيش .

وعاد القائد لاهوديننيير بعد أن استوضح الامر ، ليعلم نيافته بالخبر اليقين .

فسأله الكردينال :

ـ وهل عرفت اسماء هؤلاء الفرسان ؟

ـ اجـــل يا مولاي انهم : آتوس ، بورتوس ، اراميس ودارتنيان .

فتمتم الكردينال وكأنه يحدث نفسه :
ـ دائماً هؤلاء الفرسان الذين يقومون باعمال المطولة . ولذا يجب ان ألحقهم بخدمتي .
وفي المساء تحدث نيافته مع القائد دي تريفيل ، وأثنى على شجاعة فرسانه . وكان دي تريفيل قد سمع تفاصيل المغامرة منهم ، فراح يسردها على الكردينال ، دون ان ينسى اسطورة الراية الطريفة .
فأجابه الكردينال :
ـ اعطني هذه الرأية ، وسأعيدها اليك مطرزة بثلاث زنابق فتجعل منها شعاراً لفرقتك .
فقال دي تريفيل :
ـ ولكن هذا العمل يعتبر اجحافاً بحق رجال الحرس ، لان دارتنيان ينتمي الى فرقة حرس القائد دي زيسار .
ـ اذن يمكنك ان تلحقه بفرقتك في الحال ، اذ من المفروض ان يكون الفرسان الاربعة ضمن فرقة واحدة .
وفي المساء نفسه ارسل دي تريفيل في طلب الرفاق الاربعة ، وزف اليهم بشرى انضمام دارتنيان الى فرقتهم ، ثم دعاهم الى وليمة غداء في اليوم التالي .
وغمر الفرح قلب دارتنيان ، فقـــد تحقق حلمه واصبح فارساً يشار اليه بالبنان من فرقة فرسان الملك .
وبعد ان تلقى البشرى من القائد دي تريفيل ، توجه لتوه الى قائده السابق دي زيسار ليقدم شكره ، ويبلغه نبأ انتقاله الى فرقة فرسان الملك .

وحاول القائد دي زيسار، الذي كان يحب دارتنيان ويعجب بشجاعته ان يثنيه عن عزمه، فاعتذر فارسنا الشاب بانه لاعتبارات خاصة مضطر لملازمة رفاقه الثلاثة، ثم رجا قائده ان يتولى بيع الخاتم الماسي ليتمكن من شراء لباس ومعدات جديـــدة تليق بالفرسان .

وفي اليوم التالي حضرّ خادم القائد دي زيسار وسلم دارتنيان كيساً يحتوي على سبعة الاف دينار ، هي ثمن الخاتم الماسي الذي اهدته اليه الملكة .

٤٨

مشاكل عائلية

•

وكان كل من الفرسان الاربعة يبحث عن حـل للمشكلة التي تشغل بالهم ، وهي وضع حد نهائي لاعمال ميلادي الشريرة .

فوجد آتوس ان القضية هي مشكلة عائلية بالنسبة له ، وعليه ان يتولى وحده معالجتها .

اما ارأميس فقد اقترح الاستعانة بالخدم لتسوية هذه المشكلة.

ووجد بورتوس ان بيع الخاتم الماسي يحل المشكلة .

وحاول دارتنيان ان يجد وسيلة لهذه المشكلة فلم يفلح،ولكن يجب الاعـتراف ان مجرد ذكر اسم ميلادي كان يشغل تفكيره وكان كل ما عمله ان باع خاتمه الماسي ، ليستعين بثمنه على تنفيـذ الخطـــة .

وكانت وليمة القائد دي تريفيل موفقة جداً ، فقد استقبل دي تريفيل فرسانه ببشاشة وترحاب ، لم يتعودوها منه اثناء قيامهم

بالوظيفة . وبرح الفرسان الاربعة منزل قائدهم وهم أشد اخلاصاً وحبا له منهم في اي وقت مضى .

وكان دارتنيان يرتدي زي الفرسان ، فقد استعار بذلة جديدة من رفيقه اراميس تناسب قامته .

وكان الرفاق الاربعة قد تواعدوا على اللقاء في مسكن آتوس لبحث مشكلاتهم الرئيسية ، ويجدوا الحل النهائي لها .

وكان موضوع البحث والمناقشة بينهم منحصراً في الشخصين الصالحين لنقل الرسالتين الاولى الى اللورد ونتر في انكلترا والثانية الى تورس .

واحتدم النقاش بينهم على هـــذه النقطة ، فقد اصرّ كل من الفرسان الاربعة على اسناد هذه المهمة الى خادمه ، مؤكداً انـه يتحلى بمميزات تجعله جديراً بالقيام بمثل هذا العمل .

ورأى اراميس ان الوقت يمضي والنقاش يتشعب فقال :

ـ صبراً ايها الرفاق ، فليس المهم ان نعرف اي الاربعة اكثر تكتماً واصلب عوداً ، بل المهم ان نعلم ايهم اشد غراماً بالخمرة والنساء .

فاجابه آتوس وقد طرب لهذا الاستنتاج المعقول :

ـ اصبت يا اراميس فقولك لا يخلو من ذكاء وحكمـة ، فمن الضروري ان نحـــكم على الاشخاص بنسبة نقائصهم لا بنسبة فضـائلهم .

فتدخل اراميس ليغير مجرى الحديث وقال :

ـ اما فيما يختص بالرسالة المنوي ارسالهـا الى اللورد دي ونتر

فاقترح ان تكون باسم دارتنيان باعتباره صديقه على ان تكون على الشكل التالي :

« سيدي الدوق .

ان الشخص الذي يكتب اليك هذه السطور ، قد اسعده الحظ بان يتشرف سيفه بمعانقة سيفك في مبارزة جرت منذ مدة في قلب باريس .

ولما كان الحظ قد خدمه فقبلته صديقا لك فقد اصبح من واجبه كصديق مخلص ان يطلعك على شؤون خطيرة تتعلق بك .

لقد اوشكت ، في مرتين متواليتين ان تذهب ضحية بريئة لقريبة لك ، طمعا بالاستيلاء على ثروتك ، ذلك ان تلك القريبة ، قبل ان ترتبط برباط الزواج في انكلترا مع اخيك المتوفي ، كانت متزوجة في فرنسا ، وزوجها ما يزال على قيد الحياة حتى الان . وقد قصدت منذ ايام الى انكلترا للقيام بمحاولة مجرمة ، وعليك بأن تراقبها مراقبة دقيقة ، لان في رأسها مشاريع مخيفة . واذا شئت ان تعرف معرفة حقيقية اعمالها ، فاقرأ ماضيها المظلم على كتفها اليسرى . »

فقال آتوس :

ـ احسنت يا اراميس ، ليس بالامكان الاتيان بعبارات ابلغ من هذه في الموضوع الدقيق الذي نعالجه . واذا قدر لهذا الكتاب ان يصل الى اللورد دي ونتر ، فانه سيتخذ التدابير اللازمة لاحباط اعمال ميلادي ومشاريعها الآثمة ، وليس لدينا ما نخشاه اذا وقع الكتاب في يدي الكردينال ، فهو لا يتضمن اشارة

صريحة الى حدث معين ، وليس فيه ذكر لشخص من الاشخاص ، كما انه لا يحمل في ذيله اي توقيع . ثم التفت الى دارتنيان وأردف يقول :

ـ والآن اين الخاتم الماسي ؟

اجابه دارتنيان :

ـ لقد بعته والمبلغ الآن في جيبي .

فسأله آتوس :

ـ وبـــكم بعته ؟

ـ بسبعة الاف قطعة تساوي كل قطعة منها اثني عشر فرنكاً .

فصاح بورتوس مندهشا :

ـ يا الهي .. هـــل يساوي ذلك الخاتم العادي سبعة آلاف دينـــار ؟..

فهتف آتوس جذلاً :

ـ يمكن بهذا المبلغ الضخم ان نجترح العجائب .

والتفت الى اراميس واردف يقول :

ـ والان عليك ان تسطر رسالة اخرى الى تلك السيدة العظيمة الموجودة في مدينة تورس ، لتتولى ابلاغ الملكة في باريس .

فتناول اراميس القلم مرة اخرى ، وراح يفكر بعض الوقت ثم كتب الرسالة التالية :

« عزيزتي ابنة العم !

فعلق آتوس على هذه العبارة بلهجة ساخرة قائلا :

ـ اذن فهذه السيدة تتصل بك بصلة القرابة ؟

اجاب اراميس متجاهلاً غمزة آتوس :
ـ انها احدى قريباتي ..
ثم تابع تسطير الرسالة ..
« ان نيافة الكردينال حفظه الله ، من اجل سعادة فرنسا ، وخزياً لاعدائها ، قد اوشك على الانتهاء من امر الهراطقة المتمردين ومن المرجح ان الامدادات التي يترقبها الثوار من الاسطول الانكليزي لن تصل اليهم ، كما اني استطيع ان اؤكد لك ان الدوق دي بوكنغهام لن يتمكن من قيادة الاسطول بسبب حادث خطير سيقع له . ولا ريب ان نيافته سياسي عظيم ، بل هو امهر الساسة الذين عرفتهم العصور الماضية والحاضرة ، فهو لا يتاخر عن اطفاء نور الشمس اذا وجد من الشمس اي ازعاج او مضايقة ... لا تنسي ان تنقلي هذه الاخبار السارة الى شقيقتك العزيزة .. لقد رأيت في المنام ان ذلك الانكليزي اللعين قد لقي حتفه ، لكنني لم اعد اذكر باية صورة كان ذلك ، اهو بالرصاص ام بالسم ؟ والشيء الوحيد الذي اذكره ، هو انني رأيته يموت ، وانت تعلمين ان احلامي لا تخطىء ابداً .
والى اللقاء في القريب العاجل . »
فصاح آتوس باعجاب :
ـ لقد ابدعت يا اراميس ، فانت ملك الشعر والبيان .
فقابل اراميس ثناء صديقه آتوس بابتسامة رضى ، وطوى الرسالة وختمها ثم كتب عليها العنوان التالي :
« الى الانسة ميشون ، غسالة في تورس »

فتبادل الرفاق الثلاثة النظرات والابتسامات ذات المعنى .

فتجاهل اراميس نظراتهم وقال :

- لا حاجة لان اذكركم بان خادمي بازان هو الشخص الوحيد الذي يمكنه حمـل هذه الرسالة الى تورس ، وايصالها الى صاحبتها ، لان ابنة عمي لا تعرف سواه رسولاً من قبـلي ولا تثق بغيره .

فقال دارتنيان :

- لست اعارض ذلك ، شريطة ان توافقوا عـلى ايفاد خادمي بلانشيه ليحمل رسالة اللورد دي ونتر ، فهو خير من قام بمثل هذه المهمة .

فقال آتوس :

- علينا ان نعطي بلانشيه ألفاً وأربعماية دينار نفقات رحلته ذهاباً واياباً ، وننقد بازان مبلغ ستماية دينار نفقات رحلتـه ، وبذلك يبقى لدينا مبلغ خمسة الاف دينار ، فأقترح ان يأخذ كل منا الف دينار ، لينفقها في سبيل المصلحة المشتركة . امـا الالف دينار الباقية فنسلمها الى الكاهن اراميس ليدخرها لحين الحاجة القصوى ..

فقال اراميس :

- انك يا عزيزي آتوس تتكلم كرجل عاقـل ، عركه الدهر وحنكته الايام .

واستدعى دارتنيان خادمه بلانشيه وزوده بالتعليمات الوافية عن المهمة التي سيقوم بها ، وخاطبه بقوله :

ـ لقد حددنا ثمانية ايام لوصولك الى لندره وثمانية ايام أخرى لعودتك الى هنا ، وعليك ان تعود الينا عند الساعة الثامنـــة من مساء اليوم السادس عشر ، واذا وصلت متأخراً ساعة واحـدة تخسر المكافأة . .

فقال بلانشيه لسيده :

ـ ارجو ان تزودني بساعة لاستعين بها .

فمد آتوس يده الى جيبه وتناول ساعته الخاصة وناولهـــا الى بلانشيه قائلا :

ـ دونك هذه الساعة،وكن يقظاً وحكيماً يا بلانشيه واذكر انك اذا تلفظت بكلمة مما تعلم فقد يؤدي ذلك الى هلاك سيدك ، الذي يثق بك ثقة عمياء ويعطف عليك .

فقال بلانشيه :

ـ كن مطمئناً يا سيدي ، فسأكون عند حسن ظنكم جميعاً .

وحدد الفرسان الاربعة موعد سفر بلانشيه في الساعة الثامنة من صباح غـــد ، وذلك ليتسنى له ان يحفظ الرسالة عن ظهر قلب .

ولما حان موعد السفر انفرد دارتنيان بخادمـــه بلانشيه وقال له :

ـ اسمع يا بلانشيه ، عندما ينتهي اللورد دي ونتر من تلاوة الرسالة قل له هذه العبارة :

« يجب ان تسهر على حياة اللورد دي بوكنغهام . . لان هناك من يسعى لاغتياله . . »

واضاف دارتنيان يقول :

ـ واذكر يا بلانشيه ان ما صارحتك به من الخطورة بمكان . والان سر ولترافقك السلامة .

وفي صبيحة اليوم التالي لسفر بلانشيه ، عهد الى بازان بايصال الرسالة الثانية الى صاحبتها في تورس ، وكان عليه ان يعود بعد ثمانية ايام .

وفي صباح اليوم الثامن ، بينما كان الرفاق الاربعة يتناولون طعام الافطار في حانة « بار بايو » اذ دخل عليهم بازان مشرق الوجه ، وبعد ان حيا الفرسان ، اسرع الى سيده اراميس وسلمه رسالة وهو يقول بصوت مرتفع :

ـ اليك يا سيدي جواب ابنة عمك ..

وتبادل الفرسان الاربعة نظرات الارتياح والغبطة ،اذ تحقق الشطر الاول من خطتهم دون مشقة .

وتناول اراميس الرسالة وكانت معنونة بخط رديء ، وقال ضاحكاً :

ـ هذه المسكينة « ميشون » لن توفق يوماً الى اجادة الكتابة.

وقرأ اراميس مضمون الرسالة بعجلة كلية وناولها الى آتوس الذي ألقى نظرة عامة على الرسالة ثم بدأ يتلوها بصوت مرتفع :

« ابن عمي ، لا اظنك نسيت اني وشقيقتي يمكننا تأويل الاحلام على حقيقتها ..

اما حلمك الذي اشرت اليه ... فيمكن القول ان لا اهمية له. وداعاً وارجو لك صحة جيدة ،ولا تنسَ ان توافينا باخبارك

من وقت لآخر .

ابنة عمك

اغليا ميشون »

ولما انتهى آتوس من تلاوة الرسالة ، التفت احـــد الجنود السويسريين الى اراميس سائلًا :

ـ وعن اي حلم تتحدث ابنة عمك ؟

فأسرع اراميس بالجواب قائلًا :

ـ ليس في الامر ما يستحق الذكر ،فقد رأيت حلماً مزعجاً في احدى الليالي ، وقصصته عليها في رسالتي .

وكان بازان في هذه الاثناء قد افترش كومة من القش ملقاة في زاوية الحانة واستسلم للرقاد ... ورأى في الحـــلم ان سيده اراميس قد اصبح « بابا » ، وانه ألبسه قبعة الكردينالية .

وراح الرفاق الاربعة يعدون الايام ساعة ساعة ، ينتظرون بفارغ الصبر عودة بلانشيه من رحلته الطويلة المحفوفة بالاخطار .

وكان دارتنيان اكثر الرفاق قلقاً ونفاد صبر ولم يكن بورتوس واراميس ليقلان عنه تخوّفاً وقلقاً .

اما آتوس فكان الوحيد الذي ظل محتفظاً بهدوئه ومتانـــة أعصابـــه .

وفي اليوم السادس عشر ، وهو اليوم المحدد لعودة بلانشيه من رحلته ، خرج دارتنيان ، وهو في حالة قلق شديد ، يتمشى في الطريق التي سيسلكها خادمه في عودته ، ولحق به رفيقاه بورتوس واراميس اما آتوس فقد وصل متأخراً وراح ينحي على رفاقه باللائمـــة لاضطرابهم وقلقهم .

واقترح عليهم قضاء السهرة في حانة « بار بابو » بانتظار عودة بلانشيه عند الساعة الثامنة مساء ، فوافق الفرسان الثلاثة، وساروا في اثر آتوس الى تلك الحانة.

وراح الرفاق الاربعة يقطعون الوقت في لعب الورق وشرب النبيذ المعتق .

وعندما دقت الساعة السابعة والنصف مال دارتنيان على اذن صديقه آتوس وقال :

ـ لقد هلكنا ... اذ لم يبق على موعد عودة بلانشيه سوى نصف ساعة فقط !

فاجابه آتوس بلهجة هادئة :

ـ تريد ان تقول اننا خسرنا ...

ثم نهض من مقعده وخاطب رفاقه بقوله :

ـ لقد حان وقت العودة الى المعسكر ، فهيا بنا ايها الرفاق.

وخرج من الحانة متأبطاً ذراع دارتنيان ، يتبعهما بورتوس واراميس .

وفي اللحظة التي كان الرفاق الأربعة يقتربون من المعسكر ، لاحظ دارتنيان شبح رجل يقترب منهم في الظلام ، فخفق قلبه بشدة ، اذ عرف في الحال ان هذا الشبح هو خادمه بلانشيه، وزال لديه كل شك ، عندما تجاوب في اذنيه صوت بلانشيه بالذات يناديه قائـــلا :

ـ لقد احضرت لك يا سيدي معطفك ، مخافة ان تؤذيك برودة الجو .

فهتف دارتنيان بفرح :

ـ بلانشيه !

وردد الرفاق الثلاثة هذه الكلمة بصوت واحد .

وقال آتوس بلهجته الهادئة :

ـ انه بلانشيه ، وما موضع الغرابة بذلك ؟ لقد وعدنا بان يعود في الساعة الثامنة تماماً من هذا المساء ، وقد وفى بوعده . مرحى يا بلانشيه فانت رجـــل تحترم كلمتك وتنفذها .. واذا قضت الظروف بان تعتزل خدمة سيدك دارتنيان ، فانا احتفظ بمكان لك في خدمتي .

فاجابه بلانشيه :

ـ لن اترك خدمة سيدي دارتنيان ابداً ...

وشعر دارتنيان ان خادمه يدس بيده اوراقاً صغيرة ، فأحس بنشوة من الغبطة والارتياح ، فقـــد بات على يقين من ان خادمه قد نجح بمهمته . واسرع الفرسـان الاربعة الى خيمتهم ، واشعلوا المصباح ، ووقف بلانشيه على باب الخيمة يراقب الطريق لئلا يفاجأ الرفاق ابان انصرافهم الى الاطلاع على الرســالة . وفض دارتنيان الغلاف وقرأ مضمون الرسالة فاذا بها تتضمن هذه العبارة القصيرة مكتوبة باللغة الانكليزية وهذه هي :

« اشكرك ... كن مطمئناً ... »

وانتزع آتوس الرسالة من يد صديقه دارتنيان وادناهـــا من لهيب المصباح وفي لحظات قليلة اصبحت رماداً وبعد ذلك نادى بلانشيه وقال :

ـ لقد بات من حقك ان تطـالب بالمبلغ المتأخر لك وقدره ستمائة دينار ، مع انك لم تتعرض لاي خطر يذكر في عودتك الينا حاملا هذه الرقعة الصغيرة .

فاجابه بلانشيه :

ـ أود أن اذكر لك يا سيدي انني لست مسؤولاً عن الايجاز الذي تضمنته الرسالة .

فقال دارتنيان :

ـ والآن اسرد علينا ما جرى لك بالتفصيل .

اجاب بلانشيه :

ـ انه حديث طويل يا سيدي .

فقال آتوس :

ـ الافضل ارجاء ذلك الى فرصة اخرى ، وبما ان موعـــد اطفاء الانوار في المعسكر قد حان ، فعلينا ان نأوي الى الرقاد ونطفىء النور لئلا نثير الشبهات حولنا .

فقال بلانشيه :

ـ اؤكد لك يا سيدي انها المرة الاولى التي انام فيهـــا ملء جفنيّ منذ ستة عشر يوماً .

فقال دارتنيان :

ـ وانا ايضاً !

وردد بورتوس وأراميس نفس العبارة

وقال آتوس :

ـ انني اعترف لكم بانني لم اكن اسعد حظاً منكم ! ..

٤٩

تشاؤم !

•

ولنعد الى ميلادي التي تركناها تبحر على ظهر سفينة الى انكلترا ، لتنفذ الخطة التي وعدت الكردينال بتحقيقها .

كانت على ظهر السفينة في اشد حالات الهياج والحنق ، وحدّثتها نفسها اكثر من مرة ان ترمي بنفسها في البحر لتعود الى الشاطىء الفرنسي لتثأر لنفسها من دارتنيان الذي اهانها وآتوس الذي هددها ...

وشاءت الاقدار معاكستها هذه المرة ، فهبت ريح مضادة جعلت السفينة تبطىء في سيرها خشية العواصف والانواء .

واخيراً وبعد مرور تسعة ايام ، وصلت السفينة الى مرفأ بورتسموث الانكليزي . . . وعلى ظهرها ميلادي التي كانت في حالة يرثى لها من الاعياء والقلق ... وكان وصولها في اليوم نفسه الذي غادر فيه بلانشيه المرفأ عائداً الى فرنسا ، بعد ان قام

بالمهمة التي كلفه بها سيده خير قيام .

وكان مرفأ بورتسموث في ذلك اليوم يعج بآلاف الجنود والبحارة جاءوا يحتفلون بانزال ثلاث قطع حربية جديدة الى البحر ، وكان اللورد دي بوكنغهام يترأس هذا الاحتفال العسكري ، بوصفه قائداً اعلى للقوات الانكليزية .

ووقفت اللادي كلاريك على حافة السفينة ، تشاهد الاحتفال ، وترمق الدوق بنظرات حقد وضغينة .

وبينما كان بحارة السفينة يعدون العدة لدخول حوض المرفأ والقاء المرساة ، اذ بمركب انكليزي مسلح يقترب مسرعاً من السفينة ويسد عليها طريق الدخول .

وألقى بحارة المركب المسلح قارباً الى البحر ، يحمل ضابطاً بحرياً وبرفقته ثمانيـــة بحارة ، ولم يلبث ان اقترب من السفينة ، وصعد الضابط مع رجاله الثمانية الى ظهر السفينة .

وانفرد الضابط بالقبطان بعض الوقت ، واخرج من جيبه بعض الاوراق الرسمية ، وبعد ان أطلعه عليهـا امره بان ينادي جميع البحارة والمسافرين على السفينة . ولما حضر الجميع راح الضابط يتفحص وجوه المسافرين والبحارة بدقة وامعان ، ومن ثم توقف طويلاً امام ميلادي وشرع يصعدها بنظراته الثـاقبة ، دون ان يوجه اليهـا اية كلمة ... وبينما كان الضابط منصرفاً الى التدقيق بوجهها وملامحها ، كانت هي بدورها ، تلتهمه بنظراتهـا التهاماً محاولة ان تنفذ الى اعماق صدره .

وعاد الضابط الانكليزي الى قبطان السفينة ووجّه اليه بعض

الاسئلة ، ومن ثم امره بان يتجه بسفينته الى داخل الميناء ، بينما راح المركب المسلح يواكبها حتى اصبحت داخل الميناء .

وعندما القت السفينة مرساتها ، كان الظلام قد بدأ ينشر ظلاله على المرفأ ، وامر الضابط احد رجاله بان يحمل امتعة ميلادي الى الزورق ، ثم اقترب منها ، وقدم اليها ذراعه يدعوها الى النزول ، فترددت في قبول الدعوة وسألته في صوت متهدج :

ـ من أنت ايها السيد ؟

فأجابها ببرود :

ـ اني ضابط في البحرية الانكليزية يا سيدتي ...

ـ وهل من عادة ضباط البحرية الانكليزية ان يضعوا انفسهم تحت تصرف بنات وطنهم عند وصولهن لمساعدتهن على النزول الى اليابسة ؟

ـ اجل يا سيدتي ... فهي عادة نلجأ اليها في وقت الحرب ، بان نضع الاجانب في معسكر خاص ، لمراقبة تصرفاتهم ونشاطهم .

فأجابته ميلادي :

ـ ولكنني لست اجنبية ايها الضابط ، لتطبق عليّ هذه القاعدة ، فأنا ادعى اللادي كلاريك و ...

فقاطعها الضابط بلهجة جافة :

ـ انها قاعدة عامة ايتها السيدة ، ومن العبث ان تتهربي منها ..

ـ حسناً فأنا سأتبعك يا سيدي الضابط !

واسرعت بالنزول الى الزورق الذي يقف في محاذاة السفينة ، وتبعها على الاثر الضابط ولما استقرا في جوف الزورق ، اصدر

اوامره الى البحارة بالتجذيف وفي دقائق معدودة وصل الزورق الى رصيف الميناء ، فوثب الضابط الى اليابسة ، وقدم يده لميلادي يساعدها على الصعود .

وكانت هناك عربة تنتظر ، فسألت ميلادي :

ـ هل هذه العربة لنا ؟

ـ نعم يا سيدتي .

ـ اذن فمعنى ذلك ان المكان الذي سنقصده بعيداً ..

ـ هو في الطرف الآخر من البلدة .

ـ هيا بنا ايها الضابط .

قالت ذلك واسرعت تدخل العربة ، وبعد ان اشرف على حزم امتعتها . عاد وجلس الى جانبها في العربة ، التي انطلقت .

ولما رأت ميلادي ان رفيقها الضابط معتصماً بالصمت التام ، ولم تلمس منه اية رغبة في الدخول معها في الحديث ، قبعت بدورها في زاوية من العربة ، واسترسلت في افكارها وتخيلاتها .

ومضت ربع ساعة والعربة ما تزال تسير دون توقف ، وبدأت الهواجس والمخاوف تتنازع ميلادي ، فاطلت برأسها من النافذة لترى الى اين تقصد العربة ، وسرت في جسدها قشعريرة الرعب . والتفتت الى مرافقها الضابط وقالت :

ـ ارى اننا خرجنا من المدينة واصبحنا نسير وسط الحقول ، فالى اين نحن ذاهبون ؟

وتجاهل الضابط الشاب سؤالها .

فقالت بلهجة التهديد :

ـ اذا لم تعلمني عن المكان الذي تقودني اليه ، فاني لن اتابع السير معك .

الا ان هذا التهديد لم يكن له اي اثر ، فقد ظل الضابط معتصماً بالصمت .

وصاحت ميلادي بلهجة حانقة :

ـ هذا لا يطاق .. النجدة .. النجدة ..

واخذتها ثورة من الهياج والغضب الشديد وكانت عيناها تلمعان في ذلك الظلام ببريق غريب .. واندفعت الى باب العربة تحاول فتحه لتلقي بنفسها الى الارض .

فقال لها الضابط ببرود :

ـ حذار ايتها السيدة ، اذا حاولت القفز من العربة تحكمين على نفسك بالهلاك .

فانكفأت ميلادي الى داخل العربة ، وتهالكت على المقعد تحاول ان تسترد انفاسها وتسيطر على اعصابها ، فقد ادركت بعد فوات الاوان انها خرجت عن حدود التعقل واستسلمت لعواطفها الثائرة ، وظهرت امام ذلك الضابط بمظهر المرأة المخيفة . ولما عادت الى هدوئها الطبيعي قالت بصوت متهدج محاولة ان تستدر عطف الضابط :

ـ بحق السماء قل لي ايها السيد من الذي امر بمعاملتي هذه المعاملة السيئة ؟

فاجابها الضابط :

ـ لم نحاول معاملتك بخشونة ايتها السيدة ... والذي حدث

لك لا يخرج عن كونه تدبيراً ضرورياً نضطر الى اتخاذه مع كل الذين تطأ اقدامهم الاراضي الانكليزية في هذه الايام .

وعاد الصمت يخيم مرة ثانية على العربة ، وبعد مسيرة ساعة ، توقفت العربة امام حاجز من الحديد يحيط بحديقة واسعة الاطراف قام في وسطها قصر شامخ .

واسرع الضابط بالنزول من العربة ، وتناول ذراع ميلادي ليساعدها على النزول ، ثم اخرج من جيبه صفارة من فضة ، نفخ فيها ثلاث مرات . . فبرز في الحال عدد من الرجـــال احاطوا بالضابط ومرافقيه ، وهنا التفت الضابط الى ميلادي بكل احترام ودعاها الى دخول المنزل ، فمدت يدها تتأبط ذراعه ، والابتسامة المصطنعة لا تفارق شفتيها ، ودخلت بخطوات ثابتة . وقادهـــا الضابط الى رواق طويل خفيف الاضــاءة ، انتهى بها الى باب مصنوع من خشب متين ، فتوقف الضابط امامه ، واخرج من جيبه مفتاحا ، فتح به الباب ، فكشف عن حجرة واسعـــة الاطراف ، حسنة الاثاث ، فادركت ميلادي ان هـذه الحجرة ستكون سجنها ، فالتفتت الى الضابط الشاب تسأله :

ـ ارجوك ايهـــا الضابط الشاب ان تكون اكثر صراحة ، فتعلمني اين انا الآن ؟ واذا كنت سجينة فلمـــاذا ، واي جرم رتكبته ؟

فأجابها الضابط وهو ما يزال محتفظاً ببروده وهدوئه :

ـ انت هنا في المكان الذي حدد لاقامتك ، فقد تلقيت الاوامر بان اصحبك من الميناء الى هنا . . .

وفي هذه اللحظة طرق سمع ميلادي ، صوت خطوات تقترب منها ، وما لبث ان وقف امامها شخص عرفته في الحال ، اذ لم يكن سوى شقيق زوجها المتوفي اللورد ونتر ، فصاحت به :

ـ اذن فأنت الذي امرت بسجني في هذا القصر ؟

اجابها اللورد ببرود :

ـ قد يكون ظنك في محله .

فعادت تصيح بصوت متهدج :

ـ هذا عمل فظيع انك تحاول اخضاعي بالقوة ..

فانتهرها اللورد وقال :

ـ لا تسترسلي في ارسال الاتهامات ، وهيـــا ادخلي الغرفة ولنتحدث بهدوء .

ثم التفت الى الضابط الشاب وقال له :

ـ اشكرك ايها الضابط فلتون على تنفيذك الاوامر ، وارجو ان تدعنا لوحدنا .

٥٠

حديث ذو شجون

●

واسرع اللورد ونتر اثر انصراف الضابط فلتون الى اغلاق باب الحجرة بالمزلاج ، ثم اخذ مقعداً وقرّبه من المكان الذي تجلس فيه ارملة اخيه ، وجلس الى قربها في غير كلفة ، وبدأ حديثه بقوله :

ـ .. واخيراً عدت الى انكلترا ، على الرغم من تأكيدك السابق ، عندما كنت في باريس ، بانك لن تضعي قدماً على الاراضي الانكليزية !

فتجاهلت ميلادي سؤاله المحرج وقالت :

ـ ارجو ان تعلمني اولاً ، كيف تمكنت من معرفة موعد وصولي الى مرفأ بورتسموث بالضبط ؟

فتجاهل اللورد سؤالها ايضاً وقال :

ـ وماذا جئت تفعلين في انكلترا ؟

اجابته بلهجة حاولت ان تجعلها رقيقة :

ـ جئت لاراك يا عزيزي اللورد !
ـ أوليس لك هدف آخر من مجيئك الى انكلترا ؟
ـ كلا ...
ـ اذن فمن اجلي وحدي ، تحملت مشقة قطع المانش ؟
ـ نعم ... من اجلك وحـــدك ، أولست قريبتك المقربة ايها العزيز ؟
فأجابها اللورد وهو يرمقها بنظرات ذات معنى :
ـ بل ووريثتي الوحيدة ايضا !
فارتعشت ميلادي لهـذه العبارة ذات المغزى المعروف ... وساورتها الشكوك بان يكون اللورد قد اطلـع على ما تضمر له من نوايا سيئة ، طمعاً بالاستيلاء على ثروته الطائلة .. وتساءلت عمن يكون الشخص الذي افشى سرها ... هـل تكون وصيفتها السابقة كاتي ؟ ام الفارس دارتنيان ؟ وتذكرت فجأة كيف قابلته بغضب عندما جاء يروي لها تفاصيل مبارزته مع اللورد واعلمها بانه عفا عنه اكراماً لها .

وتعمدت ان تتجاهل عبارتـه ذات المعنى ، محاولة استدراجه للكلام والافصاح مما يعرفه ويضمره فقالت :
ـ لم افهم ما ترمي اليه يا سيد اللورد ، فهل هناك معنى خفي تنطوي عليه عبارتك الاخيرة ؟
فتصنع اللورد البساطة وقال :
ـ كلا يا عزيزتي ... فلقد جئت الى انكلترا لرؤيتي ، وها انا اقابل رغبتك بالترحاب فأفرد لك حجرة واسعة في قصري تليق

بك ، ومجهزة بكل ما تحتاجه سيدة انيقة مثلك ... وربما تقابلنا كل يوم ، لاني اقضي معظم ايامي في هذا القصر .

فقالت بعد تردد :

ـ ولكني قد احتاج الى وصيفة تساعدني على القيام بشؤوني الخاصـــة .

فاجابها اللورد :

ـ سيكون لك ما تطلبين ، وسأوفّر لك جميع اسباب الرفاهية كما اعدها لك زوجك الاول : . ولست اعني بزوجك الاول ، اخي المرحوم ، بل زوجك الفرنسي .

فنزلت العبارة الاخيرة عليها كالسياط اللاذعـــة ، وبان الاضطراب على قسمات وجهها ، وراحت تحدج اللورد بنظرات تجلى فيها الرعب وغمغمت تقول :

ـ زوجي الفرنسي ؟ !

ـ نعم ... وهل نسيته ، فهو ما يزال حيـــاً يرزق ، واذا شئت كتبت اليه ، وهو لن يبخل عليّ بمعلوماته في هـذا الشأن !

وتصبب العرق البارد من جبين ميلادي وانتابهـا الدوار ، وكادت تهوي الى الارض من هول الصدمة العنيفة ، واجابته :

ـ لاشك انك تمزح ياسيدي اللورد .

فانتصب اللورد واقفاً ثم تراجع خطوة الى الوراء وقال :

ـ وهل يبدو عليّ اني امزح ؟

فتمالكت نفسها وهي تنشب اظافرهـا في المقعد الذي تجلس عليه لفرط حنقها وقالت بلهجة متهدجة :

ـ اما انك تمزح ... أو انك تتعمد اهانتي !

فأجابها اللورد باشمئزاز بقوله :

ـ انك انت التي تتعمدين اهانتي !

فانتفضت ميلادي كمن لمست ناراً محرقة وقالت :

ـ الحقيقة انك اما مخمور او مصاب بمس من الجنون .

ثم هجمت عليه تحاول ان تنشب اظافرهـــا بعنقه ، فوقف امامها مكتوف اليدين وخاطبها بلهجة ازدراء وتحدٍ :

ـ اعلم ان من عادتك الغدر ولكني سادافع عن نفسي وأردّ كيدك الى نحرك ، ولن تكون يدي اليد الاولى التي امتدت لانزال العقاب الصارم بك ...

قال عبارته هذه وهو يشير بيده الى كتفها اليسرى الموسومة بالشارة المعروفة.

ثم تابع حديثه بلهجة قاسية :

ـ وحذار ان تحاولي القيام باية حركة ، لئلا تنقلب عاقبتهـــا عليك ، اذ لن اتورع عن فضح امرك واسلمك الى القضاء الذي سيحاكمك بجريمة الزواج من رجلين ، والتغرير بشخصية انكليزية نبيلة هي شقيقي الاكبر المرحوم اللورد ونتر . . ولاشك ان السجن سيكون مصيرك ، بعد ان يدمغوا كتفك الثانية بشارة المجرمين !...

وقدحت عينا ميلادي بنظرات مخيفة ،ازعجت اللورد، الذي اردف يقـــول :

ـ اعلم انك تحاولين بعد ان ورثت ثروة طائلة عن اخي تقدر

بمليون جنيه ، التآمر على حياتي ، طمعاً بالاستيلاء على ثروتي ايضاً ولهذا اتخذت تدابير احتياطية للحيلولة دون تحقيق رغبتك الآثمة .. ففي حال موتي فلن ترثي من ثروتي مليماً واحداً .

ولو لم اكن مازماً بالمحافظة على شرف اخي وذكراه بعد الموت لما تأخرت لحظة واحدة في القائك في غياهب السجون لتموتي فيها شر ميتة كالجيفة النتنة .

وقد اذهلت هذه الحقائق ميلادي فلم تنبس ببنت شفة ، بينما تابع اللورد كلامه :

ـ وستبقين في هذه الحجرة بضعة اسابيع ، وفي الوقت الذي اسافر فيه مع الجيش الى لاروشيل ، سيحملك مركب خاص بعيداً عن هذه البلاد ، ويطرحك في احد مستعمراتنا الجنوبية ، وسيرافقك احد رجالي ، الذي لن يتردد في إلهاب دماغك في اية لحظة تحاولين فيها العودة سواء الى انكلترا او الى فرنسا .

وازداد اضطراب ميلادي لدى سماعها الحكم عليها بالنفي الى بلاد نائية ، وعاد اللورد يقول :

ـ ان الشخص الذي يأمر فيطاع في غيابي هو الضابط فلتون ، وهو الذي سيتولى حراستك .

ثم خطا نحو الباب وفتحه بعنف ونادى باعلى صوته :

ـ ليحضر الى هنا الضابط فلتون في الحال ..

وبعد لحظات كان الضابط الشاب يقف في باب الحجرة ، فالتفت اليه اللورد وقال :

ـ ادخل يا عزيزي جون .. أترى هذه المرأة ، انها شابـــة

فاتنة ، وتتمتع بجميع المغريات ، الا انها تخفي نفساً شريرة مجرمة، فقد ارتكبت جرائم عديدة ، ولا بد انها ستحاول اغراءك لتخضع لها ، واذا اتاحت لها الظروف فلن تتأخر عن قتلك ..

وتذكر يا عزيزي فلتون ، انني انتشلتك من الفاقة وجعلت منك ضابطاً مرموقاً ، كما انقذت حياتك في احدى المرات .. وانا بالنسبة اليك لست منقذاً فحسب ، بل وصديقاً حميماً ، واباً حنوناً ...

ان هذه المرأة جاءت خصيصاً الى انكلترا لتتآمر على حياتي . وانا سأترك هذه الافعى بين يديك لتحرسها ، ولا تدعها تفارق هذه الغرفة مهما كلفك الامر ، واني استحلفك بشرفك بان تنفذ ما قلته بحذافيره .

فأجابه الضابط وقد لمعت عيناه ببريق الاخلاص والعزم :

ـ اقسم لك يا سيدي اللورد بانني سانفذ ما تطلبه مني ولو كلفني ذلك حياتي .

وقبل ان يغادر اللورد الغرفة التفت الى ميلادي وقال :

ـ والآن ارجو ان تعودي الى الصراط المستقيم ، وتحاولي في عزلتك ههنا ان تكفري عن سيئاتك وذنوبك الماضية .

ثم خرج اللورد دي ونتر يتبعه الضابط فلتون بعد ان اغلق الباب خلفه ، تاركا ميلادي وحيدة في الحجرة فريسة هواجسها واضطرابها ...

٥١

الضابط فلتون !

●

وفي هذه الاثناء كان الكردينال ريشليو ينتظر بفارغ الصبر انباء جديدة من لندره عن مهمة ميلادي ، الا ان شيئاً من ذلك لم يصله ..

وكان في الوقت نفسه قد شدد الحصار على مدينة لاروشيل ، ولم يدع وسيلة من وسائل التضييق الا استخدمها لحمل سكان لاروشيل المحاصرين على الاستسلام ، ولكن على الرغم من التدابير المشددة ، والحصار الشديد الذي فرض على المدينة من جهة البحر ، لمنع السفن الانكليزية من الوصول الى داخل الميناء ، فقد كانت الدلائل تشير الى ان هذا الحصار قد يطول امده ، وفي ذلك ما فيه من تحدٍ لقوات الملك لويس الثالث عشر ، وازعاج للكردينال الذي كان يرى في ثبات المدينة حطاً من قدره ونفوذه ...

والواقع أن فريقاً من سكان المدينة حاول الاستسلام لينجو من المجاعة ، ولكن محافظ المدينة العنيد ، قضى على هذه المحاولات في الحال ، اذ اعتقل دعاة الهزيمة وعلق بعضهم على أعواد المشانق .

وكان من جراء هذا العقاب الصارم ، ان قضى على كل فكرة او محاولة ترمي الى الاستسلام .

وقررت القوات المحاصرة الثبات والموت جوعاً وعطشاً وراء اسوار المدينة ، آملين ان ينجدهم الدوق دي بوكنغهام عن طريق البحر بقواته التي وعد بارسالها في القريب العاجل .

وكانت القوات الفرنسية تلقي القبض من حين لآخر على بعض المتسللين الموفدين من قبل سكان لاروشيل الى الدوق دي بوكنغهام ، فيساق هؤلاء المساكين الى مكتب الكردينال الذي يلفظ حكمه المبرم بتنفيذ عقوبة الشنق . ويلبي الملك الدعوة بلهفة ويحرص على الجلوس في الصفوف الامامية لمشاهدة عملية الشنق بادق تفاصيلها ، ومع ذلك كان يشعر جلالته بالسأم يتطرق الى نفسه ، ويعلن عن رغبته بالعودة الى باريس .

واثيرت اخيراً مسألة الاستيلاء على المدينة بالقوة ، ولكن قادة الجيش اعترضوا على تنفيذ هذه الفكرة ، لأن لاروشيل تبدو امنع من ان تنال عن هذه الطريق .. وبالاضافة الى ذلك فإن الكردينال نفسه لم يبد تحمسه لهذه الفكرة ، لعلمه الاكيد ان معركة دامية يقاتل فيها الفرنسيون مواطنيهم الفرنسيين ، معناه اعادة تمثيل مأساة « سان برتلمي » التي كانت فرنسا مسرحاً لها

لستين عاماً خلت . ومرت بذاكرة الكردينال سيلادي التي اوفدها بمهمة خطيرة الى لندره ، وتساءل عن سبب سكوتها ، وهل خانته هذه المرأة ؟ ام تراها لاقت حتفها ؟

واخيراً قرر ان يواصل عملياته الحربية دون ان يعتمد على احد ما ، فانصرف الى متابعة بنـــاء السد العظيم حول مدينة لاروشيل ، ليعزلها عزلاً تاماً عن انكلترا وفرنسا ويمنع وصول المواد الغذائية اليها .

ولجأ الكردينال الى فكرة شيطانية مستمدة من المثل القائل : « فرّق تسد » وقد قذف بآلاف النشرات الصغيرة من فوق اسوار المدينة الى سكان لاروشيل ، يبين فيهـــا لعامة الشعب تصرفات زعمائهم وانانيتهم في تخزين المواد الغذائية واللحوم والخمور داخل اقبيتهم ، دون ان يوزعوا شيئاً منها على افراد الشعب الجائع .

وفعلت هذه النشرات فعلها السحري ، فأبدى فريق كبير من سكان المدينة استعداده لفتح باب المفاوضات مـــع بعض قواد جيش الملك .

ولكن في اللحظة التي اوشكت خطة الكردينال ان تجني ثمارها الطيبة ، وصل الى داخل لاروشيل ، رسول قادم من ميناء بورتسموث الانكليزي يحمل رسالة خاصة الى محافظ المدينة تعلمه ان اسطولاً جباراً يستعد للابحـــار من ميناء بورتسموث الى لاروشيل وسيصل الى مينـــاء المدينة قبل انقضاء اسبوع ... وتضيف الرسالة ان الدوق دي بوكنغهام قد اعلن ان المساعي لعقد حلف عسكري قوي ضد فرنسا قد اثمرت ، وسيعلن عنـــه في

القريب ، وعندها ستغزو القوات الانكليزية والاسبانية فرنسا في عقر دارها .

وقد أمر محافظ المدينة بتلاوة هذه الرسالة في ساحات لاروشيل وشوارعها علنـــاً . وكان من جراء ذلك ان توقفت المفاوضات بانتظار النجدة .

وضاعفت هذه الحادثة من قلق الكردينال وراح يفكر في وسيلة اخرى لانهاء هذه الحرب التي باتت مصدر قلق دائم له .

وفي ذات يوم خرج الكردينال على صهــوة جواده يرافقه القائدين كاهوساك ولاهودينيير ، وافضى به المسير الى اكمة صغيرة تطل على البحر ، ولشد ما كانت دهشته عندما وقعت عيناه على سبعة رجال يفترشون الرمال ، وحولهم عدة زجاجات من النبيذ المعتق ... وكان اربعة من هولاء هم الفرسان الاربعة ، مع ثلاثة من خدمهم ، وكانوا يستمعون بانتباه ظاهر الى احدهم يتلو رسالة تلقاها . ويبدو ان الرسالة كانت على جانب من الاهمية ، بدليل ان الرفاق توقفوا عن الشرب واللعب ، وارهفوا اذانهم لسماع مـــا تضمنته الرسالة ، بينما راح الخدم الثلاثة يحاولون فتح برميل صغير من النبيذ المعتق .

ولما كان الكردينال في حالة عصبية ، فقد ضاعف غضبه رؤية هؤلاء الرفاق في حالة نشوة وطرب . فاشار الى مرافقيه ان يتوقفا عن السير ، وترجل عن جواده ، واقترب بخطى متمهلة من الفرسان مستعيناً باخفاء نفسه وراء سياج قريب ، ولمـــا اصبح على قيد خطوات قليلة منهم استطاع ان يسمع بعض الكلمات وان يتبين

الفارس الفاسقوني دارتنيان ، فثبت لديه اذ ذاك ان الثلاثة الباقين هم ولاشك آتوس وبورتوس واراميس .

وترامى الى سمعه طرفاً من الحديث الذي يجري بين الرفاق ، وفي تلك اللحظة ، دوّى صوت الخادم غريمو ينبه الفرسان :

ـ ضابط ...

فالتفت آتوس الى ناحية خادمه يستوضحه ، فراح هذا يغمز بعينه مشيراً الى المكان الذي يختبىء فيه الكردينال ، فانتبه الرفاق الى هذه الاشارة ، وهبوا بقفزة واحدة واقفين وحيوا الكردينال باحـــترام .

وبدا الغضب على وجه الكردينال وخاطب الفرسان بلهجة جـــدية :

ـ يبدو لي ان السادة الفرسان يقيمون افراداً على حراستهم ، فهل هو الخوف من نزول انكليزي الى الشاطىء ، او انـه حب الظهور بمظهر كبار الضباط ؟

فأجابه آتوس :

ـ اعتقد يا سيدي الكردينال ، انه من حق الفرسان عندما تنتهي نوبتهم في الخدمة ، ان يرفهوا عن انفسهم بالشراب واللعب ، وهم بالنسبة لخدمهم بمنزلة كبار الضباط .

فقال الكردينال :

ـ ان الخدم الذين يتولون تحذير اسيادهم لدى مرور شخص غريب ، ليسوا خدماً بل هم حراس .

فأجابه آتوس وهو ما يزال محتفظاً برباطة جأشه :

ـ لو لم نتخذ مثل هذه الاحتياطات يا سيدي الكردينال ، لما اتيحت لنا الفرصة لتأدية فروض الاحترام والشكر العميم لما قمت به نحو رفيقنا دارتنيان والحاقـه بفرقة فرسان الملك . هيـــا يا دارتنيان ، تقدم واشكر نيافة الكردينال على صنيعه .

واقترب على الاثر دارتنيان واحنى رأسه امام الكردينال وهو يتمتم بعبارات غير مفهومة .

وتابع الكردينال كلامه متجاهلاً بادرة دارتنيان وقال :

ـ اني اكره ايها السادة ان ارى جنوداً عاديين ، يستغلون انتماءهم الى فرقة فرسان الملك ليظهروا بمظهر كبار الضباط ... وعليهم ان يراعوا النظام كغيرهم من الجنود .

فعاد آتوس يناقشه بلهجته الهادئة وعباراته الشديدة :

ـ اعتقد يا سيدي الكردينال اننا لم نخالف النظام ، فقد وجدنا ان لدينا متسعاً من الوقت بعد ان قمنا بواجبنا ، فظننا انه بامكاننا قضاء هـذا الوقت على الشكل الذي يروق لنا ، واذا كان لنيافة الكردينال اوامر خاصة فنحن على أتم الاستعداد لننفذها في الحال . وكما ترى نيافتك فاننـــا تحسباً لاي طارىء قد خرجنا مزودين باسلحتنا الكاملة .

قال عبارته الاخيرة وأشار باصبعه الى البنادق الاربعة المنصوبة على مقربة من الفرسان على شكل هرم .

وألقى الكردينال نظرة عابرة على البنادق وقال :

ـ ان منظركم على هذا الشكل ، يوحي بانكم تحيكون مؤامرة ما في هذا المكان المنعزل !

فأجابه آتوس :

ـ اذا كان ثمة من تآمر فعلى اعدائنا سكان لاروشيل .

والتفت الكردينال الى اراميس وقال بلهجة الآمر :

ـ ما هذه الرسالة التي كنت تقرأها ، واسرعت الى اخفائها فور وصولي ؟ !.

فأجابه اراميس متلعثماً :

ـ انها رسالة من امرأة يا سيدي الكردينال !

فقال الكردينال :

ـ اعلم انه من حقك ان تحتفظ بها ، ولكن ذلك لا يمنع من عرضها على رجل دين يملك سرية الاعتراف وانت تعلم ان ذلك من حقي .

فأجابه آتوس بلهجة هادئة ، وهو يعلم انه يجازف برأسه :

ـ تلك الرسالة من امرأة يا سيدي الكردينال ، ولكنها لا تحمل توقيع ماريون دي لورم ولا مدام داغيون .

فامتقع وجه الكردينال لهذا التعريض الصريح به شخصياً ، ولمعت عيناه ببريق مخيف ، وساورته نفسه بان يقدم على عمل ما . . الا انه ادرك ان النتيجة ستكون فضيحة مدوية . . وبحركة بارعة من يده ، التفت الى الفرسان الاربعة بعد ان تمكن من السيطرة على اعصابه وقال :

ـ بورك فيكم ايها الفرسان البواسل ، ولست اعارض في سهركم على حراسة انفسكم ولن انسى تلك الليلة التي سهرتم فيها على راحتي ذهاباً واياباً . هيا عودوا الى اقداحكم وتابعوا سمركم .

قال هذا واسرع يمتطي صهوة جواده وحياهم باشارة من يده

وابتعد مسرعاً يتبعه مرافقاه ، بينما وقف الرفاق الاربعة مسمرين في اماكنهم وهم يشيعونه بانظارهم حتى توارى وراء الاكمة .

وتبادل الفرسان النظرات ، وكانت قسمات وجوههم مكفهرة اذ لم يخف عليهم ما يضمره لهم الكردينال من حقد دفين .

وقطع حبل السكوت آتوس وقال وهو يبتسم ابتسامة الواثق من نفسه :

ـ هل كنت تنوي تسليمه الرسالة يا اراميس ؟

اجابه اراميس :

ـ كنت انوي ان اجعل سيفي يخترق جسده .

فقال آتوس بهدوء :

ـ ولكنك رأيت ان الوقت المناسب لم يحن بعدُ . في الحقيقة ان هذا الرجل برهن على انه احمق عندما حاول مخاطبتنا بتلك اللهجة الجافة ، ويظهر انه لم يسبق له ان اصطدم الا بنساء واطفال ...

ثم التفت الى اراميس وقال :

ـ هيا تابع قراءة الرسالة .

فتناول اراميس الرسالة من جيبه وراح يتلوهـا من البداية وهذا ما جاء فيها :

« ابن عمي العزيز ، لقد قررت ان اذهب الى « ستيني » لزيارة خادمتنا التي ادخلتها شقيقتي الى دير الكرمليت ، وقد زال الخطر الذي كان يتهددها في السابق ، وهي الان في صحة جيدة ، وكل ما ترجوه ان تحظى برسالة من حبيبها ، وتأكـــد بأنني سأتولى بنفسي ايصال مثل هذه الرسالة .

شقيقتي تشكرك على الهدية الثمينة التي ارسلتها اليها . وقد اوفدت رسولاً من قبلها الى هنالك لتمنع حدوث اشياء غـير منتظرة .

وداعاً يا ابن عمي العزيز . . . ولا تنس ان توافينا باخبارك كلما اقتضى الامر ذلك .

اقبلك

ماري ميشون »

وكانت هذه الرسالة واردة من تورس وتحمل انباء سـارة لدارتنيان عن السيدة بوناسيو ، اذ لم يكد ارامیس ينتهي من قراءة الرسالة حتى هتف دارتنيان قائلاً :

ـ يا الهي انها ما تزال على قيد الحياة ... مقيمة في دير امين في ستيني .. وهنا التفت الى آتوس وسأله :

ـ واين تقع ستيني هذه ؟

ـ في مقاطعة اللورين ، وعندما ينتهي حصار لاروشيـل سنبادر فوراً الى زيارة تلك المقاطعة والاطمئنان على حبيبتك .

وقال بورتوس :

ـ وقد لا يطول انتظارك ، فالدلائل تشير الى ان سكان لاروشيل اصبحوا في حالة يرثى لها ، اذ ليس لديهم ما يقتاتون به .

فقال آتوس وهو يجرع كأسا من النبيذ :

ـ حقا ان سكان لاروشيل حمقى ، فما ضرهم لو اعتنقوا المذهب الكاثوليكي ووضعوا حداً لهذه المعارك الدامية .

وحانت منه التفاتة فوجد ارامیس يدس الرسالة في جيبه ،

فخاطبه بقوله :

– ما الذي تفعله يا اراميس ، هل تخبىء الرسالة في جيبك ؟

فبادره دارتنيان :

– يجب ان تحرق هذه الرسالة في الحال .

وهنا نادى آتوس خادمه غريمو ، وتناول الرسالة من يد اراميس وقال :

– بما انك تكلمت منذ لحظة بدون استئذان ، وعقاباً لك على هذه الهفوة ، عليك ان تبتلع هذه الورقة وتجرع بعدها كأساً من هذا النبيذ .

فابتسم غريمو ، واسرع ينفذ اوامر سيده دون تردد .

وفي هذه الاثناء كان الكردينال يتابع جولته حول المعسكر وهو يحدث نفسه بقوله :

– يجب ان يصبح هؤلاء الفرسان الاربعة من رجالي .

٥٢

اليوم الاول في الاسر

●

والنعد الى ميلادي ، بعد ان ألقينا نظرة خاطفة على الموقف الحربي على طول جبهة لاروشيل ، فنجدها منطرحـــة في ركن الغرفة خائرة القوى ، قلقة ، موزعة الافكار ، ذلك انها لاول مرة تشعر بالشك والخوف يتطرق الى نفسها ، وانها مغلوبة على امرها بعد ان اذلها دارتنيان وتلاه اللورد دي ونتر فوضعها سجينة في هـذه الغرفة .

واعتزمت امراً ... اعتزمت ان تثأر لنفسها ، ولكن كيف السبيل الى ذلك وهي غير طليقة ؟ اذن يجب ان تحاول جهدها الفرار من هذا السجن ... لا سيا وان المكلف بحراستها ضابط شاب ، وهي ما زالت تتمتع بشيء من الجاذبية والفتنة .

وراحت تتمرن امام المرآة على اعطاء وجهها صوراً متعددة ، ثم مدت يدها الى شعرها فاصلحت من شأنه ثم ألقت على وجهها

نظرة اخيرة وغمغمت بارتياح :

ـ لم افقد شيئاً ... فانا ما ازال جميلة . وخطر لها ان تنام لتريح اعصابها وجسدها ، وتستعيض بالرقاد عما فقدته من قوى وجاذبية ، فنامت ، وعند الساعة الثامنة مساء ، استيقظت من رقادها وهي على احسن حال ، ورأت نوراً يسطع خـــارج الغرفة ، فاستلقت على مقعـــد مواجه لباب الغرفة وتعمدت ان تبرز مفـــاتن جسدها فازاحت الثوب عن الجزء الاعلى من نهديها ، كما جلست بوضع مغر يثير الغرائز الجنسية ... وكانت ترمي من وراء ذلك ان توقع الضابط او اي شخص من الخدم فريسة جمالها . وبعد مضي لحظات قليلة سمعت صرير المفتاح في القفل وارتفـــع صوت عرفت فيه ميلادي بانه صوت الضابط فلتون يقول :

ـ ضع الطعام على المائدة ، واسرع في احضار المشاعل ، ولا تنس ان تستبدل الحارس ..

وعندما ألقى فلتون نظره على ميلادي قال :

ـ انها نائمة الآن ، وعندما تستيقظ ستتناول طعامها .

فقال الجندي الذي يحمل الطعام للسجينة :

ـ انها ليست نائمة يا سيدي الضابط ، بل مغمى عليها .

فحدق الضابط فلتون بوجه ميلادي من المكان الذي يقف فيه وقال :

ـ اصبت ، اذن فاسرع الى اللورد ونتر واخبره ان سجينته مصابة بالاغماء .

وخرج الجندي مسرعاً ينفذ اوامر ضابطه ، بينما جلس فلتون

قرب الباب مولياً ظهره لميلادي كأنه لا يشعر بوجودها .

وكانت تراقبه من خلال اهدابها الطويلة ، فوجدته يوليها ظهره دون اكتراث ، فرأت ميلادي ان الوقت قد حان للتستفيق من اغمائها المصطنع ففتحت عينيها وتنفست بصوت مسموع ، فالتفت الضابط اليها وقال :

ـ ها قد استفقت من اغمائك ، اذن فلم يعد هناك ما يستدعي بقائي هنا ، واذا احتجت لشيء فاقرعي الجرس ... فقالت ميلادي بنغمة عذبة ، بعد ان جلست بوضع اشد اغراء من الوضع الاول :

ـ يا الهي كم تعذبت !..

وبينما كان الضابط فلتون يهمّ بالخروج من الغرفة ، ظهر اللورد ونتر وبيده زجاجة صغيرة تتضمن كمية من الاملاح المنعشة .

فقال بسخرية لاذعة :

ـ أبمثل هذه السرعة عادت الميتة الى الحياة ؟

ثم استوقف الضابط بحركة من يده وقال :

ـ أولم تدرك ماذا يجري هنا في هذه الغرفة ؟.. ان هذه المرأة تحسبك ساذجاً ، وانها بدأت تلعب عليك اولى ادوارها ، ولا بد ان تتبع الفصول الباقية في المستقبل القريب .

فقال الضابط :

ـ لقد احتطت للامر يا سيدي اللورد ، ولم اقع في احابيلها .

ومع ان عبارة الضابط فلتون قد جعلتها ترتجف ، إلا انها تمالكت نفسها وتظاهرت بالاعياء .

والتفت اللورد الى الضابط فلتون وقال :

ـ لندع ميلادي تتناول طعامها بهدوء وهلم بنا . .

وامسك بذراعه يقوده الى الخارج وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة طافحة بالسخرية .

وما ان اغلق الباب دونها حتى صاحت تخاطب نفسها قائلة :

ـ لقد خسرت كل شيء ! لقد اصبح الضابط مزوداً بكل سلاح لمقاومتي ، ولكنني لن استسلم لليأس والقنوط .

٥٣

اليوم الثاني في الاسر

●

وفي صبيحة اليوم التالي، عندما دخل الحارس الى الغرفة كانت ميلادي ما تزال مستلقية على فراشها ، وكانت دلائل الاعياء قد نالت منها بعد ان قضت الليل بطوله تتقلب على نيران القلق .

ووصل الضابط فلتون الى الرواق وبصحبته امرأة احضرها اللورد ونتر ، لتساعد ميلادي وتراقب حركاتها وسكناتها .

ودخلت هذه المرأة الى غرفة ميلادي ، واقتربت من سريرها تعرض عليها خدماتها فتظاهرت ميلادي بالضعف وقالت :

ـ لقد امضيت الليلة عرضة لحمى شديدة، فلم اذق طعم الكرى وكل ما اطلبه هو ان يسمح لي بالبقاء في فراشي ، لأستعيد بعض الراحـــة .

فقالت المرأة :

ـ هل تريد السيدة ان آتيها بطبيب ؟

وكان الضابط فلتون يستمع الى هذا الحوار دون ان ينبس ببنت شفة .

وفكرت ميلادي ان الطبيب قد يقف على الحقيقة فيعلن ان مرضها مصطنع ، وينقل ذلك الى اللورد ونتر فيشدد عليها التنكير والرقابة ، فقالت :

ـ ان اللجوء الى طبيب لا فائدة منه ، طالما انهم اعلنوا امس ان مرضي هو عبـــارة عن مهزلة ، ولا شك انهم سيقولون نفس القول اليوم .

فقال الضابط فلتون وقد نفد صبره :

ـ ماذا تريد السيدة ان نفعل لها ؟

ـ لا ادري ... وكل ما اشعر به انني اتألم .!

فالتفت فلتون الى الحارس وقال :

ـ اسرع وادع اللورد ونتر الى هنا .

فصاحت ميلادي بذعر :

ـ لا . . لا تدعه بربك ، فانا بخير ولم اعد بحاجـــة الى شيء مطلقـا . . .

قالت هذه العبارة بلهجة مؤثرة جعلت الضابط فلتون يقترب منها ويتفحصها بنظرات ثاقبة ويقول لها :

ـ اذا كنت حقيقة تتألمـــين ايتها السيدة ، فـــلا بأس من استدعاء الطبيب في الحال . اما اذا كنت تحاولين خداعنا فانت وشأنك . .

ولم تجب ميلادي على عبارته القاسية ، بل تعمدت ان تلقي

رأسها على الوسادة وراحت تنشج بالبكاء وترسل الزفرات .

وظل الضابط فلتون يراقبها ببروده المعتاد ، ولما رأى ان النوبة قد تطول ، انسحب من الحجرة ، وتبعته على الاثر المرأة التي جاءت خصيصاً لمساعدة ميلادي .

اما اللورد دي ونتر فلم يحضر ..

ومرت ساعتان على تظاهرها بالمرض ، ثم رأت ان الوقت قد حان للنهوض من الفراش والتظاهر بان بعض التحسن قد طرأ على صحتها ..

وفي صبيحة اليوم التالي احضر الخادم طعام الافطار لها ، وبعد ساعة من الزمن ، حضر الضابط فلتون مع اثنين من الحراس طلب اليهما ان يرفعا المائدة .

وبعد ذهاب الحارسين بقي فلتون وحده في الحجرة . وكان يحمل في يده كتابا . وحانت منه التفاتة عابرة فشاهد ميلادي مستلقية على مقعد وثير وقد بدت جميلة فاتنة رغم شحوب وجهها ، واقترب منها الضابط الشاب ووضع الكتاب الذي يحمله وقال :

ـ ان اللورد دي ونتر وهو كاثوليكي مثلك ، يحرص على ان لا تحرمي من ممارسة طقوس مذهبك في هذا القصر ، ولذلك فقد كلفني ان احمل اليك هذا الكتاب الذي يتضمن الطقوس الكاثوليكية وصلواتها بكاملها .

فأدركت في الحال ان الضابط فلتون ينتمي الى البروتستانت المتعصبين ، فقررت ان تستغل هذه الناحية بالذات ، فالتفتت الى فلتون وقالت بلهجة اشمئزاز :

- ما الذي تقوله ايها الضابط ؟ وهل تعتقد انني كاثوليكيـة ، ان اللورد دي ونتر الكاثوليكي يعـــلم جيداً انني لست من اتباع مذهبـــه ...

فسألها الضابط فلتون بدهشة :

- ومن اي مذهب انت يا سيدتي ؟

فأجابته بحماس مصطنع :

- سأقول لك ذلك في اليوم الذي ارى فيه انني قاسيت اشد ما يجب ان اعانيه في سبيل مذهبي .

وفي ذلك الحين ظل الضابط فلتون صامتاً وقـــد اعربت قسمات وجهـــه عن مدى التأثير الذي احدثتـــه في نفسه تلك العبارات ...

وتابعت حديثها قائلة :

- انني الان في قبضة اعدائي ، وارجو من الله ان ينقذني او ان اهلك من اجل الله .. وهذا هو الجواب الذي اتمنى ان تنقله الى اللورد دي ونتر . اما بصدد هذا الكتاب فيمكنك ان تعيده الى اللورد ليستخدمه .

ولم يجب الضابط فلتون الذي كان بروتستانتياً متعصباً ومن جماعة «المطهرين» بشيء، فتناول الكتاب باشمئزاز وانصرف بهدوء.

وفي المساء حضر اللورد دي ونتر الى غرفة ميلادي وبعد ان جلس على مقعد بقرب المدفأة قال :

- يبدو لي انك غيرت مذهبك منذ ان افترقنا المرة الاخيرة في باريس ، فهل تزوجت بزوج ثالث يعتنق المذهب البروتستانتي؟

فقالت ميلادي متظاهرة بالدهشة :

ـ وما الذي تعنيه بقولك هذا ؟..

ـ اعني انه لا فرق عندي اذا كنت كاثوليكية او بروتستانتية.

ـ لا اظنك ايها اللورد تجرؤ على المجاهرة باستهتارك بالدين، على الرغم من فجورك وجرائمك المعروفة.

فانتهرها اللورد بلهجة حانقة وقال :

ـ انت تتحدثين عن الفجور والاثام وانت غارقة فيهـــا الى اذنيك.. وهل بلغت بك الوقاحة الى هذا الحد ؟

ـ لست اجهل ما ترمي اليه من وراء هذه الاقوال والاتهامات فانت تعلم ان رجالك في الخارج يستمعون الى حديثنا وتريد ان توغر صدور جميع الحراس ضدي..

فقال اللورد :

ـ ارى ان مهزلة الامس قد انقلبت اليـوم الى مأسـاة ... فالزمي مكانك، ولن تمضي ثمانية ايام حتى تكوني في المكان الذي يصلح لاقامة امثالك، وعندها تنتهي مهمتي..

فتظاهرت ميلادي بالجزع وصاحت :

ـ يا لها من مهمة شائقة اثيمة !

والتفت اليها اللورد ونتر وقال وهو يهم بالانصراف :

ـ هدئي روعك ايتها المرأة البروتستانتية المحافظـــة، والا اضطررت الى نقلك الى زنزانة منعزلة... ولا شك ان النبيذ الاسباني الذي امرت بتقديمه لك هو السبب في جعلك تفقـــدين صوابك وتمثلين بالمجانين في تصرفاتك وهياجك.

وكان الضابط فلتون ، كما توقعت ميلادي ، ملتصقاً بالباب يصغي الى الحوار ولم تفته كلمة واحدة منه .

وفي المساء عندما احضر الحراس طعام العشاء لميلادي ، وجدوها جاثية على ركبتيها وقد طأطأت رأسها الى الارض كما يفعل البروتستانت المطهرين عند الصلاة ، وراحت تتلو صلاة بصوت مرتفع تعلمتها من خادم كان في قصر زوجها الثاني اللورد ونتر ، وتظاهرت بانها لم تشعر بدخول احد الى الغرفة ، واستمرت في خشوعها .

واشار الضابط فلتون الى الحراس بان لا يقطعوا عليها صلاتها . وتوقف احد الحراس عن السير امام باب الغرفة ينصت اليها وهي تصلي . ولما انتهت من صلاتها ، تناولت قليلاً من الطعام ولم تشرب سوى الماء القراح .

وجاء الحراس بعد مضي ساعة ليرفعوا المائدة ، ولاحظت ان الضابط فلتون خلافاً لعادته لم يرافقهم هذه المرة . فادارت ظهرها الى الحائط وابتسمت ابتسامة الفوز لنجاح خطتها .

واقبل الليل ينشر ظلاله على القصر ، وخفت الحركة ، فقد استسلم الجميع الى النوم ، ولم يعد يسمع سوى هدير الامواج المتلاطمة ، ووقع حوافر الحارس على بلاط الرواق ، الذي كان يخطو امام بابها خطوات منتظمة . ورأت ميلادي ان الوقت حان لتقوم بمحاولتها الثانية ، فشرعت ترتل بصوت عذب هادىء المقطع الاول من احد الاناشيد الدينية الشائعة .

واحست ان الحارس المكلف قد توقف عن السير ، وراح

يستمع اليها ، ثم سمعته يصيح بها بصوت مرتفع من خلف الباب :

ـ الزمي الصمت ايتها السيدة ، وكفّي عن انشاد هذا النشيد الحزين . . .

وفي تلك اللحظة بالذات سمعت صوتاً جهورياً عرفت فيه صوت الضابط يصيح بالحارس منتهراً ويقول :

ـ لقد عهد اليك حراسة هذه المرأة فقط ، وليس من حقك ان تمنعها من ممارسة طقوسها الدينية بحرية . . .

فبانت على قسمات وجه ميلادي دلائل الغبطة ، وتابعت انشادها بصوت تعمدت ان تجعله رخيماً هادئاً .

وخيل للضابط فلتون انه يسمع صوت احد الملائكة ، فاسرع يفتح الباب بعنف ، ورأته ميلادي يقف امامها مكفهر الوجه تائه النظرات وقال بصوت مضطرب :

ـ لماذا تنشدين هذا النشيد المؤثر ايتها السيدة ؟

فقالت متظاهرة بالجزع :

ـ ارجو ان لا اكون قد اسأت الى معتقدك ايها الضابط . . فاصفح عني وثق انني لم اتعمد ذلك ، بل كان بالرغم مني .

وكانت في وضعها وهي جاثية على ركبتيها ، تبدو رائعة الجمال وكأنها ملاك طاهر ، فقال لها فلتون :

ـ اجل ان ارتفاع صوتك على هذا الشكل ، قد يزعج سكان القصر .

فحنت رأسها بانكسار وقالت بلهجة تعمدت ان تجعلها عذبة :

ـ اذن سالزم الصمت . .

فاجابها فلتون :

ـ لا ... لا يا سيدتي ، يمكنك متابعة انشادك ، انما ليكن ذلك بصوت اقل ارتفاعاً ، خاصة في اثناء الليل .

وشعر الضابط فلتون بانه لن يستطع الاحتفاظ بوقاره وهيبته امام فتنة هذه السيدة وسحرها ، فاسرع ينسحب من حجرتها بعد ان اغلق الباب خلفه .

٥٤

الايام الاخيرة في الاسر

•

وفي اليوم التالي تردد الضابط فلتون على حجرة ميلادي كعادته في مواعيد الطعام ، الا انه تحاشى التحدث اليها .

ومضت الساعات الطويلة قطعتها ميلادي في مناجات نفسها ، وتدبير الخطة الناجحة للخلاص من هذا الاسر .

وقبيل الظهر حضر اللورد ونتر ، وكانت ميلادي واقفـــة بالقرب من النافذة . وتظاهرت بانها لم تسمع فتح الباب ، وبدا عليها وكأنها غارقة في بحر من الافكار .

فبادرها اللورد ونتر بلهجة ساخرة :

ــ بعد ان انتهينا من تمثيل ادوار المهازل والمآسي ، جاء الآن دور المواقف الحزينة الصامتة !..

ولم تجب ميلادي على لهجة اللورد الساخرة ، وتعمدت الاعتصام بالسكوت ، بينما اردف يقول :

ـ اعلم جيداً انك تتمنين من صميم قلبك ان تكوني الآن حرة طليقة تمخرين عباب البحر على ظهر سفينة فخمة ... مهلاً ايتها المرأة فلن تمضي اربعة ايام حتى تتحقق امنيتك ، فيفتح لك البحر ابوابه لتخرجين نهائياً من هذه البلاد الى غير رجعة .

فجثت ميلادي على ركبتيها وضمت يديها الى صدرها ورفعت رأسها الى السماء تبتهل قائلة :

ـ يا الهي اغفر لهذا الرجل .. فلقد صفحت عنه انا ...

فتجاهل اللورد دي ونتر عبارتها المصطنعة ومد يده الى جيبه وتناول منه ورقة كبيرة مطوية فنشرها امام عيني ميلادي وقرأها بصوت مرتفع :

« بموجب هذا الجواز الخاص يجب ان تساق المدعوة ـ شارلوت باكستون المحكوم عليها من قبل القضاء الفرنسي الى بلدة ... على ان تبقى فيها ولا يسمح لها بمغادرتها ، واذا حاولت الفرار تنزل بها عقوبة الموت في الحال دون محاكمة وقد عين لها مبلغ خمس شلنات في اليوم لنفقات سكنها وطعامها . »

واصيبت ميلادي بنوع من الوجوم والهلع فلم تعد تستطع الكلام او التفكير ، فبادرته بصوت متلعثم :

ـ ان هذا الجواز لا يعنيني لانه يحمل اسماً غير اسمي ..

فأجابها اللورد بلهجة قاسية :

ـ وهل لك اسم آخر ؟

ـ اجل ... يمكنني ان احمل اسم شقيقك المرحوم .

ـ انك مخاتلة ايتها المرأة ، فشقيقي لم يكن سوى زوجك

الثاني ... مع ان الزوج الاول لم يزل على قيد الحياة . فقولي لي اسمه لاضعه مكان هذا الاسم المستعار . واذا رفضت فأنا اصر على ابقاء هذا الاسم .

وظلت ميلادي صامتـــة وهي في اقصى حالات الرعب والاضطراب ، وحانت منها التفاتة الى الجواز المنشور امامها على الطاولة فلم تر في ذيله اي توقيع رسمي يجعله امراً نهائياً ، فتنفست الصعداء وعاودها الاطمئنان والامل بالنجاة من جديد .

وادرك اللورد دي ونتر ما يجول في خاطرها من الافكار فقال :

ــ سارسل هذا الجواز غداً الى اللورد دي بوكنغهام ليوقعه وبعد غد سيعاد الي يحمل توقيع اللورد وخاتمه الرسمي ، وبعد اربـع وعشرين ساعة من استلام الامر سأنفذه بكل دقة وصرامة .

فارتاعت لهذا القول وصاحت تقول :

ـ ولكن هــــذا الابعاد تحت اسم مستعار هو عمل شائن !

فاجابها اللورد ونتر بسخرية لاذعة :

ـ وهل تفضلين ان تموتي شنقاً تحت اسمك الحقيقي ؟ لا اظنك تجهلين صرامة الشرائع الانكليزية في معاقبة العابثين بروابـــط الزواج المقدسة .

ولم تجب ميلادي على هذا التحدي وقد امتقع وجههـــا حتى اصبح كالاموات .

واردف اللورد :

ـ ارى انك تفضلين ولا شك الابتعـــاد عن الموت شنقاً .. وسأعود لأراك غداً لنتفاهم على التفاصيل ، بعد ان اوفد رسولاً

خاصاً الى اللورد بوكنغهام يحمل اليه الجواز .

وخرج اللورد ونتر دون ان ينتظر جواب ميلادي على حديثه ، وتنفست ميلادي بعض الشيء ، فما يزال هناك بارقة امل يمكن خلالها اتمام محاولة اغراء الضابط فلتون والتغرير به ليسهل لها سبيل الفرار .

واسرعت تجثو على ركبتيها وراحت تتلو صلاة بصوت مرتفع وكان الضابط فلتون واقفاً خلف الباب فرأى من خلال ثقب الباب ميلادي جاثية تقرع صدرها بخشوع وهي تتلو صلاتها ، وبعد أن انتهت من صلاتها خيل لها انها تسمع صوت تنهـــد عميق ووقع خطوات خفيفة تبتعد بتثاقل عن حجرتها .

وفي صباح الغد دخل فلتون الى حجرة ميـــلادي ، فوجدها واقفة على كرسي وهي تحمل بين يديها حبلاً جدلته من عدد من المناديل والاشرطة ووصلتها الى بعضها بعضاً ، وكانت تحاول ربط هذا الحبل بقطعة من الحديد مثبتة في اعلى الجدار ، وما ان شعرت بالضابط الشاب يدخل غرفتهـــا حتى قفزت بسرعة عن الكرسي وحاولت اخفاء الحبل وراء ظهرها ، فاسرع بانتزاع الحبـل من يدها وقال لها بصوت مرتجف :

ـ لا تنسي ايتها السيدة ان الله ينهي المرء عن الانتحار .

فأحنت رأسها متصنعة الذل واليأس وقالت :

ـ ولكن الله عندما يرى احـــدى خلائقه معرضة للاضطهاد والعذاب الشديدين ظلماً وبدون مبرر ، وامامها احـــد الطريقين

الانتحار او العار ، فثق يا سيدي الضابط انه يغفر لها اقدامها على الانتحار ، لان موتها اذ ذاك وعلى هذا الشكل هو الاستشهاد في اروع معانيه .

ـ سيدتي انا جندي وعليّ ان انفذ بدقة ماطلب مني ،وسأسهر على حياتك وامنعك من الاقدام على مثل هذا العمل الفظيع ...

فقالت ميلادي :

ـ الم تعرف بعد من انا يا فلتون ، انا لست ملاكا ولاشيطاناً بل امرأة من هذه البسيطة واختك بالايمان .

فأجابها فلتون :

ـ لقد كنت في الماضي اشك بذلك ، اما الان فقد اصبحت مقتنعاً بصحة ما تقولين .

ـ انك تؤمن بما اقوله ، ومع ذلك فلن تتأخر عن مساعـدة االورد دي ونتر والقائي بين ايدي ذلك الرجل الذي يلوث الكون بهرطقته وفجوره، ذلك الذي يدعونه الدوق دي بوكنغهام.

فانتفض الضابط الشاب وقال :

ـ انا اسلمك الى بوكنغهام ؟.

ومرّ بيده على جبينه يمسح العرق المتصبب ، وكأنه يزيل من رأسه آخر اثار الشك العالقة في ذهنه .

وظهرت فجأة على محيا ميلادي موجة من الغبطة لنجاح خطتها في جعل الضابط فلتون يؤمن بانها بروتستانتية محافظة، وانها ضحية بريئة للورد دي ونتر وسيده الدوق دي بوكنغهام ..

وفي تلك اللحظة سمع وقع اقدام اللورد ونتر ، تقترب مـن

الحجرة ، وبعد ان تبادل مع الحارس بعض الكلمات ، فتح باب الحجرة ودخل ، فوقع نظره على ميلادي جالسة في ركن الغرفة بينما وقف الضابط فلتون امـــام الباب وهو مستند بظهره الى الحائط ، فالتفت اللورد اليه وخاطبه :

ـ يخيل لي يا جان انك قضيت مدة طويلة هنـا ، فهل قصت عليك هذه المرأة جرائمها واعمالها ؟

فامتقع وجه فلتون ولم يدر بماذا يجيب ، واسرعت ميلادي تنقذ الموقف وقالت :

ـ لقد طلبت من سجانك هذا ، ان يقدم لي خدمة بسيطة ، ولكنه رفض باصرار .

فسألها اللورد :

ـ وما نوع هذه الخدمة ؟

ـ طلبت اليه ان يأتيني بمدية حادة .

ـ وهل هناك شخص معين تريدين ان تقضي عليه ؟

اجابته في الحال :

ـ اجل ... ان هذا الشخص هو انا ...

فأجابها اللورد ساخراً :

ـ لقد خيرتك بين النفي والشنق ، فاذا كنت ترغبين في قتل نفسك ، فاؤ كدلك ان حبل المشنقة اهون بكثير من الموت في خنجر او مدية حادة .

وتأبط اللورد ذراع ضابطه الشاب وخرجا من الحجرة معاً .

وانتظرت ميلادي عودة فلتون بفارغ الصبر ، وساورتها شـــتى

الهواجس ، ولم يطل انتظارها اكثر من ساعة ، اذ ترامى الى سمعها صوت فلتون يتحدث بصوت خافت في الخارج ، وبعد لحظات فتح الباب ودخل ، فأشار اليها بطرف عينه ان تلزم الصمت ، ثم قال بصوت منخفض :

ـ اسمعي ، لقد صرفت الحارس الآن ، ليتسنى لي التحدث اليك بعيداً عن انظار الرقباء واسماعهم . لقد قص عليّ اللورد اشياء مخيفة عنك . فأما ان تكوني شيطاناً رجيماً ، او ان يكون اللورد وحشاً مخيفاً . وانا لا اعرفك الا منـــذ اربعة ايام ، بينما اللورد فاني اعرفه منذ سنتين واحبه ... ولا تقلقي بما اقوله لك ، ولكنني اريد اولاً ان اقتنع ، ولهذا فسأعود اليك بعد منتصف الليل لاقف منك على الحقيقة المجردة .

فهزت ميلادي رأسها بأسى ويأس وقالت :

ـ لا تجازف بنفسك يا اخي فلتون ، فانا امرأة هالكة حتماً ، فدعني اموت بهدوء ، لأن موتي ابلغ من الكلام الذي تطلبـــه لاقناعك .

فصاح الضابط فلتون :

ـ اسكـــتي يا سيدتي ولا تعودي الى الكلام عن الموت ، وارجو ان تعديني بان لا تقدمي على اية حماقة من هذا النوع .

فتظاهرت ميلادي بالامتثال وقالت :

ـ اعدك بذلك ، شرط ان تفي بوعدك لي وتأتيني بالمدية .

فهز الضابط رأسه وخرج من الحجرة ، بعد ان اقفـــل الباب خلفه .

وفي ذلك المساء قام اللورد ونتر بجولة مفاجئة في الجناح الذي تقيم فيه ميلادي ، وعند انصرافه امر بان يسمّر لوح من الخشب على الكوة الوحيدة الموجودة بباب حجرتها ليمنعها من الاتصال بالخارج ، وذلك زيادة في الاحتياط .

وما ان جاوزت الساعة منتصف الليل بدقائق معدودة حتى سمعت خطوات الضابط الشاب تقترب من باب غرفتها ، ثم سمعته يهمس الى الحارس المكلف بحراسة باب غرفتها ، ببضع كلمات ، انصرف على اثرهـــا الحارس ، بينما فتـــح الضابط باب الحجرة ودخل بهدوء . .

ونهضت ميلادي من سريرها وقالت بصوت خافت :

ـ هذا انت !؟

ـ لقد وعدتك بالمجيء وها قد وفيت بوعدي !

ـ لقد وعدتني بشيء آخر ايضاً .

فتردد فلتون بالجواب ، وكان العرق يتصبب من جبينـــه وركبتاه تصطكان من فرط القلق ، ومد يده بالمدية قائلًا :

ـ هو ذا المدية . . ولكن لن اسلمها لك الا اذا وعدتني بان لا تستخدميها في إلحاق الاذى بنفسك .

اجابته :

ـ اقسم لك بانني لن استخدمها الان .

وبدأت ميلادي تسرد على مسامـــع الضابط الشاب المخدوع رواية نسجتها من مخيلتها فقالت :

ـ اسمع يا اخي فلتون ، انني ضحيـــة مكيدة مدبرة ،

فقد كنت في صغري فتاة فاتنة وفي ربيع الحياة ،فحاولت المقاومة ولكن مقاومتي انهارت ، عندمـــا تعمدوا مزج الماء الذي اشربه بمادة مخدرة ، ففقدت على اثر تجرعها صوابي ، ولما استفقت ألفيت نفسي ملقاة على فراش في غرفة فخمة الرياش ، لا ينفذ اليها النور الا من نافذة صغيرة في السقف .

واستطعت ان اجزم استناداً الى ضعف نور الشمس انه قـد مضى علي يومان في تلك الحجرة .

فنهضت مترنحة وانا اشعر بصداع اليم في رأسي ، واسرعت الى ارتداء ملابسي ، ورحت ابحث عن الباب لانجو بنفسي ، الا ان بحثي ذهب سدى واخيراً احسست بالتعب الشديد فارتميت على مقعد واسلمت نفسي للقدر .

واقبل الليل يرخي ظلاله على المسكونة ، وفجأة سمعت باباً يفتح ، وظهر من النافذة الزجاجية الـــتي بالسقف مصباح اضاء الحجرة .

وتبينت بجزع شديد رجلاً يقف على بعد خطوات مـــني ، وبالقرب منه مائدة وُضع عليها طعام جاهز لاثنين . ولم يكن ذلك الرجل سوى ذلك النبيل الذي لم ينقطـــع عن مطاردتي ، والذي قرر اذلالي وثلم عفافي .

وادركت من العبارة الاولى التي تلفظ بها ، انه تمكن من تنفيذ قراره الاثيم في الليلة السابقة ونال بغيته مني وانا غائبـــة عن الوعي !

واحتجزني في تلك الحجرة ثلاثة ايام،تمكن خلالها من اغتصابي

مرة ثانية بعد ان دس لي مخدراً في قدح الماء ، كما فعل في المرة الاولى ..

وفي اليوم الرابع ، حضر الى حجرتي نهاراً ، وكنت انتظر حضوره بفارغ الصبر ، لانتقم لشرفي المثلوم منـــه ، اذ كنت احتفظ بين فيافي ثيابي بمدية قررت ان اغمدها في صدره ، ولما دخل اندفعت نحوه اوجّه طعنة قوية الى صدره ، ولكن ارتدت يدي كليلة ، فقد كان يلبس تحت ثيابه درعاً من الفولاذ .

فأمسك بيدي بعنف وانتزع المدية منها وقال :

ـ يا لك من ناكرة الجميل ايتها البروتستانتية ، الان تأكدت من انك لا تحبينني ... ولهذا قررت ان اطلق سراحك تحذراً .

فصحت به :

ـ احذر يا هذا ، ان استعادة حريتي معناه فضيحتك .

فسألني بأزدراء :

ـ وماذا تعنين بذلك ؟

اجبته :

ـ في الساعة التي اصبح فيها طليقة ، سأعلن على الملأ كل شيء ، وافضح تصرفاتك الشائنة نحوي وكيف لجأت اليها ، ولن يحميك مقامك الرفيع ايها اللورد من الجزاء العادل ، فهناك الملك ، وفوق كلمة الملك يوجد الله .

فقال بجدة :

ـ اذن لن تخرجي من هذا المكان .

ـ لا فرق عندي ، وسأموت هنا ، وسيلاحقك طيفي ايـــنما

سرت ليذكرك بجريمتك .

فحاول للمرة الاخيرة ان يحملني على السكوت وقال :

ـ كوني عاقـلة ولا ترفضي عروضي ، اني مستعد لان اطلق سبيلك في الحال ، وامنحك ما تريدين من مـــال وجاه ، اما اذا اصررت على عنادك فاني سأحكم عليك بالذل والعار طيلة حياتك .

فصحت به قائلة :

ـ ان تهديداتك لا تخيفني ،ولن اقبل عروضك المخزية ...ولم يدخل بروعي بانه يعني ما يقول .

فهز رأسه مهدداً وقال :

ـ سأمنحك مهلة للتفكير فاختاري بين السكوت والعار .

ثم انصرف من الحجرة .

٥٥

مأساة كلاسيكية

●

وتوقفت ميلادي عن الحديث ،لتقرأ على قسمات وجه الضابط تأثير روايتها الملفقة عليه ، ثم تابعت حديثها :

ـ وفي مساء ذلك اليوم عاد ذلك الرجـل ، وكنت في حالة اعياء تام ، وكان برفقته هذه المرة رجل يضع قناعاً اسود ليخفي معالم وجهه ، فخاطبني بقوله :

ـ جئت لأسمع قرارك الاخير .

فاجبته بلهجة حازمة :

ـ لقد صارحتك بقراري الاخير وان احيد عنه قيد شعرة ، وهو ان اطاردك حتى النهاية امام المحاكم الارضية ، كما سأقتص منك امام محكمة الله في العالم الآخر .

ـ اذن فانت تصرين على موقفك ؟

ـ لقد اقسمت على ذلك امام الله ،ولن اعود عنه حتى اجد من

يثأر اشرفي .

ـ انك الآن امرأة عاهرة في نظر القانون ، ولهذا قررت ان اصمك بوصمة المومسات الساقطات ...

ثم التفت الى الرجل المقنع وقال :

ـ قم ايها الجلاد بوظيفتك !

واسرع الرجل المقنع ينفذ الاوامر بشيء من القسوة والعنف ، ففي اقل من طرفة عين طرحني ارضاً ، وبعد ان ازال طرف الثوب عن كتفي اليسرى ، قرّب منه قضيباً حامياً من الحديد ، وشعرت بألم مميت في كتفي ،وتناهت الى انفي رائحة لحمي المحروق فأغمي عليّ من شدة الالم والرعب .

فأرسل الضابط فلتون زفرة عميقة من هول ما سمع ، وفي تلك اللحظة نهضت ميلادي من مقعدها وازاحت الثوب عن القسم الاعلى من جسدها البض ، متعمدة ابراز نهديها و كتفيها الناصعتي البياض ، وعرضت على انظار الضابط الشاب كتفها اليسرى الموسومة .

فصاح فلتون منذهلا :

ـ انها زهرة الزنبق ...

قالت وهي تهز رأسها بمرارة :

ـ انها منتهى النذالة ، فلو ان ذلك السفاح وسمني بما يوسم به مجرمو انكلترا لاحتاج عند الاقتضاء الى ذكر المحكمة التي قضت عليّ بهذا القصاص ... ولهذا تعمد ذلك الرجل ان يشوه كتفي بالوشم الفرنسي .

فقال فلتون متألماً وهو يغمر يدي ميلادي بقبلاته المحمومة :

ـ اصفحي عني ... يا سيدتي اصفحي !

وقرأت ميلادي في عينيه معنى الحب باجلى مظاهره ... ولم يكتف بتقبيل يديها ، بل انكب على قدميها يغمرهما بالقبلات ، وسألهـا .

ـ والآن ارجوك يا سيدتي ان تذكري اسم جلادك الاثيم ..

فاجابت :

ـ انه دائماً هو بعينه ، ذلك الرجـل الذي يعمل على خراب انكلترا ، ويضطهد المؤمنـين البروتستانت ، وينتهك اعراض الفتيات الجميلات ... وهو الذي يدّعي حماية البروتستانت اليوم ، ليتركهم غداً ...

فاجابها فلتون :

ـ لا شك انك تعنين ... اللورد دي بوكنغهام

فاخفت ميلادي وجهها بين يديها ، وكأنها لا تستطيع ان تتحمل العار الذي لحقها من ذلك الرجل .

وفي تلك اللحظة سمعت طرقات متواصلة على باب الحجرة ، فتراجعت ميـلادي بجفلة بينما تقدم الضابط فلتون يفتح البـاب ، فوجد الجاويش المكلف بالاشراف على الحراسة ، وادركت ميلادي انه يتوقف عليها انقاذ الموقف ، فاسرعت الى المـائدة ، وتناولت المدية وصاحت تخاطب فلتون :

ـ باي حق تريد منعي من الموت ؟

فصاح فلتون وهو يرى المدية تلمع بيد ميلادي :

يا الهي !

وتعالت في تلك اللحظة قهقهة ساخرة تجاوب صداها في الرواق ، فقد وقف اللورد ونتر امام عتبة الباب يشاهد هذه المأساة ، وقال بلهجة ساخرة :

– ارانا قد وصلنا الى الفصل الاخير من المأساة ...

وادركت ميلادي بانها ستفقد على الاقل ثقة فلتون اذا لم تقدم دليلاً ساطعاً على صدقها فقالت :

– اخطأت يا سيدي اللورد ، فان الذي تراه ليس مأساة تمثيلية ، بل حقيقة واقعة... وسترى .

وصاح فلتون صيحة فزع واندفع نحو ميلادي يحاول انتزاع المدية ، ولكن لحسن الحظ او بالاحرى لحرص ميلادي ، فقد اصطدم نصل المدية بالقضبان الرفيعة التي يتألف منها المشد الذي يطوق صدر ميلادي .

وفي اقل من ثانية ظهرت بقعة من الدم على ثوبها ، وانطرحت ارضاً متظاهرة بالاغماء .

وانتزع الضابط فلتون المدية من يدها وقال مخاطباً اللورد ونتر :

– ارأيت يا سيدي ان المرأة التي عهدت الي بحراستها قد انتحرت . . .

فاجابه اللورد :

– كن مطمئناً يا فلتون ، انها لم تمت ، فالابالسة لا يموتون بالسرعة التي تتوهم ، واذهب الان وانتظرني في غرفتي...

وحاول الضابط فلتون الاعتراض ، الا ان اوامر سيده ، جعلته ينصرف ، بعد ان اخفى المدية التي طعنت ميلادي نفسها بها في صدره .

ودعا اللورد المرأة التي احضرها خصيصاً لمساعدة ميلادي وطلب اليها ان تعنى بالجريحة ، ثم غادر الغرفة .

ومع انه كان يشك بتصرفات ميلادي فقد ارسل احد خدمه ليحضر طبيباً على جناح السرعة .

٥٦

الهرب

•

وكما توقع اللورد ونتر فان جرح ميلادي كان بسيطاً رغم تظاهرها بالاغماء والضعف بقصد ان تمضي بتمثيل دورها الى النهاية

ووصل الطبيب في الساعة الرابعة صباحاً ، وكشف عن موضع الجرح وقرر ان لا خطر منه وان حالة ميلادي لا تدعو للقلق . وهكذا امر اللورد ونتر المرأة بالانصراف ، اذ لم يعد من حاجة لوجودها بجانب ميلادي .

وانتظرت ميلادي عودة الضابط فلتون ، الا انه لم يأت . واشتد جزعها وخوفها ، عندما رأت الحراس الجدد المكلفين بحراستها يرتدون ازياء تختلف عن لباس الفرقة التي ينتمي اليها فلتون .

واستجمعت شجاعتها وسألت حارسها بلهجة مغرية ، عما جرى للضابط فلتون . فأجابها الحارس بان فلتون قد امتطى

صهوة جواده منذ ساعة وغادر القصر الى جهة مجهولة .

فشحب وجهها وأحست بالقلق والرعب يستوليان عليها ويشلان تفكيرها ، فانطرحت على سريرها وهي في اشد حالات اليأس ، وحدثت نفسها بقولها : لقد ارتاب اللورد في سلوك فلتون فابعده في الحال عن القصر .

وفي الساعة السادسة دخل عليها اللورد ونتر ، وكان يرتدي ملابسه العسكرية وخاطبها بقوله :

- كل شيء يجري وفقاً للخطة المرسومة ، والآن يمكنك ان تسرعي بحزم امتعتك ، استعداداً للسفر غداً .

وخرج تاركاً اسيرته تندب حظها العاثر .

وعند الساعة العاشرة هبت عاصفة عاتية وبدأ البرق والرعد يقصف بشدة اهتزت لها جوانب القصر ، وشعرت ببعض العزاء ، لرؤية الطبيعة تشاركها في ثورتها ...

وظلت تنصت الى ثورة الطبيعة في الخارج ، وفجأة طرق سمعها نقراً خفيفاً على زجاج النافذة المرتفعة والمطلة على البحر ، فاصغت بكل جارحة فيها لتتأكد من ذلك ...

ولمع البرق في تلك اللحظة ، وابصرت ميلادي وجه رجل يبدو خلف قضبان الحديد ، فاسرعت الى النافذة تفتحها بلهفة وصاحت بفرح :

- أهذا انت يا فلتون ؟.. لقد كتبت لي النجاة ..

اجابها فلتون بصوت مرتجف :

- ارجو ان تلزمي الصمت يا سيدتي ، ودعيني اتفرغ لنشر

القضبان الحديدية . والآن اقفلي النافذة واسرعي بارتداء ثيابك ومتى انتهيت من عملي فسأعلمك في الحال ، بان انقر ثلاث ضربات على زجاج النافذة .

فامتثلت لاوامره دون تردد ، ونهضت من سريرها ترتدي ثيابها ، وتنتظر اشارة منقذها فلتون على احر من الجمر ، ومضت ساعة كاملة قضتها في الاستماع الى هدير العاصفة وصوت المبرد الذي يعمل بلا انقطاع وكلما لمع البرق كانت ترى ميلادي خيال فلتون منصرفاً الى عمله بهمة ونشاط ، ومضت ساعة اخرى ، سمعت ميلادي بنهايتها فلتون ينقر على الزجاج ثلاث نقرات ، فاسرعت الى النافذة وفتحتها ، فسمعت صوت منقذها يسألها :

ـ هل انت مستعدة ؟

اجابت :

ـ نعم اني مستعدة ، وهل يجب ان احمل معي شيئاً ؟

ـ اذا كان معك بعض النقود ، فأحضريها لاننا قد نحتاجها لنتمكن من الوصول الى الشاطىء بسلامة .

ـ لحسن الحظ انهم تركوا لي ما كنت احمله من مال وحلي .

ـ حسناً فعلوا فلقد اضطررت الى انفاق ما املك من نقود في اكتراء المركب الذي استخدمته للوصول الى هنا .

وهنا مدت ميلادي يدها وناولته كيساً محشواً بالدنانير الذهبية . ثم صعدت حتى حافة النافذة والقت نظرة فاحصة على الخارج فوجدت تحتها هوة سحيقة وان منقذها يربط نفسه بحبل . فبان عليها التردد والخوف ، وشعر فلتون بترددها فقال :

ـ هل تثقين بي ؟
ـ كل الثقة ، سأهبط وأنا مغمضة العينين .
ـ هيا ضمي يديك الى بعضهما .
ففعلت وربط يديهـا بمنديل ثم تناول من وسطه حبلاً متيناً وربط اليدين ربطاً محكماً وقال :
ـ والآن ادخلي يديك حول عنقي ولا تخافي .
قالت بشيء من التردد :
ـ ولكني اخشى ان نفقد التوازن ، فنسقط الى الهاوية ...
ـ كوني مطمئنة ، فأنا بحار قديم وقد اتقنت مثل هذه الاعمال .
وبعد لحظات قليلة كان الاثنان متدليين فوق الهوة ، وشرع فلتون ينزلق بحمله على الحبـل متمهلاً ، واذا به يتوقف ويهمس باذن ميلادي :
ـ اسمع وقع اقدام تحتنا !..
فتمتمت ميلادي في جزع :
ـ ماذا حدث ؟
ـ انها دورية من الحرس تقوم بنوبتها التفتيشية .
ـ اذن لقد افتضح امرنا !
ـ لا اعتقد ذلك ، فالحبل يرتفع عن الارض ستة اقدام .
وظل الاثنان معلقين في الفضاء وقد حبسا انفاسهما وتوقفا عن الاتيان باية حركة .
ومرت الدورية دون ان تلمحظ شيئاً ، وسمع فلتون وقـــع الاقدام تبتعد فتنفس الصعداء وقال :

ـ لقد نجونا !

فزفرت ميلادي زفرة عميقة ، ثم اغمي عليها ، وكان اغماؤها هذه المرة حقيقياً ، لفرط ما بذلت من جهد وما انتابها من جزع واضطراب في تلك الليلة .

ولما بلغ فلتون نهاية الحبل ، قفز بحمله الى الارض ، ثم حمل ميلادي بين ذراعيه واسرع بها نحو الشاطىء القريب ونفخ بصفارته ، فجاوبه في الحال صوت صفارة ، وبعد لحظات قليلة ظهر قارب وبداخله اربعة نوتية راحوا يجذفون نحو فلتون. ولما اقترب القارب منه وضع المرأة في جوف القارب وكانت ما تزال مغمياً عليها ، وصاح بالنوتية :

ـ الى السفينة وباسرع ما يمكن .

واندفع النوتية يجذفون بقوة ، بينما انصرف فلتون الى حل الحبل والمنديل اللذين ربط بهما يديّ ميلادي ، ثم رش على وجهها قطرات من ماء البحر ، وفرك جبهتها بيديه ، وما لبثت ان تحركت ، ثم فتحت عينيها وقالت بصوت خافت :

ـ اين انا ؟

فأجابها فلتون :

ـ لقد نجوت !

فاتسعت حدقتا عينيها وصاحت :

ـ أصحيح ما تقول ؟ اجل فهذه هي السماء وهذا البحر حقاً لقد نجوت ... فشكراً لك فلتون .

فضمها الضابط الشاب الى صدره ولم يفه بكلمة .

وبعد دقائق قليلة ظهرت السفينة تقف في عرض البحر ، فزاد النوتية من سرعتهم ، حتى اصبح القارب بمحاذاتها ، فصعد فلتون مـــع رفيقته الى ظهر السفينة ، وكان ربانها ينتظرهما على السطح فخاطبه فلتون :

ـ هذا هو الشخص الذي كلمتك عنـه والذي يجب ان توصله الى فرنسا سالماً .

فتفرس القبطان بوجه ميلادي وقال :

ـ على ان تدفع لي مقابل ذلك الف دينار .

فأجابه فلتون :

ـ لقد نقدتك مقدماً خمسماية

ثم تناول الكيس المحشو بالدنانير وأردف يقول :

ـ وهذه هي الخمسماية الباقية .

فقال القبطان :

ـ لن اقبض هذا المبلغ الا بعد وصولنا الى ميناء « بولوني الفرنسي .

فقالت ميلادي :

ـ اذن عند وصولنا سالمين الى بولوني فسأنقدك الف دينار بدلاً من خمسماية .

فصاح القبطان :

ـ مرحى لك ايتها السيدة الجميلة ، وكم اتمنى على الله ان يرسل لي في كل رحلة اشخاصا اسخياء مثلك فطلب اليه الضابط فلتون ان يتجه بسفينته اول الامر الى خليج صغير يقع بالقرب من ميناء

بورتسموث يرغب الضابط النزول به .

وفي اثناء هذه الرحلة القصيرة قص فلتون على ميلادي جميع ما حدث له ، وكيف استأجر المركب واسرع الى قصر اللورد ونتر لانقاذها . وطلبت اليه ان يلحق بهـــا الى فرنسا الى دير الكرمليت في بلدة « بيتون » .

٥٧

الحوادث التي جرت في بورتسموث

●

وافترق الضابط فلتون عن ميلادي ، تاركاً قلبه بين يديها ، ولم يحظ منها بسوى قبلة طويلة طبعها على يدها الناعمة .

ونزل الى القارب الذي قاده الى اليابسة وهو في اشد حالات الاضطراب ، ووقف يلوح بقبعته الى ميلادي مودعاً ،ثم ما لبث ان توارى شخصها الحبيب عن ناظريه وراء الضباب الكثيف .

ووصل القارب الى الشاطىء ، فقفز منه فلتون وأسرع الى طريق بورتسموث التي لم تكن تبعد عن الخليج سوى نصف مرحلة . واستعرض فلتون في اثناء سيره ، الاتهامات الموجهة الى اللورد دي بوكنغهام ، فصوّر له حبه الاعمى الذي غزا فؤاده منذ ايام معدودة ، بان اتهامات ميلادي حقيقية لا ريب فيها .

ودخل الضابط فلتون بورتسموث عند الساعة الثامنة صباحاً ، وكانت المدينة بأجمعها في حركة غيرعادية ، اذ كانت الطبول تقرع

والقوات تتجه نحو المرفأ ..

ووصل فلتون الى مقر الاميرالية ، ليقابل الدوق بوكنغهام هناك ، بوصفه قائداً للاسطول ، وكان قد علاه الغبار ونال منه التعب ، فحاول الحارس ان يمنعه من الدخول ، الا ان فلتون دعا اليه رئيس الحرس وابرز له الرسالة التي يحملها من اللورد ونتر فسمح له بالدخول .

واندفع فلتون الى داخل القصر الواسع ينشد مكتب بوكنغهام وفي الوقت الذي دخل فيه فلتون الرواق المؤدي الى مكتب الدوق بوكنغهام ، وصل الى باب القصر رجل آخر يلهث من شدة التعب ، فسمح له بالدخول ، ولما وصل امام مكتب بوكنغهام ، كان فلتون قد بدأ حديثه مع سكرتير الدوق الخاص باتريك ، فابرز له رسالة اللورد ونتر ، بينما رفض الرجل الواصل حديثاً ، ان يدلي باسم الشخص الموفد من قبله ، ولذلك فقد سمح السكرتير للضابط فلتون بان يقابل الدوق اولاً ، بينما اضطر الرسول الآخر الى الانتظار . ووصل فلتون الى قاعة الانتظار وكانت غاصة بعدد كبير من زعماء مدينة لاروشيل ، حضروا خصيصاً لمقابلة بوكنغهام .

ودخل سكرتيره الخاص باتريك يعلن لسيده وصول الملازم فلتون من قبل اللورد ونتر ...

فردد الدوق العبارة وقال :

— ليدخل ...

ودخل الملازم فلتون الى جناح الدوق الذي كان قد ارتدى ثيابه ، والتفت يخاطب فلتون :

ـ لماذا لم يحضر اللورد بنفسه ، فقد كنت انتظر قدومــه في هذا الصباح .

فاجاب فلتون :

ـ لقد كلفني بان اقول لكم انه يأسف اشد الاسف لعدم تمكنه من الحضور شخصياً ، لانه مضطر الى البقاء للقيام بنفسه على حراسة القصر .

فقال الدوق :

ـ نعم ... اعلم ان في قصره أسيرة ...

فقال فلتون :

ـ وهذه الاسيرة هي التي أود ان أحدثكم بشأنها يا مولاي ، ولكن ما ساقوله لكم يجب ان لا يسمعه غيركم ..

فالتفت الدوق الى سكرتيره الخاص وقال له :

ـ دعنا لوحـــدنا يا باتريك ، ولكن لاتبتعد لاني سادعوك بعد قليل .

فامتثل باتريـك لاوامر سيده وخرج ، ثم التفت الدوق بوكنغهام الى فلتون وقال .

ـ لقد اصبحنا لوحدنا ايها السيد ، فقل ماتريد .

فقال فلتون :

ـ ان اللورد دي ونتر قد كتب اليكم يا سيدي رسالة منذ بضعة ايام ، يلتمس منكم ان توقعوا عـلى امر يقضي بابعاد امرأة تدعى شارلوت باكسون .

فأجابه الدوق بوكنغهام :

ـ اعلم ذلك ، ولقـــد اجبت اللورد بان يبعث اليّ بالامر للتوقيع عليه .

ـ هوذا الامر ياسيدي .

فتناول الدوق الامر ، وراح يمعن النظر فيه ، ثم اخـذ قلماً وهم بالتوقيـع عليه ، فبادره الضابط فلتون بقوله :

ـ عفواً ياسيدي اللورد ، هل تعلم ان اسم شارلوت باكسون ، هو اسم مستعار للمرأة الشابة .

فرفع الدوق ناظريه الى فلتون وقال :

ـ اعلم ذلك ايها الضابط ، كما اعلم ان اسمها هو ميـلادي او اللادي ونتر ...

ـ وهل ما زلت مصرّاً على توقيـع الامر ياسيدي ؟

ـ اجل ... ان هذه المرأة مجرمة وتستحق العقاب الصارم..

وكان الدوق في هذه الاثناء قد وضع الورقةعلى المائدة وادنى القلم منها ليوقع بامضائه عليها ...

فخطا فلتون خطوة الى الامام وقال :

ـ لن توقع يا سيدي على هذه الوثيقة !

فرفع بصره الى فلتون بدهشة وقال :

ـ ولماذا ايها الضابط ؟ !

ـ لانها بريئة يا سيدي مما نسب اليها ...

ـ لا شك انك مجنون ايها الرجل حتى تجرؤ على توجيـــه مثل هذا الحديث اليّ !

فأجابه فلتون :

ـ معذرة يا سيدي الدوق ، انني مطلع على جميـــع اعمالك ولهذا اطلب اليك ان توقع امراً باطلاق سراح هذه المرأة .

فبلغ الحنق بالدوق اشده وقال :

ـ اغرب عن وجهي ايها الوغد ، والا قرعت الجرس وأمرت بوضعك بالحديد .

فاسرع فلتون وكان في حالة هياج شديد ، يحول بين حلقة الجرس وبين الدوق ، وهنا صاح الدوق باعلى صوته : « اليّ ايها الحراس » وامتشق حسامه ، الا ان فلتون لم يدعـــه يستخدم حسامه للدفاع عن نفسه ، فقد وثب عليه واغمد في صدره المدية ، التي طعنت بها ميلادي نفسها فصرخ الدوق بوكنغهام بصوت متحشرج :

ـ لقد قتلتني أيها الوغد !

وفي تلك اللحظة دخل باتريك يقول :

ـ رسالة من فرنسا يا مولاي !

وما ان رأى باتريك الدماء تنفجر من صدر سيده الدوق حتى صاح باعلى صوته :

ـ القاتل ... القاتل !

والقى فلتون نظرة سريعة على الباب ، وفي لمح البصر وثب الى خارج الغرفة ، متجهاً نحو السلم ، ولكنـه لم يكد يتخطى الدرجات الاولى ، حتى اصطدم باللورد ونتر ، الذي رآه شاحب اللون ، ملوثاً بالدم ، فاسرع يمسك به وهزّه بعنف ، ثم نادى الحرس وطلب اليهم ان يحتفظوا به ، واسرع اللورد ونتر راكضاً

الى غرفة بوكنغهام ، فوجده ممدداً على اريكة وقد وضع يده على موضع الجرح وراح يضغط بشـدة ، وسمعه يقول بصوت ضعيف :

ـ هل جاء لابورت من قبلها؟

فأجابه تابع الملكة وكاتم اسرارها وكان قد دخل الحجرة في اللحظة نفسها :

ـ اجل يا مولاي ، لقد جئت من قبل الملكة آن دوتريش واظنني حضرت بعد فوات الاوان .

ففتح الدوق بوكنغهام فمه وغمغم :

ـ لا تقل ... ذلك يا لابورت ... باتريك لا تدع احـــداً يدخل الى حجرتي .

قال عبارته الاخيرة واغمي عليه في الحال .

وفي اثنـاء ذلك انتشر النبأ المروع في ارجاء القصر ، ونقل بسرعة البرق الى انحاء المدينة . واطلقت طلقة مدفـــع دلالة على وقوع حادث غير منتظر ..

وتجاوبت صدى هذه الطلقة في اذني اللورد دي ونتر ، فراح يشد شعره غيظاً وكمداً وقال يخاطب نفسه :

ـ لقد وصلت متأخراً دقيقة واحدة !.. يا لتعاستي !

وكان اللورد دي ونتر قد أبلغ عند الساعة السابعة صباحاً بان سلكاً من الحبال يتدلى من إحدى نوافذ قصره المطلة على البحر ، فأسرع في الحال الى حجرة ميلادي فوجدها خالية ، والنافذة المطلة على البحر مفتوحة والقضبان الحديدية قد قطعت ببرد ، وتذكر

في تلك اللحظة الرسالة الشفهية التي بعث بها اليه الفارس دارتنيان عن الغاية التي حضرت من اجلها ميلادي الى انكلترا ، فارتجف خوفاً على حياة الدوق بوكنغهام ، واسرع يمتطي صهوة جواده ، ويتجه لتوه الى بورتسموث... ولسوء حظه وصل متأخراً ، وكان فلتون قد نفذ رغبة ميلادي ، وطعن الدوق بوكنغهام طعنة قاتلة في صدره ...

واستعاد الدوق وعيه ، ولكنه كان يتنفس بصعوبة ، وفتح عينيه ، والتفت الى المجتمعين في حجرته وقال بصوت خافت :

ـ ارجو ايها السادة ان تدعوني في خلوة مع باتريك ولابورت.

وحانت منه التفاتة ، فرأى اللورد دي ونتر فخاطبه بقوله :

ـ هذا انت يا ونتر؟ لقد بعثت الي برجل مجنون هذا الصباح ، انظر ماذا فعل بي ؟

فصاح اللورد دي ونتر وقد خنقته العبرات :

ـ آه يا سيدي لن يعرف العزاء الى قلبي سبيلا .

وبعد ان مدّ الدوق يده الى ونتر ليصافحه ، اشار اليه بالخروج ، وظل الدوق الجريح ممداً على الاريكة المستطيلة ، وقد جثا الى جانبه لابورت رسول الملكة آن دوتريش ، بينما وقف باتريك ينتظر قدوم الطبيب الذي تأخر وصوله .

وهنا قال الدوق مخاطباً لابورت بصوت أشبه بالانين :

ـ هيا اقرأ لي مضمون رسالتها .

ففض لابورت الرسالة وراح يقرأ :

« سيدي :

لقد تحملت منذ ان عرفتك الآلام والعذاب ، فاذا كنت تريد ان تدخل الطمأنينة الي قلبي ، فارجوك ان تتوقف عن هذه الاستعدادات العسكرية التي تعدها ضد فرنســـــا ، وضع حداً لهذه الحرب ، التي يقال ان السبب الظاهر لها هو لاسباب دينية ، بينما السبب الحقيقي هو حبك لي .

وفضلاً عن ان هذه الحرب تحمل الويلات لانكلترا وفرنسا معاً ، فهي في الوقت نفسه تعود عليك بالمصائب والويلات .. إسهر على حياتك ، المهددة بالاخطار ، والتي هي عزيزة لدي بقـــدر ما يعز عليّ ان ارى فيك عدواً لبلادي .

المخلصة آن »

وبعد ان انتهى رسول الملكة من تلاوة الرسالة ، قال الدوق بصوت خافت :

ـ أهذا كل ما لديك يا لا بورت ؟

فاجابه لا بورت :

ـ نعم يا مولاي ، لقد كلفتني ان ارجوك ان تكون حـذراً ويقظاً ، لأن هناك من يسعى لاغتيالك .

ـ ولا شيء غير ذلك ؟

ـ اجل يامولاي ، لقد طلبت اليّ ان اقول لك بانها ماتزال تحبك !

فارسل الدوق زفرة عميقة من صدره وقال :

ـ شكراً لك يا الهي !

والتفت الى باتريك الذي ظل مسمراً وخاطبه :

ـ ائتني يا باتريك بالصندوقة التي كانت تضم هديتها الغالية . .

فأسرع باتريك يلبي طلب سيده بسرعة ، ووضع الصندوقة بين يديه .

فتلمسها الدوق باصابعه ثم قال :

ـ خذ يا لابورت . . هذا هو التذكار الوحيد الذي امتلكه منها ، ومعه هاتان الرسالتان ، واني اعهد اليك باعادة هذه الامانة اليها ، وكتذكار اخير مني اليها . . . وجال ببصره في الغرفة يبحث عن شيء ثمين ، الا انه لم يقع على شيء يستحق ان يكون هدية لحبيبته ، وجال بعينيه مرة اخرى ، وقد غشتهما سحابة سوداء فلم تقعا الا على المدية التي طعنه بها فلتون . فقال وهو يضغط على يد لابورت .

ـ اضف اليها هذه المدية . . !

وكان قد دخل في النزع الاخير ، وفي لحظات قليلة لفظ أنفاسه الاخيرة ، وخمدت كل حركة في جسد ذلك الرجل العظيم .

وأطلق باتريك صيحة فزع مدوية .

وفي تلك اللحظة بالذات حضر الطبيب ، فاسرع يجس نبض الدوق وقـــال :

ـ لا فائدة من ذلك . . . لقد مات .

وغصت غرفة الدوق بكبار القوم ورجال القصر وقد بدت على وجوههم امارات الحزن الشديد .

واسرع ونتر الى شرفته الصغيرة المطلة على البحر حيث وضع فلتون بحراسة عدد من الجنود .

وكان قد استعاد هدوءه ورباطة جأشـه ، فتقدم منه اللورد

ونتر وانتهره بعنف قائلاً :

ـ يا لك من رجل وغد ... حقير ، لقد كنت اداة طيعة في يد تلك المرأة الماكرة ، وستكون هذه الجريمة آخر جرائمها .

واذا بالشاب فلتون يرتجف فجأة ، وهو يرمي بنظره الى ناحية معينة من البحر ، فقد شاهد السفينة التي تقل ميلادي تبحر بسرعة باتجاه الاراضي الفرنسية ، وقد ادرك في تلك اللحظة فظاعة الخيانة التي ذهب ضحية لها .

والتفت الى اللورد متوسلاً :

ـ لي رجاء اخير يا سيدي ؟

فسأله ونتر بازدراء .

ـ قل ماذا تريد ؟

ـ كم الساعة الآن ؟

فنظر اللورد الى ساعته وقال .

ـ انها التاسعة الا عشر دقائق .

فحدث فلتون نفسه بقوله : « اذن فقد قدمت ميلادي سفرها ساعة ونصف الساعة ، ومنذ اللحظة التي سمعت فيها طلقة المدفع تعلن النبأ المشؤوم ، أوعزت الى القبطان بان يرفع المرساة ويسرع بمغادرة المياه الانكليزية ...

٥٨

العودة الى فرنسا

●

وكان همّ ملك انكلترا شارل الاول ،عندما علم بمقتل الدوق دي بوكنغهام ، ان يكتم الخبر اطول مدة ممكنة ، فامر باقفال الموانىء الانكليزية ليحول دون خروج اي مركب من الاراضي الانكليزية قبل اقلاع الاسطول الذاهب لنجدة قوات لاروشيل.

ولكن قبل ان يذاع امر الملك ، غادرت سفينتان ميناء بورتسموث ، وكانت على احدى السفينتين ميلادي ، التي لم تتأكد من الخبر الا بعد ان رأت الراية السوداء ترتفع على سارية سفينة الاميرالية ، فطلبت من قبطان السفينة ان يسرع بالخروج من الميناء حالاً ، وتمكنت ، رغم العقبات ، من ان تصل الى ميناء بولوني الفرنسي سالمة .

اما السفينة الثانية التي تمكنت من مغادرة ميناء بورتسموث قبل صدور امر الملك ، فسنأتي على ذكرها فيما بعد .

ولم يقع خلال هذه الفترة اي حادث يذكر في معسكر الملك لويس الثالث عشر ، وكان جلالته كعادته يبدي تبرمه وضجره من الحياة الهادئة التي تسير على وتيرة واحدة خالية من المسرات والمتع .

وفي ذات يوم قرر الملك الذهاب متنكراً الى سان جرمان ، لحضور حفلات عيد سان لويس ، وطلب الى الكردينال ان يُعدّ له عشرين فارساً من الاشداء المخلصين لمرافقته بهذه الرحلة . فاسرع الكردينال ينفذ رغبة الملك بسرور ، بعد ان نال وعداً من جلالته بان يعود الى المعسكر قبل الخامس عشر من شهر ايلول ، وطلب الى القائد دي تريفيل ان يتولّى اختيار عشرين فارساً لمرافقة جلالة الملك في رحلة سرية .

وكان دي تريفيل يدرك مبلغ شوق الفرسان الاربعة وبخاصة دارتنيان لزيارة العاصمة ، ولو انه يجهل الدافع الحقيقي لهذا الشوق ولهذا كان طبيعياً ان يقع عليهم الاختيار قبل غيرهم من الفرسان الذين سيرافقون الملك .

وكان دارتنيان قد حصل على أمر من الملكة عن طريق سيدة تورس ، يسمح باخراج حبيبته السيدة بوناسيو من دير راهبات الكرمليت نهائياً ، ولهـذا كان ينتظر الفرصة المناسبة ليلتقي بحبيبة قلبه .

ورافق الكردينال الملك حتى بلدة « مونرو » وهناك استأذن الملك بالعـودة الى المعسكر ، بينما واصل الملك رحلته الى باريس .

وكان الفرسان الاربعة أسبق الجميع الى نيل اجازاتهم ، فلم يضيعوا دقيقة واحدة من وقتهم ، بل ساروا من ساعتهم في الطريق المؤدي الى « بيتون » يتبعهم خدمهم الاربعة .

وتوقف الركب في مدينة « ارامس » ودخلوا حانة تقع الى جانب الطريق ، ليأخذوا قسطاً من الراحة ، ويتناولوا بعض الطعام والشراب .

ولما استقر بهم المقام حانت من دارتنيان التفاتة ، فوقع نظره على رجل يسرع بالخروج من فناء دار البريد المجاورة للحانة ، ويمتطي صهوة جواده ، وينطلق به راكضاً نحو باريس ، وراح دارتنيان يراقب باهتمام زائد الرجل ، الذي كان يرتدي معطفاً طويلاً يخفي تقاطيع جسمه ووجهه ، وازاح الهواء طرف المعطف عن وجهه ، فارتجف دارتنيان ، وسقط القدح من يده دون ان يشعر ، واذا به يثب نحو السلم يهم باللحاق به ، فاسرع رفيقه آتوس يمسك به قائلاً :

ـ ماذا بك يا عزيزي ، والى اين انت ذاهب على هذا الشكل ؟

فصاح دارتنيان وقد اصفر وجهه وتصبب العرق البارد من جبينه :

ـ انه هو بعينه .

فسأله آتوس :

ـ ومن هو ؟

فقال دارتنيان :

ـ انه ذلك الرجل اللعين ، نذير الشؤم ، الذي يعترض طريقي

في كل مرة اكون فيها مهدداً بالخطر ... فهو الذي التقيت بـه عدة مرات ... وانتهت كل مقابلة بمأساة جديدة كان له اليـد الطولى في تدبيرها ... لنسرع باللحاق به والقبض عليه ...

فبادره اراميس بقوله :

ـ ولكنك نسيت يا عزيزي انـه يسير في طريق معاكسة للطريق التي نسير فيها ، فلندعه الى فرصة اخرى ، ولنسرع بانقاذ السيدة بوناسيو .

ومر بهم في تلك اللحظة غلام يركض في أثر الفارس صائحاً :

ـ قف ايها السيد ، فهذه الورقة قد سقطت من قبعتك !

فاسرع دارتنيان يستوقف الغلام وقال له :

ـ اعطني هذه الورقة ، وخذ نصف دينار ...

فصاح الغلام مبتهجاً :

ـ بكل سرور يا سيدي ، فها هي الورقة خذهـا ...

وتلقى نصف الدينار بلهفة زائدة وعاد الى الاسطبل القريب من دار البريد ، بينما تناول دارتنيان الورقة ، والقى عليهـا نظرة فاحصة وقـال :

ـ ولكني لا ارى فيها الا كلمة واحدة .. هي « ارمنتيير »

فصاح اراميس :

ـ انها اسم بلدة او قرية على الاغلب .

فقال دارتنيان :

ـ ساحتفظ بهذه الورقة ، فلعلها تكون ذات فائدة لنـا في المستقبل . والآن هلموا ايها الرفاق نمتطي جيادنا ونتابع سيرنا .

٥٩

دير الكرمليت

●

وكانت ميلادي في ذلك الوقت الذي وصل فيه الفرسان الاربعة ، الى بيتون ، في دير الكرمليت تتحدث الى رئيسة الدير ، فقد وصلت الى الدير في ذلك الصباح وابرزت للرئيسة بطاقة توصية رسمية من الكردينال ، فأحسنت الرئيسة استقبالها ، وافردت لها غرفة في الدير .

وكانت ميلادي قبل قدومها الى الدير قد ارسلت الى الكردينال ريشليو الرسالة التالية :

« ليثق نيافتك بان الدوق دي بوكنغهام لن يحضر بعد اليوم الى فرنسا !.. »

ميلادي

ملاحظة : اما انا فقد ذهبت بناء لاوامر نيافتك الى دير الكرمليت في بيتون ، وسأبقى هناك انتظر اوامرك ... »

ولحظت ميلادي خلال الحديث ان رئيسة الدير من المتحمسين

للملك ، الناقمين على الكردينال ريشليو فتعمدت ميلادي الطعن به وانتقاد تصرفاته ضد خصومه السياسيين .

وسألتها بعد ذلك رئيسة الدير :

ـ اذن فلست من اعداء مذهبنا المقدس يا سيدتي ؟

فصاحت ميلادي باستنكار :

ـ وهل يتبادر الى ذهنك انني بروتستانتية ؟ كلا يا سيدتي فانا كاثوليكية راسخة العقيدة .

ثم لفقت ميلادي للرئيسة قصة جديدة ملخصها ان الكردينال يسعى الى اضطهادها ومطاردتها بعد ان كانت من اعوانه ، وانها تخشى ان تقع بين دقيقة واخرى في قبضة اتباعه الكثر الذين يتعقبون خطواتها .

وكانت الرئيسة تعلم ان ضيفتها الجديدة بحاجة ماسة الى الراحة والنوم بعد تكبدها مشاق السفر الطويل ، فقادتها الى حجرتها ، وتركتها بعد ان وعدتها بالعودة اليها لايقاظها ساعة الغداء .

واستسلمت ميلادي لسلطان النوم ، وقد غمرها سرور عميق ، لاعتقادها بان دارتنيان بات في قبضتها ، فقد وعدها الكردينال بالقضاء عليه اذا نجحت بمهمتها في انكلترا . وهي قد اصابت من النجاح في مهمتها ، ما لم تكن تنتظره ، فقد تمكنت بواسطة ذلك المعتوه فلتون من قتل الدوق بوكنغهام ، دون ان يلحق بها ادنى تهمة من جراء هذا العمل الفظيع !

واستفاقت ميلادي على صوت ناعم ، ففتحت عينيها ، وابصرت رئيسة الدير تقف الى جانب سريرها وبرفقتها امرأة شابة ، رائعة

الجمال ترتدي زي الراهبات المبتدئات .

وانصرفت الرئيسة تاركة الراهبة الشابة في حجرة ميلادي ، ولما همت الراهبة الناشئة بالانسحاب استوقفتها ميلادي ودعتها للجلوس على مقعد قريب من سريرها قائلة :

ـ أرجو ان تبقي هنا ، فأنا بحاجة الى من يؤنس وحشتي .

فقالت الراهبة الناشئة :

ـ أما انا فقد قضيت ستة أشهر وحيدة في هذا الدير ، ولكني سأبرحه قريباً .

ـ اذن سابقى وحيدة بين جدران هذا الدير .

ثم مالت على الراهبة الناشئة وهمست باذنها قائلة :

ـ علمت انك كنت ضحية بريئة للكردينال ، فكلانا لاقى من ذلك الرجل الرهيب مُرّ العذاب .

وقالت الراهبة الشابة :

ـ نعم انني ضحية للكردينال .. وكان ذنبي الوحيـــد انني اخلصت لامرأة طيبة القلب ، ضحيت من اجلها حياتي وما ازال اضحي .

ـ ومَن هي هذه المرأة الطيبة القلب ؟

ـ انها الملكة يا عزيزتي ، فقد اسأت الظن بها ، ولكني وجدت نفسي بعد حين انني مخطئة .

وقالت ميلادي متظاهرة بالاقتناع بقول الفتاة :

ـ حقاً ان الملكة طيبة القلب .

فسألتها الفتاة بحماس :

ـ وهل قابلتها شخصياً ؟

ـ لم اقابلها بالذات ، لكني اعرف عدداً من الاشخاص هم من اخلص المقربين لجلالتها امثال القائد دي تريفيل .

فهتفت الفتاة بغبطة :

ـ وهل تعرفين القائد دي تريفيل ، وأبرز فرسانه البواسل ؟

ـ أجل .

ـ هل تعرفين فارساً شهماً يدعى آتوس؟

فامتقع لون ميلادي عند ذكر هذا الاسم ، وبانَ عليها الارتباك الشديد فبادرت الفتاة تسألها :

ـ ما بالك لا تجيبين يا عزيزتي ، هل قلت شيئاً أساء اليك ؟

فأجابت ميلادي ببرود :

ـ كلا ... الا ان هذا الاسم قد استلفت نظري لاني اعرف صاحبه .

ـ وانا اعرف رفيقيه الفارسين بورتوس واراميس ايضاً .

ـ وانا اعرفهما ايضاً ، عن طريق رفيق لهم يدعى دارتنيان .

فامسكت الفتاة بيد ميلادي وسألتها بلهفة ظاهرة :

ـ وهل تعرفين حقاً الفارس دارتنيان ؟

فصمتت الفتاة قليلاً ثم اردفت تقول :

ـ لا شك انك كنت عشيقته .

فصاحت بها ميلادي :

ـ لا بل انت عشيقته يا سيدتي ... فقد عرفتك الان فانت السيدة بوناسيو .

فتراجعت الشابة مندهلة جزعة وقالت :

ـ حسناً ... وهل نحن عدوتان متنافستان ؟

فبرقت عينا ميلادي بنيران الغيرة والحقد وقالت :

ـ كلا ... فانا لم اكن عشيقته ولن اكون ابداً ... ولكن داوتنيان كان مجرد صديق ، وقد ائتمنني على اسراره الخاصة ، فمنذ الساعة التي اختطفت فيها وهو ما يزال في حالة يرثى لها ، وسيكون سروره عظيماً عندما يعلم بوجودك في هذا المكان .

فمدت ميلادي ذراعيها وطوقت عنق السيدة بوناسيو ، متظاهرة بالغبطة للعثور عليها ، بينما هتفت هذه الاخيرة تقول :

ـ إن دارتنيان سيصل الى هنا قريباً .

فاجابتها ميلادي :

ـ هذا مستحيل فهو الان في حصار لاروشيل ، ولن يعود الا بعد الاستيلاء على المدينة .

وعرضت على انظار ميلادي رسالة قرأت فيها العبارات التالية :

« عزيزتي : كوني على تمام الاستعداد ، لان صديقنا سيحضر لرؤيتك قريباً ، ولاخراجك من السجن الذي لم يكن منه بد ، حرصاً على سلامتك ، كوني مستعدة للرحيل .. ان صديقنا الغاسقوني الشاب قد برهن على انه شجاع ومخلص ، فلا تنسي ان تشكريه بالنيابة عني المعلومات التي وافانا بها . »

وحدثت ميلادي نفسها قائلة : « انه خط السيدة دي شيفروز » . .

ثم اردفت تقول :

ـ اجل إن الرسالة واضحة ... ولكن هل تعرفين ما هي تلك

المعلومات ؟

ـ كلا ... ولكني اعتقد انه حذّر الملكة من بعض تصرفات الكردينال .

وقطع عليها الحديث وقع حوافر حصان يقترب من باب الدير ، فصاحت السيدة بوناسيو قائلة :

ـ رباه هل يكون هو القادم ؟!

اما ميلادي فقد تولاها الرعب فانطرحت على سريرها ، بينما كانت جرمين بوناسيو تثب الى النافذة لترى القادم .

وفي تلك اللحظة دخلت رئيسة الدير الى الغرفة ، وقالت ان بالباب رجلاً من قبل الكردينال يطلب مقابلة السيدة القادمة من بولوني ...

فأجابت ميلادي متظاهرة بالخوف :

ـ دعيه يدخل لارى ماذا يريد .

فقالت السيدة بوناسيو جزعة :

ـ يا الهي ارجو ان لا يكون حاملاً انبـــاء مزعجة لك ، وسأتركك الآن على ان اعود اليك بعد ذهاب رسول الكردينال .

ثم ما لبثت ان خرجت مع الرئيسة ، تاركة ميـلادي وحدها في الحجرة .

وبعد لحظات قليلة دخل الغرفة الكونت دي روشفور ساعد الكردينال الايمن ، فارسلت ميلادي صيحة ارتياح لرؤية هـذا الرجـــل .

٦٠

عندما تتلاقى الابالسة

•

فهتف الكونت دي روشفور قائلاً :

ـ هذه أنتِ يا عزيزتي ميلادي ؟!

ـ اجل ... ومن اين أنت قادم ؟

ـ من معسكر لاروشيل ، وانتِ ؟

ـ من انكلترا ...

ـ وماذا حل بالدوق بوكنغهام ؟

ـ لقد فاجأه احد المتعصبين بطعنة مدية في صدره، ولا ادري اذا كان قد فارق الحياة ام اصيب بجرح خطر ...

ـ وهل انبأت نيافته بما حدث ؟

ـ نعم ، فقد كتبت اليه رسالة مطوّلة فور وصولي الى مرفأ بولوني .

ـ والظاهر ان نيافته قلق ، ولهذا ارسلني للبحث عنك .

ثم راحت تقص على الكونت دي روشفور، بانها صادفت عشيقة الفارس دارتنيان في هذا الدير ، وأن هـذه المرأة تنتظر وصول دارتنيان مع رفاقه الى هنا .

ووعد دي روشفور بان ينقـل الى نيافة الكردينال تفاصيل هذه الحوادث ، كما سيطلعه على نشاط هؤلاء الفرسان ومساعيهم المعاكسة لمشاريع نيافته .

وقبل ان يغادر الكونت دي روشفور الدير ، وعد ميلادي بارسال العربة على جناح السرعة اليهـــا ، وانه ينتظرها في بلدة « ارمانتيير » الواقعة على الضفة الاخرى من النهر .

فقالت ميلادي :

ـ وداعاً ايها الكونت ...

ـ الى اللقاء ايتها الكونتس.

وتبادل الاثنان ابتسامة ذات معنى وخرج الكونت مسرعاً ليمتطي جواده ، ويسرع في الطريق التي قدم منها .

٦١

كأس الخمر

•

وما ان غادر الكونت روشفور الدير ، حتى دخلت السيدة بوناسيو غرفة ميلادي ، فوجدتها باسمة الثغر ، فسألتها عن شخصية القادم ، فزعمت انه شقيقها ، وقد حضر خصيصاً لانقاذهـــا . . عندما علم بأن رجال الكردينال يجدون في البحث عنها لالقاء القبض عليها ، واضافت بان شقيقها قـد التقى في اثناء الطريق برسول الكردينال فتمكن من القضاء عليه ، وانتزع منه الاوراق التي يحملها من الكردينال وادعى امام رئيسة الدير بانه هو رسول الكردينال . وقد قرر ان يرسل الي عربة خاصة لتنقلني من هذا الدير الى مكان أمين . وقد علمت ايضاً ان الرسـالة التي وصلت اليك هي مزورة ، وما هي الا شرك للايقاع بك وجعلك لاتبدين اي مقاومة في مغادرة هذا الدير الامين .

ثم استطردت قائلة :

ـ لا تندفعي مع الأوهام ، فان صديقك لن يحضر . . . لانه ورفاقه هم الآن في حصار لاروشيل

فاقتنعت السيدة بوناسيو بحديث ميلادي وشكرتها على اهتمامها وعطفها . .

وفي ذلك المساء ، بينما كانت ميلادي تتناول طعام العشاء على مائدة رئيسة الدير والى جانبها السيدة بوناسيو ، طرق سمعها وقع حوافر جياد عديدة تقترب من الدير ، فانتفضت ، واسرعت الى النافذة وما ان رمت بنظرها الى الخارج حتى تسمرت في مكانها ، فقد رأت دارتنيان ورفاقه الثلاثة على بعد خمسين خطوة من باب الدير ، فصاحت بالسيدة بوناسيو قائلة :

ـ انهم رجال الكردينال وقد اقبلوا لالقاء القبض علينا ! . .

فاستولى الرعب الشديد على المسكينة جرمين بوناسيو ، وتشبثت بالمائدة لكي تحفظ توازنها ، واخيراً اقتربت منها ميلادي قائلة :

ـ تعالي نهرب معاً عن طريق الحديقة قبل ان يدركنا هؤلاء الاوغاد . . .

وفي تلك اللحظة سمع صوت عربة تسير سيراً حثيثاً ، ثم دوت بضع طلقات نارية ، وابتعدت العربة بسرعة .

فقالت ميلادي بلهفة :

ـ هل تريدين ان تأتي معي ؟

فاجابتها السيدة بوناسيو وهي ترتجف فرقاً :

ـ ما العمل . . . انني لااقوى على المشي ، فاذهبي وحدك

ودعيني لشأني .

ـ وهل تريدين ان أنجو بنفسي وادعك وحيدة؟

وبرقت في رأسها فكرة جهنمية ، فاسرعت تتناول كأس جرمين المملوء خمراً وتفرغ فيه مسحوقاً كانت تضعه في تجويف الفص من خاتمها ، ثم ادنت القدح من شفتي المرأة وقالت لهـا :

ـ اشربي يا عزيزتي فالخمر يعطيك قوة ويعيد اليك نشاطك . . .

فلم تتردد جرمين لحظة واحدة ، واخذت الكأس وجرعتـه دفعة واحدة وما ان استقرت الخمرة في جوفها ، حتى شعرت بدوار ينتابها وغشاوة كثيفة تسدل على عينيها ، واحست بثقل في اطرافها وشلل في اعضائها لا تقوى معه على الحركة ، وانتظرت عـودة ميلادي الا انها لم تعد ... وطرق سمعها صوت حركة غير عادية في الرواق المؤدي الى غرفتها ، وسمعت وقع اقدام عديدة تقترب منها ، وخيل لهـا انها تسمع اسمها يتردد مراراً ، واذا بها تصيح صيحة الفرح وتثب نحو الباب المقفل رغم ضعفهـا وتخاذلها ، فقد عرفت من بين الاصوات العديـدة صوت الفارس دارتنيان حبيبها ، وراحت تصيـح بملء فيها :

ـ دارتنيان .. انا هنا في هذه الغرفة !.

فرد عليها دارتنيان :

ـ جرمين حبيبتي .. انني قادم لنجدتك ! .

وبعد لحظات قليلة تحطم الباب ، ووثب الى الغرفة اربعـة رجال دفعة واحـدة واسلحتهم بايديهم ، واسرع دارتنيان يحمل حبيبته بين يديه وهي عاجزة عن الحركة ؛ وراح يغمرها بقبلاتـه

المحمومة .

ولاحظ آتوس تخاذلها فسألها :

ـ لمن هذا القدح يا سيدتي ؟

فأجابته بصوت خافت :

ـ انه قدحي وقد سكبت الخمر فيه .. هي ..

فسألها آتوس بلهفة :

ـ ومن هي ؟

فتمتمت قائلة :

ـ .. انها .. الكونتس دي ونتر !.

فارسل الفرسان الاربعة صيحة واحدة وقد ارتسم على قسمات وجوههم الرعب المجسّم .

وكان وجه السيدة بوناسيو الجميل يزداد شحوباً ، واخذ جسدها البديع يتشنج تدريجياً والعرق البارد يتصبب غزيراً .

ولما شاهد دارتنيان حبيبته على هذه الصورة المفجعة شرع يصرخ بلا انقطاع :

ـ النجدة ايها الرفاق ..

فقال آتوس بمرارة والم :

ـ واية فائدة من طلب النجدة ان السم الذي تسكبه تلك المرأة الشريرة لا ينفع فيه ترياق في الوجود !

وارسلت المسكينة زفرة اخيرة ، ولفظت اسم حبيبها دارتنيان ، الذي كان يحتويها بين ذراعيه ، وحدقت في عينيه لحظة ، كأن كل كيانها قد تحول الى هذه النظرات ، ثم الصقت

شفتيها بشفتيه ، وخرجت من صدرها أنّة عميقـــة لفظت معها انفاسها الاخيرة ..

ولم يشأ دارتنيان المسكين ان يصدق ان الـــتي يضمها الى صدره قد اصبحت جثة هامدة ، فراح يناجيهـا باعذب الالفاظ وكأنها ما تزال على قيد الحياة ..

واجهش بورتوس بالبكاء ، ورفع اراميس رأسه نحـــو السماء يستشهدها على فظاعة هذه الجريمة النكراء ، اما آتوس فقـد رسم على صدره علامة الصليب وراح يتلو صلاة عن نفس المسكينة ..

وفي تلك اللحظة الحرجة وقف امام باب الغرفة رجل غريب ، وكان وجهه لا يقل اصفراراً عن وجوه الرفاق الاربعة ، ونظر الرجل الغريب الى ما حوله ، فشاهد السيدة بوناسيو جثة هامدة والى جانبها حبيبها دارتنيان يندب حظه العاثر وهو لا يعي شيئاً. فقال بصوت متهدج :

ـ لم يخطىء ظني ، فها هو الفارس دارتنيان ، وانتم رفاقـــه الفرسان الثلاثة : آتوس وبورتوس واراميس أليس كذلك ؟

فتبادل الفرسان النظرات وخيل اليهم انهم يعرفون هـــذا الرجل الغريب الذي أردف يقول :

ـ ايها السادة انتم تبحثون عن امرأة مجرمة ، ولقد مرّت ولا شك بهذا المكان ، بدليل انني ارى جثة لضحية جديـــدة من ضحاياها .. انني أدعى اللورد ونتر ايها السادة ، وانا شقيق زوج تلك المرأة المجرمة !

فصاح الفرسان صيحة الدهشة ، ومد آتوس يده الى اللورد

يصافحه قائلًا :

ـ اهلًا بك ياسيدي ، وتأكد بانك اصبحت منا في محاربة تلك المرأة الماكرة .

فقال اللورد ونتر :

ـ لقد غادرت ميناء بورتسموث بعد خروجها بخمس ساعات ووصلت الى بولوني بعد وصولها بثلاث ساعات ، ورحت اتتبع آثارها خطوة فخطوة حتى وصلت الى بلدة « ليليه » حيث فقدت اثرها .. واخيراً رأيتكم تمرون بي مسرعين فناديتكم فلم تسمعوا ، فاسرعت في اثركم ، وها اني ارى ويا للاسف انكم رغم اسراعكم قد وصلتم بعد فوات الاوان !

فقال آتوس بمرارة مشيراً الى السيدة بوناسيو :

ـ كما ترى يا سيدي اللورد ..

وفي تلك اللحظة رفع دارتنيان رأسه بعد ان تولى كل من بورتوس واراميس تدليك جبهته ، وما ان تمالك قواه حتى ارتمى على جثة حبيبته يذرف الدموع الغزيرة ، فاسرع آتوس يحتضنه محاولاً تعزيته وخاطبه بلهجته النبيلة قائلًا :

ـ كن رجلًا يا عزيزي .. فالنساء فقط هن اللواتي يذرفن الدموع على الاموات ، اما الرجال فعليهم ان يثأروا لموتاهم !

فرفع الفارس الشاب عينيه وقال :

ـ أصبت ايها الصديق ، فسأنتقم لها .. ولهذا فانا مستعد للحاق بك الى حيث تشاء ...

وغادر الفرسان الاربعة الدير ، يرافقهم اللورد ونتر ، وطلبوا

من الرئيسة ان تتولى دفن جثمان حبيبة دارتنيان والصلاة لراحة نفسها .

وبعد ان قطعوا مسافة قصيرة توقفوا امام باب الفندق الوحيد الموجود في تلك البلدة .

فقال آتوس :

ـ من الافضل ان نقضي ليلتنا في هذا الفندق ، ودعوا الامر لي.

٦٢

الرجل ذو الرداء الاحمر

•

وخلق اليأس القاتل في صدر آتوس الكبير عوامل شتى، بجعلته يوجه همّه الوحيد الى ناحية معينة لا سيما بعد ان تحمل هذه المسؤولية امام رفاقه الفرسان، وكان اول عمل قام به ان طلب من الفندقي ان يأتيه الى غرفته بخريطة مفصلة عن المنطقة، فانصرف الى دراستها بدقة، وتبين له ان هناك اربع طرق مختلفة تؤدي من بيتوك الى بلدة ارمانتيير، التي اتى ذكرها في الورقة التي اشتراها دارتنيان من الغلام بنصف دينار.

فبعد ان وضع الخطة بكاملها، نادى الخدم الاربعة، وراح يدرّبهم على القيام بالمهمة المطلوبة منهم.

وكان على الخدم الاربعة ان يسير كل منهم بمفرده عند الصباح الى ارمانتيير، متخذاً خطة سيره طريقاً من الطرقات الاربع المؤدية الى تلك البلدة، وطلب اليهم ان يسألوا كل من يصادفونه

في الطريق عن المرأة الهاربة .

وادرك آتوس بثاقب فكره ان تسيير الخدم الاربعة ، لا يلفت الانظار ،وانهم يستطيعون الاحتكاك بسهولة بافراد الشعب دون ان يثيروا حولهم الشبهات.

وكان في جملة التعليمات التي تلقاها الخدم، ان يتلاقوا جميعاً في بلدة ارمانتيير . . . وفي حال عثورهم على مقر ميلادي يتوجب على ثلاثة منهم ان يترصدوا حركاتها ، بينما يعود رابعهم الى الفندق لابلاغ آتوس النتيجة .

ولما انصرف الخدم نهض آتوس وتقلد سيفه وارتدى معطفه وخرج من الفندق مستتراً بالظلام الدامس .

وكانت الساعة العاشرة وشوارع البلدة خالية من المارة ، والاشخاص القلائل الذين كان آتوس يصادفهم في الطريق ،ويسألهم ان يرشدوه الى المكان الذي يقصده ، كانوا يترددون عند سماعهم اسم الشخص الذي يسأل عن منزله وكانوا يكتفون بان يشيروا باصبعهم الى الطريق .

وسار آتوس حتى وصل الى مفرق طرق ، فوقف متردداً ، وشاء الحظ ان يخدمه ، فمر من امامه متسول يتعثر في اسماله البالية، فاقترب منه آتوس ووضع بيده قطعة ذهبية وطلب اليه ان يرشده الى المكان الذي يقصده . فرحب المتسول بهذا العرض واشار الى الفارس ان يتبعه .

ولما بلغا زاوية الشارع توقف المتسول عن المسير واشار باصبعه الى منزل منعزل . والمنزل الذي اشار اليه المتسول ،كان

يبدو مظلماً وكأنــــه غير مأهول بالسكان. وراح آتوس يطرق الباب بشدة ، وبعد انتظار دام لحظات ، برز رجل طويل القامة ذو لحية سوداء ، من خلف الباب ، وبعد ان تبادل مع آتوس بعض الكلمات بصوت خافت ،سمح له بالدخول وقاده توا الى مختبره وكان زاخراً بالهياكل العظمية المعلقة بالاسلاك الحديدية وشتى انواع الحيوانات والزواحف والاعشاب الغريبة .

فبسط آتوس لذلك الرجل العجيب الغاية من زيارته ، ومــا ان سمع الرجل ما يطلبه آتوس حتى بان عليه الرعب والتردد ... وفي الحال اخرج آتوس من جيبه ورقة مطوية عرضها على انظـار الرجل الغريب ، وبعد ان قرأ مضمونها ، أبدى استعداده لتلبية ما يطلبه .

وبعد أن أنهى آتوس مهمته عاد الى الفندق،ونام ملء جفنيه .

وفي الصباح دخل عليه دارتنيان وسأله بلهفة :

ـ وماذا علينا ان نفعل الان ؟

اجابه آتوس بهدوء:

ـ لننتظر .

وانقضى معظم النهار في انتظار قاتل لم يخفف من وطأته سوى اشتراك الرفاق الاربعة في تشييع جثمان السيدة بوناسيو .

واخيراً عاد بلانشيه قبل مغيب الشمس وقدم الى آتوس مـا لديه من معلومات ، وفي الساعة الثامنة مساء ، امر آتوس باسراج الجياد والتأهب المسير .

وفي لحظات معدودة كان الفرســان الاربعة وبرفقتهم اللورد

ونتر على صهوات جيادهم .

فالتفت آتوس الى رفاقه وقال :

ـ انتظروني هنا ، فسأعود بعد دقائق قليلة .

فلكز جواده وانطلق به بسرعة خاطفة ، وما هي الا ربع ساعة حتى عاد وبرفقته رجل مقنّع ، متدثر بمعطف احمر اللون يغطي جميع اجزاء جسمه .

فتبادل الرفاق النظرات مع اللورد ونتر ، وتساءلوا عمن يكون هذا الرجل الغريب ، ولكنهم كانوا على يقين من ان وجوده ضرورياً لنجاح خطتهم ، ففضلوا السكوت تاركين لآتوس مهمة العمل .

٦٣

الحكم ...

●

كانت ليلة عاصفة يكتنفهـــا الظلام الدامس، وكانت البروق والرعود تقصف بشدة بين فترة وأخرى ...

وفي هذا الجو القاتم سار الركب الصغير يتقدمه بلانشيه، وبعد ان قطع قرية « فستوبوت » وغابة « ريشبورغ » اتجه بلانشيه شمالاً في الطريق المؤدية الى بلدة « فروميل » ، وما ان وصلوا الى هذه البلدة حتى بدأت السماء تمطر بغزارة ، وكان امامهم قطع ثلاث مراحل قبل الوصول الى ارمانتيير ، ولما اجتـــازوا قرية « غوسكال » برز لهم شبح رجل خرج من وراء شجرة كبيرة كان يتقي تحتها المطر . وتقدم الرجل الى وسط الطريق وهو يضع سبابته على فمه ، فعرف آتوس في الحال خادمه غريمو وسأله :

ـ ما وراءك ... هل تركت المرأة ارمانتيير ؟

فأشار الخادم برأسه بالايجاب .

وعاد آتوس يسأله :

ـ وأين هي الآن ؟

فاشار غريمو بيده ناحية نهر « الزنبقة » وقال : « إنها هناك » .

ـ وهل هي وحدها ؟

فأشار غريمو بالايجاب .

وهنا التفت آتوس الى رفاقه وقال :

ـ ايها السادة ، ان المرأة التي نبحث عنها هي على بعد نصف مرحلة من هنا في منزل منعزل يقع على ضفة نهر « الزنبقة » .

فقال دارتنيان وقد نفد صبره :

ـ حسناً سر أمامنا يا غريمو !..

فمشى غريمو في طليعة الركب واجتازوا الحقول غير عابئين بما ينصبّ عليهم من الامطار الغزيرة . وفي نهاية المسير وقف غريمو ومد يده مشيراً الى جهة معينة ، وفي تلك اللحظة لمع البرق ، وابصر الرفاق على نوره منزلاً صغيراً قائماً على الشاطىء على بعد مئة خطوة من قارب معدّ لعبور النهر .

فقال آتوس بصوت خافت :

ـ لقد وصلنا ايها الرفاق ، فارجو ان تتجنبوا كل حركة من شأنها ان تنبه الينا الانظار .

وفي تلك اللحظة ظهر رجل آخر كان مختبأ في خندق بجوار ذلك المنزل ، ولم يكن ذلك الرجل سوى موسكيتون ، فرفع اصبعه مشيراً الى غرفة مضاءة وقال يخاطب آتوس الذي اقترب منه :

ـ انها ما تزال في المنزل يا سيدي لم تبرحه .

فسأله آتوس :

ـ واين بازان ؟

ـ لقد تركته يتولى حراسة الباب، بينما كنت أحرس النافذة.

ـ حسنا انتم جميعاً مثال الخدم الامناء المخلصين .

وترجل آتوس عن جواده ورمى بالعنان الى غريمو ، وتقدم يقصد نافذة المنزل بعد ان اشار الى رفاقه بدخول المنزل من الباب، وتخطى السياج غير مبال بوخز الاشواك واقترب من النافذة بحذر فوجد ان الستارة قد انزلت عليها باحكام يستحيل معه رؤية ما في الغرفة ،فاضطر الى الصعود على حافةالنافذة الحجرية ليرى مايجري في الغرفة من القسم الاعلى من النافذة . وابصر على ضوء المصباح امرأة متدثرة بمعطف قاتم اللون ، وقد جلست على مقعد خشن الى جانب موقد كانت تشتعل فيه نار خفيفة ، ووضعت رأسها بين يديها واستسلمت لافكارها ...

ومع ان آتوس لم يتبين وجهها ، فقد تأكد ان هذه المرأة هي ميلادي ، زوجته السابقة والحية الرقطاء ... وحدثته نفسه بان يحطم زجاج النافذة ويدخل عليها ويزهق انفاسها الخبيثة ، الا انه احجم وقد تذكر بانه رسم خطة للاقتصاص منها واذاقتها ألوان العذاب .

وفي تلك اللحظة صهل احد الجياد بشدة ، فأجفلت المرأة ورفعت رأسها نحو النافذة وما أشد ذعرها عندما وقعت عيناها على وجه آتوس المتقنع ، فارسلت صرخة مدوية تجلت فيها معاني الذعر ، واسرع آتوس الى تحطيم الزجاج ، وقفز الى الحجرة في

اللحظة نفسها التي اندفعت فيها ميلادي نحو الباب محاولة الفرار ، ولكنها اصطدمت على العتبة بدارتنيان وقد انتصب جامـــداً كالتمثال فنكصت على عقبيها وخرجت من صدرها صرخـــة هلع مدوية ..

وخشي دارتنيان ان تتمكن من الفرار بطريقة من الطرق ، فتناول غدارته من وسطه وصوبها الى صدرها ..

فبادره آتوس قائلًا :

ـ ارجع غدارتك الى جيبك ، فهذه المرأة يجب ان تحاكم قبل أن تموت .

ثم التفت الى الرفاق وأردف يقول :

ـ ادخلوا ايها السادة ، ولنبدأ عملنا في الحال ..

فدخل اللورد ونتر ومن خلفه بورتوس واراميس والرجـل المقنـــع .. وبقي الخدم في الخارج يحرسون المنزل .

وكانت ميلادي اثناء ذلك قد تهالكت على مقعد خائرة القوى وما ان ابصرت شقيق زوجها اللورد حتى أرسلت صرخة هي اشبه بعواء الذئب ، واستجمعت قواها وقالت بصوت متهدج :

ـ ماذا تطلبون ايها السادة .. ولماذا اقتحمتم غرفتي ؟

فأجابها آتوس :

ـ جئنا لمحاكمة المرأة شارلوت باكسون الـــتي دعيت اولاً الكونتس دي لافير ، ثم حملت لقب اللادي ونتر بارونة ستيفيلد مع انها كانت متزوجة قبل ذلك وزوجها على قيد الحياة .

فتمتمت قائلة :

ـ انا هي المرأة التي تطلبونها !.

فتقدم اولاً دارتنيان وقال :

ـ إنني اتهم هذه المرأة بانها سممت السيدة بوناسيو التي ماتت يوم امس .

والتفت يستشهد برفاقه ، فأجابه بورتوس واراميس بصوت واحـــد :

ـ التهمة صحيحة ونحن الشهود على ذلك .

وأردف دارتنيان يقول :

ـ وانني اتهم هذه المرأة ايضاً امام الله والناس بانهـا حاولت تسميمي بواسطة خمرة مسمومة ، وقد ذهب ضحية هـذه المرأة رجل من أعوانها يدعى « بريزمون » .

فايّد بورتوس واراميس قوله .

فقال آتوس مخاطباً اللورد :

ـ يا سيدي ما هو إتهامك ضد هذه المرأة ؟

فاقترب اللورد وقال :

ـ انني اتهم هذه المرأة امام الله والناس بانها دبرت مؤامرة إغتيال الدوق بوكنغهام .

فصاح الفرسان الاربعة بصوت واحد وقد صعقوا للنبـــأ :

ـ الدوق بوكنغهام !

ـ نعم ايها السادة فقد قتل غدراً وخيانة ، وقد وصلتـــني رسالتكم في حينها وامرت بالقبض عليها ، الا انها تمكنت بمكرها ان تغوي احد خدمي المخلصين وتستخدمه اداة طيعـــة

لاغتيال الدوق .

واستطرد اللورد قائلاً :

- لقد اصيب اخي بمرض غريب لم يمهله سوى ثلاث ساعات وانني اتهم هذه المرأة الشريرة بانها قتلته ايضا . ولذلك اطلب ان تنفذ العدالة حكمها .

وخبأت ميلادي وجهها بين يديها محاولة ان تستجمع افكارها المضطربة .

واخيرا جاء دور آتوس ، فقصّ على رفاقه مأساته مع هذه المرأة وكيف خاصم أهله واقاربه من اجلها ، فاتضح له بعد ذلك انها أمرأة مجرمة تحمل سمة المجرمين على كتفها ...

فصاحت ميلادي في وقاحة :

- انني اتحداك ان تذكر اسم المحكمة التي حكمت علي هذا الحكم الشائن ، واسم الشخص الذي نفذه .

وهنا انبرى الرجل ذو الرداء الاحمر وقال بصوت رهيب :

- اسمعوا ايها السادة فهذه المسألة تتعلق بي .

وخطا الرجل خطوات متزنة نحو ميلادي ، ولما اصبح علـى مقربة منها لا يفصله عنها الا المائدة مدّ يده الى قناعه وانتزعه عن وجهه بسرعة . وحدقت ميلادي برهة في ذلك الوجه المخيف ، وما لبثت ان صاحت برعب وهي تنهض من مقعدها وتتراجع نحو الحائط لتستند اليه خشية السقوط :

- لا ... لا .. هذا مستحيل ان عيني تخدعاني !

فبانت الدهشة والحيرة على وجوه الحضور وصاحوا بصوت

واحد :

ـ ولكن من انت ايها الرجل ؟!

فأجاب الرجل ذو الرداء الاحمر بهدوء

ـ اسألوا هذه المرأة ، وقد رأيتم انها عرفتني

فصاحت ميلادي بصوت مبحوح وقد التصقت بالجدار تفادياً من السقوط :

ـ انه جلاد . . . « ليل » . . .

فتراجع الجميع ، وبقي الرجل وحده في وسط الغرفة

ورددت ميلادي وهي ترتمي على ركبتيها :

ـ الرحمة . . إصفح عني . .

وسكت الرجل ريثما ساد السكون التام ثم قال :

ـ نعم انا هو جلاد « ليل » فاسمعوا لاروي لكم قصتي مع هذه المرأة الماكرة :

كانت هذه المرأة فيامضى راهبة في دير القديس «بنديكتوس» في ضواحي بلدة « تامبلمار » وكان يتردد على ذلك الدير كاهن شاب يقوم بوظيفة المرشد للراهبات في اوقات الرياضة الروحية ، وبعد حين تمكنت من اغوائه واقنعته بالفرار معها من الدير . ولما كان ينقصهما المال الذي يساعدهما على الهرب الى جهة نائية من فرنسا لا يعرفهما فيها احد ، فقد دفعته الى سرقة بعض الاواني الكنسية الثمينة وبيعها . . الا ان رجال الشرطة تمكنوا من اكتشاف مقرهما والقاء القبض عليهما في الوقت الذي كانا يستعدان فيه للسفر . وطرح العاشقان في السجن بانتظار يوم المحاكمة ،

وتمكنت المرأة اللعينة من اغواء ابن السجان الذي سهل لها سبيل الفرار من سجنها . اما الكاهن المسكين فقد حوكم وحكم عليه بالسجن عشر سنين وبوسمه بسمة المجرمين .

وكنت في ذلك الحين جلاداً لمدينة « ليل » فاضطررت بحكم وظيفتي الى تنفيذ عقوبة الوشم بذلك المسكين ، الذي لم يكن سوى أخي !..

فاقسمت ان انزل بالمرأة التي أغوته نفس العقاب واجعلها تشاركه العار .

فتعقبت اثرها وبعد مشقات تمكنت من القاء القبض عليها ودمغت كتفها اليسرى بزهرة الزنبق .

وفي اليوم التالي لرجوعي الى « ليل » تمكن اخي من الفرار من سجنه ، فاتهمت بان لي ضلعاً في تسهيل سبيل فراره وحكم علي بالسجن بدلاً منه .

وكان اخي يجهل هذا الحكم ، وقد بحث عن رفيقته حتى اهتدى الى مقرها وهربا معاً الى مقاطعة « بري » حيث عين كاهنا هناك وكان الناس يعتقدون ان ميلادي شقيقته . وكانت الكنيسة التي يخدم فيها الكاهن الجديد ، تقع في املاك احد نبلاء تلك المقاطعة ، وشاءت الصدف ان يقع النبيل بحب الفتاة ويعرض عليها الزواج فتقبل وتفر معه .

وهكذا تخلت هذه المرأة الخائنة عن الرجل الذي ضحى في سبيلها بشرفه ومستقبله ، لتعيش مع الرجل الذي كتب له سوء الحظ ان يكون ضحيتها الثانية وأصبحت بين ليلة وضحاها

الكونتس دي لافير وعاد اخي الى « ليل » يائساً ، ولما علم بما نزل بي من مصائب ، اسرع الى تسليم نفسه فأعيد الى السجن وأطلق سراحي ، ولكنه في الليلة التي عاد فيها الى السجن انتحر شنقاً .

هذه هي الجريمة التي من اجلها دُمِغتْ بسمة المجرمين ..

وبعد صمت قليل قال آتوس موجها كلامه الى دارتنيان واللورد دي ونتر والجلاد :

ـ ما هو العقاب الذي تطلبون انزاله بهذه المرأة ؟

فأجاب الثلاثة بصوت واحد :

ـ عقاب الموت .

ثم سأل آتوس بورتوس واراميس :

ـ ايها السيدان ، ما هو العقاب الذي تطلبـــان لهذه المرأة ، استناداً الى الجرائم الفظيعة التي ذكرت امامكما ؟

فأجاب الفارسان بصوت أجش :

ـ عقاب الموت .

وهنا صرخت ميلادي صرخة هائلة ، وراحت تتمرّغ ضارعة متوسلة .

ومد آتوس يده اليها وقال بوقا

ـ يا شارلوت باكسون ، كونتة

إن جرائمك كثيرة تصرخ امام الله والبشر طالبة الانتقام ، فاذا كنت لا تزالين تذكرين بعض الصلوات فيمكنك تلاوتها في الحال لاننا قد حكمنا عليك بالموت .

وسقطت هذه الكلمات على اذنيها كالقضاء المحتوم ، وعلمت

انها فقدت كل امل بالنجاة ، فانتصبت واقفة محاولة الكـــلام ، ولكنها شعرت وكأن قوة خفية قادرة تمسك بشعرها وتجرّهـا جراً الى مصيرها المشؤوم، فلم تحاول المقاومة وسارت امام الجلاد صاغرة مستسلمة ، بينما سار اللورد دي ونتر والرفاق الاربعة مع خدمهم في اثرها .

٦٤

التنفيـــذ !...

•

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل عندما بلغ الموكب الصامت ضفة النهر ، فاسرع الجلاد من ميـلادي واحكم وثاق يديها ورجليها ، وكأن هذا العمل قد جعلها تدرك مصيرهـــا فراحت تصرخ بملء فيها :

ـ ايها الانذال ، ايها القتلة لقد تـألبتم جميعكم على قتـل امرأة ضعيفة ... كونوا على حذر ،فان قتلت ،فهناك من سيثأر لي منكم

وأجابها آنوس ببرود :

ـ ما انت امرأة ، بل انت الشيطان بنفسه أفلتِ من الجحيم ، وها نحن نعيدك اليه الان .

ـ لا تنسوا ان من يمسّ شعرة واحدة . من رأسي فهو قاتل سفاك ..

فانتهرها ذو الرداء الاحمر وقال :

ـ اما الجلاد فيستطيع ان يزهق روحك الخبيثة ، دون ان يكون قاتلاً ، فهو بحكم وظيفته القاضي الاخير المنفّذ .

وعادت ميلادي الى الصراخ وهي تحاول الافلات من وثاقها ثم عادت الى الضراعة والتوسل :

ـ اعفوا عني ... واعدكم بان انزوي في دير منعزل واغدو راهبة .

فهزها الجلاد وقال :

ـ ولكنك كنت في الدير وخرجت منه ، لتكوني سبباً في موت اخي وغيره من الابرياء .

قال ذلك وحملها بين ذراعيه يريد وضعها في القارب ، فصرخت بهلع قائلة :

ـ يا الهي هل تريد اغراقي وأنا على هذه الحالة ؟؟

ويبدو ان دارتنيان قد تحركت في صدره عوامل الشفقة والرحمة ، وخطا نحوها خطوة واحدة ، فما كان من آتوس إلا ان امتشق سيفه وسد عليه الطريق قائلاً :

ـ مكانك ياعزيزي دارتنيان ، ان هذه المرأة لاتستحق الشفقة .

ثم التفت الى الجلاد وقال :

ـ هيا ايها الجلاد ، قم بوظيفتك !

وأسرع الجلاد ينفذ الأوامر ، فحملها بين يديه وألقاها في قاع القارب ، وجلس الى جانبها ، وقبل ان يتحرك القارب تقدم آتوس من الجلاد ونقده مبلغاً من المال قائلاً :

ـ خذ هذا المال مقابل قيامك بهذا العمل ، لكي تعلم هذه المرأة

انما نقوم بدور القضاة العادلين .

فقال الجلاد :

ـ وانا ايضاً اريد ان تعلم هذه المرأة انني انفذ فيها هذا الحكم العادل ليس طمعاً بالمال ، بل قياماً بالواجب .

قال ذلك ورمى النقود في النهر .

وراح المركب ينساب ببطء متجهاً نحو الضفة الاخرى ، بينما شرع اللورد والفرسان الاربعة يتلون صلاة قصيرة عن نفس تلك المرأة .. وبعد حين ترامى الى سمعهم من الضفة الاخرى ضربة صماء ، فعلموا ان ميلادي اصبحت في عالم الاموات .

وبعد ذلك لفّ الجلاد جثة المرأة في ردائه الاحمر وألقاها في قعر النهر .

وبعد ثلاثة ايام عاد الرفاق الاربعة مع خدمهم الى باريس ، وفي المساء نفسه قصدوا الى قصر القائد دي تريفيل ، الذي تلقاهم ببشاشة وترحاب وسألهم :

ـ عسى ان تكونوا قد امضيتم اجازة ممتعة ايها الابطال ؟

فأجابه آتوس باسم رفاقه:

ـ نعم يا سيدي لقد كانت رحلتنا موفقة جداً .

الخاتمـــة

وبرّ الملك لويس الثالث عشر بوعده الذي قطعه للكردينال ريشليو، وعاد الى معسكر لاروشيل في السادس من الشهر التالي.

وكان نبأ مقتل الدوق دي بوكنغهام قد ذاع في انحاء فرنسا، ووصل الى مسامع الملك قبل مغادرته باريس عائداً الى لاروشيل.

اما الملكة آن دوتريش فلم تصدق الخبر الا عندما عاد رسولها دي لابورت من لندره حاملاً اليها كلمات الدوق الاخيرة والتذكار المؤلم الذي شاء ان يقدمه لها وهو يجود بانفاسه الاخيرة.

كان سرور الملك عظيماً لموت عدوه ومزاحمـــه على قلب الملكة، حتى انه لم يكلف نفسه عناء اخفاء سروره مراعاة لشعور الملكة، ذلك ان الملك لويس السادس عشر، كسواه من ذوي القلوب الضعيفة، كان ينقصه الشيء الكثير من كرم الاخلاق.

ولم يدم فرح الملك طويلاً، فما ان ابتعد عن باريس حـــتى عاوده القلق والانزعاج، لانه كان يشعر في قرارة نفسه ان عودته الى معسكر لاروشيل معناه رجوعه الى حياة السأم، فقد

كان الكردينال بالنسبة للملك ، الحيّة التــي تسحر العصفور الذي يحاول التملص فيطير من غصن لآخر دون ان يستطيع الافلات .

وكذلك كان حال الفرسان الاربعـة ، فقـد ادهش تصرفهم رفاقهم في الفرقة ، فقد كانوا في السابق يحبون المرح والدعابـة ، فاذا بهم بعد هذه الرحـلة الى باريس ، لا يفترقون عن بعضهم ، يسيرون جنباً الى جنب مطأطىء الرؤوس .

وكان الملك ينزل للاستراحة في كل مدينة يمر بها في طريقه ، وما ان يستقر في القصر المعدّ له ، حتى يبادر الفرسان الاربعة الى الانزواء اما في خيمتهم ، او في احدى الحانات ، يقضون الوقت في التفكير او في التحدث فيما بينهم بصوت منخفض .

وذات يوم ابدى الملك رغبته في صيد البجع ، فقرر الرفاق الاربعة كعادتهم ان لا يشتركوا في الصيد ، فدخلوا حانة قريبة من المكان وجلسوا فيها ينتظرون .

واذا برجل قادم من طريق لاروشيل ، ولما بلغ الحانة ترجل عن جواده ودخل وطلب كأساً من النبيـــذ ليروي عطشه ، وفيما كان ينتظر عودة الخادم ، حانت منه التفاتة في ارجاء الحانة ، فوقع نظره على الرفاق الاربعة وقد انصرفوا الى الحديث باهتمام ففرك يديه سروراً وصاح :

ـ أولست أنت الفارس دارتنيان ؟

وما كاد دارتنيان يسمع صوت الرجل حتى وثب نحوه وسيفه في يده ، اذ لم يكن الرجل سوى خصمه اللدود الذي اعترض سبيله في فندق « مينغ » وفي هذه المرة لم يفر الرجل المجهول هارباً

كعادته في المرات السابقة ، بل تقدم من دارتنيان بجرأة فبادره الفارس الشاب بقوله :

ـ واخيراً لقد التقيت بك ايها السيد ولن تنجوَ مني هذه المرة !.

فقال الرجل :

ـ انني مكلف بان ابحث عنك ايها الفارس ، وان القي القبض عليك باسم الملك !..

فقال دارتنيان بحدة :

ـ ولكن من انت يا هذا ؟

فأجابه الرجل بعظمة :

ـ انني الكونت دي روشفور ، مرافق نيافة الكردينال الخاص ، ولديّ اوامر صريحة بان القي القبض عليك واسوقك الى نيافته .

فبادره آتوس بقوله :

ـ نحن عائدون على كل حال يا سيدي الكونت الى حيث يقيم نيافته ، واظنك لا تشك في صدق وعد الفارس دارتنيان اذا قال لك انه سيمثل امام نيافته فور وصوله الى المعسكر .

فالقى روشفور نظرة سريعة حواليه ، فالفى بورتوس واراميس واقفين بينه وبين الباب وادرك انه بات تحت رحمة هؤلاء الرفاق الاربعة .

فقال روشفور :

ـ ايها السادة اذا كان الفارس دارتنيان يوافق على ان يسلمني حسامه ويقسم بشرفه بالمثول امام نيافته فور وصوله الى معسكر

لاروشيل ، فاني اكتفي بذلك .

فقال دارتنيان بهدوء :

ـ اني اعدك بشرفي ايها السيد ، وهوذا سيفي فخذه ..

فقال دي روشفور :

ـ اذن يمكنني الآن ان اتابع طريقي ...

فبادره آتوس ببرود :

ـ اذا كنت تسعى لمقابلة ميلادي ايها السيد ، فقد وصلت متأخراً ، فالافضل ان تعود ادراجك ، لانك لن تجد ا ؟

فسأل دي روشفور وقد بدا عليه الاضطراب :

ـ وماذا حلّ بها ؟

فاجابه آتوس بهدوء :

ـ عد الى المعسكر وستعرف ماذا حل بها .

وبعد تفكير طويل قرر دي روشفور العودة الى المعسكر ، ووجدها مناسبة لمراقبة دارتنيان خشية ان يفر .

وفي بلدة « سرجيير » إلتقى الملك بوزيره الكردينال ريشليو واظهر الملك سروره للنتائج الاخيرة التي حصلت اثناء غيابه ، وخاصة مقتل الدوق بوكنغهام .

ولما عاد الكردينال في المساء الى مقره ، وجد امام باب منزله الفارس دارتنيان ورفاقه الفرسان الثلاثة . وبعد ان القى نظرة عابرة ، اشار الى دارتنيان بان يتبعه ، فقال آتوس بصوت مرتفع سمعه الكردينال :

ـ نحن بانتظارك هنا يا دارتنيان !

وقطّب الكردينال حاجبيه وتوقف لحظة امام الباب، ولكنه ما لبث ان دخل الى منزله دون ان ينبس ببنت شفة .

وعندما اصبح الكردينال في حجرته اشار الى دي روشفور ان يدخل الفارس دارتنيان ، ولما وقع نظره على الفارس الشاب بادره بقوله :

ـ لقد امرت بالقاء القبض عليك ، فهل تعلم لماذا ؟

فقال دارتنيان بجرأة :

ـ كلا يا سيدي الكردينال ، لان الامر الوحيد الذي من اجله يمكن صدور امر نيافتك بالقـــاء القبض عليّ لم يزل مجهولاً منكم حتى الآن . . .

فرمقه الكردينال بنظرة حانقة وقال :

ـ وما الذي تقصده بهذا القول ؟

فقال دارتنيان :

ـ هل لنيافة الكردينال ان يطلعني على الاسباب التي استند عليها لاصدار الامر باعتقالي .

فقال الكردينال :

ـ لقد نسبت اليك تهمة الاتصال باعداء المملكة واطلعتهم على اسرار الدولة ، وحاولت افساد خطط القائد العام !..

فصاح الشاب بحدة :

ـ ومن الذي يتهمني بهذه التهم الباطلة غير ميلادي تلك المرأة الموسومة بسمة المجرمين من قبل العدالة ..؟ تلك المرأة التي لهـا زوج في فرنسـا ، وآخر في انكلترا !.. تلك المرأة المجرمـة التي

قتلت زوجها الثاني بالسم ، كما حاولت ان تقتلني شخصياً بالطريقة نفسهـــا !

فقال الكردينال بدهشة :

ـ ماذا تقول ايها السيد ، وعن اية امرأة تتحدث ؟

اجابه دارتنيان :

ـ اتحدث عن ميلادي او اللادي ونتر يا صاحب النيافة ، ولا شك انكم تجهلون جرائمها وماضيها عندما أوليتموها ثقتـكم !..

فقال الكردينال بصوت أجش :

ـ اذا كانت ميلادي مجرمة حقاً ، فستنال عقابها ..

فاجابه دارتنيان بجزم :

ـ انها مجرمة يا سيدي الكردينال ، وقد نالت جزاء ما تستحقه وهي الان في العالم الآخر !...

فردد الكردينال العبارة وهو لا يصدق ما سمعه :

ـ هل ماتت حقاً ؟!

فأجابه دارتنيان :

ـ اجل ماتت يا صاحب النيافة ، فقد حاولت اغتيالي ثلاث مرات ، وصفحت عنها ، ولكنها عندما قتلت المرأة الـتي احبها ألقيت القبض عليها مع رفاقي الفرسان وحاكمناها محاكمة عادلة ، وحكمنا عليها بالموت .

وراح دارتنيان يقص على مسامع الكردينال ، كيف عمدت ميلادي الى تسميم السيدة بوناسيو في دير راهبات الكرمليت ، ثم تفاصيل المحاكمة في الغرفة المنعزلة على ضفة النهر .

وسرت قشعريرة في جسد الكردينال لهول ما سمع ، وبعد ان صمت برهة من الزمن قال :

ـ اذاً فقد قمتم بأنفسكم مقام القضاة ، دون ان تفكروا بأن الذين ينتحلون صفة لا يحملونها ويحكمون على شخص بالموت ، هم قتلة مجرمون .. وثق ايها الفارس دارتنيان انك ستحاكم ، ويحكم عليك بالموت !

فقال الشاب بهدوء :

ـ ذلك لا يخيفني يا سيدي ، فاني احمل في جيبي وثيقة براءتي ..

فصاح الكردينال مندهلاً :

ـ وماذا تعني بوثيقة براءتك ، ومن الذي وقع هذه الوثيقة ، هل هو الملك ؟!

فبادره دارتنيان ببرود :

ـ كلا ، بل نيافتك !

ـ موقعة مني ؟ هل انت مجنون يا هذا ؟ !

ـ لا شك ان سيدي الكردينال يعرف توقيعه ..

قال ذلك وعرض على انظار نيافته الورقة التي انتزعها آتوس من ميلادي في الفندق ، فقرأ الكردينال ما ورد فيها :

« ان حامل هذه الوثيقة قد فعل ما فعله بأمر مني ولمصلحة المملكة .. ريشليو »

وبعد ان انتهى الكردينال من تلاوة الوثيقة ، غرق في تفكير عميق دام بضع دقائق ، ولكنه لم يعد الورقة الى الفارس دارتنيان

بل احتفظ بها بيده ، وراح يعبث بها بعصبية ظاهرة ، وأخيراً رفع رأسه وحدق بنظره الحاد بذلك الوجه النبيل الماثل امامه ، الذي يشع ذكاء وصراحة وإقداماً ، وقابل بها جرائم ميلادي ومقدرتها الهائلة وكل ذلك جمله يرتجف هولاً في قرارة نفسه .

وتوقف الكردينال ريشليو عند هذا الحد ، وبحركة لا شعورية راح يمزق ببطء الورقة التي سلمه إياها دارتنيان ، بينما كان الشاب ينظر الى هذا العمل بكثير من القلق ويحدث نفسه قائلاً :

« لقد هلكت ! »

وتقدم الكردينال من المائدة ودون ان يجلس تناول قلماً وخط بضعة أسطر على ورقة كان أكثر من ثلثيها مكتوباً من قبل ، ومن ثم ذيل الكتابة بتوقيعه وخاتمه .

وقال دارتنيان يحدث نفسه :

ـ لا شك انه يوقع الأمر باعدامي ...

ومدّ الكردينال يده بالورقة الى دارتنيان وقال :

ـ اليك بهذه ، وإذا كنت قد انتزعت منك وثيقة ، فاني ارد اليك وثيقة بدلاً منها ، وقد ابقيت مكان الاسم بياضاً فاكتبه انت بخط يدك .

فتناول دارتنيان الورقة متردداً وألقى عليها نظرة خاطفة .

وخيل اليه انه يحلم ، فبدلاً من ان يجد حكماً بالاعدام ، وجد براءة بتعيينه ضابطاً في فرقة الفرسان .

فأسرع دارتنيان يبدي لنيافته جزيل الشكر وقال بلهجة

صادقـــة :

ـ ان حياتي لك ياسيدي الكردينال ، غير اني لا استحق هذا التقدير ، فهناك اصدقائي الثلاثة وهم اجدر مني بحمل هذه الرتبة .

فقال الكردينال وهو يربت على كتف الشاب باعجاب :

ـ انك شاب شهم يا دارتنيان ، فافعل في هـــذه الوثيقة ما يحلو لك ، وتذكر دائماً انني اذا تركت مكان الاسم خالياً فانما فعلت ذلك من اجلك وحدك .

فقال دارتنيان :

ـ لن انسى ذلك يا سيدي ما حييت ..

والتفت الكردينـال ونادى مرافقه الخاص دي روشفور ، ولما حضر بادره الكردينال بقوله :

ـ اني اعتبر من الآن وصاعداً ان السيد دارتنيان هو من عداد اصدقائي المقربين ، ويهمني الآن ان اراك تحتضن دارتنيان وتتناسى ما بينكما من احقاد قديمة ...

فنفذ دي روشفور امر سيده في الحال واحتضن دارتنيان ولكن ما ان اصبحا خارج غرفة الكردينال حتى بادره دارتنيان بقـــوله :

ـ ارى من الافضل ان نلتقي قريبـــاً لنصفي ما بيننا من حساب قديم ..

فأجابه روشفور :

ـ دع ذلك للظروف ايها السيد دارتنيان ..

وفي تلك اللحظة برز الكردينال ريشليو من خلف البـاب ،

فأسرع كل منهما يتظاهر بالابتسام .

ولما عاد دارتنيان الى رفاقه الذين كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر في الخارج بادره آتوس بقوله :

ـ لقد طال انتظارنا ايها العزيز وكاد صبرنا ينفد !

فقال الشاب بلهجة مرحة :

ـ ها اني عدت اليكم ايها الرفاق ، ليس طليقاً فحسب ، بل مغموراً بانعام نيافته !

فقال آتوس :

ـ وستروي لنا ما حدث لك بالطبع ...

ـ سأفعل ذلك في هذا المساء ..

وفي المساء قصد دارتنيان الى شقة صديقه آتوس فوجده منصرفاً الى احتساء نبيذه المفضل .. فروى له بالتفصيل ما جرى له مع الكردينال ، واطلعه على الوثيقة التي حصل عليها من نيافته وقال :

ـ خذ يا عزيزي آتوس ، ان هذه الرتبة تليق بك .

فابتسم آتوس وقال بلهجته الندملة :

ـ ان هذا الانعام على الفارس آتوس قد يكون كثيراً ، ولكن للكونت دي لافير فهو اقل من القليل ... فاحتفظ يا عزيزي بهذه البراءة فهي لك دون سواك ، ولعمري فلقد دفعت ثمنها غالياً .

وانصرف دارتنيان من غرفة آتوس ، وقصد بورتوس ، فوجده واقفاً امام المرآة وقد ارتدى ثوباً جديداً ، ولما أحس بدخول

دارتنيان بادره بقوله :

ـ هذا انت يا عزيزي دارتنيان ، قل لي ما رأيك في هـــذا الثوب الجديد ؟

فقال دارتنيان :

ـ انه بديع جداً ، ولكني جئت اعرض عليك ثوباً اكثر ملاءمة لك .

ـ وما هو ؟

ـ ثوب ضابط في فرسان الملك !

وشرع دارتنيان يقص على صديقه مقابلته مع الكردينال ، ثم تناول الوثيقة من جيبه وعرضها على انظار بورتوس قائلا :

ـ خذ ايها الصديق واكتب اسمك في المكان الخالي ، وكن رئيساً صالحاً لي .

فأعاد بورتوس الورقة الى دارتنيان وقال :

ـ انني افاخر بان اصبح ضابطاً ، غير انني لا املك الوقت الكافي للاستمتاع بهذا اللقب الرفيع ، ولا اخفي عليك سراً فان زوج الدوق عشيقتي قد توفي منذ ايام ، وقد قررت ان اتزوج الأرملة ، ولهذا ارى ان تحتفظ بهذه الوثيقة لك فأنت جدير بها .

وخرج دارتنيان من غرفة بورتوس ، ليقصد صديقـه الثالث اراميس ، فوجده منصرفاً الى الصلاة ، فروى له مقابلته الأخيرة مع الكردينال ، ورجاه ان يقبل رتبة ضابط في فرقة فرسان الملك ، فابتسم اراميس وقال بلهجة مريرة :

ـ يؤسفني ايها الصديق ان اصارحك بأني لن استطيع تلبيـة

رغبتك ، فان مغامراتنا الاخيرة قد جعلتني انفر من صناعة السيف ، وقد اتخذت قراري النهائي بان انزوي بدير من اديرة الآباء اللعاذريين فور انتهاء حصار « لاروشيل » . فاحتفظ ايها العزيز بهذه البراءة لنفسك ، فأنت خلقت لأن تكون فارساً باسلاً.

وعاد الفارس دارتنيان الى صديقه آتوس ودموع الفرح والتأثر تجول في مآقيه ، فوجده ما يزال جالساً الى المائدة يداعب بين يديه آخر كأس من نبيذه الاسباني المفضل فقال له :

ـ وهما ايضاً لقد رفضا طلبي !

فقال آتوس :

ـ ذلك انه ليس فينا أحد أجدر منك بهذه الرتبة ، فاهنأ بها يا عزيزي ...

ثم تناول آتوس قلماً وكتب اسم دارتنيان على البراءة وسلمه اياها .

فقال دارتنيان والغصة في صدره :

ـ سأصبح بعد قليل وحيداً بعد ان تفارقوني جميعاً ولا يبقى منكم الا ذكريات أليمة تحز في نفسي .

وتهالك على مقعد ووضع رأسه بين يديه واخذ يبكي .

فقال له آتوس :

ـ هوّن عليك يا عزيزي دارتنيان ، فانت ما تزال في مقتبل العمر والذكريات الاليمة لا تلبث ان تتحول الى ذكريات عذبة .

•

وفقدت لاروشيل كل امل بالحصول على مساعدة الاسطول

الانكليزي بعد موت الدوق بوكنغهام ، فاضطرت اخيراً وبعد حصار دام سنة كاملة الى التسليم . وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول عام ١٦٢٨ ، وقعت وثيقة التسليم. وعاد الملك الى باريس في الثالث والعشرين من كانون الاول من السنة نفسها، فاستقبل استقبال الفاتحين ، وكأنه حقق نصراً ضد الاعداء وليس ضد مواطنين فرنسيين .

وما ان عاد دارتنيان الى باريس حتى رقي الى رتبـــة ضابط في فرقة فرسان الملك بموجب البراءه التي يحملها ، اما بورتوس فقد ترك الخدمة وتزوج ارملة السيد كوكينار عشيقته السابقة ، وقد وجد في خزانة زوجها مبلغ ثمانمئة الف دينار .

وحصل الخادم موسكينون على امنيته وهي ان يركب في مؤخرة عربة مذهبة .

اما اراميس فقد اختفى فجأة بعد رحلة قام بها لمقاطعة اللورين وعلم فيما بعد عن طريق عشيقته مدام دي شيفروز بانه انضم الى سلك الرهبنة والتحق بدير في مدينة نانسي .

ولحق بازان بسيده وارتدى ثوب الاخوة المبتدئين في الدير نفسه .

وظل آتوس فارساً في فرقة فرسان الملك تحت إمرة دارتنيان حتى عام ١٦٣١ ، حين قام برحلة مفاجئـــة الى تورين ، ترك بعدها الخدمة بعد إن حصل على ميراث لا بأس به في « روسيليون » . وظل غريمو ملازما لسيده آتوس حتى النهاية .

وبارز دارتنيان الكونت دي روشفور ثلاث مرات ، وفي كل مرة

كان يصيبه بجرح غير مميت .

وعندما مدّ دارتنيان اليه يده في المرة الثالثـــة ليساعده على النهوض قال له :

ـ لا بد ان اقتلك في المرة الرابعة .

فقال روشفور :

ـ أرى انه من الأفضل لنا نحن الاثنين ان نقف عنـد هذا الحد ، وثق بأني سأكون لك خير صديق من الآن وصاعداً ، وقد كان في استطاعتي ان اقول كلمة واحدة للكردينال فيأمر بقطع رأسك في الحال .

وتعانق الخصمان في هذه المرة عناقاً صادقاً .

وحصل بلانشيه خادم دارتنيان على رتبة جاويش في الحرس الملكي بفضل مساعي دي روشفور .

وكان السيد بوناسيو يعيش خالي البال غير عالم بما آلت اليه زوجته .

ولمـــا علم من احد معارفه ان زوجته قد اصبحت في عالم الاموات ، تذكر ان الكردينال ملزم بان يمنحه تعويضا عن فقد زوجته . ودفعه طمعه وبخـــله الى تذكير الكردينال ، فأبلغه ريشليو بواسطة احد اتباعه بأنه سيهتم بأمره .

وفي اليوم التالي خرج بوناسيو من منزله في المساء قاصداً قصر اللوفر ، ولم يعد الى منزله بعد ذلك اليوم . وفهم فيما بعد ان بوناسيو يعيش في احد القصور الملكية برعاية نيافته .

ـ انتهى ـ

فهرس

الاجزاء الثلاثة

صفحة

صفحة

هَـذا الكِتابْ

- رَائعَـةُ الكَاتِبِ الفَـرَنسيّ الكَبِير أَلكسَندَر دُومَاسْ .
- قِصَّـة الفرُوسِـيَّة وَالبُطولَـة في القَـرنِ السَّـابع عَشَـر .
- صُوَرُ صَادِقَـة لِحيَاة البَـلاَط الفَـرَنسي في ذلِكَ العَهْـد وَالصِّـرَاع العَنـيفْ بَـينَ السُـلطتَين المـدَنيّـة وَالرّوحيَّـة فيْ قَالَبٍ قصَصِيّ مُشَوِّق يَستَهوي القَـارِئ .